الدمعة الساكبة

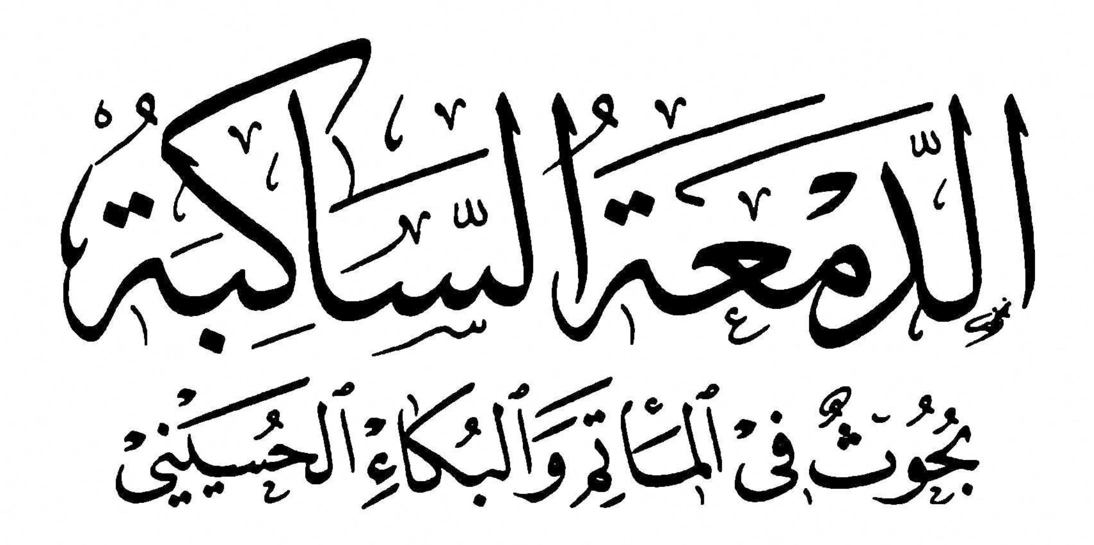
بحوث في المأتم والبكاء الحسيني



تأليف

الشيخ محمد جمعة بادي

دار الإمام
موسى
بن جعفر



الطبعة الأولى

1426هـ

تأليف

الشيخ محمد جمعة بادي



الكتاب	:	الدمعة الساكبة (بحوث في البكاء والمأتم الحسيني)
المؤلف	:	الشيخ محمد جمعة بادي
الصفحات	:	٤٤٧ صفحة
النسخ	:	١٠٠٠ نسخة
الطبعة	:	الأولى ١٤٢٦ هـ.
الإخراج	:	العسكري

يهدى ثواب هذا الكتاب

للمرحوم الحاج عبد الحميد عبد الرضا المطوع

فاتحة

ارفع جهدي القليل وأملي الكبير..

إليك يا حبيب القلب..

يا من ربّاني صغيراً، وتكفّلني كبيراً..

وأمدّني بعطفه ورعايته، وتفضّل عليّ بنظره..

وحباني بكرمه، وخصّني بزيارته..

يا مولاي الكريم، وسيّدي ومعتمدي..

يا أبا عبد الله الحسين عليه السلام..

وغاية أملي ورجاي أن يحظى إهدائي بالقبول والرّضا.

السّلام عليك يا صريع الدّمعة الساكبة، السّلام عليك يا صاحب المصيبة الراتبة، السّلام عليك وعلى جدّك وأبيك، السّلام عليك وعلى أمك وأخيك، السّلام عليك وعلى الأئمة من ذريتك وبنيك، أشهد لقد طيّب الله بك التّراب، وأوضح بك الكتاب، وجعلك وأباك وجدك وأخاك وبنيك عبرة لأولي الألباب، يا ابن الميامين الأطياب، التّالين الكتاب، وجّهت سلامي إليك، صلوات الله وسلامه عليك، وجعل أفئدة من الناس تهوي إليك، ما خاب من تمسك بك ولجأ إليك.



كربلاء المقدسة

صحن سيدي العباس بن علي عليه السلام

يوم عرفة ١٤٢٤ هـ

حـوار المقبرة

في صباح إحدى أيّام الجُمَع.. وقد كنت أحمل المصحف الشّريف بيدي وأتلو من آياته عند قبر المرحومة والدتي، في هدوء جليل وسكون مهيب، وصفاء مـخيّم على أجواء المقبرة، لا يُسمع إلاّ حسيس الريح ووطأ الأقدام الساعية بين القبور..

وما بين أجواء الصّمت هذه يتخلّل صوتُ تلقين يخترق سكونَ الفضاء من جهة حفرة قبرٍ يبعدُ عنّي ثلاثين متراً تقريباً، مشوب بهمس بعض المشيّعين وصوت بكاء بعضهم الآخر، وسرعان ما فرغ ذلك الجمع من تلقين الميت ودفنه ورشّ قبره بالماء، وإنقلب همسُهم إلى همهمة لا أفهم فحواها، وكان أن تطوّر الحال إلى رفع الأصوات بالجدال والخلاف، وأنا أسمع من بين كلماتهم.. حرام.. الميت يتعذّب.. بدعة.. لا تبكون..

عرفت فحوى الخلاف، إلاّ أنّني قرّرت حبس نفسي عن التدخّل بحسب ما كنت أشهد من واقع الحال، وحانت منّي إلتفاتة سانحة ففوجئت بأحدهم يشير إلى جهتي وكأنّه يقول: هذا الشيخ جالس هناك لنسأله عن الأمر.. فتسلّل شابّان من بين الجمع نحوي، وتقدّم شاب صبيح عليه سيماء الصلاح والدين وفي عينيه أثر الحزن والدمع، يقفو أثره شاب قد قصّر ثيابه وأطلق لحيته، فابتدرني الشّاب

قائلاً: السّلام عليكم شيخنا..

قلت: وعليكم السلام والرحمة، وعظم الله أجوركم.

قال: وأجوركم، جزاكم الله خيراً، ممكن سؤال؟

قلت: تفضّل..

قال: شيخنا.. الميت والدي، وهذ ابن عمي، وهو يمنعني من البكاء على والدي، ويقول أن بكائي على أبي يعذّبه في قبره، وأن عملي بدعة..

وسرعان ما قاطعه صاحبه قائلاً: يا شيخ، إنّه يرمي بنفسه على القبر، ويترّب نفسه، وهذا لا يجوز في دين الله..

قلت: إسمحا لي..

قالا: تفضّل..

قلت: الحزن القلبي مشروع على الميت، بل هو على الإنصاف ليس من مختارات الإنسان أصلاً، إذ ليس بيده أن لا يحزن حيال مسبّبات الحزن، كما أنّه ليس له أن لا يفرح عند حدوث موجبات الفرح، ولهذا فإنّ الله سبحانه لم ينه عباده عن الحزن على الميت، ولكنّه نهاهم عن الجزع، وأعيذك بالله سبحانه من الجزع الذي يحجزك عن التّسليم لأمر الله والقبول لإرادته، ويسوقك إلى قول ما لا يصح أو فعل ما لا يجدي..

والواجب عليك أن تكون صابراً محتسباً، مثال قول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[1].

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٥٦ و ١٥٧.

فقال: لا يا شيخنا، لم يصدر عنّي حتّى ما يشبه الجزع، لكنّهم يمنعوني من البكاء عليه، وأنا لا أستطيع أن أمسك نفسي وعيني عن الحزن والبكاء، ويقولون أن أبي يتعذّب ببكائي!! ويقولون أن القبر مجرّد مدفن، وليس للبكاء أو الزيارة..

وما كان من صاحبه إلاّ أن أكّد ذلك وقال مضيفاً: إن هذه الأمور بدعة، ولم يأت شيء منها في سنة رسول الله ﷺ، فاتّق الله يا شيخ، وعلّمه الحق، وأخبره أن الكلام مع الأموات شرك بالله، وطلب الحاجات منهم كفر بالله العلي العظيم، وما الفائدة في قبر لا يضرّ ولا ينفع!!

وهكذا راح يرفع صوته شيئاً فشيئاً.. أشبه ما يكون بخطيب قد رقى منبر الوعظ في مجمع أهل الضلالات والبدع، حتّى تجمّع باقي المشيّعين حولَنا، وقد اشرأبّت أعناقهم لكلامه..

فقلت: لحظة لحظة.. لا ترسل الأمر على عواهنه، ولا تخلط الأمور، والمقام يحتاج إلى بيان وبسط، ولا أعتقد أني سأشفي غليلكم بالجواب عن كل شيء في هذه الوقفة المختصرة، لأنّه خلاف طويل وقديم، لكني سأبيّن بحسب ما يسعني المقام..

فقال الشاب: بارك الله فيك شيخنا، تفضّل..

فقلت: أما البكاء على الميت فإنّه أمر مشروع في ديننا، واتفقت كلمة المسلمين على بكاء النبي ﷺ على ولده إبراهيم وأنّه أبّنه ونعاه، ولا خلاف في ذلك، وقد أمر النبي ﷺ المسلمين بالبكاء على عمّه الحمزة عليه السلام في حادثة معروفة، والبكاء أمر فطري جبلي، جُبل الإنسان عليه بمقتضى طبعه الرقيق وحزنه على الأشياء، ولا يمكن أن ينهاه الله تعالى عن شيء جبله عليه..

فقال صاحبه: نعم، لكنّه ورد في الحديث أن الميت يعذّب ببكاء أهله وهو في قبره، فهل مرّ بك هذا الحديث؟..

فقلت: أما أن الميّت يتعذّب ببكاء أهله عليه فسأقول اختصاراً إن الله تعالى يسمح لروح الميت بحسب مكانته من الإطلاع على أحوال أهله من بعد فقده، وفي بعض الأخبار الصريحة نهي عن اشتغال الإنسان بالتأسّف الذي يفوق الحدّ الطبيعي، وهو المفضي إلى أذيّة روح الميت عند زيارته له، وإلاّ فكيف يعذّب الله سبحانه إنساناً بفعل إنسان غيره!! وأقبح من ذلك أن يعذّب ميتاً بفعل حي، وأستغفر الله سبحانه من القول بذلك، وتعالى علوّاً كبيراً عن الظلم، وهذا أمر بديهي يدفع احتماله القليل من التأمّل!!

فكيف تعتقدون بذلك وأنتم تتلون وتحفظون قوله تعالى: ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى...﴾[١].

فقال: نعم، لكنّك تعلم كم يخطأ الناس في هذه المقبرة، وكم يشركون ويعبدون القبور، والحال أمامك تراها من عدم الإلتزام والمفاسد، ومع كلّ هذا تشجّع على زيارة القبور..

فقلت: صدقت في شيء وأخطأت في أشياء، وما الذي يضر بالسّنة والمندوبات إذا أساء البعض فعلها ولم يحسن أداءها على وجهها المطلوب، وعليك أن تعلم أن القبر ليس لدفن الميت فيه فحسب، بل هو حفرة للإعتبار والتأمل والتوبة والرجوع إلى الله تعالى، والمقبرة للأحياء قبل الأموات..

ومن هنا فقد شرّع الله تعالى مجموعة من السنن التي تعود نفعاً بالدرجة

---

(١) سورة فاطر: الآية ١٨.

الأولى على الأحياء، مثل التّشييع والتّلقين ومراسم الدّفن وحفظ القبر برفعه بالمقدار الشرعي، ذلك ليبقى ويزار، وقد نقل أهل السنة في كتبهم قول النبي صلى الله عليه وآله: زوروا القبور فإنها تزهدكم في الدنيا وتذكركم بالآخرة، وأحاديث أخرى كثيرة..

فقال: نعم، ولكن النّاس هنا يكلّمون الأموات، فاسمح لي يا شيخ في هذه، فإنّ هذه قلّة عقل وخُرق، فهل الأموات يسمعون حتى يكلموهم؟ وهذه وثنيّة لا تحتاج إلى إثبات!! وانظر إليهم يصرفون الجهد في رش قبورهم، أ فيشعر الميت ببرد الماء؟ ويجلبون معهم الأكل إلى المقابر، أ فهل تأكل الأموات ما يجلبون؟!.

فقلت: لا بأس عليك، فإن الكلام مع الأموات أمر وارد عن رسول الله صلى الله عليه وآله ونقله المسلمون كافة، فقد تحدّث صلى الله عليه وآله إلى كفار قريش في غزوة بدر لما طرحوا أبدانهم في القليب، حتى قال له المسلمون: أتكلّم الأموات؟ فقال صلى الله عليه وآله: ما أنتم بأسمع لي منهم!! فضلاً عن موتى المسلمين، وكانت سيرة أمير المؤمنين علي عليه السلام حافلة بالحديث مع الموتى والوقوف عليهم في جبانة الكوفة، وأي شرك والعياذ بالله في ذلك؟

وأما رشّ القبور فهي سنّة مروية عن أهل البيت عليهم السلام يتعبّد بها الناس دركاً للثواب، وهل تنكر فضل الماء؟ أم أنّك تدعي بلوغ علل الشرائع والأحكام كلّها؟ وكم من الأسرار كامنة في أحكام كثيرة قد نزهد بجهلنا فيها، فاتّق الله ولا تقل هجراً، وراقب الله تعالى في كلامك..

ومَن مِن العقلاء يجلب الأكل للأموات.. وهم لا يحتاجون سوى الدعاء والإستغفار وبركة القرآن والرحمة!! والمسلمون لا يختلفون في ذلك، لكن

المأكولات للناس يتصدّقون ببعضها أو يهدون بعضها بقصد التذكير بقراءة المباركة الفاتحة لأمواتهم، ليُتحَف بها الميت فتكون له أنساً في قبره، وأيّ محذور في هذا؟!

فقال الشاب: نعم.. رحم الله والديك، لقد اتّضح الأمر..

فقلت لهما: إن المواضيع كبيرة والنقاط متشعّبة، وأرجو أن أكون على هذه العجالة قد وفقت للإجابة على أسئلتكم.

فقال الشاب: نعم، لقد وفيت الجواب، وطيب الله أنفاسكم شيخنا.

لكنّ ابن عمّه رفع رأسه بأدب قائلاً: شكراً لسعة صدرك، لكنّنا نختلف معكم في الكثير مما قلت، فسِمَتُنا هي توحيد الله سبحانه وعبادته، وسِمَتُكُم التمسّح بالقبور والبكاء في الحسينيات، وشتّان ما بين السِّمَتَين!!

فقلت: أنت إذن من أهل السّنة؟

فقال: نعم، أنا وأخواني سنّة، وابن عمي هذا وأبوه المتوفى شيعة منكم..

فقلت: لا بأس، إنّه لا فرق بين السنة والشيعة وكل منهما أهل قبلة واحدة وكتاب واحد ونبي واحد، ولو اتبعتم أهل بيت نبيّكم ﷺ ـ والحال أنّكم لا تنكرون فضلهم ـ لكنتم شيعة، ولو تمسكنا بسنّة النبي ﷺ ـ والحال هذه ـ لكنّا سنّة، وهذه مسمّيات لا تفيدنا ولا تفيدكم إن كانت خاوية من الواقع..

ولو أنصفت وتأمّلت في كلامي لاقتنعت به قطعاً، ولو تجرّدت من أغلال فكرك لأصبت حقّاً، لأني لم أسق في حديثي معك إلاّ الدليل المدعوم بمصادر أهل السنة، ولم تجب عنها بشيء يُذكر، أ فهذا من الإنصاف؟

فقال: صدقت، ولكنّي أعرضت عن جوابك ليأسي من الإتّفاق، ولأنّنا سنبقى مختلفين حتى إذا تحاورنا وأطلنا، فالخلاف بينَنَا وبينكم كبير، وأنا أعلم كم أن الشّيعة يختلفون معنا في العقائد والأحكام، والأمر لن يتبيّن بهذه العجالة.

فقلت: الأمر راجع إليك، وواجبي أن أجيبَ في حدود علمي إذا سُئلت، وأرفع الشبهة بما أعلم إذا إستُشكل علي، وأمّا إذا كنتَ قد حكمتَ مسبقاً بعقم الحوار فلا سبيل يبقى للدليل والبرهان، ولا مجال معه لتجاذب الحديث أصلاً..

لكنّه بقي شيءٌ واحدٌ، وهو أنّك أثرت ونحن في خاتمة حوارنا موضوع الحسينيّات والبكاء على سيّد الشهداء عليه السلام، وهو موضوع محوري وحسّاس ومهم، ويمثّل بجذوره صلب الخلاف بيننا وبينكم، ويصعب على نفسي أن أمسك عن البرهنة عليه، إذ هي شعيرة نبوية مقدّسة، وكلّ أسفي أن وقتنا لا يسمح، ولا تتوفّر مصادر البحث هنا كي تراها أنت ومن بحضرتنا عياناً..

وأنا أقول بكل حُب وصدق أن سبيل الوصول إلى الحق لا زال أمامنا، عبر الحوار الهادئ بعيداً عن التشنّجات والأحكام المُسبقة، خصوصاً وأنّنا نتّفق على الكثير من الأمور، ويجمعنا القرآن الكريم والكثير من الأصول، ولسنا على هذا البعد الشّاسع الذي صوّرته، نعم، نحن نتفوّق على غيرنا بأئمة هداة معصومين من الزلل، قد نصّ عليهم جدّهم النبي صلى الله عليه وآله بأمر الله تعالى، ونتمسّك بهم ونعتقد بعصمتهم، وأمّا أئمتكم فهم من إختياركم أنتم..

فنظر إليّ وقد بدا متجهّماً ومتردّداً.. وقال: أمّا إذا فتحت الباب بنفسك فعندي سؤال في نفسي، فهل تسمح لي أن أستأنف الحوار في أمر مهم لأثبت لك أنّنا على طرفي نقيض؟

فقلت: تفضّل..

فقال: وهل أستخدم التقيّة في سؤالي، أم أسأل حرّاً؟

فقلت: بل حرّ بلا تقيّة طبعاً..

فقال: وما يضمن لي أنّ حضرتك ستلتزم بترك التقية في هذا الحوار،

وبالتالي سأكون معرّضا ـ ولتسمح لي ـ للخداع؟

فقلت: التقية دين ندين الله تعالى به عند الحاجة إليها، وأنا الآن آمن الضرر على نفسي والحمد لله تعالى، وقد قبلت باستئناف الحوار لظنّي فيك الخير، وما دمت تفكّر بهذه الطريقة الغريبة فإنّي أخوّفك الله تعالى كما أخوّف نفسي من أن يكون علمنا عدوّاً لنا يوم القيامة، فاتّق الله واطلب الحق..

وأمّا إن حسبت أنّك ستسقط ما في يدي وتحرجني بموضوع التقية فأنت واهم غافل، فالتّقية مبدأ أصيل وطبيعي أقرّه القرآن الكريم لّما استعمله الصحابي الجليل عمّار بن ياسر رضي الله عنه وحفظ به نفسه، فهل مرّت بك آية: ﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾[1]. وهل راجعت تفسيرها؟

ولسنا ممّن يدين الله تعالى بخلاف القرآن الكريم، مضافاً إلى أنّه قد استعملها كبار علمائكم ومصادركم تؤكّد ذلك، فأدر رحى حوارنا في ما يجدي وينفع، ولا تراوغ إن كنت تهدف الحق، وإلاّ فذر الحجّة في سنبلها ولا تتعرّض إلى العلم عبثاً ولهواً ولعباً..

فقال: عذراً يا شيخ، فليس موضوعنا التقيّة، ولم يكن قصدي إثارة حفيظتك، ولكنّي أريد أن أخلص معك إلى طريقة واضحة لا تقبل اللبس والتورية، ولا بدّ من أن نتّفق كذلك على منهج لا خلاف فيه بيننا ويمكننا الإتفاق عليه لتنجح المحاورة، فهل يضيرك أن يكون القرآن هو مرجع

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٢٨.

الخلاف الأوّل بيننا؟

فقلت: أما في هذه فقد أصبت، واختيارك صحيح من غير شكّ، فالقرآن الكريم هو مرجعنا في الاتفاق والخلاف بالدّرجة الأولى، وهو محلّ إتّفاق أهل القبلة جميعاً..

فقال: إذا كان كذلك فاسمح لي أن أسألك سؤالاً بسيطاً على مثال سؤالي الأوّل لنكون على منهج واضح وصريح، فأيّ نسخة من القرآن نعتمدها لتكون حجّة ومرجعاً في الخلاف بيننا؟!

فأدركت ما يرمي إليه فساءني قصده كثيراً، وانتابتني مشاعر قد عبّأتني بالخيبة، وأدركت أنّي أضيّع وقتي في عبثه ومراوغته، وتردّدت في الانسحاب، لكنّي لمحت في عين ابن عمّه الشّاب وسائر الجمع نظرات الترقّب، فآثرت المواصلة على رغم تعريضه بوجود مصحف لنا نحن الشيعة يختلف عن مصحف أهل السنة، أو ربّما يعني رمينا بتهمة التحريف، وقد تعوّدنا سماع هذه الفرية من بعض الجهلة وأعداء الدّين، فقرّرت أن أجيبه متهكّماً وأصيب منه المقتل..

فقلت: نعتمد في حوارنا على نسخة قرآن عائشة دون النسخ الأخرى!!

فتفاجأ بهذا الجواب الذي لم يكن يحسب حسابه أصلاً، وقد ظهرت آثار الغرابة والحنق في وجهه، فقال: وهل لعائشة نسخة خاصة من القرآن؟

قلت: نعم، إنّها النسخة التي أكل الدّاجن عشر آيات منها، وكانت قبل تلف الآيات تحت سرير عائشة!!

فقال: إتق الله يا شيخ ولا تقل هجراً، ولم نسمع بهذا الكلام إلاّ منك..

فقلت: أمّا إن كنت لم تسمع بهذا الحديث فهذا من تقصيرك، وأنت تتلو كتاباً ناقصاً محرّفاً بحسب نقلك المعتمد عندك..

إن كنت لم تسمع والحاضرون فاسمع إنّه قد روى ابن ماجة في سننه ومسلم في صحيحه عن عائشة أنها قالت: نزلت آية الرجم ورضاعة الكبير عشراً، ولقد كان في صحيفة تحت سريري، فلما مات رسول الله ﷺ وتشاغلنا بموته دخل داجن فأكلها!!

ومثل هذه الأحاديث من الكثرة بحيث لا تحصى عندكم، فهل وافقتني على جعل هذه النسخة كأساس في الحوار؟

فقال متلكّئاً: وما يثبت لي أن مسلماً قد روى ذلك؟ والذي أعلمه هو أنكم أنتم القائلون بتحريف القرآن ونقصه، وعندكم أحاديث تروونها عن أئمتكم تثبت ذلك..

فقلت متبسّما: بل رواها مسلم وابن ماجة، وتجدها في الإتقان للسيوطي، وهي أحاديث غير عزيزة في مصادركم.. وأمّا رمي الشيعة بفرية التحريف، فهي تهمة عمرها أكثر من ألف سنة، قد ارتفع صوت المخالفين علينا بها، ومع جدّهم فإنهم لم يعثروا على نسخة واحدة من هذا المصحف المزعوم الخاص بنا!! وهذا ابن عمك وهو شيعي وابن شيعي فهلاّ سألته أن يعطيك من نسخته المحرّفة كي تراها، أم هل ترميه بالكذب هو أيضاً..

فقال: ابن عمّي من عامة الشيعة، وإذا وجد هذا القرآن فهو عند الخاصة من علمائكم، وأمّا نحن فصحاحنا في الأسواق فانظر هل ترى فيها أثر تحريف القرآن كما هي عندكم، وإذا نقلت فانقل عن صحيح البخاري فهو عندنا يتلو القرآن في الإعتماد، وهو ثاني الوحيين!!

فقلت: إن شئت ذلك فاعلم أن البخاري ومسلم رويا أنه خطب عمر بن الخطاب خطبته بعد مرجعه من آخر حجة حجّها، قال فيها: إن الله

بعث محمداً ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل عليه الله آية الرجم، فقرأناها وعقلناها ووعيناها، فلذا رجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده، فأخشى إن طال بالناس الزمان أن يقول قائل: والله ما نجد آية الرجم في كتاب الله فيضلّوا بترك فريضة أنزلها الله..

فهل يمكنك أن تقرأ لي آية الرجم هذه!!

فقال: وأنتم عندكم كتاب فصل الخطاب وفيه آية الولاية..

فقلت: نعم إن عندنا كتاب فصل الخطاب، وفيه ينقل روايات كثيرة يؤدي ظاهرها إلى نقص القرآن، وهو خطأ كبير وقع فيه هذا العالم الجليل، وإن أكثر نقله في كتابه من مصادركم، ووقع في مثل خطأه الشيخ الخطيب في كتابه البرهان، وهو عالم مصريّ سنّي أزهريّ، لكنّنا لم نشهّر بأهل السنة وننسب إليهم القول بالتحريف لقول شاذ منهم، كما فعل بعضكم!!

والسبب هو إيماننا بأن علماء الفريقين بريئون من القول بالتحريف قطعاً، وأن أحاديث التحريف مخالفة لأصل الكتاب الذي نصّ الله تعالى على حفظه من العبث، ولا بدّ من طرح تلك الأخبار التي لا تنهض سنداً ولا تصمد أمام النقد وتعارض الأحاديث الصّحيحة الصريحة بحفظ القرآن الكريم، ولا يذهب إلى القول بها من العلماء إلاّ غافل أو مخطىء..

فقال: أمّا إذا برّأت ساحتنا من القول بالتحريف وهو الحق فإننا لا نبرّأ ساحتكم من ذلك، وقد أثبت في كلامك أنّ فيكم من يقول بالتحريف!!

فقلت: أنا لم أنف وجود أحاديث التحريف عندكم، ولكنّي أنفي قبول علمائكم وعملهم بها، كما هو الحال عندنا، وأمّا إذا كنت حريصاً على حفظ قدسيّة الكتاب المنزل فيجب أن لا تسقط حجيته بالإجماع المركّب..

فقال: وماذا يعني ذلك؟

فقلت: إنّه ليس من الدين أو العقل أو الحكمة أن نطعن في حجتنا الكبرى وكتابنا العظيم ونفتح باب القدح فيه بنسبة التحريف إلى أيّ فرقة وإن كانت قليلة من المسلمين، فكيف الحال إذا نسب ذلك إلى كلتا الفرقتين العظيمتين اللتين تحكيان الإسلام شئنا أم أبينا، أعني الشيعة والسنة، وأيّ إنسان يستطيع أن يدرس الإسلام إلاّ من خلال هذين الرافدين، فإذا رمينا بعضنا بذلك إنتهى سائر الناس إلى تأكيد التحريف بشهادتنا على أنفسنا، وانحرفوا بخطئنا عن جادة الصواب وسوء أعمالنا.

فقال: أ فهل أنتم ملتزمون بصحة القرآن والعمل به؟

فقلت: هذا أمر مفروغ منه.

فقال: ولكنّكم مجمعون على خلافه!!

فقلت: وكيف ذلك؟

فقال: فهل في القرآن الكريم يأمركم بالبكاء على الحسين، وهل يأمركم بترك المساجد والنياحة بالحسينيّات، وهل القبورية من القرآن في شيء؟

فقلت: المساجد بيوت الله تعالى والشيعة كالسنة يصلّون فيها والكلّ يدري ذلك، والحسينيّات محالّ ذكر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل بيته الطّاهرين عليهم السلام وفيها يتعلّم النّاس أحكام وهدي دينهم، وفيها يتأسّفون على ما انتهك من حرمات نبيّهم صلى الله عليه وآله وآله الكرام البررة، وهي من دور العبادة كمدارس طلب العلم قطعاً..

وعلى الجميع أن يعلم أنّنا ببكائنا على الإمام عليه السلام نتّبع القرآن الكريم إتّباعاً دقّيا، إذ أمرنا الدين باتّباع النبي صلى الله عليه وآله، واتفق المسلمون على أنّ أفعاله صلى الله عليه وآله وأقواله وتقريراته حجّة علينا، وأنّه لم ينطق عن الهوى وأنّه وحي في كلّ

سكناته ومشاعره وحبّه وبغضه، وهذا معنى العصمة التي يقرّ بها المسلمون له، وقد بكى رسول الله ﷺ على ولده الإمام الحسين عليه السلام مراراً، فهل مرّت بكم أحاديث هذا الباب؟

فقال متبسّماً: لا زلنا نسمع منكم الأعاجيب وربّ الكعبة!! وقد شارف وقت صلاة الجمعة، وأرجوا أن نختم الكلام قريباً، وما يضحكني إدّعاءاتكم الغريبة، فهل تعلم يا شيخ أن النبي ﷺ مات بسنوات كثيرة قبل مقتل الحسين؟ فكيف يبكي عليه!!

فقلت: فإذا ثبت عنه ﷺ ذلك!!

فقال ضاحكاً: سأكون عندها من أوّل حضور الحسينيّات، مع الباكين واللاّطمين!

فقلت: سبحان الله، ما أشدّ بعدك عن مناهل العلم والمعرفة، وهذه كتبكم قد عدّت بكاءه ﷺ عليه عليه السلام من دلائل النبّوة، واعتبرتها من أحاديث الغيب التي نبأ بها وصحّت فثبت بها صدقه في كونه نبيّا عن الله تعالى، وأنت تتهكّم عليها!!

وسأنقل لك عيّنة واحدة من تلك الأحاديث الشريفة تثبت بكاء النبي ﷺ عليه عليه السلام وتؤكّد قداسة تربته الشريفة.. فقد أخرج هذا الخبر الحاكم النيسابوري في موضعين من المستدرك على الصّحيحين وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة ومصادر أخرى كثيرة: مرفوعاً إلى أم الفضل بنت الحارث أنها قالت:

دخلت يوما على رسول الله ﷺ فوضعته يعني الحسين عليه السلام في حجره، ثم حانت منّي إلتفاتة فإذا عينا رسول الله ﷺ تهريقان من الدّموع، فقلت: يا نبي الله، بأبي أنت وأمي، ما لك؟ قال ﷺ: أتاني جبرئيل عليه السلام فأخبرني أن أمتي

ستقتل إبني هذا. فقلت: هذا؟! فقال ﷺ: نعم، وأتاني بتربة من تربته حمراء.

فوجم متفكّراً كأنّ على رأسه الطّير.. ولم يحر جواباً، ولم ينبس ببنت شِفَه، ثم صافحني بهدوء وانسلّ من بين الحضور، وتفرّق الجمع شيئاً فشيئاً حتّى لم يبق إلاّ القليل، ثم التفت إليّ الشاب وأبدى إستحسانه بما آل إليه الحديث مع ابن عمّه.

وأعرب المتبقّون عن وقوفهم على أحاديث جديدة لم تطرق أسماعهم أصلاً، وأعربوا عن استفادتهم من هذا الحوار على سرعته واختصاره.

إنّ هذه الأحاديث النبويّة وإن كانت معروفة مألوفة عند الكثيرين.. إلاّ أنّها غريبة جديدة على أضعافهم، وإن كثيراً من الأصول الإعتقادية وبراهينها مجهولة عند عامة الناس، والناس أعداء ما جهلوا، وبهذا فإنّنا نلتمس العذر لإخواننا الجاهلين بحقيقة الحال، مع الإعتراف بتقصيرهم بعدم تفرّغهم للإطلاع والفحص في كبريات مسائل الدين وموارد الخلاف فيها، مع توفّر سبل العلم والرشد.

إن هذه المحاورة عيّنة للحالة الموجودة في أوساطنا، تعكس طيوف المجتمع بخلافاته ومستوى وعيه، وتدعو العلماء لتجديد حمل العبأ الثقيل، بمعاودة التنقيب والرصد ونشر المعارف بالحكمة والموعظة الحسنة، وإرشاد الجاهل بالأبوّة والمسؤولية والحب..

لقد ودّعني المشيعون وانصرفت عنهم وغادرتهم ولم تغادرني أجواء المحاورة، فغادرت المقبرة بانطباعاتي الخاصة التي لم أتمكّن من أن أقبرها في سكون المقبرة، وسيطر عليّ هاجس البحث في هذا الموضوع المهم، فعامة النّاس لا ينكرون الحق إن واجهوا نوره، ولابدّ حينئذٍ من تسهيل عرض المصادر والبرهان للجميع، كي نمهّد لطلاّب الحق طريق العلم والهداية، وهو الواجب

الذي لا يختصّ بالعلماء وحدهم، بل يقع على كاهل كل مسلم، بنشر العلم حسب الإمكان والقدرة.

لقد آثرت أن أُحيي بعض تلك الرّدود بالبرهان والدّليل، فإنّه وإن كنّا قد طرقنا في حوارنا مقاصدَ شتّى، غير أنّي أحببت التقرّب إلى الله سبحانه وتعالى ببحث يختص بالبكاء على سيدي ومولاي الإمام الحسين عليه السلام ويعنى بنشأة وتأريخ المأتم الحسيني، يكون جامعاً للنقاط المهمة والأدلة.

لقد وفقني الله تعالى بفضل جلوسي عند قبر المرحومة أمّي لنيل هذا التوفيق الكبير، ولطالما قد ألهمتني الخير في حياتها، وكانت خدمة سيّد الشهداء عليه السلام وصيّتها لي قبل وفاتها، فوفقني الله سبحانه لما أأمل أن يكون مفيداً في هذا الباب، فوضعت قلم البحث في رياض هذا البحث المونقة، وأسميته الدّمعة السّاكبة، وضمّنته بحوث البكاء والمأتم الحسيني، وجذوره الإنسانيّة والدّينية، ورتّبته على المقدمة التي بين يديك، وأبواب خمسة، تيمّنا بالخمسة الطّاهرين أصحاب الكساء عليهم السلام..

الإنسانيّة والشّهيد..

سيّد الشّهداء..

مأتم الحب والوداد..

السّنّة النبويّة..

سيرة أهل البيت عليهم السلام..

وقد تشعّب البحث في الفصل الأخير واتّسع، فآثرت أن أفرد أبوابه في كتابٍ مستقل، يضمّ بين دفّتيه بحوث الشعائر الحسينيّة، وأسميته المصيبة الرّاتبة، أي الثّابتة، وأملي أن يجد سبيله إلى النّور قريباً..

وأسأل الله الكريم أن يلهمني الخير، ويكون جهدي خالصاً لوجهه الكريم، لينفعني به يوم لا ينفع مال ولا بنون، وأن يجعلني وجيهاً بالحسين عليه السلام في الدّنيا والآخرة، ويرزقني زيارته في الدنيا وشفاعته بالآخرة، ولا يفرّق بيني وبينه طرفة عين أبداً، إنّه وليي ورجائي.



الفَصْلُ الأَوَّلُ

الإنسانية والشّهيد

الموت والحياة

الموت هو آخر قنطرة يجتازها الإنسان في مسيرته الحياتيّة المضنية، والفناء هو السّبيل الأخير للبشر أحبّوا أم كرهوا، وهو منتهى الإنسان في دنياه الزائلة، وهو المرفأ الأخير لسفينة آماله وآلامه، لا يختلف فرد عن فرد مهما جلّ أو شرف، فهو المرض الأخير الذي ينشب أظفاره العاتية في بدنه المهيض..

والموت آخر علة — يعتلّها البدنُ العليل

غير أن الموت وبحسب الإعتبارات والحيثيّات يعدّ ولادة في بعض الأحيان، ويعتبر حياة وخلوداً وفخاراً ومجداً في أحيان أخرى، كما أن الحياة تعدّ موتاً في بعض الحالات كذلك، كما إذا صوحبت بالذلّ أو الضلالة، فكم من حياة ملهمة تتفجّر من قبر، وكم من قبر يمشي على الأرض..

هم موتى النفوس بغير دفن — وأحياء عزيزهم ذليل
يغطون السّماء بكل كف — لها في الطول تقصير طويل
ويبدون البشاشة من وجوه — كوارب دونك الحجر الصقيل
كمثل السجن في الدولاب يعلو — صعوداً والصعود له نزول

وقد قيل:

ليس من مات واستراح بميت — إنّما الميت ميّت الأحياء

فالإنسان معرض لصور متعدّدة من أشكال الموت، يختار منها ما يحب بحسب همّته ورغبته، وبحسبه تكون الإبادة أو الولادة..

أشكال الموت

إذا تجرّدنا من الهيمنة الدينية على فكرنا وأردنا أن نصوّر أشكال الموت بحسب إنسانيّتنا وبما يحيطها من اللوازم، وبمقتضى المشتركات البشرية التي تجمع بني آدم، فإنّنا سنتدرّج في تصويرها هذا التدرّج المنطقي.

فغالباً ما يكون الموت على شكله المعتاد الذي يعرفه الجميع، ومنتهى تعريفه أنّه نهاية الحياة المعتادة، كما أن ولادة الإنسان هي بداية الحياة المعتادة له كذلك، وتنتهي حياة الإنسان بتوقّف دقّات قلبه وبانسلال روحه من بدنه بشكل طبيعي، بعد قضاء برهة زمنية من الوقت في الحياة هي أشبه ما تكون بالرؤيا التي يراها النائم.

ثم سرعان ما ينصرم حبل الحياة من دون عارض أو مرض، فلا يعدّ هذا الشكل من الموت عاراً ولا فخاراً لميت أبداً، ولا يستحقّ بالتالي أيّ أسف عميق، بل يتبعه بحسب العادة حزن مؤقّت.

وإذا تدرّجنا في أشكال الموت حدانا الكلام إلى الموت فتكاً، وهو إنتهاء دقّات القلب وخروج الروح من البدن إختراماً بشكل غير طبيعي، بعد قضاء برهة زمنية من الوقت في الحياة مريضاً عليلاً مثلاً، أو بعد صراع مع وباء قاتل ينتهي بالفتك به، أو بكارثة طبيعية أو غير طبيعية، كوقوع زلزال أو سيل أو نحو ذلك.

وليس في هذا الموت عار ولا فخار أيضاً، ويستحق هذا الميت نصيباً من الأسف والحزن والحسرة، لتلف نفسه وتألّمها وعذابها قبل الموت، والإنسان عادة ما يألم للإنسان بطبعه، وخصوصاً حيال إخترام الحياة بالموت في هذه الصورة.

ثمّ تترادف الأشكال حتى تصل بنا إلى صورة الموت قتلاً، بانتهاء دقّات القلب وخروج الروح من البدن بجناية القتل وجريمة الإعتداء، كما يحدث ذلك دائماً ونقرأه في الصحف في كل يوم، سواء كان ذلك بقتل النفس أي الإنتحار، وهو أحط أنواع الموت وأرذلها، ويدخل فيه المخطئون عمداً في حقّ أنفسهم والمغامرون بأرواحهم المتسببون بحوادث موتهم وهلاكهم.. أو كان قتيلاً بيد الغير، بجرم أو غير جرم، فإن كان قد قتل بجرم إرتكبه فلا يستحق أكثر من أسف مؤقّت، كما هي العادة غالباً، وأمّا إذا كان قد قتل مظلوماً بغير جرم فهو يستحقّ الأسف والبكاء والحزن، وبحسب قضيّته وشؤون مقتله تبقى صورة قتله ماثلة في مجتمعه كعبرة ترمز إلى معان باعثة إلى سلوك معيّن.

أما الموت شهادة فهو إنتهاء دقّات القلب الذي نعرفه لتبدأ في نفس الوقت إنطلاقة الحياة الواقعيّة الحقيقية، وهو الموت الذي يحرّك له الإيمان والهدف المقدّس والغاية الإنسانية النّبيلة السامية المقدّسة عند جميع البشر..

ويتجاوز الشّهيد جلّ الصعاب والأخطار المحدقة به في طريق تحقيق ذلك القصد الشريف، حاملاً القيم والإختيار والوعي وقدسية الهدف وبطولة العمل والإفتخار شعاراً ودثاراً، يفعل بدمائه المعاجز المتنعة، بهدوء وتواضع، وهو شاخص ببصره إلى الفضيلة والكرامة، ناظراً إلى أمته وهمومها، مفرّغاً غاياته من أي ميل ذاتي شخصي أو رغبة مؤقّتة محدودة ضيّقة الأفق..

فهو يستحق بعطائه الحياة والخلود والذكر الجميل عن جدارة، ومن محاسن البشرية ومتّفقاتها تقييم سخاء الشهيد وتعظيم كرمه، فتترجم جميع الأمم تقديرها له بالإكبار والإحترام والتبجيل، مهما اختلفت الملل والنحل أو ابتعدت الأقطار والدول.

منطق الشّهادة

يقول العظماء في الحياة بأفعالهم أضعاف ما يقولونه بألسنتهم، كما أنّهم يختصرون بفعلهم الواحد المئات من الأقوال، ويختزلون في قليله أعظم المعاني، ولكلّ منهم منطقه المعيّن وأسلوبه الخاص به المتناسب مع شأنه، ولكل معاييره ومقاييسه بحسب عظمة قضيته وأهميّتها، وهكذا علّمتنا مدرسة الأيّام والتاريخ وانعكست مرآة حقائق الزمان..

أمّا الشّهيد فقد استوعب كلّ معاني العظمة، ففاق العظماء بقضيته وأسلوبه، فمنطقه لا يقاس بمنطق أفراد النّاس مهما عَلَوا كعباً، وهو الذي يعبّر عن منطق العشق ومنطق المصلح معاً، العاشق لربّه المحب للقائه، والمصلح الذي يتألّم للإنسانية والمجتمع ويعيش هموم أمّته لينهض بأعباء الذبّ عنها..

فلو مزجنا نفسية العاشق الهائم في ذات الله تعالى بنفسيّة المصلح الذي يتفاني في أمّته لأفصحت النفسيّتان عن منطق الشّهادة بمفهومها الأروع الأقدس.

فهو يحكي بدمائه قضيته التي ضحّى من أجلها، وتفنى الليالي والأيام

وتبقى كرامته شاخصة بشموخها ما كرّ الجديدان، ويبقى فيض دمه يروي قضيّته، ويستمر وريده في رواية مُثُله التي من أجلها استشهد، فهو منطق حيّ المعين، دفّاق بالحياة على مرور الأيّام والسنين، لا يعرف الفناء والبلى.

الميت الحي

وتتفق البشرية ـ وطالما قد اختلفت ـ في ملامح تعاملها مع قضية الشهيد في جهات عدّة، فهو الميت الوحيد الذي تتفق على التعامل معه تعاملها مع الأحياء، وكأنّه في عيون البشريّة مشرف على عالمنا من خارجه ولكنّه راتع في معين الحياة الذي لا ينضب، والأحقّ أن تعدّ حياتنا دونه بمراتب، وقد أكّد الفكر الإسلامي هذه الحقيقة تأكيداً دقيقاً، منسجماً مع الفكر البشري العام حيال قدس الشهيد ومكانته.

فالشهيد في دار كريمة قابضٌ بزمام الحياة المطلقة، منعّم بأكناف مصدر الحياة (الحيوان)، وحياته الأخرى تأبى أن تقاس بها حياته الدّنيا، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[1].

فحياة الشّهيد بعد إنتقاله إلى النشأة الأخرى أمر متّفق عليه، وشعورٌ إنساني عام، ولعلّ جذوره الطّبع الغالب المحبّ للفضيلة والكرامة المغروس في النفس

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٦٤.

الإنسانية، وربّما يكون قد تأسّس في أعماق النفوس مترسّباً من تعاليم الأديان..

وقد تعزّزت حياة الشهيد في الفكر الإسلامي حتّى بلغ بالخطاب القرآني أن يجزم بحياتهم، وينهى عن اعتبارهم أمواتاً، وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[1].

وطالما قد اعتبر الإنسانُ الشّهيدَ شعاراً يرمز للعظمة والقدس والكرامة، ونفذت قضيته عبر الأجيال المتعاقبة رغم العوائق معبّرة عن قوّتها الخارقة، وقوبلت بالإجلال والدّمعة الساخنة، رأفة ورحمة لما ارتكب من هتك للشهيد، وتوجّعاً لما أريق من دمه، وتجسيداً للإعتراف بعطائه وكرمه، وتوحّداً بشخصه وذاته، وعهداً لحمل قضيّته وفكره، وحرباً على الظّلم الذي اعتدى على غاياته وأهدافه المقدّسة.

سيرة البشر

الإعجاب بالعطاء الإنساني المثمر سمة الإنسان العاقل المتحضّر، لا يحدّه ظرفٌ مكانيّ أو زمانيّ محدّد، ولا يمكن أن ترى أمّة متحضّرة إلاّ وكان في عمق ثقافتها تكريم الشّهيد القدوة، كنوع من حفظ الحق والإعتراف بالجميل وتعظيم العطاء، والإنسان يتعامل مع كلمة الشّهيد تعاملاً قدسيّاً، ويراها مؤطّرة بإطار

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٦٩.

من نور وضّاء، محاطة بهالة من القدس والإجلال، وهذا حكم عامٌ على إختلاف الإنسانية في موازينها ومقاييسها.

ولّما اتفقت الإنسانية على تكريمه إختلفت سيَرهم وعاداتهم في إبداء وإظهار الإعجاب بموقفه العظيم، وأخذت صوراً متعدّدة، بين نثر الكلمات الدّافئة، ونظم القصيد الساخن، وصياغة المؤلّفات والمصنّفات، وعقد المنتديات، والبكاء عليه، ووضع أكاليل الزهور على قبره، والوقوف على نصب يرمز إليه، كضريح الجندي المجهول، أو كلّها معاً.

ومعروف عن كثير من الأمم ـ ومنهم الإغريقيون ـ أنّهم يصنعون لمحاربيهم وأبطالهم الذين قتلوا في الحروب تماثيل في سوح مدنهم وباحات عواصمهم، والغرض منها تخليد ذكرهم وشحذ النفوس لتكريمهم والتغني بأمجادهم الوطنية، وفي تاريخ اليونان وأساطيرها الشيء الكثير من هذا الإهتمام والتكريم، فتاريخ روما مملوء بأساطير حيكت عن الأبطال والمحاربين تؤكّد مكانتهم في النّفوس، وتلاحظ هذه السيرة حتّى في الأمم المنكرة للبعث أصلاً!!

معبّرين عن فخرهم وزهوهم واعتزازهم، بعطائه الوافر الكبير، وهم بهذا يرسّخون روح العطاء والبذل في نفوس النشأ، عند التكهرب والتأثّر بروح المحارب القوية المعطاءة الكريمة، لتبعث نفوسهم إلى العزة بتجدّد وحرارة، وبهذا يضمنون لعقبهم التأثّر الإيجابي للسّير في طريق العطاء والمجد الأثيل.

ويذهب الباحثون في التاريخ اليوناني إلى أن الآلهة اليونانية أصلها الأبطال المحاربون، وقد تطوّر الأمر بعد تغنّي الأمة ببطولاتهم شيئاً فشيئاً، ثم نسجت حولهم الأساطير، وتدرّج الإكبار إلى الغلو، فكان أن عُدّت تلك الشّخصيات المحترمة مع الأيام آلهة ترمز إلى القوى والعطاء وتبعثهم على

المضي في البناء والتقدّم[١].

ونحن وإن شجبنا هذا المنحدر السحيق الذي أودى بعقول هؤلاء إلاّ أنّنا نخلُصُ إلى مكانة المحارب والشهيد عندهم، كما أنّه عند البشريّة، ويرتبط هذا الشعور الإنساني الموحّد بوجدانه ارتباطاً وثيقاً، وينطلق من مبدأ الشعور بالحق الكبير للمحارب والشّهيد، وقد استوجبه على الأمّة بعطائه وصِلاته ذات الآثار العظيمة.

بل إنّ حتّى خَدَمة البشريّة باختراعاتهم وإنجازاتهم وعلومهم وفلسفتهم وفضلهم يشعرون بهذا الإمتنان الجزيل له أيضاً، لِما أتاحَهُ لهم بفضل دمِه من أجواء دافعة لعجلة التقدّم لتحصيلهم ما حصّلوا.

وممّا يثير العجب هو أنّ هذا الإجلال والتقدير للشهيد لا يختصّ بأمّته، بل يتجاوز ظرفيه المكاني والزّماني، فالشّهيد مقدّس عند الإنسان تحت أيّ لواء انضوى، وتحت أي مظلّة لج.

أصحاب الكهف

يمكننا أن نلمح في الطرح القرآني صورة بهيجة من صور التكريم لأهل الإيمان بعد مضيّهم، فقد نقل القرآن الكريم قصة أصحاب الكهف نقلاً تأريخياً مهمّاً، وأقرّ الوحي في سياق القصّة تكريم أبطالها ولم ينكر على مكرميهم ذلك،

(١) راجع التاريخ اليوناني للدكتور عبد اللطيف أحمد علي، ج ١ ص ١٨٢.

بل الآيات دالّة على تشريع ذلك وسنّه كخلق إنساني رفيع، دافعه الوفاء وحبّ أهل الدّين..

لقد إنتهى أهل التوحيد في ذلك الزّمان الغابر وفي الحقبة السحيقة من تاريخ البشريّة الطويل إلى اتّخاذ قبور صالحيهم مسجداً بصريح الآية التي لا تقبل اللبس، كنوع من التكريم والإحترام لهؤلاء الفتية الذين آمنوا بربّهم وفرّوا بدينهم بعد أن لاحت كرامة الله تعالى ساطعة على أحوالهم، وبذلك نستفيد أصل مبدأ التكريم للشّهداء الذين يتفوّق عطاؤهم على هؤلاء..

وقد عوّدنا القرآن الكريم ضرب الأمثلة للقضايا الحساسة، فهو دائما يذكر نماذج تاريخية لتجسيد الوعي في قضية تضمّ مختلف الدّروس والفوائد، ويمثّل أصحاب الكهف الأنموذج والأسوة بحسب الطرح القرآني، فهم مجموعة من الفتية الأذكياء المؤمنين، وكانوا يعيشون في ظل حياة مترفة بالزينة وأنواع النعم إلاّ أنهم انسلخوا منها لحفظ عقيدتهم وللصراع ضد طاغوت زمانهم، وفرّوا بدينهم إلى غار في كهف خال من جميع النّعم، وضحّوا تضحية كبيرة في سبيل الإيمان والثبات عليه.

قال تعالى في سورة الكهف: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ❖ إِذ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ❖ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾[1].

إلى أن قال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا إِذ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ

---

(١) سورة الكهف: الآيات: ٩ و ١٠ و ١١.

بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾[١].

وسرعان ما انتشرت قصة غياب هؤلاء الفتية وأنباء هجرتهم، حتّى أغاضت الملك الظالم بشدّة ، لأنّه قدّر أن تكون هجرتهم باعثة لوعي الأمة، الأمر الذي كان يأباه، ثمّ أنه احتمل ذهابهم إلى مناطق بعيدة منها يعملون على إرساء دين التوحيد ومحاربة الشرك والوثنية، ما يهدّد عرشه ومتبنّياته، فأصدر تعليماته بالبحث عنهم في كل مكان حتى إلقاء القبض عليهم ومعاقبتهم..

لكن جنوده لم يعثروا عليهم، ولم يظفروا حتّى بآثارهم، وتحوّل أمرهم إلى لغز يشدّ العامة في أحاديثهم، فقيام مجموعة من ذوي المناصب والمتنفّذين بترك مواقعهم وتعريض أنفسهم للخطر هو سببٌ ليقظة النّاس ووعيهم..

وبقي النّاس يتداولون هذه القصة ولم ينسوها إلى ثلاثمئة سنة، حتّى أفاق الفتية وأرسلوا أحدهم على تستّر ليشتري لهم طعاماً ظنّا منهم أنّهم لبثوا يوماً أو بعض يوم، ولم يكن ثمّة طريق إلى حلّ اللغز ومعرفة مكانهم إلاّ بشخوص ذلك الفتى إلى القرية..

ودخل الفتى إلى المدينة فاغراً فاه من عجبه ، فكل شيء قد تغيّر فيها، والخرائب صارت قصوراً ، وخامره شكّ لوهلة وظنّ أنّه لا يزال نائماً، وتبيّن له أن ما رآه هو الحقيقة.. لكنّه لا يزال يعتقد أنه وأصحابه ناموا في الغار يوماً أو أكثر، وكان منظره ومنطقه عجيباً فلفت أنظار النّاس فقام بعضهم بمتابعته.. وما أن مدّ يده إلى جيبه ليسدّد مبلغ الطّعام الذي اشتراه حتّى وقع نظر البائع على قطعة النقود الأثرية التي مضى عليها ثلاثمئة سنة وإسم دقيانوس الملك

---

(١) سورة الكهف: الآية ٢١.

الجبار مكتوبٌ عليها!!

فلم يكن بالبعيد حتّى عرف أهل المدينة أن هذا الفتى ضمن تلك المجموعة المفقودة الغائبة التي توارث المجتمع قصّتهم العجيبة ، وكان أن عرف الفتى أنه وأصحابه كانوا في نوم عميق وطويل، وانتشر خبر القصّة في المدينة إنتشار النّار في الهشيم..

وكان على النّاس حاكم صالح ومؤمن فبلغه خبرهم ، وسرعان ما صارت القصة دليلاً عند النّاس على إمكان المعاد الذي كان طائفة كبيرة منهم يستبعدونه أصلاً، وكانت لقصّة الفتية بالغ الأثر في تقريب فكرة المعاد وقبولها عند النّاس..

ثم أنّ الفتى عاد أدراجه إلى الكهف وأخبر الفتية بما أثار عجبهم ودهشتهم، فصعبت عليهم الحياة بعد فقدان الأهل والأولاد والأصدقاء والأخوان، فطلبوا من الله تعالى وابتهلوا أن يميتهم وينقلهم إلى جوار رحمته، فاستجاب لهم.

وما وصل أهل المدينة إلى الكهف إلاّ وكان الفتية يغطّون في نوم أبدي، وسرعان ما وقع النزاع بين أنصار المعاد وبين منكريه، فالمنكرون يريدون أن تُنسى قصّة فتية الكهف هذه بالقضاء على دليل المعاد القاطع ، فاقترحوا أن تغلق فتحة الغار ليكون بعيداً عن أعين الناس إلى الأبد، ويموت ذلك اللغز بموتهم.

أمّا المؤمنون الحقيقيون العارفون بالله تعالى فإنّهم أرادوا تخليد القضية للتأكيد على المعاد الجسماني من جهة وتكريم هؤلاء النفر الموحدين المؤمنين من جهة أخرى، فاقترحوا أن يتخذوا على مكانهم مسجداً ، حتّى يتعبّد الناس بجوارهم، ويُتبرّك بآثارهم، ويتقرّب إلى الله سبحانه بهم، فطالما مُنحوا عناية الله تعالى في هذا المكان.

ولقد قرّر محبّوهم بناء مسجد بجوار مقبرتهم، وكان رأيهم الغالب ، وقد

ذكر القرآن الكريم ذلك بلهجة تنم عن الموافقة ، وهذا يدلّ على أن بناء المساجد لاحترام قبور عظماء الدين ليس بالأمر المحرّم كما يظن بعض الجاهلين، بل هو مشرّعٌ ومحبّذ ومطلوب.. فبناء الأضرحة التي تخلد الكبار أمر شائع بين أمم العالم وشعوبه ، وهو يرمي إلى تكريم الرّاحلين وتشجيع من يأتي بعدهم..

ولا شكّ في أن وجود مثل هذه الأبنية سند تاريخي على وجود هذه الشخصيات والرموز الإنسانية، وبالتّالي فإنّها تدلّ على مواقفها وفكرها ، ولا يشكّ معي باحث في أنّ الأنبياء عليهم السلام والشخصيات الإنسانيّة من الذين هجرت قبورهم شُكّ في تأريخهم وضاع كثير من خصوصيّاتهم.. والأهم أنه ليس ثمّة تضاد بين بناء المساجد والأضرحة وبين توحيد الله سبحانه وتعالى واختصاص العبادة به.

وكيف كان، فإنّ في قول الله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾[1] وفعل الغالبين من أهل المدينة تأكيداً واضحاً على مبدأ التكريم والإحترام للعظماء والمؤمنين والشهداء، والغرض من ذكره هو التأديب القرآني والتربية على إحترام العظماء، وكلّ فصول القصة التي أوردها القرآن تدلّ على ذلك.

---

(١) سورة الكهف: الآية ٢١.

إنسانية النبوة

لقد قدّست البشريّة الشّهيد، بصوت واحد وحس متّحد وذوق إنساني أصيل معبّر عن تجذير هذا المبدأ في عمق المرتكزات الإنسانية ولبّ الشّعور البشري التوّاق إلى الفضيلة والعطاء، يمشي مع الإنسان الحرّ في فطرته ما مشى ظلّه على هذه الأرض..

وبما أن الإسلام هو معلّم الوفاء الأول وراعي راية الفضيلة فإنّه هتف بمجد الشّهيد ورفع راية تكريمه خفاقة في سماء معالي أحكامه، كتأكيد واضح لهذا الشعور البشري، ولم يَفُت النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله أن يتمّم هذه المكرمة الأخلاقية بفيض خلقه السامي على البشريّة فأقرّ هذا التجليل والتبجيل للشهيد وقنّنه وأسّس بناءه من جديد وأتقن إحكامه وأُسّه..

ولابدّ أن نؤكّد من حيث المبدأ على أنّ النبي صلى الله عليه وآله بكى الأموات الذين يستحقّون الدّمعة، والمصادر الدينيّة زاخرة بالحوادث التي كان يرخي فيها العنان لمقلتيه كي تؤبّن بعبرتها الساخنة من كان أهلاً لذلك، فأيّ إنسان يمسك عينه عن سكب الدّموع وقد جبلها الله سبحانه على التأثر بالحزن إزاء المؤثرات الطبيعيّة..

فقد روي في مستدرك الوسائل عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنّه قال: رخّص رسول الله صلى الله عليه وآله في البكاء عند المصيبة، وقال: النفس مصابة والعين دامعة والعهد قريب[1].

وقد صاحب بكاءه صلى الله عليه وآله في أغلب النقولات الرثاء الذي يبيّن فيه محاسن

---

(١) راجع المستدرك (٢/٣٨٤)، والبحار (٧٩/١٠١).

الفقيد، خصوصاً في وقفاته المشجية على أعزّته، ليؤكّد على أنّه النبي الإنسان، الرّقيق الحسّاس العطوف، الذي يَألف ويُؤلف، ويُحزِنه فُقدان المحاسن بفقدان أصحابها.

فقد روي أنه لما مات عثمان بن مظعون ـ وهو صاحبه المحبوب الممدوح الخصال ـ كشف صلى الله عليه وآله الثوب عن وجهه، ثم قبّل ما بين عينيه، ثم بكى طويلاً، فلما رفع السرير قال: طوباك يا عثمان، لم تلبسك الدنيا ولم تلبسها[1].

فنبيّ الإسلام والإنسانيّة صلى الله عليه وآله لم يكن ليحبس تأثّره أمام رفات صاحبه الحبيب، ولم يكن يحبس وجده وحزنه عند فراق الأكرمين من أحبّته، وكانت ردود أفعاله في الأحزان والأفراح تأتي طبيعيّة جداً وعلى سجيّته الطيبة..

وتتابعت الأخبار والروايات في نقل هذه الصّور الحية عنه، ففي مسكّن الفؤاد أنّه لما جاء نعي زيد بن حارثة إلى النبي صلى الله عليه وآله أتى منزل زيد، فخرجت إليه بنية لزيد، فلما رأت رسول الله صلى الله عليه وآله خمشت في وجهها، فبكى رسول الله صلى الله عليه وآله.. قال: هاه هاه..

فقيل: يا رسول الله، ما هذا!!

قال: شوق الحبيب إلى حبيبه[2].

ومن تلك المواقف الرّائعة التي وقفها صلى الله عليه وآله موقفه عند رحيل السيدة فاطمة بنت أسد، التي قامت حياله بفروض الخدمة على أكمل الوجوه إلى جانب المولى الكريم أبي طالب عليه السلام فاستحقّت أن تكون أمّاً لرسول الله صلى الله عليه وآله بإيمانها الوثيق

---

(١) راجع المستدرك (٢/٤٦٤)، والبحار (٧٩/٩١)، ومسكّن الفؤاد ص (١٠٥).

(٢) راجع مسكّن الفؤاد ص (١٠٦)، والبحار (١٦/٢٣٥)، ومستدرك الوسائل (٢/٤٦٤)، ومكارم الأخلاق ص (٢٢).

بالله تعالى وقيامها بخدمته، وهو الذي أدّبه ربّه فأحسن تأديبه، ولقد سأل حبيب الله ﷺ ربّه تعالى قائلاً: يا ربّ، أيّ عبادك أحبّ إليك؟ قال: الذي يبكي لفقد الصالحين كما يبكي الصبي لفقد أبويه[1].

فقد روى الشيخ الصّدوق في الأمالي بالإسناد إلى عبد الله بن عباس، قال: أقبل علي بن أبي طالب عليه السلام ذات يوم إلى النبي ﷺ باكيا وهو يقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ﴾[2].

فقال له رسول الله ﷺ: مه يا علي!!

فقال علي: يا رسول الله، ماتت أمي فاطمة بنت أسد.

قال: فبكى النبي ﷺ.. ثم قال: رحم الله أمك يا علي، أما إنها إن كانت لك أمّاً فقد كانت لي أمّاً، خذ عمامتي هذه وخذ ثوبيّ هذين فكفّنها فيهما، ومر النساء فليحسنّ غسلها، ولا تخرجها حتى أجيء فألِيَ أمرها..

وأقبل النبي ﷺ بعد ساعة وأخرجت فاطمة أم علي عليه السلام فصلى عليها النبي ﷺ صلاة لم يصل على أحد قبلها مثل تلك الصلاة، ثم كبر عليها أربعين تكبيرة، ثم دخل إلى القبر فتمدد فيه، فلم يسمع له أنين ولا حركة، ثم قال: يا علي، أدخل يا حسن أدخل، فدخلا القبر، فلمّا فرغ مما احتاج إليه قال له: يا علي أخرج يا حسن أخرج، فخرجا..

ثم زحف النبي ﷺ حتى صار عند رأسها، ثم قال: يا فاطمة، أنا محمد سيد ولد آدم ولا فخر، فإن أتاك منكر ونكير فسألاك من ربّك فقولي الله ربي، ومحمد نبيي، والإسلام ديني، والقرآن كتابي، وابني إمامي ووليي، ثم قال:

---

(١) راجع مستدرك الوسائل (٢/٤٦٩).

(٢) سورة البقرة: الآية ١٥٦.

اللهم ثبت فاطمة بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ.

ثم خرج من قبرها وحثا عليها حثيات، ثم ضرب بيده اليمنى على اليسرى فنفضهما، ثم قال: والذي نفس محمد بيده لقد سمعت فاطمة تصفيق يميني على شمالي.

فقام إليه عمار بن ياسر، فقال: فداك أبي وأمي يا رسول الله، لقد صليت عليها صلاة لم تصل على أحد قبلها مثل تلك الصلاة!!

فقال: يا أبا اليقظان، وأهل ذلك هي مني، لقد كان لها من أبي طالب ولد كثير، ولقد كان خيرهم كثيراً وكان خيرُنا قليلاً، فكانت تشبعني وتجيعهم، وتكسوني وتعرّيهم، وتدهنني وتشعثهم.

قال: فلم كبرت عليها أربعين تكبيرة يا رسول الله؟

قال: نعم يا عمار، إلتفت عن يميني فنظرت إلى أربعين صفا من الملائكة فكبرت لكل صف تكبيرة.

قال: فتمدّدك في القبر ولم يسمع لك أنين ولا حركة؟

قال: إن الناس يحشرون يوم القيامة عراة، ولم أزل أطلب إلى ربي عز وجل أن يبعثها ستيرة، والذي نفس محمد بيده ما خرجت من قبرها حتى رأيت مصباحين من نور عند رأسها، ومصباحين من نور عند يديها، ومصباحين من نور عند رجليها، وملكيها الموكلين بقبرها يستغفران لها إلى أن تقوم الساعة[1].

وفي فضائل ابن شاذان أضاف قوله صلى الله عليه وآله: والله لقد كان في دار أبي طالب نخلة فكانت تسابق إليها من الغداة لتلتقط ثم تجنيه رضي الله عنها، فإذا خرجوا ـ

---

(١) راجع بحار الأنوار (٣٥/٧٠) عن أمالي الصدوق.

بنو عمّي ـ تناولني ذلك.

وفيه أيضاً: وأراد الناس الإنصراف، جعل رسول الله ﷺ يقول لها: إبنك إبنك إبنك، لا جعفر ولا عقيل، إبنك إبنك علي بن أبي طالب.. فسئل ﷺ عن ذلك فقال: إنها لما نزل عليها الملكان وسألاها عن ربها، فقالت: الله ربي، وقالا: من نبيّك؟ قالت: محمّد نبيي، فقالا: من وليك وإمامك؟ فاستحيت أن تقول ولدي، فقلت لها قولي: إبنك علي بن أبي طالب عليه السلام فأقر الله بذلك عينها[1].

بكاؤه ﷺ على الأموات

هذا بحثٌ يستحقّ الوقوف والنظر، ولابدّ من تسليط الضوء عليه بمقتضى أحاديث السنّة الشريفة المرويّة عند أهل السنّة والجماعة التي تعالج موضوع البكاء على الأموات، لأنّها كانت ولا زالت محلاًّ للنقض والإبرام رغم وضوحها، فإذا تظافرت الأحاديث عند الإماميّة لتدلّ على رجحانه وندبه فإنّها لا تقل كثرةً وقوّةً عند غيرهم، وهي تدلّ من غير شبهة على الرّجحان والندب كما سترى.

ومعلوم أن الأصل العملي يقتضي إباحة البكاء على الموتى مطلقاً وإباحة رثائهم بالقريض، وتلاوة مناقبهم ومصائبهم، بل ويقتضي إباحة الجلوس للعزاء

---

(١) راجع بحار الأنوار (٦/٢٤١) عن الفضائل.

حزناً عليهم، والإنفاق عنهم في وجوه البرّ، وليس ثمّة دليل على خلاف هذا الأصل، بل السّيرة القطعيّة مثبّتة له، كما ويستفاد من بعض مفرداتها ندب البكاء على الميت إذا كان من أهل الفضائل والآثار النافعة، وقد أشرنا إلى السرّ الظاهر في ذلك في معرض عرضنا لسيرة البشريّة المكرمة للشهيد، ولا شكّ في أن تمييزهم يسبّب تحريك أمثالهم إلى وجوه الخير، كما أنّ أداء حقّهم يشجّع السّائرين على خطاهم.

وإذا ما أجلنا النظر في سيرة النبي الكريم ﷺ وجدنا أنّ فعله وقوله وتقريره دال على المطلوب، فقد صدر منه البكاء في موارد عدة، كيوم أحد، إذ علم الناس كافة بكاءه يومئذ على عمه أسد الله وأسد رسوله، حتى قال ابن عبد البر في ترجمة حمزة من إستيعابه: لمّا رأى النبي ﷺ حمزة قتيلاً بكى، فلمّا رأى ما مثّل به شهق.

ونقل ابن أبي الحديد عن الواقدي: أنّ النبي ﷺ كان يومئذ إذا بكت صفية يبكي وإذا نشجت ينشج.. حتى قال: وجعلت فاطمة تبكي لمّا بكى رسول الله[١].

وفي هذا الحديث حجّة بيّنة على فعل النبي ﷺ وتقريره لبكاء السيدة الزهراء عليها السلام من جهة، كما أنّ الحديث حجّة بيّنة ببكاء الصديّقة الزّهراء عليها السلام من جهة أخرى، إذ قام الدليل على عصمة سيّدتنا ومولاتنا.

كما قد صدر منه ﷺ البكاء يوم نعى زيداً وذا الجناحين وابن رواحة،

---

(١) وسيأتي الحديث في بكاء النبي ﷺ على عمه المكرّم عليه السلام وتحريض النساء على البكاء في الفصل القادم أيضاً، فراجع على سبيل المثال: مسند أحمد (٢/ ٤٠)، الفصول المهمّة ص (٩٢)، شفاء الغرام (٢/ ٣٤٧)، ذخائر العقبى ص (١٨٠)، السيرة الحلبية (٢/ ٢٤٧)، الروض الأنف (٦/ ٢٤).

والحديث قد أخرجه البخاري في أبواب الجنائز كما رواه ابن عبد البرّ في إستيعابه ضمن ترجمة زيد، وفيهما: أنّ النبي ﷺ بكى على جعفر وزيد وقال: أخواي ومؤنساي ومحدّثاي[١].

وكذلك يوم مات ولده إبراهيم، إذ بكى عليه، والحديث يرويه البخاري في الصحيح أيضاً، فقال له عبد الرحمن بن عوف: وأنت يا رسول الله!!

قال: يا ابن عوف، إنها رحمة، ثم أتبعها - يعني عبرته - بأخرى، فقال: إنّ العين تدمع والقلب يحزن، ولا نقول إلاّ ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون[٢].

فتأمّل معي في تعبير النبي ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى وهو يعبّر عن بكائه بالرحمة، وفي هذا التعبير منه ﷺ دليل مستقل قائم بذاته على رجحان البكاء وحسنه، كما دلّ عليه المقام.

وأمّا في جوابه ﷺ لابن عوف فقد أراد أنّ البكاء منهيّ عنه ويستحق فاعله الإثم والملامة في صورة واحدة، وهي التي يظهر فيها الباكي إعتراضه وسخطه على الله عزّ وجل، بالإعتراض على حكمته - نعوذ بالله تعالى - في الموت وأمثال ذلك، وليس بمجرد إسبال الدّموع بإظهار حزن القلب.

ومن المواطن التي بكى فيها النبي ﷺ ذلك الموطن الذي رواه البخاري في

---

(١) وقد جاء الحديث بأشكال مختلفة، فراجع ذخائر العقبى ص (٢١٨)، وأنساب الأشراف ص (٤٣)، وتاريخ اليعقوبي (٦٦/٢)، وتذكرة الخواص ص (١٧٢)، والمعجم الكبير (١٠٥/٢).

(٢) وراجع مضافاً إلى البخاري ذخائر العقبى ص (١٥٥)، وسيرة ابن إسحاق ص (٢٧٠)، والعقد الفريد (١٩٠/٣).

الصحيح، يوم ماتت إحدى بناته صلى الله عليه وآله، إذ جلس على قبرها وعيناه تدمعان[١].

ومن ذلك يوم مات صبي لإحدى بناته، وقد ورد الخبر في الصحيحين وغيرهما، إذ فاضت عيناه يومئذ فقال له سعد: ما هذا يا رسول الله؟ قال: هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء.

وتأمّل معي في قوله صلى الله عليه وآله: (وإنما يرحم الله من عباده الرحماء) لتستنتج إستحباب البكاء قطعاً، فالعبارة دالة من غير شكّ على استحبابه على الميت، بعد كون البكاء رحمة.

ومن بكائه صلى الله عليه وآله ما روي في الصحيحين عن ابن عمر أنّه قال: اشتكى سعد فعاده رسول الله صلى الله عليه وآله مع جماعة من أصحابه، فوجده في غشية فبكى، قال: فلمّا رأى القوم بكاءه بكوا.

وترى أنّ هذا الحديث مشتمل على فعل النبي صلى الله عليه وآله كما أنّه مشتمل على تقريره أيضاً، فهو حجة من جهتين، وسنوافيك في الفصل الرّابع من كتابنا هذا بأحاديث مستفيضة في بكائه على ولده الإمام الحسين عليه السلام، ولنا كذلك أحاديث كثيرة مبثوثة هنا وهناك في مصادر أهل السنة المعتبرة دالة على صدور البكاء عنه صلى الله عليه وآله[٢].

---

(١) وراجع ذخائر العقبى ص (١٦٦)، والمحلّى (١٤٥/٥).

(٢) فراجع لبكائه صلى الله عليه وآله على عترته من بعده المصنف (٦٩٧/٨)، والفصول المهمّة ص (١٥٥).

ولبكائه على عليّ أمير المؤمنين عليه السلام لما سيلقاه من بعده مناقب الخوارزمي ص (٢٤ و ٢٦)، وتذكرة الخواص ص (٤٥).

ولبكائه على شهداء فخ لمّا أخبره جبرئيل بالواقعة مقاتل الطالبيين ص (٤٣٦).

ولبكائه على جدّه عبد المطلب تذكرة الخواص ص (٧).

ولبكائه على أبي طالب عليه السلام الطبقات (١٠٥/١)، وتذكرة الخواص ص (٨)، وتاريخ

فإذا أوقفناك على أفعاله ﷺ فلا بدّ من الوقوف على أقواله وتقريراته، وهي مستفيضة جداً..

وقد روى ابن عبد البر في إستيعابه عند ترجمة جعفر عليه السلام: لمّا جاء النبي ﷺ نعي جعفر، أتى امرأته أسماء بنت عميس فعزّاها، قال: ودخلت فاطمة وهي تبكي وتقول: وا عمّاه، فقال رسول الله ﷺ: على مثل جعفر فلتبك البواكي[1].

ونقل جميع أرباب السير:

أنّ النبي ﷺ لما رجع من أحد فجعلت نساء الأنصار يبكين على من قتل من أزواجهن، فقال رسول الله ﷺ: ولكن حمزة لا بواكي له!! قال: ثم نام فاستنبه وهنّ يبكين حمزة، قال: فهنّ اليوم إذا بكين يبدأن بحمزة[2].

وفي الإستيعاب في ترجمة جعفر عليه السلام نقلاً عن الواقدي: لم تبك امرأة من

←

اليعقوبي (٢/٣٥).

ولبكائه على فاطمة بنت أسد ذخائر العقبى ص (٥٦)، والفصول المهمّة ص (١٣)، ومناقب ابن المغازلي ص (٧٧)، وتاريخ اليعقوبي (٢/١٤).

ولبكائه على أمّه عند قبرها المستدرك على الصحيحين (١/٣٧٥)، وتاريخ المدينة المنورة (١/١١٨)، وذخائر العقبى ص (٢٥٨)، والمصنف لابن أبي شيبة (٣/٢٢٤).

ولبكائه على عثمان بن مظعون المستدرك على الصحيحين (١/٣٦١)، وسنن البيهقي (٣ / ٤٠٧).

ولبكائه على سعد بن ربيع، المغازي (١/٣٢٩).

(١) وراجع أنساب الأشراف ص (٤٣)، وتاريخ اليعقوبي (٢/٦٦).

(٢) ذكره ابن جرير وابن الأثير وصاحب العقد الفريد، وتجده في كتب السير، وأخرجه أحمد من حديث ابن عمر.

الأنصار على ميّت ـ بعد قول رسول الله صلى الله عليه وآله: لكن حمزة لا بواكي له إلى اليوم ـ إلاّ بدأت بالبكاء على حمزة[١].

وأنت ترى قوله صلى الله عليه وآله: لكن حمزة لا بواكي له، أو قوله: على مثل جعفر فلتبك البواكي، بعثاً ظاهراً على البكاء على الشهداء، وإستحبابه واضح لا يحتاج إلى تجشّم عناء الإستدلال كما ترى، بل هو ظاهر بالنظر، وقد أضحى البكاء على خصوص الحمزة عليه السلام سنّة باقية عند فقد الأموات.

وروى الإمام أحمد في المسند عن ابن عباس في حديث ذكر فيه موت رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وبكاء النساء عليها، قال: فجعل عمر يضربهن بسوطه، فقال النبي صلى الله عليه وآله: دعهن يبكين، ثم قال: مهما يكن من القلب والعين فمن الله والرحمة، وقعد على شفير القبر وفاطمة إلى جنبه تبكي، قال: فجعل النبي صلى الله عليه وآله يمسح عين فاطمة بثوبه رحمة لها.

وكذلك روى عن أبي هريرة: أنّه مرّ على رسول الله صلى الله عليه وآله جنازة معها بواكي فنهرهنّ عمر، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: دعهنّ، فإنّ النفس مصابة والعين دامعة.

ولم يَحِد النبي الكريم صلى الله عليه وآله عن خِلال الأنبياء عليهم السلام وأخلاقهم، فقلوبهم مهابط وحي الله تعالى هي مواطن الرحمة والعطف والرقّة، وقد بكى يعقوب عليه السلام على ولده يوسف عليه السلام بكاءً مرّاً، حتّى قال تعالى: ﴿وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾[٢].

وقال صاحب الكشّاف: ما جفّت عيناه من وقت فراق يوسف إلى حين

---

(١) وراجع شفاء الغرام (٢/٣٤٧)، والسيرة النبوية (٣/١٠٥)، والروض الأنف (٦/٢٤)، وذخائر العقبى ص (١٨٣)، والفصول المهمة ص (٩٢).

(٢) سورة يوسف: الآية ٨٤.

لقائه ثمانين عاماً، وما على وجه الأرض أكرم على الله منه.

وفيه أيضاً: أن رسول الله ﷺ سأل جبرئيل عليه السلام: ما بلغ وجد يعقوب على يوسف؟

قال: وجْد سبعين ثكلى.

قال: فما كان له من الأجر؟

قال: أجر ماءة شهيد، وما ساء ظنّه بالله قط.

فإذا كان هذا هو عمل نبي الله يعقوب عليه السلام في حق ولده النبي يوسف عليه السلام فقد سبقه نبيّنا الكريم ﷺ إلى جوامع الخيرات وحاز كل معالي الأخلاق والشيَم، إذ بكى ﷺ ورثى وأبّن أهل الفضيلة والعطاء وخلّد يومهم بعبقريّة محكَمة.

وحريٌّ بنا أن نقف إكباراً وإجلالاً أمام وقوفاته ﷺ المتكررة لذوي الحقوق والفضل، وهم المتشرّفون بخدمته، فقد علّمنا كيفية تأبين الرّاحلين من أهل الفضائل والمناقب والأيادي الخيّرة، بطريقة إنسانيّة شاعرة راقية متحضّرة..

وتواتر عنه ﷺ الحزن الشديد على عمّه العظيم أبي طالب عليه السلام وزوجته خديجة أم المؤمنين عليها السلام، وقد ماتا في عام واحد، فسمّى عامه عام الحزن، وهذا معلوم عند الجميع.

وأخرج البخاري وأبو داوود بالإسناد إلى عائشة أنّها قالت: لّما جاء النبي ﷺ خبر قتل ابن حارثة وجعفر وابن رواحة جلس ـ في المسجد ـ يعرف فيه الحزن.

ومرّ عليك وسيأتي سيرة أهل المدينة الممتثلة لأمر النبي الكريم ﷺ واستمرارها على ندب الحمزة عليه السلام والبكاء عليه مع بُعد العهد بمصيبته، ولم يواجهوا بإنكار مُنكر قط، حتّى إنتهى إلى سمعي من بعض المتخصّصين والمتتبّعين

أنّهم استمروا على النّياحة عليه مع بكائهم على كلّ فقيد عزيز إلى زمن قريب، فحزنهم على عمّ نبيّهم ﷺ الشهيد يتجدّد بتجدّد حالات الموت والشهادة، وما ذاك إلاّ مواساة لرسول الله ﷺ بمصابه في عمّه، وإمتثالٌ لكلمته الخالدة: لكن حمزة لا بواكي له.

أحاديث النهي

للمنصف اللبيب أن يجيل نظره في هذه الأحاديث ثم يدلي بحكمه العادل، ويخلص إلى رجحان البكاء وندبه على الأموات للأغراض الحسنة، ومع كلّ ما تقدّم فإنّ البعض يرفع عقيرته بعكس ذلك، ويعيب على المسلمين بكاءهم على الأموات مهما كانت الأغراض!!

إنّ حجّة هؤلاء تتلخّص بوجود أحاديث معارضة لكلّ ما قدّمناه، وبذلك فهم ينفون رجحان أو ندب البكاء على الميت، ولا يقولون بإستحبابه المؤكّد على الشهداء وذوي الفضائل، ورواياتهم التي يعتمدونها معلومة الروافد والمناشيء، وقد تقدّم قبل يسير نهي بعض الصّحابة عن البكاء في محضر النبي ﷺ!! وعرفت موقف النبي ﷺ تجاه ذلك!!..

إنّ في نفس تلك الروايات علامات حمراء تستوجب الوقوف والنظر الفاحص، فكيف تتعدّد الإعتراضات أو الإستنكارات على رسول الله ﷺ في بكائه أصلاً بدل التعلّم والأخذ عنه!! ولم كان بكاؤه مورد سؤالهم المتكرّر وقد أجابهم في غير مورد عنه!! إنّ هذا يعزّز عندنا فكرة وجود رافد بين الصّحابة ممّن

لا تميل نفوسهم إلى بعض الخلقيّات والخلال، وبالتّالي فقد إنعكست نفوسهم على أحاديث الجانب المعارض..

لقد ورد في الصحيحين: أنّ الميت يعذب لبكاء أهله عليه، أو: ببعض بكاء أهله عليه، أو: ببكاء الحي..

ولا مناص من القول بخطأ نسبة الحديث إلى النبي ﷺ لأنّه يصطدم مع حكم العقل والنقل.

قال الفاضل النووي: هذه الروايات كلّها من رواية عمر بن الخطاب وابنه عبد الله.. وأنكرت عائشة عليهما، ونسبتهما إلى النسيان والإشتباه واحتجّت بقوله تعالى: ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[1]. وأنكر عبد الله بن عباس هذه الأحاديث كما هو مبيّن في شروح الصحيحين.

وأخرج الطبري (حوادث سنة ١٣) في التاريخ أنّه: لما توفي أبو بكر أقامت عليه عائشة النوح، فأقبل عمر بن الخطاب حتى قام ببابها فنهاهنّ عن البكاء على أبي بكر، فأبين أن ينتهين..

فقال عمر لهشام بن الوليد: أدخل فأخرج إليّ إبنة أبي قحافة.

فقالت عائشة لهشام حين سمعت ذلك من عمر: إنّي أحرّج عليك بيتي!!

فقال عمر لهشام: أدخل فقد أذنت لك.

فدخل هشام وأخرج أم فروة أخت أبي بكر إلى عمر، فعلاها بالدرّة فضربها ضربات، فتفرق النوح حين سمعوا ذلك.

فإذا إستشكلنا من البكاء على الميّت مع كلّ النصوص التي وصلتنا من النبي

---

(١) سورة فاطر: الآية ١٨.

فإنّ ذلك حكمٌ مزاجي قطعاً، والدّاعي أن نفوسنا لا تتلاءم مع البكاء فحسب، ولقد أباح البعض للبعض حتّى الجزع المحرّم على القبور، وقد نقل في الإستيعاب أنّ نساء بني مخزوم بكين على خالد بن الوليد، وروى أنّه: لم تبق إمرأة من بني المغيرة إلاّ وضعت لُمّتها ـ أي حلقت رأسها ـ على قبر خالد!!

وهذا عملٌ يحرّمه المسلمون، ولكنّ عامّة المسلمين لم يستنكروا ذلك، لأنّه صدر في حقّ من يحبّون..

عين الرضا عـن كلّ عيب كليلة ولكنّ عين السخط تُبدي المساويا

الإسلام والرّثاء

الرثاء حكمه حكم البكاء في الرّجحان والنّدب، وهو تابعٌ لشخصية المرثي وفضله، وتراثنا الدّيني والأدبي زاخر بالرثاء الشجي المملوء لوعة وحزناً، وهو مظهر ملفتٌ من مظاهر العرب في جاهليّتهم، وقد أقرّهم النبي ﷺ وأبقاهم عليه، ويمتدّ تاريخه من أوّل تاريخ الإنسان، فقد رثى آدم عليه السلام ولده هابيل لمّا قتله قابيل، واستمرت ذريته على منواله من دون نكير.

وقد مرّ في طيّات نقولاتنا عن النبي الكريم ﷺ الشيء الكثير من الرثاء، وبنظرة فاحصة في كتب الرجال المختلفة كالإستيعاب والإصابة ترى أشكال الرثاء بصوره المشجية، ويكفيك بل يغنيك مراجعة كتاب الدرة في التعازي والمراثي من العقد الفريد، وفيه الكثير من مراثي الصحابة وغيرهم.

ولّما توفي رسول الله ﷺ تنافس الفضلاء في رثائه، فرثته سيدة النساء مولاتنا الزهراء عليها السلام أشجى رثاء، وندبته أرق ندبة، وذكر القسطلاني بيتين منها في إرشاد الساري، وهما قولها عليها السلام:

ماذا على من شمّ تربة أحمد ... أن لا يشمّ مدى الزّمان غواليا

صُبّت عليّ مصائبٌ لو أنّها ... صُبّت على الأيام صرن لياليا

ورثته أيضاً بأبيات أخرى ذكرها الأندلسي في العقد الفريد، وهما:

إنّا فقدناك فقْد الأرض وابلها ... وغاب مذ غبتَ عنّا الوحي والكتب

فليت قبلك كان الموت صادفنا ... لما نعيت وحالت دونك الكثب

وذكر ابن عبد البر في الإستيعاب في أحوال النبي ﷺ أن عمته صفية رثته بقصيدة يائية، ورثاه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بقصيدة لامية ذكر بعضها في الإستيعاب والإصابة، ورثاه أبو ذؤيب الهذلي بقصيدة حائية كما في ترجمته في الكتابين.

ورثاه أبو الهيثم بن التيهان بقصيدة دالية كما في الإصابة، وفيه أن أم رعلة القشيرية رثته ﷺ بقصيدة رائية، وفيه: أن عامر بن الطفيل بن الحارث الأزدي رثاه بقصيدة جيمية، وفي كتب الأخبار ما يتجاوز حدّ الإحصاء من الرثاء.

وقد رثت الخنساء وهي صحابيّة وأكثرت من رثاء أخويها صخر ومعاوية وهما كافران، وأبدعت في مدائح صخر ولا زال أهل الأدب يمرّون بقصيدها مرور المكبرين ولم ينكر عليها منكر أبداً.

وهذا متمّم بن نويرة الذي ما زال يرثي أخاه مالكاً، وقد نقل ابن خلّكان في وفيّات الأعيان أنه: قد وقف مرة في المسجد وهو غاص بالصحابة أمام أبي بكر بعد صلاة الصبح واتكأ على سية قوسه فأنشد:

نعم القتيل إذا الرياح تناوحت خلف البيوت قتلت يا ابن الأزور

ثم أومأ إلى أبي بكر فقال مخاطباً له:

أدعوته بالله ثم غدرته لو هو دعاك بذمة لم يغدر

فقال أبو بكر: والله ما دعوته ولا غدرته.

ثم قال:

ولنعم حشو الدرع كان وحاسراً ولنعم مأوى الطارق المتنور

لا يمسك الفحشاء تحت ثيابه حلو شمائله عفيف المأزر

وبكى حتّى انحط عن سية قوسه، قالوا: فما زال يبكي حتى دمعت عينه العوراء.

فهل ورد أنّ أحداً أنكر عليه في بكائه أو رثائه، بل جاء أن عمر قال له: لوددتُ أنّك رثيت زيداً أخي بمثل ما رثيت به مالكاً أخاك، فرثى متمم بعدها زيد بن الخطاب فما أجاد، فقال له عمر: لِمَ لمْ ترثي زيداً كما رثيت مالكاً؟ فقال: إنه والله ليحرّكني لمالك ما لا يحركني لزيد.

واستحسن الصحابة والمتأخرون مراثيه لمالك وتمثلوا بها، كما روي في الإستيعاب أنّ عائشة وقفت على قبر أخيها عبد الرحمن فبكت عليه وتمثلت:

وكنّا كندماني جذيمة حقبة من الدهر حتى قيل لن يتصدّعا

فلمّا تفرّقنا كأني ومالكا لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

ويدخل في باب الرثاء ذكر مناقب الميت ومحاسنه، وتلاوة أحاديث فضله، كما كانت عليه سيرة السلف، وقد روي أن عائشة وقفت على قبر أبيها باكية، فقالت: كنتَ للدنيا مذلاً بإدبارك عنها، وكنتَ للآخرة معزاً بإقبالك عليها، وكان أجل الحوادث بعد رسول الله ﷺ رزؤك، وأعظم المصائب بعده فقدك.

وصدر عن سيدنا محمد بن أمير المؤمنين عليه السلام المعروف بابن الحنفية كما في العقد الفريد، إذ وقف على قبر أخيه الإمام الحسن المجتبى عليه السلام فخنقته العبرة، ثم نطف فقال:

يرحمك الله أبا محمد، فإن عزّت حياتك فقد هدّت وفاتك، ولنعم الروح روح ضمّه بدنك، ولنعم البدن بدن ضمه كفنك، وكيف لا تكون كذلك وأنت بقيّة ولد الأنبياء، وسليل الهدى، وخامس أصحاب الكساء، غذتك أكف الحق، ورُبّيت في حجر الإسلام، فطبت حياً وطبت ميتاً، وإن كانت أنفسنا غير طيبة بفراقك، ولا شاكة في الخيار لك.

ثم بكى بكاءً شديداً، وبكى الحاضرون حتى سمع نشيجهم[١].

وقد صدر مثل ذلك عن والده أمير المؤمنين عليه السلام كما أورد ابن الأثير: لّما وقف على قبر خباب بن الإرت في ظهر الكوفة، وهو أول من دفن هناك، فقال: رحم الله خباباً، لقد أسلم راغباً، وجاهد طائعاً، وعاش مجاهداً، وابتلى في جسمه أحوالاً، ولن يضيع الله أجر من أحسن عملاً.

وجاء في تاريخ الطبري وابن الأثير وغيرهما في حوادث (سنة ٤٠ هـ) أنّه: ولما توفي أمير المؤمنين عليه السلام قام الخلف من بعده الحسن الزكي عليه السلام خطيباً فقال: لقد قتلتم الليلة رجلاً والله ما سبقه أحد كان قبله، ولا يدركه أحد يكون بعده، إن كان رسول الله صلى الله عليه وآله ليبعثه في السرية وجبرئيل عن يمينه وميكائيل عن يساره، ما ترك صفراء ولا بيضاء.

والحاصل أن الوقوف على الأموات ورثاءهم وتعديد مناقبهم وذكر

---

(١) راجع العقد الفريد في باب الرثاء، وتذكرة الخواص ص (٢١٣).

مصائبهم ممّا حكم بحسنه العقل والنقل، واستمرت عليه سيرة السلف والخلف، بل هي سيرة الإنسانية بجميع طيوفها وتعدّد مشاربها عبر الأجيال البشرية المتعاقبة، وبه تحفظ الآثار النافعة للمجتمع.

وإذا تأمّلنا فإنّ تحريم ذلك يلزم منه تحريم قراءة التاريخ وعلم الرجال، ويستوجب المنع من تلاوة الكتاب والسنة لإحتوائها على مناقب الأنبياء ومصائبهم، ونعوذ بالله من ذلك.

بكاء الشهداء

إنّ هذا كلّه في باب الأموات من أولي الفضل المستحقين للتّكريم النبوي والإنساني، وأمّا في محلّ الكلام وهم الشهداء الأبرار فقد كانت لنبينا الأعظم ﷺ إنعطافات خالدة قد عطفت بسيرة العرب والبشريّة تجاه هذا النوع بالذات من القتلى، ولطالما عثرت على العجيبات في مفردات سيرته العطرة، ولقد غمر الدنيا بعبقريّته.

ولقد آن للبشريّة ـ ونحن في معرض استعراض سيرتها تجاه الشهيد ـ أن تنحني أمام مواقف هذا النبي الكريم ﷺ بإكبار وإجلال، فقد بلور الإسلام بهدي النبي الكريم ﷺ عناصر تكريم الشهيد غاية التكريم، ولقد عطف بسيرته الفكر والذوق والحس إلى تكريمهم بأجلى الصور وأجلّها، وأمّا إذا ما لاحظت تكريمه للشهداء من أهله على وجه الخصوص شعرت بتركيزه على حسّ العاطفة

الجيّاشة، وشعرت بصفته الشخصيّة المندكة بشخصيته النبوية، فهو القائل ﷺ: خيركم خيركم لأهل بيته وأنا خيركم لأهل بيتي، وهو القائل: أحبّوا أهل بيتي فإنّي أحبّهم..

وإذا ما أمعنّا في سيرته إلتمسنا ذلك في شهيدين محبوبين عنده، وهما حمزة عمّه عليه السلام وجعفر ابن عمّه عليه السلام ولن نقدر ساعتها أن نملك عيوننا من محاكاة عيونه حزناً ودمعاً..

أما سيدنا الشّهيد جعفر الطيّار عليه السلام.

فلقد استبق النبي الكريم ﷺ خبر شهادته بالدّموع، وإستجاب الوحي لرغبة النبي ﷺ بالبكاء فسارع جبرئيل عليه السلام له بالخبر الشجي المُحزن، وروي عن أنس بن مالك أنّه: نعى النبي ﷺ جعفراً وزيد بن حارثة وابن رواحة، قبل أن يجيء خبرهم وعيناه تذرفان.

وروي في كتاب محاسن البرقي: عن العباس بن موسى بن جعفر عليه السلام أنّه قال: سألت أبي عليه السلام عن المأتم، فقال: إن رسول الله ﷺ لما انتهى إليه قتل جعفر بن أبي طالب دخل على أسماء بنت عميس إمرأة جعفر، فقال: أين بَنِيّ؟ فدعت بهم وهم ثلاثة، عبد الله وعون ومحمد، فمسح رسول الله ﷺ رؤوسهم، فقالت: إنك تمسح رؤوسهم كأنهم أيتام، فعجب رسول الله ﷺ من عقلها، فقال: يا أسماء أ لم تعلمي أن جعفراً رضي الله عنه استشهد، فبكت.

فقال لها رسول الله ﷺ: لا تبكي، فإن الله أخبرني أن له جناحين في الجنة من ياقوت أحمر.

فقالت: يا رسول الله، لو جمعت الناس وأخبرتهم بفضل جعفر لا ينسى فضله، فعجب رسول الله ﷺ من عقلها، ثم قال: ابعثوا إلى أهل جعفر طعاما

فجرت السنة[1].

وانطبع موقف النبي صلى الله عليه وآله هذا في قلب عبد الله بن جعفر أيّما انطباع، وشخص في ذاكرته رغم صغر سنّه حينذاك، فهو يقول: أنا أحفظ حين دخل رسول الله صلى الله عليه وآله على أمي فنعى لها أبي، فأنظر إليه وهو يمسح على رأسي ورأس أخي وعيناه تهراقان الدموع، حتى تقطر لحيته، ثم قال: اللهم إن جعفراً قد قدم إليك إلى أحسن الثواب، فاخلفه في ذريته بأحسن ما خلّفت أحدا من عبادك في ذريته.

ثم قال: يا أسماء، أ لا أبشرك؟

قالت: بلى، بأبي وأمي يا رسول الله.

قال: إن الله جعل لجعفر جناحين يطير بهما في الجنة.

قالت: فأعلم الناس ذلك.

فقام رسول الله صلى الله عليه وآله وأخذ بيدي يمسح بيده رأسي حتى رقي إلى المنبر وأجلسني أمامه على الدرجة السفلى، والحزن يعرف عليه، فقال: إن المرء كثير بأخيه وابن عمه، ألاّ إن جعفراً قد استشهد، وجعل له جناحان يطير بهما في الجنة.

ثم نزل صلى الله عليه وآله ودخل بيته وأدخلني معه، وأمر بطعام يصنع لأجلي، وأرسل إلى أخي فتغدّينا عنده غداء طيبا مباركاً، وأقمنا ثلاثة أيام في بيته، ندور معه كلما صار في بيت إحدى نسائه، ثم رجعنا إلى بيتنا، فأتانا رسول الله صلى الله عليه وآله وأنا أساوم شاة أخ لي فقال: اللهم بارك له في صفقته، قال عبد الله: فما بعت شيئاً

---

(١) راجع بحار الأنوار (٢١/٥٥).

ولا اشتريت شيئاً إلاّ بورك لي فيه[١].

ولقد بكاه وأظهر حزنه ورثاه وأبّنه واحتفل به، وكرّمه تكريماً يليق بشهداء آل الرسول ﷺ، وأمر أعزّ الناس بالبكاء عليه، لقد قال الإمام الصادق عليه السلام: قال رسول الله ﷺ لفاطمة: إذهبي فابكي على ابن عمّك، فإن لم تَدْعِي بِثُكل فما قُلْتِ فقد صدقت[٢].

لقد بعث نبيّنا الكريم ﷺ الحياة في تلك النفوس الصخرية بأحكام الدين التي أحيت فطرتها وساقت أرواحهم إلى طيب الطبع والفضيلة، وأبدى بعبقريّته وإبداعه غاية الحنكة في عصر شحّ فيه الذوق العاطفي من أن يرحم الطفلة الصغيرة فيمنعها من حفرة الوأد والموت، وسار بمجتمع الجهل والجاهليّة الجهلاء سيراً محنّكاً ليتخطّى أعظم الحضارات ويرقى بهم أعلى مدارج المتحضّرين، على أنقى سِيَر البشر وأزكاها.

فقام ﷺ بالأمر حين فشلت ميولهم وعاداتهم، وشيّد بتكريم كبار شهداء الإسلام منهاجاً كريماً، يعمّ نفعه طبقات المجتمع وأطيافه، فهو يجدّد عزائم النشأ أولاً بحفظ ذكر المحارب القتيل في سبيل الله تعالى كما هو حال الأمم المتحضّرة.

لقد دعى إلى تأبينه برنّة اللوعة والمصاب المعهودة التي تقذفها المرأة العربية من فؤادها في تعديدها ونعيها على قتيلها كما يقذف البركان حممه وجمراته المتّقدة، لأنّ رنين بكائها هو قادح زناد نيران الصدر للإستعداد والحرب والثأر لله تعالى وللشهيد في سبيله، ولم يكن للدين أن يخالف جبلّة الإنسان في لا إراديّاته

---

(١) راجع بحار الأنوار (٢١/٥٦).

(٢) راجع بحار الأنوار (٢١/٥٧).

الطبعية، فالإنسان مخلوق مفطور على البكاء..

وأمّا سيدنا الشهيد الحمزة بن عبد المطلب عليه السلام..

فقد أظهر رسول الله صلى الله عليه وآله حزنه العميق وودّه الكبير له بأشجى وأعظم الصور، فهو معلّم الوفاء الأوّل في الإسلام وأستاذ رثاء الشّهيد، وهو الذي أبّن الشّهيد وبكى عليه، كانعكاس طبيعي للحس البشري العام عبر تعاقب أجياله..

فقد أخرج الإمام أحمد في المسند وغيره:

أن رسول الله صلى الله عليه وآله لّما رجع من أحد سمع نساء الأنصار يبكين على أزواجهن، فقال: لكن حمزة لا بواكي له، فبلغ ذلك نساء الأنصار فجئن يبكين على حمزة.

والحمزة بن عبد المطلب هو عمّ النّبي صلى الله عليه وآله الذي استشهد في أحد، وحاز لقب سيّد الشّهداء، ولا يزال قبره في مقدمة مزارات شهداء أحد في المدينة المنوّرة، وكان قد هاجر إلى المدينة من مكّة ليلحق بابن أخيه النّبي صلى الله عليه وآله وأخيه من الرّضاع ويحظى بجواره وشرف نصرته، وحين استشهد سمع النّبي الكريم صلى الله عليه وآله أصوات النّساء تتصاعد على الشّهداء في بيوتهم إلاّ بيت عمّه سيّد الشّهداء، فقال ما تقدّم.

وسرعان ما انتشر كلام النّبي صلى الله عليه وآله وتحقّقت رغبته بمواساته، بتكريم عمّه الشّهيد، فهرعت النّساء إلى بيت الحمزة، فأصبح البكاء على الشّهيد منذ ذلك الحين عادة جارية، وكان كل من يريد أن يبكي شهيداً يقصد بيته ليبكيه أوّلاً، لأنّ النّبي صلى الله عليه وآله الذي إعتبر البكاء على الأموات طبيعة إنسانية قد حثّ ورغّب في البكاء على الشّهيد على وجه الخصوص، لأنّ البكاء انفعال وتفاعل مع المبكي، وتناغم معه وتعاطف مع قضيته وتكهرب بموقفه البطولي الشجاع.

ولقد كان سيدنا الحمزة عليه السلام سيّد الشّهداء على الإطلاق، وفارس حلبة الشهادة في الإسلام، وكان يندب مع ندبة كلّ شهيد، ويتردد اسمه مع اسم كلّ قتيل في الإسلام، بل يُذكر مع كل حالة بكاء على ميّت من المسلمين..

ولقد بقي الأمر كذلك حتّى جاءت مأساة عاشوراء بآهاتها وأحزانها فأنست ما قبلها، فاحتل الإمام الحسين عليه السلام مركز الذّروة وانتقل له لقب سيّد الشّهداء، فإذا أطلق اللقب عني به الإمام عليه السلام وانصرف له من غير شكّ، وسيأتي بسط هذا لاحقاً.

لقد كان البكاء على سيدنا الحمزة عليه السلام رمزاً للبكاء على الشّهيد المعبّر عن الإنشداد للشهادة بأهدافها وأبعادها، ثم انتقلت هذه المكانة إلى سيدنا ومولانا الإمام الحسين عليه السلام كانتقال اللقب، إذ هو الرّمز الفرد الذي يُبكى عليه عند الحزن على أي شهيد أو قتيل.

وروى في مصباح الكفعمي قوله عليه السلام شعراً:

أو سمعتم بشهيد أو غريب فاندبوني

ولقد بكى رسول الله صلى الله عليه وآله ولده الإمام الحسين عليه السلام مرّات وكرّات، ونعاه ورثاه وكرّمه وبارك شهادته قبل أن يقتل كما سترى، ولقد نهج الأئمة عليهم السلام هذا النهج، وأظهروا غاية الحزن على جدّهم المظلوم عليه السلام، وتأسّوا برسول الله صلى الله عليه وآله في ذلك، وخصوصاً السيّد المعزّى والإمام المبتلى سيدنا زين العابدين عليه السلام فقد أظهر قمّة الجزع في حزنه على أبيه سيّد الشهداء عليه السلام..

وسأورد ثلاث وقفات من سيرة سيّد الزهّاد والعبّاد عليه السلام للتبرّك بالتعرّض لذكره الشريف.

فقد روى المرحوم المجلسي عن السيد في اللهوف عن الإمام الصادق عليه السلام

أنه قال: إن زين العابدين عليه السلام بكى على أبيه أربعين سنة، صائما نهاره قائماً ليله، فإذا حضر الإفطار جاءه غلامه بطعامه وشرابه فيضعه بين يديه، فيقول: كل يا مولاي..

فيقول: قتل ابن رسول الله جائعاً قتل ابن رسول الله عطشاناً، فلا يزال يكرر ذلك ويبكي حتى يبل طعامه من دموعه، ثم يمزج شرابه بدموعه، فلم يزل كذلك حتى لحق بالله عز وجل[١].

وروى المحدّث النوري في مستدرك الوسائل بأسناده:

أشرف مولى لعلي بن الحسين عليه السلام وهو في سقيفة له ساجد يبكي، فقال له: يا علي بن الحسين، أ ما آن لحزنك أن ينقضي؟ فرفع رأسه إليه، فقال: ويلك، أو ثكلتك أمّك، والله لقد شكا يعقوب إلى ربه في أقل مما رأيت حين قال: ﴿يا أَسَفى عَلى يُوسُفَ﴾[٢] وإنه فقد إبنا واحداً، وأنا رأيت أبي وجماعة أهل بيتي يذبحون حولي، قال: وكان علي بن الحسين عليه السلام يميل إلى ولد عقيل، فقيل: ما بالك تميل إلى بني عمّك هؤلاء دون آل جعفر؟ فقال: إني أذكر يومهم مع أبي عبد الله الحسين بن علي عليه السلام فأرق لهم[٣].

وروى المجلسي في البحار عن مولانا الإمام الصادق عليه السلام: البكّاؤون خمسة، آدم ويعقوب ويوسف وفاطمة بنت محمد وعلي بن الحسين عليه السلام، فأما آدم فبكى على الجنة حتى صار في خديه أمثال الأودية، وأما يعقوب فبكى على يوسف حتى ذهب بصره، وحتى قيل له: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى

---

(١) راجع بحار الأنوار (١٤٩/٤٥).

(٢) سورة يوسف: الآية ٨٤

(٣) راجع مستدرك الوسائل (٤٦٦/٢).

تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهالِكِينَ﴾[١] وأما يوسف فبكى على يعقوب حتى تأذّى به أهل السجن فقالوا إما أن تبكي بالنهار وتسكت بالليل، وإما أن تبكي بالليل وتسكت بالنهار، فصالحهم على واحد منهما، وأما فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وآله فبكت على رسول الله صلى الله عليه وآله حتى تأذى بها أهل المدينة وقالوا لها: قد آذيتنا بكثرة بكائك، فكانت تخرج إلى المقابر مقابر الشهداء فتبكي حتى تقضي حاجتها ثم تنصرف.

وأما علي بن الحسين عليه السلام فبكى على الحسين عشرين سنة أو أربعين سنة، وما وضع بين يديه طعام إلاّ بكى، حتى قال له مولى له: جعلت فداك يا ابن رسول الله، إني أخاف عليك أن تَكُونَ مِنَ الْهالِكِينَ، قالَ: ﴿إِنَّما أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ﴾[٢] إني لم أذكر مصرع بني فاطمة إلاّ خنقتني لذلك عبرة[٣].

وقد تكفّل جزع الإمام زين العابدين عليه السلام على أبيه الإمام الحسين عليه السلام بحفظ ضراوة الحزن وحرارة المصاب إلى هذا اليوم، وقد نسج الأئمة الهادون على منواله تأسّياً بجدّهم المصطفى صلى الله عليه وآله، فكانوا هم القدوة في تكريم الشهيد، كقدوة للبشريّة يلهمون الإنسان سبيل التعامل مع عطاء الشهيد، وقد إحتلّت قضيّة الإمام الحسين عليه السلام عندهم محلّ الرّمز والشعار، فراحوا يحيونها ويبثّون شجونها بكلّ الوسائل الممكنة.

---

(١) سورة يوسف: الآية ٨٥.

(٢) سورة يوسف: الآية ٨٦.

(٣) راجع بحار الأنوار (١٠٩/٤٦).

الحسين والإنسانية

إنّ سيّد الشهداء الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام هو القوّة الجاذبة التي يعرج إليها الصّادقون في إرتقاءاتهم وطفراتهم إلى الفضيلة، إذ تجتذبهم روحه المقدسة بشذاها الفواح وتلفتهم دماؤه النبوية الطاهرة، وقد احتفظت برونقها الشجي رغم كثرة تلك الدّماء التي أريقت على وجه الأرض ورغم تعدّد الكرامات المهتوكة المهدورة في دنيا الإنسانيّة..

وما أكثر مصارع الأبطال والكرام، وما أشد هولها ووقعها على النفوس، بيد أن لدماء آل الرّسول الأعظم صلى الله عليه وآله وقعا مأساويّا خاصّا على القلوب، ولمصارعهم أثراً ظاهراً على الوجدان الإنساني، لما تقلّ تلك الدّماء الطاهرة من معنوية مفعمة بالعطاء الإنساني الوافر، ولما تضم من حسّ الظلامة الجذاب بطبعه للنفوس.

ولقد انعكست مآسيهم على وجدان الإنسان، و تبنّاها الصّادقون على تباين مللهم ونحلهم ومشاربهم ومتبنّياتهم الفكريّة، فسجّلوا إحترامهم وإكبارهم وإعجابهم وانبهارهم لهذه الوثبات الإنسانيّة العملاقه..

فإذا ما لاحظنا إعجاب هؤلاء بسيّد الشّهداء عليه السلام إجتذبتنا عنهم كلمات تشتعل حرارة وفورة وتضطرم حسّا وصدقا، تعكس كون قضيّة آل محمّد صلى الله عليه وآله المتمثّلة بمصرع سيّد الشّهداء الحسين عليه السلام هي قضية الإنسان المثلى، التي بها يرقى إلى كماله الأوفى ويصل إلى منتهاه المرغوب..

وسرعان ما تكون نتيجة هذه الدعوى بديهية إذا ما أجلت بنظرك بين العيّنات المتخالفة والصور المتعاكسة من طيوف بني الإنسان وصنوف بني البشر

بمشاربهم المختلفة، وسيسهل البرهان بعد ذلك على كثير من القضايا المهمة والحسّاسة في المقام، وما أهم أن تدرك ـ أخي القارىء ـ ذلك الإجماع البشري النابض بمظلومية الإمام الحسين عليه السلام.

يقول الكاتب المسيحي انطون بارا:

الثّورة التي فجّرها الحسين بن علي عليه السلام في أعماق الصدور المؤمنة والضمائر الحرة هي حكاية الحرية الموؤودة بسكّين الظلم في كل زمان ومكان وجد بها حاكم ظالم غشوم، لا يقيم وزنا لحريّة إنسان، ولا يصون عهدا لقضية بشريّة، وهي قضية الأحرار تحت أي لواء انضووا، وخلف أيّ عقيدة ساروا[1].

شعراء بكلّ الأطياف

لقد طفحت قضية سيّد الشّهداء عليه السلام على الحس البشري وأخذت أبعادها ودوّى دويّها، وانعكست بسحرها على الضمير الإنساني خُطباً وكلمات وكتُباً ومقالات وشعراً ونثراً، فقد أُبِّن الحسين من قبل العلماء والفقهاء والفلاسفة والشّعراء وغيرهم من رواد العلم والفضيلة..

ولّما أن كان الشّعراء أقرب هؤلاء إلى الشعور المرهف والحس الصّادق والوجدان العف، هرعت قوافل الشّعراء متسابقة إلى رثائه وإكباره، ولربما حبس

(١) راجع الحسين في الفكر المسيحي للكاتب المسيحي أنطون بارا ص ٢١ الطبعة الثانية ١٤٠٠ هـ الكويت.

الواحد منهم لسانه عن القول فيه فساقه إليه الغزل والتشبيب أو الحكمة أو غير ذلك، ليثبت أن سيد الشهداء عليه السلام عبرة في صدور الصّادقين، تتألق روحه المعطاءة في إنسان عيونهم وسويداء قلوبهم كلما صدقوا وعفّوا..

أحمد شوقي:

على الرغم من أيّ بعد زمني أو مكاني تجد الإمام الحسين عليه السلام هدفاً في كل وقفة شريفة على رفات شهيد أو موقف مجد خالد، وعند كلّ صدق شريف، وقد عبّر أمير الشّعراء وشاعر الأمراء وسبيكة الشّعر ويراع النثر الأستاذ أحمد شوقي في قصيدته العصماء " الحريّة الحمراء " عن مكانة سيد الشهداء عليه السلام المغروسة في وجدان الصدق والإنسانية..

لقد كان شوقي يتغنّى بالحرية ويتباهى بدماء الشّهداء فألفى نفسه يتغنّى بسيّد الشّهداء الإمام الحسين عليه السلام الذي يعيش في وجدان الصّادقين دائما، غرضا لمراميهم العالية ومنتهى لمقاصدهم الشريفة، حيث قال:

في مهرجان الحق أو يوم الدم ... مهج من الشّهداء لم تتكلم
يبدو على هاتور نور دمائها ... كدم الحسين على هلال محرّم

وهو القائل في مقام آخر:

وأنت إذا ما ذكرت الحسين ... تصامت لا جاهلا موضعه
أحب الحسين و لكنّني ... لساني عليه و قلبي معه
حبست لساني عن مدحه ... حذار أمية أن تقطعه

الإمام الشافعي:

فلا غرو حينها إذا رثاه الشاعر الفقيه الإمام الشافعي، حين طفح وجداً فأبدى توجّعا لمصرعه، مستنكرا متعجّباً مقتله ومصرعه، فكيف تصلّي أمة على

النّبي ﷺ وتُجمع على قطع رحمه، وإبادة ولده؟!، ولقد مثل مصرعه الأليم أمامه في تسهّده ومفارقته نومه وتأوّهاته من تصاريف الدّهر فقال وأحسن:

و ممّا نفى نومي و شيّب لمّتي ... تصاريف أيّام لهنّ خطوب
تأوّه قلبي و الفؤاد كئيب ... و أرق نومي فالسّهاد عجيب
فمن مبلغ عني الحسين رسالة ... وإن كرهتها أنفس وقلوب
ذبيح بلا جرم كأن قميصه ... صبيغ بماء الأرجوان خضيب
فللسيف إعوال و للرمح رنة ... وللخيل من بعد الصهيل نحيب
تزلزلت الدنيا لآل محمّد ... وكادت لهم صم الجبال تذوب
وغارت نجوم واقشعرت كواكب ... وهتّك أستار و شق جيوب
يُصلّى على المبعوث من آل هاشم ... ويغزى بنوه إن ذا لعجيب

وهكذا تشرّفت الفقهاء والملوك والفلاسفة والحكماء وجم غفير هائل من الشّعراء برثائه عليه السلام، ويتعذر على أيّ باحث الإحاطة بأكثرهم فضلاً عن إحصائهم جميعاً.

المهاتمة غاندي:

إن وحي الشّجاء المدوّي الذي تنفثه مهجة الإمام الحسين عليه السلام المراقة يوم عاشوراء لم يقتصر على شعراء الإسلام ومفكّريهم فحسب، بل شمل الإنسانية بكل ما تحتوي من معتقدات وأديان، فإذا غضّوا عن الدين طرفهم رأوه في إنسانيتهم.

تماماً كما رآه الزعيم الهندي الراحل المهاتمة غاندي الذي يقول: (تعلّمت من الحسين كيف أكون مظلوما فأنتصر).

فقل لي..

أين غاندي من الحسين!؟

وأين الوثنية من التوحيد!؟

وأين الهندوسية من الإسلام!؟

ومتى إلتقى التّلميذ بأستاذه فتعلم منه هذا الدرس العظيم!؟

وهل هو هذا الدرس الذي به استطاع إحكام قبضته على قلوب الملايين من الشعب الهندي!؟

وأعتقد أنّه لم يكن له كل ذلك لولا تأثره بسيدنا الإمام الحسين عليه السلام وتمكّنه من أعماقه ووجدانه، الأمر الذي غضّ المسلمون عنه طرفهم فاستعبدهم عدوّهم وفشلوا وذهبت ريحهم..

ولقد كان غاندي حرّاً في فكره فانتصر، لا يحدّ ثقافته دين عن حكمة، ولا تصدّ نظره عقدة عن حقيقة، وقد كتبوا في سيرة غاندي أنّه كان كثيراً ما يخصّص وقتاً من يومه للتدبّر في القرآن الكريم، يستوحي تعاليمه ويسترشد أدبه، وهذا أمر يفرضه التأثّر بروح سيّد الشّهداء عليه السلام على أيّة حال.

بولس سلامة:

ومن ذات هذا المنطلق راح الشاعر المسيحي الفذ بولس سلاّمة يدوّي برثاء الإمام الحسين عليه السلام ضمن ملحمته الكبرى التي بلغت ثلاثة آلاف بيت المعروفة بعيد الغدير، التي يتغنّى فيها ببطل الإنسانية، أبي الحسين أمير المؤمنين عليه السلام..

وكان قد طلب منه بعض العلماء الأفذاذ أن يرصف نظم ملحمة تكون من عيون تراث العرب، خصوصاً مع إفتقار أدبنا الزاخر إلى ملحمة جامعة، فتدبّر وفكّر وإختار أن يكون موضوع ملحمته حاوياً على جلّ الفضائل والمكارم والآداب، منحدرة من صميم جمجمة العرب، فتأمّل مليّاً في المعاني

والأشخاص، ولم يتأتّى لهذه الشاعر العربي المسيحي أن يرى كلّ ذلك في غير شخص أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

فنظم عقودها وبنودها كما يرصّ الجواهريّ درره، بأروع مبتكرات المعاني وأبدع الكلمات، حتى حدى به وجدانه العف إلى سيد الشهداء عليه السلام، فكتب فصولها حينئذ في غرفة مظلمة، ودموعه تسابق فيها كلماته، حيث كان يجيب إذا سئل: إن ملحمة كربلاء هي ملحمتي الذاتية كفرد إنساني..

وهي من أجود ما قيل في باب المراثي الحسينية التي تقتحم الأعماق لتوغرها بالأسى والحزن والشجى.

كسر النّسر طرفه إعياء ... بعد ما قرّح الجفون بكاء
لو أصاب الفرات رزء حسين ... لانطوى النّهر كالرّداء انطواء
ولغاضت شطآنه واستطار الـ ... ـرمل في خاطر الأثير هباء

يا ضياء الغروب في كربلاء ... دونك الشمس في الغروب ضياء
كيف باتت و الكوكب الضخم ... يهوي مثلما تسقط الجبال انكفاء

يا سليل المطيّبين جدودا ... يفضح الشمس عزّة و انتماء
مجدكم صيَّر النّبيل نبيلاً ... وحباه من العلى ما شاء
دمك السّمح يا حسين ضياء ... في الدّياجير يلهم الشّعراء
أيّ فضل لشاعرٍ منك يعتام ... اللآلي يصوغ منها رثاء
شاعرٌ مقعدٌ جريح مهيضٌ ... كل أيّامه غدت كربلاء

وجنّد الكثير من الشّعراء أنفسهم لهذه القضية الكبرى، وربّما يكون من

الجديد على كثير من النّاس أن يعلموا أنّ من الشعراء من حبس ملكته على رثائه والقول فيه، حتى قال واحد منهم ألف قصيدة في رثائه.

وعند التحقيق الدّقيق تستطيع أن تقول بملئ الفم وكامل المسؤولية أنه لم تعرف الدّنيا من أوّل النّاس إلى يومهم هذا شخصا قيل فيه من الشّعر والنثر قديماً وحديثا كالمولى الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، فقد رثاه كل عصر وكل جيل بكل لسان وفي جميع الأزمان، لأنه عاش في وجدانهم فكرة ومشعلا للأسى والتأسّي.

وتمحّض من بين الشّعراء من اختص بآل محمّد صلى الله عليه وآله مدحاً ورثاءاً، وتلك فئة دافعها الحب والعبادة، ومقصدها المودة المأمور بها في القرآن الكريم.

فإذا كانت العرب أيام الجاهلية تحسب للشّعر شيطانًا! مفسرة بزعمها هذا ذلك الإبداع الشّعري المؤثر في النفس تأثير السّحر المشعر بعلوّه فوق ملكات البشر، فإن آل محمّد صلى الله عليه وآله قد كشفوا عن كونه نفثة من روح القدس على لسان الشاعر أو تأييد منه لهم، ذلك إذا قال القائل فيهم عليهم السلام، لأنّه لا يقول حيئذ إلاّ حقاً.

قال الشّاعر:

إليكم وإلاّ لا تُشدّ الركائبُ	ومنكم وإلاّ لا تُنال الرغائبُ
وفيكم وإلاّ فالحديث مزخرفٌ	وعنكم وإلاّ فالمحدّث كاذبُ

الفصل الثاني

سيد الشهداء

مفردة الشهيد

إذا تابعت هذه المفردة العربية في كتب اللغة ألفيتها مفردة إسلامية ذات منشأ لغوي أصيل، وهي تنتمي إلى مجموعة خاصة من الإصطلاحات الدينية المختصّة بالإسلام، ولو تصفّحت كتب اللغات الأخرى ألفيتها تضع إزاء القتيل في الحرب مفردة خاصة في كل لغة، لكنّها لا تؤدّي معنى الشهيد بكلّ خصوصيّاتها في المفردة العربية الإسلامية قطعاً، لأنّها تتحدّر من ثقافة خاصة ويعني الإسلام بها مقاصد معيّنة وأبعاداً خاصة بحسب دقة القرآن الكريم والإستعمال النبوي..

ولهذا فإنّ الشهيد إصطلاح دينيّ محدّد، وإن توسّع الناس في استخدامه وتسامحوا، غير أن الإصطلاح بدقّته يأبى مسامحتهم، وستقف على معناه الدقيق في طيّ بحثنا قريباً..

وسُرعان ما ينعطف اللغويون في كتبهم إلى بيان المعنى الإسلامي لمفردة الشهيد، بعد إمساك اللغة عن بيانها على الوجه المطلوب، لأنّها حقيقة شرعية، أي أنّ الدّين نقلها من معناها اللغوي إلى معناه الخاص..

قال اللغويون:

كلمة الشهيد تعني الشاهِدُ، والأَمينُ في شَهادَةٍ، والذي لا يَغيبُ عن عِلْمِهِ شيءٌ، والقَتيلُ في سبيلِ الله، لأن مَلائِكَةَ الرحْمَةِ تَشْهَدُهُ أو لأَن الله تعالى

وملائكتَهُ شُهودٌ له بالجَنّةِ، أو لأنه ممّن يُستَشهَدُ يومَ القيامةِ على الأمَمِ الخاليةِ، أو لسُقوطِه على الشاهِدَةِ وهي الأرضِ، أو لأَنه حَيٌّ عندَ ربِّهِ حاضرٌ، أو لأَنه يَشْهَدُ مَلَكوتَ الله ومُلْكَهُ.

ولم يتعدّ القرآن في إستعمالاته أصل المادة اللغوية، وقد تناول معظم اشتقاقاتها، وجدير بالذّكر أنه لم يأتِ بالمفردة مورد البحث بالمباشرة، وإن شئتَ قلت أنّه لم يتناولها بحقيقتها الإصطلاحية بل تناول القريب منها بالمعنى، أو فقل تناولها بالجمع في آيتين، الأولى في قوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾[١] والثانية في قوله سبحانه: ﴿وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا﴾[٢]، علماً أنّها جاءت مفردة بكثرة في الحديث النبوي الشريف.

وإذا شئنا التوسّع في بعض إشتقاقاتها القرآنية فقد كفانا الشيخ الطريحي ﵀ هذه المؤنة في كتابه مجمع البحرين، وهو الكتاب الذي يستعرض المفردة بين بحري اللغة والشريعة، فحاصل كلامه في مادة (شهد):

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا...﴾[٣] أي على أمتك فيما يفعلونه، مقبولا قولك عند الله لهم وعليهم كما يقبل قول الشاهد العدل.

قوله: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾[٤] قيل: الشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم عرفة، لأن الناس يشهدونه أي يحضرون ويجتمعون فيه، وقيل: الشاهد محمد،

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٤٠.

(٢) سورة النساء: الآية ٦٩.

(٣) سورة الفتح: الآية ٨.

(٤) سورة البروج: الآية ٣.

لقوله تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيدًا﴾ والمشهود يوم القيامة، لقوله تعالى: وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ.

قوله: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ...﴾[1] روي: أن الأمم يوم القيامة يجحدون تبليغ الأنبياء، فيطلب الله الأنبياء بالبيّنة على أنهم قد بلّغوا، فيؤتى بأمّة محمّد فيشهدون لهم عليهم السلام وهو يزكّيهم. وروي عن علي عليه السلام أنه قال: إيانا عنى، فرسول الله صلى الله عليه وآله شاهد علينا ونحن شهداء الله على خلقه وحجته في أرضه.

وقيل: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ في الدنيا، أي حجة عليهم، فتبينوا لهم الحق والدين، ويكون الرسول مؤديا للشرع وأحكام الدين إليكم.

قوله: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾[2] أي مع الأنبياء الذين يشهدون لأممهم، وقيل مع أمة محمد صلى الله عليه وآله لأنهم شهداء على الناس.

قوله: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾[3] أي قل يا محمد لهؤلاء الكفار: أي شيء أعظم شهادة وأصدق حتى أُخبركم به فأُثبت به على أني صادق؟ أو أي شيء أكبر شهادة حتى يشهد لي بالبلاغ وعليكم بالتكذيب؟ فإن قالوا: الله، وإلاّ فقل لهم: الله شهيد بيني وبينكم يشهد لي بالرسالة والنبوة، وقيل: يشهد لي بتبليغ الرسالة إليكم وبتكذيبكم إياي.

قوله: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾[4] أي برهان من الله وبيان حجة على أن دين الإسلام حق، وهو دليل العقل، و ﴿يَتْلُوهُ﴾ أي يتبع ذلك البرهان

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٤٣.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٥٣.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٩.

(٤) سورة هود: الآة ١٧.

﴿شَاهِدٌ﴾ يشهد بصحته وهو القرآن، وقيل: البيّنة القرآن والشاهد جبرئيل عليه السلام يتلو القرآن، وقيل: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾(١) وهو النبي صلى الله عليه وآله والشاهد علي بن أبي طالب عليه السلام يشهد له وهو منه، وهو المروي عن أهل البيت.

قوله: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾(٢) قال المفسر: السين للطلب، أي أطلبوا شهيدين، والفرق بين الشاهد والشهيد أن الأول بمعنى الحدوث والثاني بمعنى الثبوت، فإنه إذا تحمل الشهادة فهو شاهد باعتبار حدوث تحمله، فإذا ثبت تحمله لها زمانين أو أكثر فهو شهيد، ثم يطلق الشاهد عليه مجازاً بعد تحمله تسمية للشيء بما كان عليه، كما يطلق الشهيد قبل تحمله لها مجازا كما في الآية، فإن الطلب إنما يكون قبل حصول المطلوب.

قوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ...﴾(٣) قيل: معناه بين وأعلم، كما يقال شهد فلان عند القاضي أي بين وأعلم لمن الحق وعلى من هو.

قوله: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾(٤) أي من كان حاضرا في الشهر مقيما غير مسافر فليصم ما حضر وأقام فيه، وانتصاب الشهر على الظرف. والشاهد: الحاضر.

قوله: ﴿أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾(٥) أي استمع كتاب الله وهو شاهد القلب ليس بغافل.

---

(١) سورة هود: الآة ١٧.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٨٢.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٨.

(٤) سورة البقرة: الآية ١٨٥.

(٥) سورة ق: الآية ٣٧.

قوله: ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾[١] قيل: أي يشهده المسلمون يسمعون القرآن فيكثر الثواب. وعن الصادق عليه السلام: يعني صلاة الفجر يشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار. وفي حديث وصف علي عليه السلام: مضيت للذي كنت عليه شهيدا ومستشهدا ومشهودا.

والمراد من الشهيد المعنى المعروف، ومن المستشهد المطلوب منه الشهادة، كأن الله أمره بها وطلبها منه، ومن المشهود الذي يشهد قتله الخلائق والملائكة كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾[٢].

قوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾[٣] أي يكرم ناساً منكم بالشهادة.

وفي حديث ذكر الشهيد وهو من مات بين يدي نبي أو إمام معصوم أو قتل في جهاد سائغ، قيل: سمي بذلك لأنّ ملائكة الرحمة تشهده، فهو شهيد بمعنى مشهود.

وقيل: لأنّ الله وملائكته شهود له في الجنة.

وقيل: لأنّه ممن استشهد يوم القيامة مع النبي صلى الله عليه وآله على الأمم الخالية.

وقيل: لأنّه لم يمت كأنه شاهد أي حاضر، أو لقيامه بشهادة الحق في الله حتى قتل، أو لأنّه يشهد ما أعد الله له من الكرامة وغيره لا يشهدها إلى يوم القيامة، فهو فعيل بمعنى فاعل.

وهذا منتهى الكلام في هذه المفردة الدينية من حيث اللغة ومن حيث اشتقاقاتها بحسب الإستعمال القرآني.

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٧٨.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٧٨.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٤٠

القرآن والشهداء

تكفّلت آيات عدة ببيان مقام الشهيد عند الله عزّ وجل، بيد أنّه تكفينا هذه الآيات الثلاث وإن كانت لم تعبّر بلفظ الشهادة، إلاّ أنّها تتعرّض لصميم معنى النعيم الموعود للشهيد في سبيل الله تعالى..

قال تعالى: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ❖ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ❖ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[١].

إنّ أول بشارة تطرقها الآيات الكريمات هي الحياة الخالدة، وإذا ربطنا هذه الآيات بما قبلها لاحظناها مرتبطة بوضوح بغزوة أحد، وقيل أنّها نزلت في قتلى بدر، لكنّه روي عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: إنها تتناول قتلى بدر وأُحد معاً، وإن كان محتواها ومضمونها يعم جميع الشهداء في سبيل الله تعالى[٢].

وروي في الدر المنثور في سبب نزول هذه الآية عن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وآله قال: إطّلع إليهم ـ أي إلى أرواح شهداء أُحد وهي في الجنة ـ ربّهم اطّلاعة، فقال: هل تشتهون شيئاً؟

قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟

---

(١) سورة آل عمران: الآيات: ١٦٩ إلى ١٧١.

(٢) راجع تفسير نور الثقلين (١/٤٠٦) عن تفسير العياشي.

ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلمّا رأوا أنهم لم يتركوا من أين يسألوا، قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا، حتّى نقتل في سبيلك مرّة أُخرى.

فقال تعالى: قد سبق منّي أنهم لا يرجعون.

قالوا: فتقرأ نبينا السّلام، وتبلغهم ما نحن فيه من كرامة فلا يحزنوا، فنزلت هذه الآيات.

والذي يبدو هو أنّ فقد هؤلاء النفر في أحد كان قد أثّر أثره البالغ سلباً على نفسيّات بعض ضعفة المسلمين، ولابدّ أنهم كانوا يتداولون في نواديهم موضوع رحلتهم عن هذه الحياة بغصّة وحسرة، إذ شعروا بوجد فقدهم من جهة، واستشعروا المصير ذاته لأنفسهم من جهة أخرى، فأوغرت وساوسهم صدورهم بدافع الجهل، وربّما من قلّة الإيمان والثقة بالله تعالى..

ولهذا فهم يتأسّفون على هؤلاء الشهداء، ويزيد أسفهم عليهم بتوافر النعم وتجدّدها، فيتنغّصون لأخوانهم المقتولين في تلك الغزوة، فهم يشعرون بالأسى حين ينعمون بالخيرات، في حين أنّ إخوانهم وأبناءهم رهن الأجداث والقبور، لا تبلغ أيديهم إلى حظوتهم في الدنيا.. وهي كلمات كما ترى تؤثّر في إجهاض الروح المعنوية عند المسلمين، وتقوّض بها لدى ذوي الشهداء.

فجاءت هذه الآيات مفنّدة كلّ هذه التصوّرات السّاذجة والأوهام الباطلة، وتؤكّد على مكانة الشهداء السامية ومقامهم وكرامتهم عند ربّهم الرحيم، وتدعوهم دعوة علمية وجدانية إيمانية لإعتبارهم أحياء عند ربّهم يرزقون، وعدم القبول بفكرة موتهم أبداً، و الخطاب موجّه للنبي الكريم ﷺ على وجه الخصوص إلاّ أن المقصود به هؤلاء.

والمقصود من الحياة التي تؤكّدها الآية هي الحياة البرزخية، التي يحياها

الإنسان في عالم ما بعد الموت، البعيدة عن الجسم والمادة والكدورات المحسوسة، علماً بأن البرزخ مقرّ الكثيرين من النّاس ولا يختص بالشهداء، إلاّ أنّ حياة الشهداء فيها من النمط الرفيع جداً، حيث تنعم الرّوح بالنعم المعنوية الجليلة، وقد خصّتهم الآية بالحياة الهانئة دون غيرهم.

ثمّ تنتقل الآية إلى تفصيل المشاعر الإنسانية للشهداء بما أولاهم الله من الخير والنعيم المقيم، كإحدى مزاياهم في عالم البرزخ، وتصف حالتهم بالفرح بما آتاهم ربّهم الرحيم، مشيرةً إلى عظيم إبتهاجهم بما أوتوا هناك.

والسبب الرئيس في بهجتهم ومسرّتهم هو ما يجدونه ويلقونه من عظيم الثواب ورفيع الدّرجات الذي ينتظر إخوانهم المجاهدين الذين لم ينالوا شرف الشهادة في المعركة، وهم على شوق كبير للقائهم، وقد أمكنهم الله تعالى من معرفتهم وأنّهم سيلتحقون بهم.

ثمّ تؤكّد الآية على بلوغهم الأمان المطلق في ظل القادر العظيم، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وإحساسهم بالأمان يفوق كلّ إحساس دنيوي به، ولن يأسوا على ما فاتهم في الدنيا بعد بلوغهم رضوان ربّهم الرحيم، وهم آمنون من الحزن لوقائع الآخرة وساعاتها الرهيبة لأنّ هولها لا يمسّهم.

وهم أحق من يستبشر بنعمة الله، لما عاينوا من تفضّل ربّهم الكريم عليهم، ومنشأ فرحهم راجع إلى جهتين، فمن جهة هم مستبشرون بالنعم والمواهب الإلهية التي يتلقونها بلا إنقطاع، وما يوافيهم ربّهم به من الفضل المتزايد المستمر، ومن جهة أخرى فإنّهم يرون أن الله سبحانه لا يضيع أجر المؤمنين العاملين، فهو الحسيب الذي لم يفُته تكريم الشهداء الذين نالوا شرف التضحية في سبيله وبلغوا كرامة رضوانه، ولم يفُته مجازاة المجاهدين الصادقين الذين لم

ينالوا ذلك الشرف رغم اشتراكهم في المعركة، وقد تعهّد الله تعالى بحفظ سعيهم وأكّد أن أجر عملهم لا يضيع عنده.

وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه الآيات الكريمات ذات دلالة صريحة على بقاء الروح، فهي تؤكّد على حياة الشهداء بعد الموت والقتل، وقد إحتمل البعض أن المراد بهذه الحياة المذكورة في الآية هو معنى مجازي لا حقيقي، والمقصود من بقائهم هو بقاء إسمهم ليس إلاّ، وعنى خلود آثارهم وأعمالهم وجهودهم، وهذا بعيد عن أجواء الآية قطعاً، وغير منسجم بالمرّة مع تراكيب ومفردات هذه الآيات كما ترى.

ولا يمكن أن نطبّق المعنى على مجازيّته على أيّ طرف من أطراف الآية الكريمة، سواء كان في تصريح الآية برزق الشهداء، أو التصريح بسرورهم من نواحي مختلفة، بل يمكننا أن نترقّى مستدلين بالآية إلى أبعد من ذلك، إذ هي دالة بصريحها على مسألة البرزخ والنعم البرزخية، وفيها دليل بيّن وبرهان واضح عليها كما ترى.

إن الآية تؤكّد مكانة الشّهداء، ودرجاتهم مؤسسة على فضلهم وأهمية تضحيتهم، وهي بالضّمن دعوة إلى تكريمهم، وليس من العجيب أن تهبّ الإنسانية بجميع أطيافها البشرية لاحترام هذا الصنف المكرّم من البشر، فكلّ الأمم والشعوب تحترم شهداءها وتقيم لهم وزناً خاصّاً، ولقد تفوّق الإسلام على سائر الأمم قطعاً في ما يوليه للشهداء في سبيل الله تعالى من الإحترام والتبجيل.

وهذه حقيقة واقعية لا مبالغة فيها، فبفضل دماء الشهداء الكرام وفي ظل تلك التعاليم استطاع المسلمون ـ وهم آنذاك جماعة محدودة ومتخلّفة ـ أن يكتسبوا منابع القوّة الهائلة، وسرعان ما ركعت أمامهم أعظم الإمبراطوريات،

وتمكّنت بفضل ذلك من سحق أعظم العروش ودحرها.

فقد روي عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام عن الحسين بن علي عليه السلام قال: بينما أمير المؤمنين يخطب ويحضّهم على الجهاد إذ قام إليه شاب فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن فضل الغزاة في سبيل الله؟

فقال: كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وآله على ناقته العضباء ونحن منقلبون عن غزوة ذات السلاسل، فسألته عمّا سألتني عنه، فقال: الغزاة إذا همّوا بالغزو كتب الله لهم براءة من النار، فإذا تجهّزوا لغزوهم باهى الله بهم الملائكة، فإذا ودّعهم أهلوهم بكت عليهم الحيطان والبيوت، ويخرجون من الذنوب، ويكتب لهم كلّ يوم عبادة ألف رجل يعبدون الله، وإذا صاروا بحضرة عدوهم انقطع علم أهل الدنيا عن ثواب الله إياهم.

فإذا برزوا لعدوّهم وأشرعت الأسنة وفوّقت السهام، وتقدّم الرجل إلى الرجل حفتهم الملائكة بأجنحتها يدعون الله بالنصرة والتثبيت، فينادي مناد: الجنة تحت ظلال السيوف، فتكون الطعنة والضربة على الشهيد أهون من شرب الماء البارد في اليوم الصائف.

وإذا زال الشهيد من فرسه بطعنة أو ضربة لم يصل إلى الأرض حتّى يبعث الله إليه زوجته من الحور العين فتبشره بما أعد الله له من الكرامة..

فإذا وصل إلى الأرض تقول له الأرض: مرحباً بالروح الطيب الذي خرج من البدن الطيب، أبشر، فإن لك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ويقول الله: أنا خليفته في أهله، من أرضاهم فقد أرضاني، ومن أسخطهم فقد أسخطني.

من هو الشّهيد ؟

أوّل تكريم قام به الدين للشهيد أنّه خلع عليه هذا الإسم الذي يرفعه إلى درجات المقرّبين عند الله تعالى، ونقل له هذا الوسام من مادة اللغة إلى حقيقة البذل للنفس في سبيل الله سبحانه..

ولابدّ لنا من جولة فاحصة في لسان الشرع لتحديد زوايا هذه المفردة، فإذا ضممنا إستعمالات القرآن الكريم إلى السنّة النبويّة المطهّرة إلى كلام الإئمة المعصومين عليهم السلام أسفر لنا نور واحد، وتمخّض نظرنا عن فائدة جليلة، إذ أن هذا الإصطلاح منبسط على شهداء ثلاثة.

القتيل بالمعركة

إذ يطلق الشّهيد على القتيل في سبيل الله تعالى، وهو المعنى المتداول المعروف، ويمكن أن نعبّر عنه بالشهيد المصطلح ولو مسامحة، إذ أنّ باقي الأقسام مصطلحة من الشّارع أيضاً، ونعني بالشهيد المصطلح الذي يرتّب الفقهاء عليه أحكاماً خاصة يجمعون عليها من غير خلاف بينهم.

قال المحقّق الحلي رحمه الله في كتابه شرائع الإسلام: والشهيد الذي قتل بين يدي الإمام، ومات في المعركة، لا يُغسّل ولا يُكفّن، ويُصلّى عليه.

وقال: الشهيد يدفن بثيابه، وينزع عنه الفرو والخفّان، أصابهما الدم أو لم يصبهما على الأظهر، ولا فرق بين أن يقتل بحديد أو بغيره.

وهذه الآثار الشرعية المترتّبة على هذا الحد دقيقة في تحديد الشهيد وفق نظرة

الشارع، فلو مات مؤمن في طريق الشهادة مثلاً، أو جُرح في ساحة المعركة ثم نقل إلى خارجها فمات، أو فلنقل: لو مات خارج المعركة، أو مات في المعركة حتف الأنف ولم يُقتل، فإنّه إستحقّ التكريم والتبجيل من غير شكّ، إلاّ أنّه ليس بشهيد على الإصطلاح، وإن تسامحنا في إطلاق هذا الوسام الشريف عليه، إلاّ أنّ الواجب المتعيّن هو تغسيله وتكفينه.

وقد ورد في الكافي الشريف في باب فضل الشّهادة:

بالإسناد إلى الإمام الصّادق عليه السلام أنّه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله فوق كلّ ذي برّ بر حتّى يُقتل في سبيل الله، فإذا قُتل في سبيل الله فليس فوقه بر.

وعن أبي حمزة الثمالي قال: سمعت أبا جعفر يقول: إنّ علي بن الحسين عليه السلام كان يقول قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما من قطرة أحب إلى الله عزّ وجل من قطرة دم في سبيل الله.

وبالإسناد إلى الإمام الصادق عليه السلام أنّه قيل للنبي صلى الله عليه وآله: ما بال الشهيد لا يُفتن في قبره؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله: كفى بالبارقة فوق رأسه فتنة.

وعن أبي بصير أن الإمام الصادق عليه السلام قال: من قُتل في سبيل الله لم يعرّفه الله شيئاً من سيّئاته[١].

الشّهيد المقامي

الذي هو في مقام الشّهيد، ومن نزّله الدين منزلة الشهيد، فقد قامت نيّته بالجهاد والقتل مقام العمل، أو قام عمله الصالح مقام القتل في سبيل الله تعالى، ولكن أحكام الشهيد الخاصة المتقدّمة لا تشمله قطعاً، والظاهر أنّه دونه في الفضل

---

(١) راجع الكافي باب فضل الشهادة (٥/٥٣).

وإن إستحقّ ثواب وتكريم الشّهيد، ويدخل في هذا الصنف الميت الذي إستثنيناه من الشهيد الإصطلاحي، وهو الذي يموت خارج المعركة، والإختلاف بين الثلاثة إختلاف رتبي راجع إلى الفضيلة.

فإذا أمعنّا النظر في الأخبار الشريفة فإنّا نتصوّر مصاديق هذا الشهيد المقامي من جهة التطبيق على صعيدين أحدهما عام، والآخر خاص..

أمّا الصعيد العام فهو متعلّق بالنوايا الحسنة والحبّ الحقيقي والتوجه القلبي الصّادق، ففي مستدرك الوسائل عن النبي ﷺ: من أحب قوماً حشر معهم، ومن أحبّ عمل قوم أشرك في عملهم[١].

وهو عين الحديث الذي إستشهد به الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري رحمه الله عند زيارته للإمام الحسين عليه السلام في يوم الأربعين، كما في بشارة المصطفى بالإسناد إلى عطية العوفي قال:

خرجت مع جابر بن عبد الله الأنصاري رحمه الله زائرين قبر الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، فلما وردنا كربلاء دنا جابر من شاطيء الفرات فاغتسل ثم ائتزر بإزار وارتدى بآخر، ثم فتح صرة فيها سعد فنثرها على بدنه، ثم لم يخط خطوة إلا ذكر الله..

حتى إذا دنا من القبر قال: ألمسنيه، فألمسته.. فخرّ على القبر مغشيا عليه، فرششت عليه شيئا من الماء، فأفاق ثم قال: يا حسين ثلاثا، ثم قال: حبيب لا يجيب حبيبه، ثم قال: وأنى لك بالجواب وقد شحطت أوداجك على أثباجك، وفرق بين بدنك ورأسك، فأشهد أنك ابن النبيين، وابن سيد المؤمنين، وابن

---

(١) راجع مستدرك الوسائل (١٢/١٠٨).

حليف التقوى، وسليل الهدى، وخامس أصحاب الكساء، وابن سيد النقباء، وابن فاطمة سيدة النساء.

وما لك لا تكون هكذا وقد غذتك كف سيد المرسلين، وربيت في حجر المتقين، ورضعت من ثدي الإيمان، و فطمت بالإسلام، فطبت حيا وطبت ميتا، غير أن قلوب المؤمنين غير طيبة لفراقك ولا شاكة في الخيرة لك، فعليك سلام الله ورضوانه، وأشهد أنك مضيت على ما مضى عليه أخوك يحيى بن زكريا.

ثم جال ببصره حول القبر وقال: السلام عليكم أيها الأرواح التي حلت بفناء الحسين وأناخت برحله، أشهد أنكم أقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة، وأمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر، وجاهدتم الملحدين، وعبدتم الله حتى أتاكم اليقين..

ثم قال: (والذي بعث محمّداً بالحق، لقد شاركناكم فيما دخلتم فيه).

قال عطية: فقلت لجابر: وكيف؟ ولم نهبط واديا، ولم نعل جبلا، ولم نضرب بسيف، والقوم قد فرق بين رؤوسهم وأبدانهم، وأوتمت أولادهم، وأرملت الأزواج!!

فقال لي: يا عطية (سمعت حبيبي رسول الله ﷺ يقول: من أحب قوما حشر معهم، ومن أحب عمل قوم أشرك في عملهم، والذي بعث محمدا بالحق نبيا، إن نيتي ونية أصحابي على ما مضى عليه الحسين وأصحابه).

ثم قال: خذوا بي نحو أبيات كوفان فلما صرنا في بعض الطريق فقال لي: يا عطية (هل أوصيك!! وما أظن أنني بعد هذه السفرة ملاقيك، أحب محب آل محمد ما أحبّهم، وأبغض مبغض آل محمد ما أبغضهم وإن كان صواما قواما، وارفق بمحب آل محمد، فإنه إن تزل لهم قدم بكثرة ذنوبهم ثبتت لهم أخرى

بمحبتهم، فإن محبهم يعود إلى الجنة ومبغضهم يعود إلى النار)[١].

فجابر رحمه الله يرى نفسه شريكاً مع الشهداء الذين قتلوا بين يدي الإمام الحسين عليه السلام، ويرى أنّه تسنّم هذا السنام الأكبر والفخار الأعظم بنيّته الصادقة التي حلّت محلّ نفس العمل، بقلبه المليء بحبّ آل محمد صلى الله عليه وآله المعتقد فضلهم.

وربّما يكون رحمه الله قد سوّغ لنفسه أن يكون شريكهم عليه السلام لما صدر منه من قصدهم بالزيارة ومكابدة عناء السفر للتشرّف بالوقوف عليهم، وهذا عنوان مستقل تشير له الأخبار الصادقة ويصلح أن يؤهّل به إلى بلوغ هذه المرتبة السامية، فالزيارة تؤكّد نيّته الحسنة.

وهكذا تصنع النوايا الصادقة من الثواب والفضل، وتنهض فيها نهوض نفس العمل، وقد جاء في وسائل الشيعة بإسناد إلى مولانا الإمام الصادق عليه السلام: من بات عند قبر الحسين عليه السلام ليلة عاشوراء لقي الله ملطّخاً بدمه كأنّما قُتل معه في عرصة كربلاء[٢].

وأمّا الصعيد الخاص فقد بيّنت الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام مصاديق مختلفة للشهيد، ولعلّها فتحت بذلك باب الإنتساب لفضل الشهادة في عهد الغيبة والإنتظار وزمن جلوس المعصومين عليهم السلام عن التصدّي للجهاد والقتال في دار الظالمين رحمة من الله سبحانه بشيعتهم الأبرار الصّابرين المنتظرين، كفيضٍ من كرامته لهم.. فإذا ما أجلت النظر في أمهات مصادر الحديث عن أهل البيت عليهم السلام عثرت على عناوين عدة، فمنها المقتولون ومنها الميّتون.

---

(١) راجع بحار الأنوار (٩٨/٩٥) عن بشارة المصطفى.

(٢) راجع وسائل الشيعة (١٤/٤٧٧).

أمّا المقتولون الذين هم في مقام الشهيد فقد نصّت عليهم الروايات تحت عناوين عدّة، منها: من قتل دون مظلمته، ومن قتل في الدفاع عن ماله، ومن قتل في الدفاع عن عياله، وإليك بعض تلك الأخبار..

جاء في الكافي الشريف بالإسناد إلى أبي مريم عن الإمام محمد الباقر عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: من قُتل دون مظلمته فهو شهيد، ثم قال: يا أبا مريم، هل تدري ما دون مظلمته؟ قلتُ: جُعلت فداك، الرجل يُقتل دون أهله ودون ماله وأشباه ذلك، فقال: يا أبا مريم، إنّ من الفقه عرفان الحق[١].

وفيه أيضاً: عن الإمام زين العابدين عليه السلام أنّه قال: من اعتُدي عليه في صدقة ماله فقاتل فقُتل فهو شهيد[٢].

وفيه أيضاً: بالإسناد إلى محمد بن مسلم عن أحدهما عليهما السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: من قُتل دون ماله فهو شهيد، قال: وقال لو كنت أنا لتركتُ المال ولم أُقاتل[٣].

وفي تهذيب الأحكام: عن مولانا الإمام الصادق عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: من قُتل دون عياله فهو شهيد[٤].

وأمّا الميتون الذين هم في مقام الشهداء فقد نصّت عليهم الروايات تحت عناوين عدّة، منها: المؤمن، ومن مات على فراشه مؤمناً، ومن مات مريضاً، ومن مات مغتسلاً.

---

(١) راجع الكافي (٥/٥٢).

(٢) راجع الكافي (٥/٥٢).

(٣) راجع الكافي (٥/٥٢).

(٤) راجع التهذيب (٦/١٥٧).

في بحار الأنوار: مرفوعاً إلى مولانا علي بن الحسين عليه السلام عن أبيه عليه السلام عن جده أمير المؤمنين عليه السلام قال: المؤمن على أي حال مات وفي أي ساعة قبض فهو شهيد، ولقد سمعت حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إن المؤمن إذا خرج من الدنيا وعليه مثل ذنوب أهل الأرض لكان الموت كفارة لتلك الذنوب[١].

وروي في أمالي الطوسي بالإسناد إلى الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: كل مؤمن شهيد، وإن مات على فراشه فهو شهيد، وهو كمن مات في عسكر القائم عليه السلام، ثم قال: أ يحبس نفسه على الله ثم لا يدخل الجنة[٢].

وفي بحار الأنوار: عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: المريض في سجن الله ما لم يشك إلى عوّاده تمحى سيئاته، وأيّما مؤمن مات مريضا مات شهيداً، وكل مؤمن شهيد، وكل مؤمنة حوراء، وأي ميتة مات بها المؤمن فهو شهيد، وتلا قول الله جل ذكره ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾[٣][٤].

وروي في دعائم الإسلام عنهم عليهم السلام: من كانت به قروح أو علة يخاف منها على نفسه يتيمم، وكذلك إن خاف أن يقتله البرد إن اغتسل يتيمم، وإن لم يخف اغتسل، فإن مات فهو شهيد[٥].

---

(١) راجع بحار الأنوار (١٤٠/٦٥) عن تأويل الآيات الظاهرة.

(٢) راجع بحار الأنوار (١٤٥/٥٢) عن أمالي الطوسي.

(٣) سورة الحديد: الآية ١٩.

(٤) راجع بحار الأنوار (٢١١/٧٨) عن أمالي الطوسي.

(٥) راجع بحار الأنوار (١٦٨/٧٨) عن دعائم الإسلام.

الشّهيد الحجّة

عرفنا في هذه الدراسة الخاطفة معنى الشهيد إصطلاحاً، وعرفنا الذي نزّله الشارع منزلة الشهيد وخلع عليه مقامه، وبقي أن نعرف الشهيد الحجّة، وهو إمام الشهداء المقدّم على جميع أصنافهم، بل يظهر من الأخبار أنّ معنى شهادته فوق كل تلك المعاني التي رصفناها ووصفناها ورسمناها للشهيد، بل هو مشرِفٌ عليها، وهو الدخيل في تحقّقها والملاك في أصلها،..

إن هذا الشهيد الحجّة هو إمام الخلق الذي يسوقهم إلى جادة الصواب ويقودهم إلى الحق والهدى، المنصوب من قبل الله تعالى والمصطفى بأمره، والذي يأتي به الله تعالى يوم القيامة شهيداً على أمّته وجيله وعشيرته وأهله، فالأنبياء عليهم السلام شهداء على أممهم، والأئمة عليهم السلام شهداء على الأمم، ونبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله شاهد على كلّ الأمم والأنبياء والأئمة عليهم السلام..

قال تبارك وتعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيدًا﴾[1].

ومن مقتضيات هذه المنزلة الكريمة إختصاصها بالدّرجات العظيمة والمقامات الفاضلة، وقد أولاه الله تعالى وأكرمه بالشّفاعة الكبرى يوم القيامة، ويظهر الجليل شرف محلّه وكرامته العظمى على جميع الأنبياء والمرسلين عليهم السلام حيث المقام المحمود كما سيأتي..

فالشهيد بهذا المعنى هو حجّة الله عزّ وجل التي يحتجّ بها في الدنيا والآخرة، وبهذه السّعة فإنّه تصدق الحجيّة كذلك حتّى على القرآن الكريم، فهو حجّة على

---

(١) سورة النساء: الآية ٤١.

الخلق في الأمر والنهي والحكم، وهو كتاب الله في الأرض وكلامه الصادق الناطق، وأحكامه شاهدة للمؤمنين بالطاعة، كما أنّها شاهدة على المنتهكين بالمعصية، ولهذا فإنّ له صورة يحشر عليها ليخاصم عن نفسه ويشهد على المخاطبين به في دار التّكليف، فيشهد هناك على الأشقياء بالشقاوة والعذاب الأليم، ويشهد للسعداء بالسعادة والنعيم المقيم، وهم حملته وأهله العاملون به والمدافعون عنه في دار الدنيا..

جاء في الكافي الشريف:

عن سعد الخفاف عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: يا سعد تعلّموا القرآن، فإن القرآن يأتي يوم القيامة في أحسن صورة، نظر إليه الخلق والناس صفوف عشرون ومائة ألف صف، ثمانون ألف صف أمة محمد صلى الله عليه وآله، وأربعون ألف صف من سائر الأمم، فيأتي على صف المسلمين في صورة رجل فيسلّم، فينظرون إليه ثم يقولون: لا إله إلا الله الحليم الكريم، إن هذا الرجل من المسلمين نعرفه بنعته وصفته، غير أنه كان أشدّ اجتهاداً منّا في القرآن، فمن هناك أعطي من البهاء والجمال والنّور ما لم نعطه.

ثم يجاوز حتى يأتي على صف الشهداء فينظر إليه الشّهداء ثم يقولون: لا إله إلا الله الرب الرحيم، إن هذا الرجل من الشهداء نعرفه بسمته وصفته، غير أنه من شهداء البحر، فمن هناك أعطي من البهاء والفضل ما لم نعطه..

قال: فيجاوز حتى يأتي على صف شهداء البحر في صورة شهيد، فينظر إليه شهداء البحر فيكثر تعجّبهم، ويقولون: إن هذا من شهداء البحر نعرفه بسمته وصفته، غير أن الجزيرة التي أصيب فيها كانت أعظم هولاً من الجزيرة التي أصبنا فيها، فمن هناك أعطي من البهاء والجمال والنور ما لم نعطه..

ثم يجاوز حتى يأتي صف النبيين والمرسلين في صورة نبي مرسل، فينظر النبيون والمرسلون إليه فيشتد لذلك تعجّبهم، ويقولون: لا إله إلا الله الحليم الكريم، إن هذا لنبي مرسل، نعرفه بصفته وسمته، غير أنه أعطي فضلاً كثيراً..

قال: فيجتمعون فيأتون رسول الله ﷺ فيسألونه، ويقولون: يا محمد من هذا؟ فيقول: أ و ما تعرفونه؟

فيقولون: ما نعرفه، هذا ممن لم يغضب الله عليه.

فيقول رسول الله ﷺ: هذا حجة الله على خلقه.

فيسلم ثم يجاوز حتى يأتي صف الملائكة في صورة ملك مقرب، فينظر إليه الملائكة فيشتد تعجبهم ويكبر ذلك عليهم لما رأوا من فضله، ويقولون: تعالى ربنا وتقدس، إن هذا العبد من الملائكة نعرفه بسمته وصفته غير أنه كان أقرب الملائكة من الله عز وجل مقاماً، من هناك ألبس من النور والجمال ما لم نلبس..

ثم يجاوز حتى ينتهي إلى رب العزة تبارك وتعالى، فيخر تحت العرش فيناديه تبارك وتعالى: يا حجتي في الأرض وكلامي الصادق الناطق، إرفع رأسك وسل تعط واشفع تشفع، فيرفع رأسه..

فيقول الله تبارك وتعالى: كيف رأيت عبادي؟

فيقول: يا رب، منهم من صانني وحافظ عليّ ولم يضيع شيئا، ومنهم من ضيّعني واستخف بحقّي وكذب، وأنا حجتك على جميع خلقك.

فيقول الله تبارك وتعالى: وعزتي وجلالي وارتفاع مكاني لأثيبن عليك اليوم أحسن الثواب ولأعاقبن عليك اليوم أليم العقاب.

قال: فيرفع القرآن رأسه في صورة أخرى.

قال: فقلت له: يا أبا جعفر، في أي صورة يرجع؟

قال: في صورة رجل شاحب متغيّر، ينكره أهل الجمع.

فيأتي الرجل من شيعتنا الذي كان يعرفه ويجادل به أهل الخلاف فيقوم بين يديه فيقول: ما تعرفني!! فينظر إليه الرجل فيقول: ما أعرفك يا عبد الله.

قال: فيرجع في صورته التي كانت في الخلق الأول، فيقول: ما تعرفني!! فيقول: نعم.

فيقول القرآن: أنا الذي أسهرت ليلك وأنصبت عيشك وسمعت الأذى ورجمت بالقول فيّ، ألا وإن كل تاجر قد استوفى تجارته وأنا وراءك اليوم.

قال: فينطلق به إلى رب العزة تبارك وتعالى فيقول: يا رب، عبدك وأنت أعلم به قد كان نصباً بي، مواظباً علي، يعادي بسببي ويحب فيّ، ويبغض فيّ.

فيقول الله عز وجل: أدخلوا عبدي جنتي، واكسوه حلة من حلل الجنة، وتوّجوه بتاج، فإذا فعل به ذلك عرض على القرآن، فيقال له: هل رضيت بما صنع بوليّك؟ فيقول: يا رب، إني أستقل هذا له فزده مزيد الخير كله، فيقول وعزتي وجلالي وعلوي وارتفاع مكاني لأنحلن له اليوم خمسة أشياء مع المزيد له ولمن كان بمنزلته، ألا إنهم شباب لا يهرمون وأصحاء لا يسقمون وأغنياء لا يفتقرون وفرحون لا يحزنون وأحياء لا يموتون، ثم تلا هذه الآية: ﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولى﴾[1].

قلت: جعلت فداك يا أبا جعفر، وهل يتكلم القرآن؟

فتبسم، ثم قال: رحم الله الضعفاء من شيعتنا، إنهم أهل تسليم.

ثم قال: نعم يا سعد، والصلاة تتكلم ولها صورة وخلق، تأمر وتنهى.

---

(١) سورة الدخان: الآية ٥٦.

قال سعد: فتغير لذلك لوني، وقلت: هذا شيء لا أستطيع أتكلم به في الناس.

فقال أبو جعفر عليه السلام: وهل الناس إلاّ شيعتنا، فمن لم يعرف بالصلاة فقد أنكر حقنا، ثم قال: يا سعد، أسمعك كلام القرآن؟

قال سعد: فقلت: بلى، صلى الله عليك.

فقال: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللّهِ أَكْبَرُ﴾[1] فالنهي كلام والفحشاء والمنكر رجال ونحن ذكر الله ونحن أكبر[2].

وفي هذا الحديث الشريف فقه كثير ورشد عظيم، فإذا تأمّلت في الطوائف الذين غبطوا القرآن الكريم واستصغروا شأنهم عند شأنه وأنكروا معرفته فإنّهم أجلّ الطوائف وأعلاهم منزلة في الإسلام، وهم شهداء على الناس أيضاً، ومع هذا فهو شاهد عليهم، وفيهم المسلمون.. والشهداء.. وشهداء البحر الذين تفوق منزلتهم شهداء البر.. والنبيّون والمرسلون.. والملائكة الأبرار.. وفي سياق الخبر أنّه لم يعرفه من بينهم إلاّ نبيّنا صلى الله عليه وآله فليس فوق شموخ مقامه صلى الله عليه وآله مقام، وهو الشاهد المطلق، ولم يشهد القرآن الكريم ـ كما في الخبر ـ إلاّ لحملته الذين عانوا في سبيل حفظه والذبّ عنه.

ومن مقتضيات شهادة القرآن الكريم على العالمين مقام الشّفاعة، فالشّاهد هو الشافع المشفّع، وبهذا أكرمه الذي أعطاه وفضّله، لكنّ شفاعة القرآن مترشّحة عن شفاعة النبي الكريم صلى الله عليه وآله فالقرآن كتابه ومعجزته، وهو صاحب

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٤٥.

(٢) راجع بحار الأنوار (٣١٩/٧) عن كتاب الكافي.

المقام المحمود عند الله تعالى والجاه الكريم.. ففي تفسير القمي: بإسناده إلى أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن شفاعة النبي يوم القيامة؟

قال: يلجم الناس يوم القيامة العرق فيقولون انطلقوا بنا إلى آدم يشفع لنا عند ربه، فيأتون آدم فيقولون اشفع لنا عند ربك، فيقول: إن لي ذنبا وخطيئة فعليكم بنوح، فيأتون نوحا فيردهم إلى من يليه، ويردهم كل نبي إلى من يليه، حتى ينتهون إلى عيسى فيقول: عليكم بمحمد رسول الله صلى الله عليه وآله، وعلى جميع الأنبياء فيعرضون أنفسهم عليه ويسألونه فيقول: انطلقوا، فينطلق بهم إلى باب الجنة، ويستقبل باب الرحمن ويخر ساجدا، فيمكث ما شاء الله، فيقول الله عز وجل: ارفع رأسك، واشفع تشفع، وسل تعط، وذلك قوله: ﴿عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحمُوداً﴾[1][2].

فهو الشّاهد عليهم بأدق تفاصيل حياتهم في الحياة الدنيا، وهذا مقام خاص جدّاً، له دون سواه، وفي ذلك قوله: ﴿وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[3].

فهو شاهد على حالاتهم الدّقيقة بقدرة الله تعالى وإذنه، وقد دلّت كتب التفسير والحديث على ذلك بما لا مزيد عليه، وأكّدت عرض الأعمال عليه صلى الله عليه وآله، كما أنّ الأخبار دلّت على اشتراك الأئمة من ذريته عليه السلام معه صلى الله عليه وآله في ذلك، فلا يخفى عليهم من النّاس خافية، فهم عليهم السلام المؤمنون الأئمة الشّهداء على الناس في الدّنيا والآخرة، لا يفضلهم في ذلك إلاّ جدّهم النبي صلى الله عليه وآله.

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٧٩.

(٢) راجع بحار الأنوار (٨/٣٥) عن تفسير القمّي.

(٣) سورة التوبة: الآية ١٠٥.

وصريح الأخبار الواردة على إطّلاع أئمتنا عليهم السلام على غيب السرائر بإذن الله تعالى، فضلاً عن نبيّنا الكريم صلى الله عليه وآله، فإنّه الفاتح لهم أبواب الفضل، وهم شهود على النّاس بالطاعة والمعصية في الدنيا، شهداء عليهم في الآخرة..

فقد روى الصفّار في بصائر الدرجات بإسناده أنّه: جاء رجل إلى أبي عبد الله عليه السلام وكان له أخ جارودي، فقال له أبو عبد الله عليه السلام: كيف أخوك؟

قال: جعلت فداك خلفته صالحاً.

قال: وكيف هو؟

قلت: هو مرضي في جميع حالاته وعنده خير، إلاّ أنه لا يقول بكم.

قال: وما يمنعه؟

قلت: جعلت فداك، يتورع من ذلك.

فقال لي: إذا رجعت إليه فقل له أين كان ورعك ليلة نهر بلخ أن تتورع.

قال: فانصرفت إلى منزله، فقلت لأخي: ما كانت قصتك ليلة نهر بلخ، أ تتورع من أن تقول بإمامة جعفر عليه السلام ولا تتورع من ليلة نهر بلخ؟

قال: ومن أخبرك؟

قلت: إن أبا عبد الله عليه السلام سألني فأخبرته أنك لا تقول به تورعا، فقال لي قل له أين كان ورعك ليلة نهر بلخ.

فقال: يا أخي، أشهد أنه كذا (كلمة لا يجوز أن تذكر)..

قلت: ويحك، إتق الله، كل ذا، ليس هو هكذا.

فقال: ما علمه والله ما علم به أحد من خلق الله إلا أنا والجارية ورب العالمين. قلت: وما كانت قصتك؟

قال: خرجت من وراء النهر وقد فرغت من تجارتي وأنا أريد بلخ فصحبني

رجل معه جارية له حسناء حتى عبرنا نهر بلخ فأتيناه ليلا ، فقال الرجل مولى الجارية : إما أحفظ عليك وتقدم أنت وتطلب لنا شيئا وتقتبس ناراً أو تحفظ علي وأذهب أنا؟ فقلت : أنا أحفظ عليك واذهب أنت.

قال : فذهب الرجل وكنا إلى جانب غيضة ، فأخذت الجارية فأدخلتها الغيضة وواقعتها وانصرفت إلى موضعي ، ثم أتى مولاها فاضطجعنا حتى قدمنا العراق ، فما علم به أحد.

ولم أزل به حتى سكن ، ثم قال به ، وحججت من قابل فأدخلته إليه عليه السلام فأخبره بالقصة ، فقال : تستغفر الله ولا تعود واستقامت طريقته[١].

وقد تواتر النّقل بهذا المضمون في كثير من الأخبار ، وكتب المناقب زاخرة بنقل هذه الأخبار ، كما صرّحت أحاديث أخرى بكونهم عليهم السلام الشهداء على الخلق في الدنيا والآخرة ، والنبي الأكرم صلى الله عليه وآله هو الشهيد عليهم..

وروي في الكافي بالإسناد إلى الإمام الصادق عليه السلام : في قول الله عز وجل : ﴿فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً﴾[٢] قال : نزلت في أمة محمد صلى الله عليه وآله خاصة ، في كل قرن منهم إمام منا شاهد عليهم ، ومحمد صلى الله عليه وآله شاهد علينا[٣].

وفيه : عن بريد العجلي ، قال : قلت لأبي جعفر عليه السلام : قول الله تبارك وتعالى : ﴿وكَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ

---

(١) راجع بحار الأنوار (٤٧/ ٧٥) عن بصائر الدرجات.

(٢) سورة النساء : الآية ٤١.

(٣) راجع بحار الأنوار (٧/ ٢٨٣) عن الكافي.

الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾[١] قال: نحن الأمّة الوسط، ونحن شهداء الله تبارك وتعالى على خلقه وحججه في أرضه.

قلت: قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا واعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وجاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ هُوَ اجْتَباكُمْ﴾[٢].

قال: إيّانا عنى، ونحن المجتبون، ولم يجعل الله تبارك وتعالى في الدين من حرج، فالحرج أشدّ من الضّيق، ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ﴾[٣] إيّانا عنى خاصّة، ﴿وسَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾ الله سمّانا المسلمين من قبل في الكتب التي مضت وفي هذا القرآن، ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ﴾[٤] فرسول الله ﷺ الشهيد علينا بما بلّغنا عن الله تبارك وتعالى، ونحن الشهداء على النّاس، فمن صدّق يوم القيامة صدّقناه، ومن كذّب كذّبناه[٥].

ومن ذلك يُعلم معنى الحديث الشريف الوارد في خصوص مولاتنا الزهراء عليها السلام في الكافي بإسناده إلى علي بن جعفر عن أخيه أبي الحسن عليه السلام أنّه قال: إنّ فاطمة صدّيقة شهيدة.

ويتّضح بهذه المقدّمات المراد من كونها شهيدة، فإنّها كذلك وإن لم تقتل في المعركة، على أنّ حمل السلاح في الإسلام مقصور على الرّجال دون النساء أصلاً، لكنّ الحديث يشير إلى منزلة فوق منزلة الشهادة المصطلحة وإلى درجة

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٤٣.

(٢) سورة الحج: الآيتان ٧٧ و ٧٨.

(٣) سورة الحج: الآية ٧٨.

(٤) سورة الحج: الآية ٧٨.

(٥) راجع أصول الكافي (١/١٩١).

فوق هذه الدرجات، لأنّها حجّة الله تعالى على الخلق، وشاهد على الخلق في الدنيا والآخرة، كأبيها وبعلها وبنيها صلوات الله عليهم أجمعين، خصوصاً مع ضمّ كونها صدّيقة بالمفهوم القرآني.

وقد وردت هذه الرواية في حقّها عليها السلام في كثير من مصادر الخاصة المعتبرة، ومدلولاتها أكبر بكثير من هذا المختصر، والمفردتان الواردتان دالّتان على فضلها عليها السلام العظيم، فأمّا كونها صدّيقة فإنّه وصف يحاكي وصف السيدة مريم عليها السلام في القرآن الكريم: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾[1]، فالصدّيقية منزلة جليلة قد رصفها القرآن في عرض أعظم المنازل، ووسّطها بين النبوّة والشهادة، فقال: ﴿وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا﴾[2] وهي دالة على عصمتها عليها السلام من غير شكّ، الثابتة بآية التطهير والبراهين الأخرى.

وأما كونها شهيدة فهو مقام كريمٌ جدّاً، يفوق الإصطلاح قطعاً ويسمو على المعنى المتعارف كما تقدّم، فهي شاهدة على شيعتها بالإتّباع والمشايعة، وقد نصّت الروايات على أنّها إنّما سُميت فاطمة لأنّها فطمت شيعتها ومحبيها من النّار، وهي كذلك شاهدة على أعدائها بالظلم والجور، ممّن ظلمها وآذاها وأسخطها وأغضبها وأحرق بابها وهتك حماها وأسقطها جنينها وروّع ولدها وقاد بعلها وغصب إرثها، وشاهدة على من رضي بفعلهم إلى يوم القيامة، وهي

---

(١) سورة المائدة: الآية ٧٥.

(٢) سورة النساء: الآية ٦٩.

ظلامة صارخة قد أوردها المؤرّخون مستفيضة مفصّلة[١].

---

(١) قد إزدحمت المصادر الإسلامية بذكر هذه الظلامة الصّارخة، ولا بأس من إيراد بعضها ونحن في معرض الحديث عن ظلامة ولدها الشهيد عليه السلام، خصوصاً مع وجود من يهوى التشكيك بهذه المسلّمة، وطالما حاول الغرباء والقرباء وأد هذه الحقيقة، وسنكتفي بإيراد مصادر بعض عناوين الظلامة لضيق هذا المختصر، وسنقتصر على إيراد ضربها وإسقاط جنينها وكسر ضلعها.

أما ضرب مولاتنا الزهراء عليها السلام :

فقد ورد في الأمالي للصدوق: ص (٩٩ و ١٠١ و ١١٨)، وفي إثبات الهداة (١/٢٨٠ ـ ٢٨١)، وفي إرشاد القلوب للديلمي ص (٢٩٥)، وفي بشارة المصطفى ص (١٩٧ ـ ٢٠٠)، وفي الفضائل لابن شاذان ص (٨ ـ ١١)، وفي غاية المرام ص (٤٨)، وفي المحتضر ص (٤٤ ـ ٥٥)، وفي المناقب لابن شهر آشوب (٢/٢٠٩)، وفي وفاة الصديقة الزهراء للمقرم (٦٠ و ٧٨)، وفي تفسير العياشي (٢/٣٠٧ و ٣٠٨)، وفي البرهان في تفسير القرآن (٢/٤٣٤)، وفي كامل الزيارات ص (٣٣٢ و ٣٣٥)، وفي الهداية الكبرى: ص (١٧٩ و ٤٠٧ و ٤٠٨ و ٤١٧)، وفي حلية الأبرار (٢/٦٥٢)، وفي نوائب الدهور ص (١٩٤)، وفي فاطمة الزهراء بهجة قلب المصطفى (٢/٥٣٢)، وفي الاختصاص ص (١٨٥ و ١٨٤)، وفي المغني للقاضي عبد الجبار (٢٠/ ق ١ / ٣٣٥)، وفي الشافي للسيد المرتضى (٤/ ١١٠ و ١١٩ و ١١٧ و ١٢٠)، وفي نوادر الأخبار ص (١٨٣)، وفي علم اليقين ص (٦٨٦ - ٦٨٨)، وفي المنتخب للطريحي ص (١٣٦ و ١٣٧ و ٢٩٣)، وفي مؤتمر علماء بغداد ص (١٣٥ ـ ١٣٧)، وفي سيرة الأئمة الإثني عشر (١/١٣٢)، وفي الملل والنحل (١/٥٧)، وفي بهج الصباغة (٥/١٥)، وفي بيت الأحزان ص (١٢٤)، وفي الفرق بين الفرق ص (١٤٨)، وفي الخطط للمقريزي (٢/٣٤٦)، وفي الوافي بالوفيات (٦/١٧)، وفي شرح نهج البلاغة للمعتزلي (٢/٦٠) و (١٦/٢٣٥ و ٢٣٦ و ٢٧١)، وفي أعلام النساء (٤/١٢٤)، وفي الصراط المستقيم (٣/١٣)، وفي الأرجوزة المختارة ص (٨٨ ـ ٩٢)، وفي ديوان مهيار

←

(٣٦٧/٢ و ٣٦٨)، وفي أرجوزة في تواريخ النبي والأئمة ص (١٣ و ١٤)، وفي تراجم أعلام النساء (٣١٦/٢ و ٣١٧)، وفي الأنوار القدسية للأصفهاني ص (٤٢ ـ ٤٤)، وفي فرائد السمطين (٣٤/٢ و ٣٥)، وفي سليم بن قيس (٥٨٥/٢ و ٥٨٦ و ٥٨٧ و ٦٧٤ و ٦٧٥ و ٩٠٧)، وفي بحار الأنوار (٢٩٧/٢٨ ـ ٢٩٩ و ٢٦٨ ـ ٢٧٠ و ٢٦١ وهامش ص ٢٧١ أو ٢٨١ و ٣٧ ـ ٣٩ و ٥١ و ٣٢١ و ٦٢ و ٦٤) و (١٩٧/٤٣ ـ ٢٠٠ و ١٧٢ و ١٧٣) و (٣٥١/٩٥ و ٣٥٢ و ٣٥٤)، و (٢٩٣/٣٠ ـ ٢٩٥ و ٣٠٢ و ٣٠٣ و ٣٤٨ ـ ٣٥٠) و (١٤٩/٤٤) و (١٤/٥٣ ـ ١٩٢ و ٢٣ ـ ٢٩)، وفي العوالم (٤٠٠/١١ ـ ٤٠٤ و ٤١٤ و ٤١٦ و ٣٩١ و ٣٩٢ و ٤١٣ و ٣٩٧ و ٣٩٨ و ٤٤١ / ٤٤٣)، وفي الإحتجاج (٢١٠/١ ـ ٢١٦ و ٤١٤)، وفي مرآة العقول (٣١٩/٥ و ٣٢٠ و ٣١٨ و ٣٢١)، وفي ضياء العالمين (٢/ ق ٣ / ٦٠ ـ ٦٤)، وفي جلاء العيون للمجلسي (١٩٣/١ و ١٩٤ و ١٨٦ و ١٨٨ و ١٨٩ و ١٨٤)، وفي كامل البهائي (٣٠٦/١ و ٣١٢ و ٣١٣)، وفي حديقة الشيعة ص (٢٦٥ و ٢٦٦)، وفي روضة المتقين (٣٤٢/٥)، وفي تراجم أعلام النساء (٣٢١/٢)، وفي نوائب الدهور (١٥٧/١)، وفي ألقاب الرسول ﷺ وعترته ص (٣٩ و ٤٣)، وفي تلخيص الشافي (١٥٦/٣)، وفي النقض ص ٢٩٨ و ٣٠٢)، وفي اللوامع الإلهية في المباحث الكلامية ص (٣٠٢)، وفي مناظرة الغروي والهروي ص (٤٧ و ٤٨)، وفي الإمامة لابن سعد الجزائري ـ مخطوط ـ ص (٨١)، وفي الرسائل الإعتقادية للخواجوئي المازندراني ص (٤٤٤ و ٤٤٦)، وفي الحدائق الناضرة (١٨٠/٥)، وفي روضات الجنات (٣٥٨/١)، وفي التتمة في تواريخ الأئمة عليهم السلام ص (٢٨ و ٣٥ و ٣٩).

وأما إسقاط المحسن جنين الزهراء عليها السلام مع ذكر سبب الإسقاط:

فقد ورد في إثبات الوصية ص (١٤٣)، وفي الملل والنحل (٥٧/١)، وفي بهج الصباغة (١٥/٥)، وفي بيت الأحزان ص (١٢٤)، وفي الوافي بالوفيات (١٧/٦)، وفي شرح نهج البلاغة للمعتزلي (٦٠/٢) و (١٩٣/١٤) عن شيخه أبي جعفر النقيب، وفي الأرجوزة المختارة ص (٨٨ ـ ٩٢)، وفي المنتخب للطريحي ص (١٣٦ و ٢٩٣)، وفي أرجوزة الحر العاملي في تواريخ الأئمة ص (١٣ ـ ١٤) مخطوط، وفي تراجم أعلام النساء (٣١٦/٢ و

→

٣١٧)، وفي الأنوار القدسية ص (٤٢ ـ ٤٤)، وفي فرائد السمطين (٣٤/٢ و ٣٥)، وفي الأمالي للصدوق (٩٩ ـ ١٠١)، وفي إرشاد القلوب للديلمي ص (٢٩٥)، وفي جلاء العيون (١/ ١٨٤ و ١٨٥ و ١٨٦ ـ ١٨٨ و ١٩٣)، وفي بشارة المصطفى ص (١٩٧ ـ ٢٠٠)، وفي الفضائل لابن شاذان ص (٨ ـ ١١) تحقيق الأرموي، وفي غاية المرام ص (٤٨)، وفي المحتضر ص (١٠٩)، وفي إقبال الأعمال ص (٦٢٥)، وفي دلائل الإمامة ص (٤٥ و ٢٦ و ٢٧)، وفي مهج الدعوات ص (٢٥٧ و ٢٥٨)، وفي المصباح للكفعمي ص (٥٢٢ و ٥٥٣ و ٥٥٤)، وفي مسند الإمام الرضا للعطاردي (٦٥/٢)، وفي الإمامة لابن سعد الجزائري ـ مخطوط ـ ص (٨١)، وفي ضياء العالمين (٢/ق ٢/ ٦٢ و ٦٣ و ٦٤)، وفي طريق الإرشاد للخواجوئي المطبوع مع الرسائل الإعتقادية ص (٤٤٤ و ٤٤٦ و ٤٦٥)، وفي الرسائل الإعتقادية ص (٣٠١)، وفي الحدائق الناضرة (١٨٠/٥)، وفي تشييد المطاعن (١/ في أكثره فليراجع)، الصوارم الماضية ـ مخطوط ـ ص (٥٦)، وفي روضات الجنات (١/ ٣٥٨)، وفي تلخيص الشافي (١٥٦/٣ و ١٥٧)، وفي النقض ص (٢٩٨)، وفي اللوامع الإلهية في المباحث الكلامية ص (٣٠٢)، وفي مناظرة الغروي والهروي ص (٤٧ و ٤٨)، وفي نفحات اللاهوت ص (١٣٠)، وفي إحقاق الحق (٣٧٤/٢)، وفي سيرة الأئمة الاثني عشر (١٣٢/١)، وفي الصراط المستقيم (١٢/٣)، وفي كامل البهائي ص (٣٠٩)، و في التتمة في تواريخ الأئمة ص (٢٨)، وفي إثبات الهداة (٣٧٠/٢ و ٣٨٠ و ٣٨١ و ٣٦٠ و ٣٣٧ و ٣٣٨)، وفي مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب (٤٠٧/٣)، وفي بحار الأنوار (٣٩٣/٣) و(٣٧٣/٢٥) و (٣٠٨/٢٨ و ٣٠٩ و ٢٧١) و (١٩٢/٢٩ و ٢٩٤/٣٠ و ٢٩٥ و ٣٤٨ و ٣٥٠) و (٤١/٣٩ و ٤٢) و (٩١/٤٢) و (٢٣٧/٤٣ و ٢٣٣ و ١٧٠ و ١٧٢ و ١٧٣ و ١٩٧ ـ ٢٠٠) و (٢٦١/٨٢) و (٢٢٣/٨٣) و (١٩٩/٩٧ ـ ٢٠٠)، وفي عوالم العلوم (١١/ ٥٣٩ و ٤١١ و ٥٠٤ و ٣٩١ و ٣٩٢ و ٤٠٠ و ٤٠٤ و ٣٩٨ و ٤٤١ ـ ٤٤٣ و ٤١٤ و ٤١٦)، وفي المجدي في أنساب الطالبيين: ص (١٢)، وفي فاطمة الزهراء بهجة قلب المصطفى (٥٣٢/٢)، وفي نوائب الدهور ص (١٩٢ و ١٩٤)، وفي الإختصاص ص (٣٤٣ و ٣٤٤ و ١٨٤ و ١٨٥)، وفي كامل الزيارات ص (٣٢٦ و

→
٣٢٧ و ٣٣٢ و ٣٣٥)، وفي وفاة الصديقة الزهراء ص (٧٨)، وفي كتاب سليم بن قيس ص (٥٨٧ ـ ٥٩٠)، وفي الإحتجاج (١/ ٢١٠ ـ ٢١٦ و ٤١٤)، وفي مرآة العقول (٣١٩/٥ و ٣٢٠ و ٣٢١ و ٣١٨)، وفي كفاية الطالب ص (٤١٣)، وفي حديقة الشيعة ص (٢٦٥ و ٢٦٦)، وفي معاني الأخبار ص (٢٠٥ ـ ٢٠٧)، وفي الهداية الكبرى ص ١٧٩ و ١٨٠ و ٤١٧ و ٤٠٨)، وفي حلية الأبرار (٦٥٢/٢)، وفي البلد الأمين ص (٥٥١ و ٥٥٢)، وفي علم اليقين ص (٧٠١ و ٦٨٦ ـ ٦٨٨)، وفي روضة المتقين (٣٤٢/٥)، وفي تراجم أعلام النساء ص (٣٢١)، وفي نوادر الأخبار للفيض ص (١٨٣)، وفي مؤتمر علماء بغداد ص (١٣٥ ـ ١٣٧)، وفي البدء والتاريخ (٢٠/٥)، وفي فاطمة بنت رسول الله لعمر أبي النصر ص (٩٤)، وفي التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ص (٢٥ و ٢٦)، وفي منتهى الآمال (٢٦٣/١ و ٢٠١)، وفي التتمة في تواريخ الأئمة ص (٣٥)، مقتل الحسين للمقرم ص (٣٨٩)، وفي ميزان الاعتدال (١٣٩/١)، وفي لسان الميزان (٢٦٨/١)، وفي سير أعلام النبلاء (٥٧٨/١٥).

وأما كسر ضلع الزّهراء عليها السلام:

فقد ورد في فرائد السمطين (٣٤/٢ و ٣٥)، وفي الأمالي للصدوق ص (٩٩ ـ ١٠١)، وفي إرشاد القلوب للديلمي ص (٢٩٥)، وفي إثبات الهداة (٢٨٠/١ ـ ٢٨١)، وفي بشارة المصطفى ص (١٩٧ ـ ٢٠٠)، وفي الفضائل لابن شاذان (٨ ـ ١١)، وفي المصباح للكفعمي ص (٥٥٣)، وفي البلد الأمين ص (٥٥١ و ٥٥٢)، وفي علم اليقين ص (٧٠١)، وفي رشح البلاء في هامش المصباح ص (٥٥٥ و ٥٥٣)، وفي الرسائل الإعتقادية ص (٣٠١)، وفي طريق الإرشاد ص (٤٦٥)، وفي الصوارم الماضية ص (٥٦) مخطوط، وفي إقبال الأعمال ص (٦٢٥)، وفي بحار الأنوار (١٩٩/٩٧ و ٢٠٠) و (٢٦٨/٢٨ ـ ٢٧٠ و ٢٦١ و ٣٧ ـ ٣٩) و(١٧٢/٤٣ و ١٧٣) و (٢٦١/٨٢) و (٤٤/٩٨)، وفي سليم بن قيس ص (٥٨٦ ـ ٥٩٤ و ٩٠٧)، وفي العوالم (٤٠٠/١١ ـ ٤٠٤ و ٣٩١ و ٣٩٢)، وفي ضياء العالمين ـ مخطوط ـ (٢/ق ٦٣/٣ و ٦٤)، وفي الإحتجاج (٢١٠/١ ـ ٢١٦)، وفي جلاء العيون (١٨٦/١ ـ ١٨٨)، وفي مرآة العقول (٥/ ٣١٩ و ٣٢٠ و ٣١٨)، وفي أدب الطف

فالأئمة عليهم السلام شهداء على الناس وحجج على البرايا في كلّ حالاتهم، وهم كذلك حتى إن لم يقتلوا في ساحة المعركة، فمعنى شهادتهم فوق ذلك كلّه، ولا تعدل منزلتهم عليهم السلام منزلة مهما علت، إذ لم يسبقهم سابق ولا يلحقهم لاحق، وهم سادة الناس والبشر، وميّتهم سيّد الشهداء، فكيف إذا كان سيّد الشهداء هذا قتيلاً في سبيل الله بشرائط الشهيد الإصطلاحي!!

فهل يُوفّى حقّ مقامه بعبارة سيّد الشهداء!! أم أن هذا دون حقّه!! أم أن الكلمات والمفردات اللغوية على سعتها لا تسعفنا لتصوير جزءٍ من حقيقة هذا المقام السامي!! وأين الثرى من الثريّا!! وأين معنى شهادة الإمام الحسين عليه السلام من شهادة غيره!! ولقد صرّح المصطفى صلى الله عليه وآله في الرؤيا الحق التي رآها الإمام الحسين عليه السلام عند ضريحه بعالي الدرجات التي لن يبلغها إلاّ بالشهادة، وكأنّ

→

(٣٢/٤) في شعر علي بن المقرب و (٣٢٩/٥) في شعر الصالح الفتوني، وفي الأنوار القدسية ص (٤٢ ـ ٤٤).

وهناك العشرات من المصادر الأخرى بتفاصيل ظلامتها، من شهادتها ولطمها وأصابة عينها، وقد قام البحاثة الخبير العلاّمة السيد جعفر مرتضى العاملي بجهد مشكور في هذا الصّدد، بما لا يدع مجالاً للشكّ أو التردّد في إثبات شهادتها وظلامتها عليها السلام.. وليس بعد ذلك إلاّ تعصّب الجهل المقيت، والبعد عن الهدى والصواب، أجارنا الله تعالى من الضلالة والعمى، وهدانا إلى معرفتها عليها السلام ومعرفة أهل بيتها الطيبين عليهم السلام. ولقد تغنّي حافظ إبراهيم شاعر النيل بمجد الخليفة في قصيدته التي سمّاها عمر وعلي.. في ديوانه المطبوع (٨٢/١)، وترى في أبياته كما ترى في عبائر غيره كيف تنقلب المثالب إلى مناقب:

وقولة لعلي قالها عمر	أكرم بسامعها أعظم بملقيها
حرقت دارك لا أبقي عليك بها	إن لم تبايع وبنت المصطفى فيها
ما كان غير أبي حفص يفوه بها	أمام فارس عدنان وحاميها

حكمة الله تعالى قد اقتضت تكريمه بالشهادة المصطلحة على كونه شهيداً حجةّ، فيبلغ أعلى درجات هذه الشهادة الخاصة.

ولك أن تتأمّل في هذا النّص التاريخي المهم، وتتدبّر في عبائر المصطفى صلى الله عليه وآله في هذا الحوار الملكوتي الدائر بين الطرفين، فقد روى محمد بن أبي طالب الموسوي أنّه خرج الحسين عليه السلام من منزله ذات ليلة، وأقبل إلى قبر جده صلى الله عليه وآله وصلى ركعات، فلما فرغ من صلاته جعل يقول: اللهم هذا قبر نبيك محمد، وأنا ابن بنت نبيك، وقد حضرني من الأمر ما قد علمت، اللهم إني أحب المعروف وأنكر المنكر، وأنا أسألك يا ذا الجلال والإكرام بحق القبر ومن فيه إلاّ اخترت لي ما هو لك رضى ولرسولك رضى.

ثم جعل يبكي عند القبر، حتى إذا كان قريبا من الصبح وضع رأسه على القبر فأغفى، فإذا هو برسول الله قد أقبل في كتيبة من الملائكة عن يمينه وعن شماله وبين يديه، حتى ضم الحسين إلى صدره وقبّل بين عينيه، وقال: حبيبي يا حسين، كأني أراك عن قريب مرملا بدمائك مذبوحا بأرض كرب وبلاء من عصابة من أمتي، وأنت مع ذلك عطشان لا تسقى، وظمآن لا تروى، وهم مع ذلك يرجون شفاعتي لا أنالهم الله شفاعتي يوم القيامة، حبيبي يا حسين، إن أباك وأمك وأخاك قدموا علي وهم مشتاقون إليك (وإن لك في الجنان لدرجات لن تنالها إلا بالشهادة).

فجعل الحسين عليه السلام في منامه ينظر إلى جده ويقول: يا جدّاه لا حاجة لي في الرجوع إلى الدنيا، فخذني إليك وأدخلني معك في قبرك!!

فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: لا بد لك من الرجوع إلى الدنيا حتى ترزق

الشهادة، وما قد كتب الله لك فيها من الثواب العظيم، فإنك وأباك وأخاك وعمك وعم أبيك تحشرون يوم القيامة في زمرة واحدة حتى تدخلوا الجنة[1].

نبي الوفاء

إنّ هذه هي منزلة الشهيد الذي لم تدرك البشريّة إلاّ جزءً يسيراً من كرامته الكبرى، ومع هذا فقد احتلّ كلّ هذه المنزلة في النفوس حتّى عبّرت قوافل المحبين والشعراء عن وفائها للدّم النبوي الشّريف، ضمن وقفات الإنسان الإنسانيّة الموفّقة، تبعاً لوقفات معلّم الوفاء الأوّل في هذا المضمار، ألا وهو رسول الله ﷺ نفسه، الذي أبّن الشّهيد ورثاه وحكى محاسنه وبكى عليه، كانعكاس طبيعي للحس البشري العام عبر تعاقب أجياله..

فقد أخرج الإمام أحمد في المسند وغيره: أن رسول الله ﷺ لمّا رجع من أحد سمع نساء الأنصار يبكين على أزواجهن، فقال: لكن حمزة لا بواكي له، فبلغ ذلك نساء الأنصار فجئن يبكين على حمزة.

والحمزة بن عبد المطلب هو عمّ النّبي ﷺ الذي استشهد في غزوة أحد التي أبّن القرآن الكريم قتلاها تأبيناً خاصاً، إذ قال تعالى: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[2].

---

(١) راجع بحار الأنوار (٣٢٨/٤٤) عن كتاب محمّد بن أبي طالب.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٦٩.

ولا شكّ أن الحمزة عليه السلام عين هؤلاء المأبنين في الآية الشريفة وسيّدهم، إذ أنّه حاز لقب سيّد الشّهداء عن جدارة، ولا يزال قبره في مقدمة مزارات شهداء أحد في المدينة المنوّرة، وكان قد هاجر من مكة إلى المدينة ليلحق بابن أخيه النّبي صلى الله عليه وآله ويحضى بجواره وشرف نصرته، ولمّا استشهد سمع النّبي الكريم صلى الله عليه وآله أصوات النّساء تتصاعد على الشّهداء في بيوتهم إلاّ بيت عمّه سيّد الشّهداء عليه السلام فقال ما تقدّم.

وسرعان ما انتشر كلام النّبي الأعظم صلى الله عليه وآله وتحقّقت رغبته بمواساته بتكريم عمّه الشّهيد، فهرعت النّساء إلى بيت الحمزة، فأصبح البكاء على الشّهيد منذ ذلك الحين عادة جارية، وكان كل من يريد أن يبكي شهيداً يقصد بيت الحمزة ليبكيه أوّلاً، لأنّ النّبي صلى الله عليه وآله الذي اعتبر البكاء على الأموات طبيعة إنسانية هو الذي حثّ ورغّب في البكاء على الشّهيد على وجه الخصوص، وبالأخص على الشهيد من أهل بيته، وبما أنّ الحزن والبكاء انفعالان يقتضيان التفاعل والتناغم مع مبادئ الشهيد والتعاطف مع قضيته والتكهرب بموقفه البطولي الشجاع.. فإنّه أراد لأمّته أن تقتدي بعيبة المكارم ومستودع الفضائل من أهل بيته الكرام عليهم السلام متمثّلين أوّلاً بعمّه الحمزة بن عبد المطّلب عليه السلام، وأن تتفانى في حبّه وتتعلّق بذكره.

سيدا الشهداء

سيد الشّهداء الحمزة بن عبد المطّلب عليه السلام هو فارس حلبة الشهادة الأوّل في الإسلام، المندوب مع ندبة كلّ شهيد، والمتردّد اسمه مع اسم كلّ قتيل على مدى تاريخ حروب وغزوات النبي الكريم عليه السلام..

لقد كان هذا الوسام والإمتياز مختصّاً به ومنحصراً في شخصه الكريم حتّى جاءت مأساة عاشوراء بآهاتها وبأبعادها فاقتحمت لجج الضمائر، فاحتل الإمام الحسين بن علي عليه السلام مركز الذّروة في هذا المضمار، فعطاؤه يوم شهادته يأبى أن يقاس بعطاء كلّ الشهداء على مستوى تاريخ الدنيا، وهو الشخصية الأولى لأهل بيت النبي الطاهرين عليهم السلام في زمنه، والشخصيّة ذات السمات العظيمة المنحصرة فيه، والنسخة الفاضلة التي لن تتكرّر أبداً، فكان أن انتقل له لقب سيّد الشّهداء تلقائيّاً، فإذا أطلق اللقب عني به مولانا الإمام الحسين عليه السلام وانصرف له.

فالنسبة بينه عليه السلام وبين عمّه عليه السلام من جهة هذا اللقب الكريم كالنسبة بين أمّه الصدّيقة فاطمة الزهراء عليها السلام وبين الصدّيقة مريم عليها السلام من حيث سيادة النّساء، فإنّ مريم عليها السلام هي سيّدة النساء، لكنّها سيّدة نساء زمانها كما ورد عنهم عليهم السلام، أما مولاتنا الزهراء عليها السلام فإنّها سيّدة نساء العالمين من الأوّلين والآخرين.

ولقد كان البكاء على سيدنا الحمزة عليه السلام رمزاً للبكاء على الشّهيد، المعبّر عن الإنشداد للشهادة بأهدافها وأبعادها وعن الإرتباط بالبيت النبوي المجيد، ثم انتقلت هذه المكانة إلى سيدنا ومولانا الحسين عليه السلام كانتقال اللقب، إذ هو الرّمز الفرد الذي يبكى عليه عند الحزن على أي شهيد.

وفي الرواية عنه عليه السلام :

أو ســـــمعتم بشهـــــيد　　　　أو غريـــب فانـــدبوني

فالحمزة والحسين عليه السلام .. أو لنقل : الحسين والحمزة عليه السلام .. ثمرتا نبت النبوة والإمامة ، وغصنا شجرة البيت الرفيع ، وفرعا الدوحة الهاشمية الطيّبة ، وشهيدا أهل البيت عليهم السلام ، ومن بكاهما النبي صلى الله عليه وآله وحثّ على البكاء عليهما ، وهما سيدا الشهداء ، إذ أن هذا البيت المبارك هو القدوة في كلّ مكرمة ، والقربان الأوّل في تقديم الأضاحي الربّانية.

فهما يحكيان فروسية الفارس العربي الممارس ، وشجاعة البطل الكمي المشاكس ، ورباطة جأش الهاشمي الضيغم الصنديد ، ونخوة الحر الغيور الشهم ، وحميّة إباء الضيم والذلّة ، وموئل المعالي والشمم ، وهما رايتا الدين الحق والفداء ، وسيفا نصرة النبي الخاتم صلى الله عليه وآله ، وشهيدا الإسلام وسيدا الشهداء.

والكلام عنهما عليهما السلام له حلاوة الشهادة وريح الشمم ، والعُلقة بينهما مطّردة بالبسالة والشجاعة ، وإذا خضت غمار فضائل الحمزة عليه السلام ألفيت نفسك تتحدث عن بعض معالي الإمام الحسين عليه السلام وسموّ معانيه ، وأمّا إذا تحدثت عن الإمام الحسين عليه السلام ألفيت نفسك تتحدّث عن كل معاني السمو والمعالي.

ويشرّفني أن أصحبك قارئي الكريم في جولة روائية سريعة حول سيدنا الحمزة عليه السلام ، لترى كيف نتدّرج هذه الأخبار ومن غير إختيار تدرّجا منطقياً إلى سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام.

الحمزة بن عبد المطلب

اختص الحمزة عليه السلام بفضائل لم يلحقه بها شهيد في الإسلام، وكان له قصب السبق في ميدان الكرامة والبذل بين يدي النبي الكريم صلى الله عليه وآله، حتّى استحوذ على قلبه الكبير، فأولاه الوحي عناياته الخاصّة ولفت إليه الإنتباه، فهو صاحب الحميّة التي يحبّها الله تعالى، والحامي عن النبي صلى الله عليه وآله بما أوتي من هيبة وقوّة وسطوة، وهو سيّد الشّهداء المقدّمين في مجال التضحية والفداء بين يدي النبي صلى الله عليه وآله.

لقد سطّرت الكتب المعتبرة له عليه السلام كبريات الفضائل، وقد إجتبيت منها القليل ممّا ورد في كتابي الكافي الشريف ومستدرك الوسائل، وعرضت بين يديك عيون أخباره في تراثنا الشيعي.

فهو عمّ النبي صلى الله عليه وآله القريب من نفسه، إذ كان من بين تسعة أعمام له، وهم جميعاً على الترتيب: الحارث، والزبير، وحجل وهو الغيداق، وضرار وهو نوفل، والمقوم، وأبو لهب وهو عبد العزى، وأبو طالب، وحمزة، والعباس وهو أصغرهم سنّاً، وكان أبوه صلى الله عليه وآله عبد الله أكبر من أبي طالب عليه السلام، وكانوا من أمهات شتّى إلا عبد الله وأبو طالب، فإنهما كانا ابني أم، وأمهما فاطمة بنت عمرو بن عائذ، وأعقب منهم البنين أربعة، أبو طالب والعباس والحارث وأبو لهب..

ونجد بين الأحاديث ذكر بنتٍ للحمزة عليه السلام وقد خلّفها بعد شهادته، وينقل بعض أهل السيرة في خبر قافلة الفواطم التي خرج بها أمير المؤمنين عليه السلام من مكّة أنّ إحداهنّ كانت فاطمة بنت الحمزة، وفي أكثر من رواية أن أمير المؤمنين عليه السلام عرض على النبي صلى الله عليه وآله الزواج بابنة الحمزة، فردّ عليه بأنّها بنت أخيه، لأنّ الحمزة كان عمّه وفي نفس الوقت كان أخاه من الرضاع، ومن تلك النصوص الواردة

المروية عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال أمير المؤمنين عليه السلام : عرضت على رسول الله صلى الله عليه وآله ابنة الحمزة، فقال : أ ما علمت أنّها ابنة أخي من الرّضاع[1].

وكان النبيّ صلى الله عليه وآله له محبّا، حبّ العم والأخ والصديق والنّاصر، وكان إسمه من أحبّ الأسماء إلى نفسه، فقد جاء عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله، وُلد لي غلام، فماذا أُسمّيه؟ قال: سمّه بأحبّ الأسماء إليّ حمزة[2].

ولطالما كان صلى الله عليه وآله يتشوّق له ويذكره، كما يتشوّق ويذكر أخاه جعفراً الطيّار عليه السلام، وكم ظلّ قلبه عالقاً بهما حتّى قُبض، فإذا سنحت سانحة فمرّ ذكرهما في قلبه أو رآهما في رؤيا قصّ خبرها على أصحابه أنساً منه بذكرهما، وقد روي عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وآله قال له: رأيت فيما يرى النائم عمي حمزة بن عبد المطلب وأخي جعفر بن أبي طالب، وبين أيديهما طبق من نبق، فأكلا ساعة، فتحوّل العنب لهما رطباً، فأكلا ساعة، فدنوت منهما وقلت: بأبي أنتما، أيّ الأعمال وجدتما أفضل؟

قالا : فديناك بالآباء والأمهات، وجدنا أفضل الأعمال الصلاة عليك، وسقي الماء، وحب علي بن أبي طالب عليه السلام[3].

وكثيراً ما أعلن النبيّ صلى الله عليه وآله فضل عمّه وأذاع كرامته، وأنار البرهان ببيان مقامه السامي عند الله عزّ وجل، فقد روي عن الإمام الباقر عليه السلام أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: على قائمة العرش مكتوب حمزة أسد الله وأسد رسوله وسيّد

---

(١) راجع الكافي (٥/٤٣٧).

(٢) راجع الكافي (٦/١٩).

(٣) راجع المستدرك (٥/٣٣١) وبحار الأنوار (٢٢/٢٨٣).

الشّهداء، وفي ذؤابة العرش علي أمير المؤمنين.

وقد نزلت الآيات تترى في تشييد صدق إيمانه ورسوخ عقيدته، ولقد تأسّى رسول الله صلى الله عليه وآله والأئمة الطاهرون عليهم السلام بالقرآن الكريم في بيان بعض فضله الباذخ وتحمّلاته في جنب الله تعالى، ولقد ساوته الآيات في تحمّل عناء التكليف جنباً إلى جنب النبي صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام، فقد روي عن الإمام الباقر عليه السلام في قول الله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾[1] قال: نزلت في رسول الله صلى الله عليه وآله وعلي وحمزة وجعفر، وجرت في الحسين عليه السلام[2].

ولم يكن من السابقين الأوائل إلى الإسلام فقط، بل كان من أوائل المهتدين إلى مولانا أمير المؤمنين عليه السلام، وستعرف بعد قليل معنى هذه الهداية على التفصيل، فقد روي عن الإمام الصّادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلى صِراطِ الْحَمِيدِ﴾[3] قال: ذاك حمزة وجعفر وعبيدة وسلمان وأبو ذر والمقداد بن الأسود وعمّار، هدوا إلى أمير المؤمنين عليه السلام[4].

ولا شكّ أنّه بعد تلك المقامات قد حاز أزكى الأوسمة بشهادته في سبيل الله تعالى، فكان من خير الخلق بشهادة الصادقين، ولم يغب شخصه الكريم عن قلب أمير المؤمنين عليه السلام بعد سنين متمادية من شهادته، فقد ذكره يوم افتتح البصرة لّما ركب بغلة رسول الله صلى الله عليه وآله وقال: أيّها النّاس، ألا أخبركم بخير الخلق يوم يجمعهم الله!!.. حتّى قال: إنّ أفضل الخلق بعد الأوصياء الشهداء، ألا وإنّ

(١) سورة الحج الآية ٤٠.

(٢) راجع الكافي (٨/٣٣٧).

(٣) سورة الحج الآية ٣٤.

(٤) راجع الكافي (١/٤٢٦).

أفضل الشهداء حمزة بن عبد المطّلب وجعفر بن أبي طالب[١].

وكان قد بذل عليه السلام الغالي والنفيس ودافع دفاع المهيّمين العاشقين عن النبي صلى الله عليه وآله، وكانت له حميّة ما عهدها تأريخ النّاس في غيره من العرب، وكانت سبب نجاته وإسلامه..

فقد روي عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام قال: لم يدخل الجنة حمية غير حمية حمزة بن عبد المطلب، وذلك حين أسلم غضبا للنبي صلى الله عليه وآله في حديث السلى الذي ألقي على النبي صلى الله عليه وآله[٢].

وقد روى الكليني في الكافي حديث السَّلى هذا بالإسناد إلى الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: بينا النبي صلى الله عليه وآله في المسجد الحرام وعليه ثياب له جدد فألقى المشركون عليه سلى ناقة، فملأوا ثيابه بها، فدخله من ذلك ما شاء الله، فذهب إلى أبي طالب، فقال له: يا عم، كيف ترى حسبي فيكم؟

فقال له: وما ذاك يا ابن أخي؟ فأخبره الخبر، فدعا أبو طالب حمزة وأخذ السيف، وقال لحمزة: خذ السلى، ثم توجه إلى القوم، والنبي صلى الله عليه وآله معه، فأتى قريشاً وهم حول الكعبة، فلما رأوه عرفوا الشر في وجهه، ثم قال لحمزة أَمِرَّ السلى على سبالهم، ففعل ذلك حتى أتى على آخرهم، ثم التفت أبو طالب إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال: يا ابن أخي، هذا حسبك فينا[٣].

ولقد كان لمصرعه الأثر البالغ على المسلمين جميعاً، ولقد هوى على قلب رسول الله صلى الله عليه وآله هويّ الصاعقة، وهدّ مصرعه نفسه الكريمة، وخصوصاً أنّه وقف

---

(١) راجع الكافي (١/٤٥٠).

(٢) راجع الكافي (٢/٣٠٨)، وبحار الأنوار (٢٢/٢٨٣).

(٣) راجع الكافي (١/٤٤٩)، وبحار الأنوار (١٨/٢٣٩).

عليه ورآه وقد مُثّل به، وقد جاء في الخبر عن الإمام الصادق عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله صلّى عليه وكفّنه لأنّه قد جُرّد.

وفي الكافي الشريف عن أبي جعفر عليه السلام قال: دفن رسول الله صلى الله عليه وآله عمه حمزة في ثيابه بدمائه التي أصيب فيها، ورداه النبي صلى الله عليه وآله بردائه فقصر عن رجليه، فدعا له بإذخر فطرحه عليه، فصلى عليه سبعين صلاة، وكبر عليه سبعين تكبيرة[1].

وفي بعض الأخبار أنّ سيّدنا الحمزة عليه السلام هو أوّل شهيد يصلّي عليه النبي صلى الله عليه وآله، بل إنّ شهادته صارت سبباً لبلوغ الأمّة البركات بفرض الصلاة على أموات المسلمين أصلاً.

فقد روى الحضيني في الهداية عن عيسى بن مهدي، قال: خرجت أنا - وجماعة من الأصحاب وعدّهم - إلى سر من رأى في سنة تسع وخمسين ومائتين للتهنئة بمولد المهدي عليه السلام، فدخلنا على سيدنا أبي محمد عليه السلام ونحن نيف وسبعون رجلا، فهنّيناه وبكينا، فقال: إن البكاء من السرور من نعم الله تعالى مثل الشكر لها، فطيبوا أنفساً وقرّوا أعيناً..

إلى أن قال عليه السلام: وفي أنفسكم ما لم تسألوا عنه وأنا أنبئكم به، وهو التكبير على الميّت كيف يكون تكبيرنا خمسا وتكبير غيرنا أربعا؟

فقلنا: يا سيدنا هذا الذي أردنا أن نسألك عنه.

فقال عليه السلام: أول من صلى عليه من المسلمين منا حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله، فإنه لما قتل قلق رسول الله صلى الله عليه وآله وحزن وقل صبره عليه،

---

(١) راجع الكافي (٣/٢١١) وبحار الأنوار (٢٢/٢٨١).

فقال وكان قوله حقّاً: لأقتلن بكل شعرة من عمي حمزة سبعين رجلا من مشركي قريش، فأوحى الله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾(١) وإنما أحب الله تعالى أن يجعل ذلك سُنّة في المسلمين، لأنه لو كان قتل بكل شعرة من حمزة سبعين رجلا من المشركين ما كان يكون في قتلهم حرج.

وأراد دفنه وأحب أن يلقى الله مضرجاً بدمائه، وكان قد أمر الله أن يغسل موتى المسلمين، فدفنه بثيابه فصار سنة للمسلمين أن لا يغسل شهيدهم، وأمر الله أن يكبر عليه سبعين تكبيرة ويستغفر له ما بين كل تكبيرتين منها، فأوحى الله تعالى إليه أني قد فضّلت عمّك حمزة بسبعين تكبيرة لعظمته عندي وكرامته علي، وكبّر خمسا على كل مؤمن ومؤمنة، فإني أفرض على أمتك خمس صلوات في كل يوم وليلة أزوّده ثوابها وأثبت له أجرها(٢).

ولقد فقد النبي صلى الله عليه وآله بفقده الأخ النّاصر والعمّ المعين والفارس الصنديد الذي لا تأخذه في الله لومة لائم، فهو مجمع العدد والعدّة لجيشه في صدر الدعوة ومقتبل النهضة، والذي عليه المعوّل في إعزاز الدعوة والذبّ عن رموزها، ونستطيع أن نقول بثقة أنّ مقتله الأليم قد تسبّب في إنعطافة ظاهرة في مسرح الأحداث الإسلامية، ولو لم يعاجله الحتف لتغيّرت الكثير من مجريات الأمور الواقعة بعد شهادته، ولو كان هو وجعفر على قيد الحياة لما اضطر أمير المؤمنين عليه السلام إلى البيعة بعد مضي النبي صلى الله عليه وآله قطعاً، ولكانا له الناصر والردأ والحامي، ولقد صرّح بهذا الأئمة عليهم السلام في غير موطن.

---

(١) سورة النحل: الآية ١٢٦.

(٢) راجع بحار الأنوار (٧٨/٣٩٥).

ففي الكافي عن سدير قال: كنا عند أبي جعفر عليه السلام فذكرنا ما أحدث الناس بعد نبيّهم صلى الله عليه وآله واستذلالهم أمير المؤمنين عليه السلام فقال رجل من القوم: أصلحك الله، فأين كان عزّ بني هاشم، وما كانوا فيه من العدد!!

فقال أبو جعفر عليه السلام: ومن كان بقي من بني هاشم؟ إنّما كان جعفر وحمزة فمضيا، وبقي معه رجلان ضعيفان ذليلان حديثا عهد بالإسلام، عباس وعقيل، وكانا من الطلقاء، أما والله لو أن حمزة وجعفراً كانا بحضرتهما ما وصلا إليه، ولو كانا شاهديهما لأتلفا نفسيهما[١].

وروي في كشف المحجّة عن الرسائل للكليني عن أمير المؤمنين عليه السلام نفسه: قد كان رسول الله صلى الله عليه وآله عهد إليّ عهداً فقال: يا بن أبي طالب لك ولاء أمتي، فإن ولّوك في عافية وأجمعوا عليك بالرّضا فقم بأمرهم، وإن اختلفوا عليك فدعهم وما هم فيه، فإنّ الله سيجعل لك مخرجاً، فنظرت فإذا ليس لي رافد ولا معي مساعد إلاّ أهل بيتي، فضننتُ بهم عن الهلاك، ولو كان لي بعد رسول الله صلى الله عليه وآله عمي حمزة وأخي جعفر لم أبايع مكرهاً[٢].

لقد سخى سيّد الشّهداء بأغلى ما يملك في سبيل الله تعالى، وبذل جوهرة نفسه الغالية رخيصة أمام واهبها الكريم، فأعطاه الله بكرم ربّاني كرامة الدنيا والآخرة، وسيظهر الله تعالى للخلائق كرامته التي غمرها عليه يوم القيامة، حيث يكرّم الله تعالى نبيّه الكريم صلى الله عليه وآله وآل بيته الطيبين عليهم السلام، وقد أظهرت الأخبار الواردة في هذا الصّدد مقام الشفاعة الكبير الذي خصّ الله به محبّيه

---

(١) راجع الكافي (١٨٩/٨)، وبحار الأنوار (٢٨/٢٥١).

(٢) راجع مستدرك الوسائل (١١/٧).

الأبرار، وللك أن تتأمّل في هذه الرواية لتعلم كيف يحاكي مقام الإنسان في الآخرة أعماله في دار الدنيا.

جاء في تفسير الإمام العسكري عليه السلام أنّه قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنه ليرى يوم القيامة إلى جانب الصراط عالم كثير من الناس لا يعرف عددهم إلا الله تعالى، هم كانوا محبي حمزة، وكثير منهم أصحاب الذنوب والآثام، فتحول حيطان بينهم وبين سلوك الصراط والعبور إلى الجنة، فيقولون: يا حمزة قد ترى ما نحن فيه!! فيقول حمزة لرسول الله صلى الله عليه وآله ولعلي بن أبي طالب عليه السلام: قد تريان أوليائي يستغيثون بي!!

فيقول محمد رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي ولي الله عليه السلام: يا علي، أعن عمك على إغاثة أوليائه واستنقاذهم من النار، فيأتي علي بن أبي طالب عليه السلام إلى الرمح الذي كان يقاتل به حمزة أعداء الله في الدنيا فيناوله إياه، ويقول: يا عم رسول الله ويا عم أخي رسول الله، ذد الجحيم بالرمي عن أوليائك برمحك هذا كما كنت تذود به عن أولياء الله في الدنيا أعداء الله..

فيناول حمزة الرمح بيده، فيضع زجّه في حيطان النار الحائلة بين أوليائه وبين العبور إلى الجنة على الصراط، ويدفعها دفعة فينحيها مسيرة خمسمائة عام، ثم يقول لأوليائه والمحبين الذين كانوا له في الدنيا: أعبروا.. فيعبرون على الصراط آمنين سالمين، قد انزاحت عنهم النيران وبعدت عنهم الأهوال، ويردون الجنة غانمين ظافرين[1].

والشهيد من هذه الأسرة الكريمة يحتضي بشرف خاص دون سائر الشهداء

---

(١) راجع بحار الأنوار (٦٨/٨) عن تفسير الإمام العسكري عليه السلام.

قطعاً، فالقتيل منهم سيّد الشّهداء، ويقفُ وراء نيل سيدنا الحمزة بن عبد المطلب عليه السلام هذا الوسام الكبير سرٌ لطيف، فلقد آثر وأبلى والتزم إلتزاما ببيعته لرسول الله صلى الله عليه وآله، إذ أن المسلمين كانوا قد بايعوا النبي صلى الله عليه وآله على الصمود حتّى الشهادة يوم أحد، وتعهّد النبي صلى الله عليه وآله وضمن على الله للشهداء منهم المقام الكريم، وتعهّدوا له بعدم الفرار مهما كلّف الأمر..

وكان في أحد أن فرّوا من الزحف كما هو معروفٌ ومبيّن في كتب السيرة، بل وعادوا أدراجهم يجرّون أذيال الهزيمة إلى المدينة، وإستجاب أكثرهم لهتاف الشيطان وتخويفه وصدّقوا خبره، ممّا أضعف الجبهة وألان واجهتها وظهرها، فثبت سيدنا الحمزة عليه السلام في قلب المعركة، وصمد حتّى استشهد، وصمد معه ثلّة قليلة يتقدّمها مولانا أمير المؤمنين عليه السلام فقاتل حتّى جلى الكرب وحامى عن النبي صلى الله عليه وآله، وقد خلّد الله تعالى صمودهما بالكرامة الباقية..

وفي بحار الأنوار: روي عن أبي واثلة شقيق بن سلمة، قال: كنت أماشي عمر بن الخطّاب إذ سمعت منه همهمة، فقلت له: مه، ماذا يا عمر!! قال: ويحك أ ما ترى الهزبر القضم بن القضم، والضارب بالبهم، الشديد على من طغى وبغى بالسيفين والراية، فالتفت فإذا هو علي بن أبي طالب.

فقلت له: يا هذا، هو علي بن أبي طالب.

فقال: أدن مني أحدثك عن شجاعته وبطولته، بايعنا النبي يوم أحد على أن لا نفر، ومن فر منا فهو ضال، ومن قتل منا فهو شهيد والنبي زعيمه، إذ حمل علينا ماءة صنديد، تحت كل صنديد ماءة رجل أو يزيدون، فأزعجونا عن طحوننتنا، فرأيت عليّاً كالليث يتقي الذر، وإذ قد حمل كفا من حصى فرمى به في وجوهنا، ثم قال شاهت الوجوه وقطت وبطت ولطت، إلى أين تفرون، إلى

النار، فلم نرجع، ثم كرّ علينا الثانية وبيده صفيحة يقطر منها الموت.

فقال: بايعتم ثم نكثتم، فو الله لأنتم أولى بالقتل ممن قتل، فنظرت إلى عينيه كأنهما سليطان يتوقدان ناراً، أو كالقدحين المملوين دماً، فما ظننت إلاّ ويأتي علينا كلنا، فبادرت أنا إليه من بين أصحابي فقلت: يا أبا الحسن الله الله، فإن العرب تكرّ وتفر، وإن الكرة تنفي الفرة، فكأنه عليه السلام استحيا فولى بوجهه عني، فما زلت أسكّن روعة فؤادي، فوالله ما خرج ذلك الرعب من قلبي حتى الساعة[1].

لقد صرّح المؤرّخون أنّه لم يبق مع رسول الله صلى الله عليه وآله في أحد إلاّ أبو دجانة الأنصاري، وسماك بن خرشة، وأمير المؤمنين عليه السلام، فكلّما حملت طائفة على رسول الله صلى الله عليه وآله استقبلهم أمير المؤمنين عليه السلام فدفعهم عنه وقتلهم حتى انقطع سيفه، ولقد أسلمه الباقون إلى الهلكة، ولقد قاتل سيدنا الحمزة عليه السلام قتال من عاف الحياة، حتّى حطم الرؤوس وأطار الأيدي، وثبت رابط الجأش حتّى استشهد كريماً..

ثم أطلق النبيّ صلى الله عليه وآله بعد عودته إلى المدينة أمره بالبكاء عليه وأقرّ ندبته، ليبقى يومه خالداً على تصرّم الأيام والليالي..

ففي مسكّن الفؤاد: لما انصرف النبي صلى الله عليه وآله من أحد إلى المدينة لقيته جهينة بنت جحش فنعى لها الناس أخاها عبد الله بن جحش فاسترجعت واستغفرت، ثم نُعي لها خالها فاسترجعت واستغفرت، ثم نعي لها زوجها مصعب بن عمير فصاحت وتأوهت، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن زوج المرأة منها لبمكان، لما رأى

---

(١) راجع بحار الأنوار (٢٠/٥٢).

صبرها عن أخيها وخالها وصياحها على زوجها.

ثم مرّ رسول الله ﷺ على دار من دور الأنصار من بني عبد الأشهل، فسمع البكاء والنوائح على قتلاهم، فذرفت عيناه وبكى.. ثم قال: لكن حمزة لا بواكي له!!

فلما رجع سعد بن معاذ وأسيد بن حصين إلى دار بني عبد الأشهل أمر نساءهم يذهبن فيبكين على عم رسول الله ﷺ، فلما سمع رسول الله ﷺ بكاءهن على حمزة خرج إليهن وهن على باب مسجده يبكين فقال لهن رسول الله ﷺ: إرجعن يرحمكن الله، قد واسيتن بأنفسكن[1].

وبأدنى تأمّل يظهر لنا من خلال هذا الحديث النّوري مدى سرور النبي ﷺ بالتفاعل مع أحزانه الكبرى، ولا يبقى مجال للشكّ بعد ذلك في كون البكاء على الشهداء من أهل بيته الطيبين عليهم السلام من أجلى صور السّلوة والعزاء له ﷺ، وإذا تأمّلت في آخر الخبر تجلّى شعاع نوري آخر، إذ إعتبر النبي ﷺ بكاء النساء على عمّه مواساة منهنّ له بالنفس!!

وهذه لفتة تدعونا إلى التفكّر والتدبّر.. بعد الجزم بأنّه قد أمر روحي فداه بالندبة على عمّه، ولقد استمر أهل المدينة في ندبته عند فقد أيّ شهيد، ويحكى أنّه اطّردت هذه العادة واستمرت عند أهل المدينة إلى وقت قريب بندبته عند البكاء على أمواتهم، وقد ذكرنا ذلك..

وكم يعطي الحزين من نفسه حين ينثر لواعج أشجانه وكوامن أحزانه فينقلها من صفحة الضمير إلى ظاهر الأعضاء والملامح، فهو ينقل بأماقيه وأنّاته الكوامن

---

(١) راجع مسكن الفؤاد ص (١٠٨)، وعنه بحار الأنوار (٩٢/٧٩).

في خلجات النفس من التأثّر والإنفعال، وفي مقامنا هو بذلٌ يستحقّ التكريم، لأنّه حزن مأمورٌ به محبوبٌ عند الله تعالى، وقد تعدّدت العناوين لرجحانه كما ترى، فهو على مصاب جليل من مصائب أهل البيت عليهم السلام ولا بدّ أن يحلّ هذا البذل محل الرضا والقبول عند الكريم صلى الله عليه وآله والأكرمين من أهل بيته عليهم السلام!! فيتجلّى من بعد وجه من وجوه مراد النبي صلى الله عليه وآله من مواساة النفس!!

خصوصاً وأنّهم قد اتخذوا هذا المصاب شعاراً لأحزانهم لفترة طويلة جدّاً، وقد بقي ذكر سيّدنا الحمزة عليه السلام حاضراً في مجالس رثائهم ومحافل تعزيتهم، ولم تخلُ قصائد الرثاة من ذكره إلاّ نادراً..

ففي الكافي الشريف: بالإسناد إلى عبد الله بن إبراهيم بن محمد الجعفري قال: أتينا خديجة بنت عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام نعزّيها بابن بنتها، فوجدنا عندها موسى بن عبد الله بن الحسن، فإذا هي في ناحية قريباً من النساء فعزيناهم، ثم أقبلنا عليه فإذا هو يقول لابنة أبي يشكر الرّاثية قولي، فقالت:

أعدد رسول الله واعدد بعده ... أسد الإله وثالثاً عبّاسا
واعدد علي الخير واعدد جعفراً ... واعدد عقيلاً بعده الرؤّاسا

فقال: أحسنت وأطربتيني، زيديني، فاندفعت تقول:

ومنّا إمام المتّقين محمّد ... وحمزة منّا والمهذب جعفر
و منا علي صهره وابن عمه ... وفارسه ذاك الإمام المطهّر

فأقمنا عنده حتى كاد الليل أن يجيء، ثم قالت خديجة: سمعت عمي محمد بن علي عليه السلام وهو يقول: إنما تحتاج المرأة في المأتم إلى النوح لتسيل دمعتها، ولا ينبغي لها أن تقول هجراً، فإذا جاء الليل فلا تؤذي

الملائكة بالنوح[١].

ومن تكريم الشهيد في الإسلام تكريم ضريحه وقبره الذي يضمّ رفاته المتشحّط بدمه الطيّب، ليؤمّه المحبّون والمتبرّكون، كي يستافوا عبق التضحية وشذى الكرامة وطيب العزّة، وبما أن الحمزة عليه السلام كان الشهيد القدوة، فإنّ النبي صلى الله عليه وآله قد سنّ زيارة قبره الشريف تعظيماً له وتشريفاً وتخليداً لذكره، وأوصى بزيارته أيّما وصيّة، فقال صلى الله عليه وآله: من زارني ولم يزر عمّي حمزة فقد جفاني[٢].

وقال الإمام الصادق عليه السلام لّما سئل عن مساجد المدينة: .. ثم مررت بقبر حمزة بن عبد المطلب فسلّمت عليه، ثم مررت بقبور الشهداء فقمت عندهم فقلت: السلام عليكم يا أهل الديار، أنتم لنا فرط، وإنا بكم لاحقون[٣].

وفيه عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: ومن المشاهد بالمدينة التي ينبغي أن يُؤتى إليها وتُشاهد ويُصلّى فيها ويُتعاهد مسجد قباء، وهو المسجد الذي أسس على التقوى، ومسجد الفتح، ومشربة أم إبراهيم، وقبر حمزة، وقبور الشهداء[٤].

وقد تعزّزت هذه السنّة الأكيدة بفعل الحجج الطّاهرين عليهم السلام، ومعروفٌ أنّ الوقوف على قبره والجلوس عنده من المنقولات الأكيدة عن سيدتنا ومولاتنا الزهراء عليها السلام، وهي الحجّة على الخلق.

فعن مولانا الإمام الباقر عليه السلام: كانت فاطمة صلوات الله عليها تزور قبر

---

(١) راجع الكافي (١/٣٥٨)، وبحار الأنوار (٤٧/٢٧٨).

(٢) راجع المستدرك (١٠/١٩٨).

(٣) راجع بحار الأنوار (٩٧/٢١٤).

(٤) راجع بحار الأنوار (٩٦/٣٧٩).

حمزة، وتقوم عليه، وكانت في كل سنة تأتي قبور الشهداء مع نسوة معها فيدعون ويستغفرون(١).

وتعدّت النصوص الشريفة إلى تقديس تربته الشريفة بعد أن نصّت على زيارته، فقد شرّف الله به ذلك التراب الطيّب، وطهّره وجعله محلاً للبركات والرحمة، وقد تقرّبت أم الحجج الطّاهرين عليهم السلام إلى الله تعالى بتربته الشريفة، وجاء في مرويّاتنا أن الزهراء عليها السلام كانت تسبّح الله سبحانه بسبحة صنعتها من تربته الشريفة، حتّى تكون القربة إلى الله تعالى مشفوعة بمعنى العطاء في سبيله، وقد تركّز هذا المفهوم العالي في ذهنية المؤمنين، حتى إذا حاز مولانا سيّد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام سيادة الشهداء عدلوا إلى تربته الزاكية المطهّرة، بتقرير من الحجج الطّاهرين عليهم السلام وتأسيس من سيّدة النساء والحجّة على الناس أجمعين عليهم السلام.

ففي مكارم الأخلاق، وفي المزار الكبير، عن مولانا الإمام الصّادق عليه السلام: أنّ فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله كانت سبحتها من خيط صوف مفتل معقود عليه عدد التكبيرات، فكانت عليها السلام تديرها بيدها تكبر وتسبح إلى أن قتل حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه سيد الشهداء فاستعملت تربته، وعملت التسابيح فاستعملها الناس، فلما قتل الحسين صلوات الله عليه عدل بالأمر إليه فاستعملوا تربته لما فيها من الفضل والمزية(٢).

وفي رواية أنّه سئل أبو عبد الله عليه السلام عن استعمال التربتين من طين قبر حمزة والحسين والتفاضل بينهما، فقال عليه السلام: السبحة التي من قبر الحسين عليه السلام تسبح

---

(١) بحار الأنوار (١٦٩/٧٩).

(٢) بحار الأنوار (٣٣٣/٨٢).

بيد الرجل من غير أن يسبّح[١].

وروي: أن الحور العين إذا أبصرن بواحد من الأملاك يهبط إلى الأرض لأمر ما يستهدين منه السبح والتراب من طين قبر الحسين عليه السلام[٢].

وروي: من سبح بسبحة من طين قبر الحسين عليه السلام تسبيحة كتب الله له أربعمائة حسنة ومحا عنه أربعمائة سيئة وقضيت له أربعمائة حاجة ورفع له أربعمائة درجة، ثم قال: وتكون السبحة بخيوط زرق أربعا وثلاثين خرزة، وهي سبحة مولاتنا فاطمة الزهراء لما قتل حمزة عليه السلام عملت من طين قبره سبحة تسبح بها بعد كل صلاة[٣].

وليست بعد هذه الكرامة كرامة، فلقد خصّ الله شهداء آل محمّد صلى الله عليه وآله بمنزلة فاقوا بها جميع الشّهداء في تاريخ الدنيا، وجعل تربتهم مهبط البركات ومعراج الكرامات، وهم مع ذلك يتفاضلون، إلاّ أن كل كرامة للحمزة عليه السلام ثبتت بطريق أولى لمولانا الإمام الحسين عليه السلام، فالندبة التي أمر بها النبي صلى الله عليه وآله لعمّه وأقرّها أمر بها وأقرّها لولده، فالمناط واحد، و في ولده القتيل أتم وأبلغ، كما أن فضل ولده أكبر وأعظم كما هو مسلّم، وقد علم الناس بالوجدان ذلك، فعدلوا من تربة الحمزة عليه السلام إلى تربة الإمام الحسين عليه السلام.

إن هذه خصوصيات ليست إلاّ لشهداء آل محمد صلى الله عليه وآله، فلا يلحقهم في فضلهم لاحق من شهداء المسلمين مهما علا كعباً وتسامى منزلة، وهذا مبدأٌ مؤكّد كان يفتخر به مولانا أمير المؤمنين عليه السلام فهو الذي يقول في إحدى روائعه

---

(١) بحار الأنوار (٨٢/٣٣٣).

(٢) بحار الأنوار (٨٢/٣٣٣).

(٣) بحار الأنوار (٨٢/٣٤١).

من نهج البلاغة في كتاب كتبه إلى معاوية : إن قوما استشهدوا في سبيل الله من المهاجرين، ولكل فضل، حتى إذا استشهد شهيدنا قيل سيد الشهداء!! وخصه رسول الله ﷺ بسبعين تكبيرة عند صلاته عليه!! أو لا ترى أن قوما قطعت أيديهم في سبيل الله؟ ولكل فضل، حتى إذا فعل بواحدنا كما فعل بواحدهم قيل الطيار في الجنة وذو الجناحين!![١].

ولسنا نتردّد في تقديم الإمام الحسين عليه السلام وتفضيله على عمّه الحمزة عليه السلام ونحن في غنى عن تجشّم القول لإثبات ذلك، ويكفي أن نلمّ بذلك إلماماً سريعاً، فالإمام الحسين عليه السلام إمام عمّه وحجّة الله عليه، ودائرة فضل الحمزة عليه السلام لا تشمل أيّ واحد من الحجج الطّاهرين عليهم السلام قطعاً.

ففي إكمال الدين بإسناد يرفعه إلى سلمان قال: قال النبي ﷺ لفاطمة: شهيدنا سيد الشهداء وهو حمزة بن عبد المطلب، وهو عم أبيك.

قالت: يا رسول الله، وهو سيّد الشّهداء الذين قتلوا معك؟

قال: لا، بل سيد شهداء الأولين والآخرين، ما خلا الأنبياء والأوصياء، وجعفر بن أبي طالب ذو الجناحين الطيار في الجنة مع الملائكة[٢].

فتأمّل في قوله عليه السلام: (سيّد شهداء الأولين والآخرين، ما خلا الأنبياء والأوصياء) لتعرف دائرة فضله ومحيطها، إذ لا يمكن أن نفضّل سيّد الشهداء عليه السلام على الأنبياء والأوصياء.. فكيف إذا كان وصيّ محمّد خير الأنبياء ﷺ!! أم كيف إن كان من أصحاب الكساء!! أم كيف إن كان ـ مع هذا ـ شهيداً

---

(١) راجع الكتاب رقم (٢٨) من نهج البلاغة.

(٢) بحار الأنوار (٢٢/٢٨٠).

مظلوماً!! بل كيف إذا قُتل صبراً وقضى عطشاناً غريبا!! أم كيف إذا فُني كلّ أهله وعياله وأصحابه في يوم واحد!! وسيق أهله سبايا بعده!!

فالإمام الحسين عليه السلام كما أسلفت هو الإمام والحجّة على جميع الشهداء والصديقين، وبما فيهم عمّه الحمزة عليه السلام، وإذا صحّت نسبة بينه وبين عمّه فهي نسبة شخصه الشريف إلى أخيه قمر بني هاشم العبّاس بن أمير المؤمنين عليه السلام.

ومع صياغة المطلب ننتهي إلى أنّ الشهيد اصطلاحاً هو القتيل بين يدي الإمام الميّت في المعركة، وقد استشهد الحمزة عليه السلام بين يدي إمام حجة هو النبي صلى الله عليه وآله.. وكلّ الشهداء المقتولين في نفس المعركة يشتركون معه في هذا العنوان، إلاّ أنّه أفضلهم من غير شكّ، إذ ورد النص بتفضيله عليهم بكونه سيّد الشهداء، فغاية فضيلته هي دون فضل الإمام والحجّة عليه، ولا تساوغ شهادته شهادة إمامه قطعاً..

مضافاً إلى أنّ معنى شهادة الإمام الحسين عليه السلام تختلف أصلاً عن معنى الشهادة المصطلح، وإن صدق الاصطلاح بكلّ شرائطه عليه، لكنّنا نعني بها كونه الشهيد الإمام الحجّة، فهو الشهيد الحجّة على العالمين في الدنيا والآخرة، ولا يمكن قياس أحد عليه.

ولقد دلّت آثارنا المعتبرة على معرفة سيدنا الحمزة عليه السلام بالإمام الحسين عليه السلام معرفة تفصيلية تامّة، وقد لقّنه النبي صلى الله عليه وآله إمامته وإمامة أبيه عليه السلام ليلة شهادته لتتم له بمعرفتها أرفع الدرجات، وهذا من أسرار مقامه العظيم لمن تأمّل وتدبّر، إذ وُفّق لمعرفتهم عليهم السلام وشرح الله صدره لقبولهم والتسليم لأمرهم، وقد يُفهم من فعل النبي صلى الله عليه وآله أنّ من كان في مثل مقام عمّه عليه السلام فهو مكلّف بمعرفة حجج ربّه في زمانه وفي غير زمانه، فهم أئمّته وإن لم يدركهم، كما في آدم عليه السلام

وإبراهيم عليه السلام الذين عُلّما أسماءهم الشّريفة.

روي في كتاب الطرف للسيد ابن طاوس رحمه الله نقلا من كتاب الوصية، عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام عن أبيه عليه السلام قال:

لما هاجر النبي صلى الله عليه وآله إلى المدينة وحضر خروجه إلى بدر دعا الناس إلى البيعة فبايع كلهم على السمع والطاعة وكان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا خلا دعا عليّاً فأخبره من يفي منهم ومن لا يفي ويسأله كتمان ذلك، ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وآله عليّاً وحمزة وفاطمة عليهما السلام فقال لهم: بايعوني بيعة الرضا!!

فقال حمزة: بأبي أنت وأمّي، على ما نبايع؟ أ ليس قد بايعنا!!

فقال: يا أسد الله وأسد رسوله، تبايع لله ولرسوله بالوفاء والاستقامة لابن أخيك، إذن تستكمل الإيمان.

قال: نعم، سمعاً وطاعة.

وبسط يده، فقال لهم: يد الله فوق أيديكم، علي أمير المؤمنين عليه السلام وحمزة سيد الشهداء، وجعفر الطيار في الجنة، وفاطمة سيدة نساء العالمين، والسبطان الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، هذا شرط من الله على جميع المسلمين من الجن والإنس أجمعين ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفى بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾[١] ثم قرأ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ﴾[٢].

قال: ولما كانت الليلة التي أصيب حمزة في يومها دعا به رسول الله صلى الله عليه وآله

---

(١) سورة الفتح: الآية ١٠.

(٢) سورة الفتح: الآية ١٠.

فقال: يا حمزة، يا عم رسول الله، يوشك أن تغيب غيبة بعيدة، فما تقول لو وردت على الله تبارك وتعالى وسألك عن شرائع الإسلام وشروط الإيمان؟

فبكى حمزة، وقال: بأبي أنت وأمي أرشدني وفهّمني؟..

فقال: يا حمزة، تشهد أن لا إله إلا الله مخلصاً، وإني رسول الله تعالى بالحق.

قال حمزة: شهدت.

قال: وأن الجنة حق، وأن النار حق، ﴿وأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها﴾[1] وأن الصراط حق، والميزان حق ﴿فمن يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يرَهُ﴾[2]، ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾[3] وأن علياً أمير المؤمنين.

قال حمزة: شهدت وأقررت وآمنت وصدّقت.

وقال: الأئمة من ذرّيته، الحسن والحسين وفي ذريته.

قال حمزة: آمنت وصدّقت.

وقال: فاطمة سيدة نساء العالمين.

قال: نعم، صدّقت.

وقال: حمزة سيد الشهداء، وأسد الله وأسد رسوله وعم نبيه.. فبكى حمزة حتى سقط على وجهه، وجعل يقبّل عيني رسول الله ﷺ.

---

(١) سورة الحج: الآية ٧.

(٢) سورة الزلزلة: الآيتان: ٧ و ٨.

(٣) سورة الشورى الآية ٧.

وقال: جعفر ابن أخيك طيار في الجنة مع الملائكة، وإن محمدا وآله خير البرية، تؤمن يا حمزة بسرهم وعلانيتهم، وظاهرهم وباطنهم، وتحيا على ذلك وتموت، توالي من والاهم، وتعادي من عاداهم.

قال: نعم يا رسول الله، أُشهد الله، وأشهدك ﴿وكَفى بِاللّهِ شَهِيداً﴾[١] فقال رسول الله ﷺ: سدّدك الله ووفقك[٢].

سيّد شهداء الإنسانية

منتهى المطلب، ومآل حديث الشهادة والفضيلة هو سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام، فهو فارس هذين الميدانين الجليلين بلا منازع، فمهما إنعطف بك الطريق أوصلك إلى هذه الحتميّة المسلّمة، التي تتجدّد على كرور الليالي والأيّام، وتتضوّع نشراً وعبقاً وأريجاً مع كلّ إطلالة شهيد معظّم.

ومن منطلقات ومبادئ عدّة يتربّع المولى أبو عبد الله روحي له الفداء على عرش الشهادة على الإطلاق، فهو فارس هذه الحلبة المتقدّم، وهو الكلمة الطيبة

---

(١) سورة النساء: الآية ٧٩.

(٢) راجع بحار الأنوار (٢٢/٢٧٨).

التي تطفح على أفواه الصّادقين كلّما عفّوا وتألّقوا وقالوا حقّاً، لأنّه سيّد الشّهداء في محيط الإسلام، المحيط المقدّس المؤهّل لريادة الإنسان بكل أطيافه وفصائله، فهو سيّد شهداء الإنسانية.

ولاشكّ أنّ هذا المقام الشّامخ له إنعكاساته المطردة على الواقع، فهو نبراس الشهداء وراعي منهجهم وسائقهم إلى الخلود، وهو قدوة المصلحين الثائرين في وجه الإستبداد والظلم تحت أي لواء انضووا، وهو الراية التي لا يرد حاملها إلاّ بفتح مظفّر، وهو شرط الإيمان والإسلام، وهو شفيع المؤمنين والمذنبين يوم القيامة.

فإذا عرفنا المقام المحمود الذي خصّ الله تعالى به جدّه النبيّ صلى الله عليه وآله يوم القيامة المترشّح عن فضله السامي، فهو صلى الله عليه وآله القائل: حسين منّي وأنا من حسين ـ كما سيأتي ... وهو القائل صلى الله عليه وآله: الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة[١].

وإنّ له مقاماً كريماً عند الله تعالى يوم القيامة فوق مقام الخواص، وله منزلة عظيمة من منازل جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله وأبيه المرتضى عليه السلام وأمّه الزهراء عليها السلام وأخيه المجتبى عليه السلام، فهم سفن النجاة، وباب حطّة، والأمان لأهل

---

(١) وهذا الحديث متواتر جدّاً، وقد روي بطرق عدّة، وقد أخرجه المتقي الهندي في كنز العمّال (١١٥/١٢ ح ٣٤٢٥٩)، وأخرجه الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين (١٦٧/٣) وقال: صحيح، بزيادة: وأبوهما خير منهما، وأخرجه البغوي في مصابيح السنة النبوية في كتاب المناقب (١٩٣/٤ ح ٤٨٢٧)، وأخرجه الإمام أحمد في المسند (٦٢/٣)، واخرجه الترمذي في السنن (٦٥٦/٥ ح ٣٧٢٨) في مناقب الحسن عليه السلام وقال: حسن صحيح، وأخرجه المزّي في تحفة الأشراف (٣٩٠/٣ ح ٤١٣٤)، وأخرجه الهيثمي في موارد الضمآن ص (٥١١) باب ما جاء في الحسن عليه السلام ح (٢٢٢٨)، وأخرجه ابن عساكر في ترجمة الإمام الحسين عليه السلام من تأريخ دمشق ص (٤١ ـ ٤٢ ح ٦٢ و ٦٣ و ٦٤) بطرق عدّة، وتجده في كشف الغمّة للأربلي (١٧٧/٢).

الأرض والسماء، وقد أصبح وأضحى وأمسى مولانا الإمام الحسين عليه السلام عنوان كرامتهم وشعار فضلهم ورمز مكانتهم، ولهذا فهو أكثر النّاس شفاعة يوم القيامة.

وأمّا إذا أردنا أن نرصف أخبار فضله ومكانته من الدين والقرآن والنبوّة والإمامة فإنّنا سنتجاوز المجلّد الواحد قطعاً، وتكفينا هذه الإشارات في حدود هذا المختصر.

وكم علّمنا سادتنا ولقّننا أئمتنا الطّاهرون عليهم السلام الدعاء والتضرّع إلى الله تعالى بطلب شفاعته عليه السلام خصوصاً، فإنّها من أفضل الغنائم يوم فقرنا وفاقتنا، وهي العدّة عند الحاجة غداً، فهو مصباح الهدى وسفينة النجاة، ورحمة الله الواسعة، وباب نجاة الأمّة، ومظهر كرامة الله تعالى وجوده..

ورد في آخر الزيارة المهمّة المعروفة بزيارة عاشوراء، قول الإمام عليه السلام: ثم تسجد سجدة تقول فيها:

اللهم لك الحمد حمد الشاكرين على مصابهم، الحمد لله على عظيم رزيتي فيهم، اللهم ارزقني شفاعة الحسين يوم الورود، وثبت لي قدم صدق عندك مع الحسين وأصحاب الحسين، الذين بذلوا مهجهم دون الحسين عليه السلام[1].

وينبغي أن يُعلم أن فضله عليه السلام من فضل جدّه صلى الله عليه وآله، فهو وريث جود النبي الكريم صلى الله عليه وآله في الدنيا والآخرة، بعد الفراغ من كون كلمات المصطفى صلى الله عليه وآله عموماً وفي حقّه حقائق، لم تصدر على سبيل المجاملة أو المجاز أو المبالغة أو ما شابه، فهو الذي لا ينطق إلاّ بوحي من الله عزّ وجل.

---

(١) راجع بحار الأنوار (٩٨/٢٩٢)، عن مصباح المتهجّد ص (٧٧٦).

فقد أخرج ابن عساكر أن فاطمة بنت رسول الله ﷺ أتت بابنيها إلى رسول الله ﷺ في شكواه الذي توفّي فيه، فقالت: يا رسول الله، هذان إبناك فورّثهما شيئاً، فقال رسول الله ﷺ: أما حسن فله هيبتي وسؤددي، وأمّا حسينٌ فله جرأتي وجودي.

وفي رواية: أنّها قالت: إنحلهما، قال: نعم، أمّا الحسن فقد نحلته حلمي وهيبتي، وأمّا الحسين فقد نحلته نجدتي وجودي(١).



(١) تجد الحديث في الصواعق المحرقة لإبن حجر ص (١٩١) باب الأحاديث الواردة في بعض أهل البيت ح (١٣) عن الطبراني، وفي كنز العمّال (١٢/١١٣ ح ٣٤٢٥٠) و (١٢/١١٧ ح ٣٤٢٧٢ و ٣٤٢٧٣)، وفي ذخائر العقبى ص (١٢٩)، وفي تاريخ دمشق لابن عساكر ضمن ترجمة الإمام الحسين عليه السلام ص (٣٥) ح (٥٧)، وفي النهاية (٥/٢٩) وقال: نحلته: يقال نحله ينحله نحلاً بالضم، والنحلة بالكسر العطية.

الفصل الثالث

مأتم الحُب والوداد

أصداء المصاب

لقد دأب شيعة أهل البيت عليهم السلام جيلاً بعد جيل على عقد المآتم في شهر المحرّم وأيام عاشوراء، وامتزج هذا الشعار الديني بدمائهم وتمكّن من قلوبهم، فهم يجددون العزاء بمصرع سيّد الشّهداء أبي الأحرار الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وآله وأهله الطيبين عليهم السلام بكلّ شوق وتلهّف، على كل بقعة من بقاع الأرض قربت أم نأت وبكل لسان وبمختلف الأساليب..

ويدعوهم حبّهم وحزنهم إلى الإنصهار التام في قصّة إمامهم المظلوم، فيستلهمون من وحي يومه جليل العبر والدّروس، ويؤنسون قلوبهم المحبّة بأنس ذكره، ويستشعرون أليم مصابه، متقرّبين إلى الله تعالى بذلك، مواساة لنبيّه المصطفى وآله الطاهرين صلى الله عليه وآله حتى قال شاعرهم:

في كل عام لنا بالعشر واعية ... تطبّق الدّور والأرجاء والسّككا

فكأنهم أقرب ما يكونون عهداً بمقتله عليه السلام، بل كأنّهم من غير مبالغة شهدوا ما نزل به بأدق التفاصيل المرّة، وعلى هذا الأساس فهم منقطعون في أيّام العاشوراء إلاّ عنه، لأنّ يومه غضّ طري شاخص في إنسان عيونهم، وذكراه خالدة في سويداء قلوبهم، متجدّدة بوحيها وأحداثها ومشاهدها ودروسها وعبَرها أمامهم.

غير أنها من غير شكّ ظاهرة تُجلى بها بصائر البشر، وتدعو الناس للسؤال والبحث والعجب، فمن اليوم لم يبلغه صوت الإمام الحسين عليه السلام!! وأيّ عذر لجاهل بعد تعدّد سبل الوصول إلى موارد العلم!!..

وأنت لا تشكّ معي في أن ظاهرة المأتم الحسيني كانت ولم تزل محلاً للاستغراب والاستفهام من قبل الكثيرين، ومع أن أسسها وقواعدها بيّنة جليّة واضحة عند الكثيرين، إلاّ أنّها مبهمة مشوّشة عند آخرين لأسباب كثيرة، ولا شكّ أن تلك الطقوس والشعائر تثير سيلاً من التساؤلات المشروعة على مختلف الأصعدة.

فلهؤلاء أن يتساءلوا!!

من هو الإمام الحسين عليه السلام؟

ومن الذي قتله؟

ولماذا قتله؟

أم كيف قتله؟

ولماذا يُبكى عليه؟

وكيف استمر البكاء عليه؟

ومن أوّل من بكى عليه؟

وكيف تأسست هذه المآتم؟

ومن الذي أسّسها؟

وما هو سرّ خلود هذه القضية؟

وهل البكاء عليه بدعة شيعية؟

أم أنّ له مستنداً شرعيّاً من السّنة الشريفة؟

وأسئلة أخرى مشروعة، تدعونا للوقوف بكلّ إمعانٍ وتأمّل، للإجابة عليها، كي نضع الأوليّات والمرتكزات في هذه القضيّة، في سبيل دراسة أكبر لحل رموز هذه الظّاهرة الإنسانية المُلفتة.

بواعث البكاء

قليلاً ما تستمد قضية سرّ خلودها من نفسها، وطالما شيّدت قضايا البشر واستمرّت بالدواعي والبواعث والجهود المضنية، ومع هذا فلم تصمد أيّ منها أمام معول الأيام والزمن، ولم تحتفظ برونقها حيال دواهي النسيان والتحريف والفترة، ولم تتماسك أمام هبّة الإشكالات والشّبَه، وهذه هي حال جملة القضايا الإنسانية.

لكنّ قضيتنا ـ التي أستصغر نفسي تحت ظلّها ـ تختلف عن كل قضايا الإنسان جملةً وتفصيلاً، وليست من القضايا التي تُفهم بالقياس مع غيرها، بل إنّ قياساتها معها، ولهذا فإنّه يخطأ الباحثون خطأً جسيماً إذا درسوها من زاوية أيّة قضيّة أخرى، لأنّهم سوف يصطلمون من غير اختيار في هوّة التيه والخطأ، فهي القضيّة اليتيمة التي لا يوازيها بالعظمة والشرف إلاّ قضية الإسلام..

وإن كانت قضيّتنا منبثقة عن الإسلام، بل هي الإمتداد الطبيعي له، وبذلك يتفوّق الإسلام عليها بإعتباره الأساس والأصل، إلاّ أنه ومن جهة أخرى يتلوها بمرتبة، فإنّ لقضيتنا المنة الكبيرة في إنقاذ الإسلام وصيانته من عبث وتحريف الطغاة والجبابرة، وبهذا تم التساوي بين طرفي المعادلة.

فالنبي الأعظم ﷺ هو آية الإسلام الذي أفاض من قدسه على قدس قضيته، قال ﷺ منوّهاً بتوازي قضيتي النبوة والإمامة: حسين مني وأنا من حسين[1].

فإنّنا إذا فهمنا الشطر الأوّل منها (حسين منّي) إذ أنّه بالنظرة الأولى يعني أنّه دمي ولحمي وولدي وسبطي وإمتدادي، وبالتّالي فإنّ قضيته قضيتي.. فإنّنا لن نفهم تاليه بمثل هذا الفهم البسيط، فالقضيّة ليست بديهية أبداً، فإذا تأمّلنا في الشطر الثاني منها (وأنا من حسين) ردّ نظرنا إلينا خاسئاً وهو حسير!! إذ ليس من السّهولة أو اليسير فقه أبعاد الحديث دون نظرة فاحصة دقيقة..

لقد استمدّت قضية الإمام الحسين عليه السلام سرّ خلودها من نفسها، وكان وقودها من ذاتها، ولم تؤثّر هذه المظاهر التي نشهدها في شهر المحرّم على إذكاء سرّها بقدر ما كانت هذه المظاهر هي الأثر الطبيعي والإنعكاس الذاتي لهذه القضية الفريدة، وقد تكفّلت هذه المأساة الدّامية بنفسها وبأحداثها المريرة بالتأثير على المشاعر وإلهابها إلى حدّ البكاء، وحتى يبلغ التأثير منها إلى حدّ الجزع ـ الذي يفوق معاني الحزن ـ بمظاهره الإنسانية المختلفة..

فالإنسان بفطرته ميّال للإستشعار بألم أخيه الإنسان، بغضّ النظر عن شكل الإنتماء والمعتقد، وأي قلب تمرّ عليه تلك الرزايا والمصائب ولا يستجيب

---

(١) وهذا حديث مشهور متواتر نقلته جميع كتب الفضائل والمناقب، وذكر في صحاح المسلمين، وأخرجه ـ على سبيل المثال ـ الإمام أحمد في مسنده تحت الرقم (١٧٢٣١) والترمذي في سننه (٣٠٥/١٠) ح (٣٩٧٣) وابن ماجة في سننه (٥١/١) ح (١٤٧)، وقد تناول آية الله الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء شرحه بما لا مزيد عليه في كتابه القيّم جنّة المأوى، وذكر الوجوه المتصوّرة في تقريبه، فليراجع.

ولو بدمعة واحدة، وما قيمة الدمعة المالحة أمام تضحيات إمام الأحرار ومصائبه العظمى.

ويتّضح من منطلقات شتى أن البواعث الدّافعة لعقد مآتم الحزن على المولى المظلوم عليه السلام استجابة طبيعية فطرية لأصداء تلك الظلامة الخالدة، وردّ فعل متناسب جدّاً مع الصرخة المنطلقة من نحره الشريف، التي حزّ أوردتها الحقد الأسود بمُدية الجاهلية الظالمة وشفرة نكران الإمامة الإلهية، فبلغ عليه السلام بتضحياته أعلى الدرجات وتسنّم مقام سيّد الشهداء، واكتسب بمنّ الله تعالى ورحمته أسرار الجذب الذاتي الملهم لنفوس الأحرار..

فأحدق عشاقه وطافوا به طواف الفراش بالسراج المنير، والتحق بساحته الطيبون التحاق الأشعة البيضاء بالشمس الضّاحية، علاوة على جاذبية شذى الشهادة السّاحر المؤثر بطبعه على نفوس الأحرار، فاستجاب له كلّ سليم قلب وعى نبأته، وانضوى تحت لوائه كلّ طيب سمع صوته، فأثّر بهمسه وأنينه على الأرواح جيلاً بعد جيل، بقوة ربّانية مشرفة تحتوي الظرف ولا يحتويها، تنبسط على الزمان والمكان، تغمر المستقبل بآلامها وآهاتها..

فبكته الأماقي أسوة بالسماوات والأرض بدموع اللوعة والأسى والود والعشق قبل أن تبكيه رغبة في جزيل الثواب..

تبكيك عيني لا لأجل مثوبة   لكنّما عيني لأجلك باكية

إن هذا وازع فطري ذاتي ممزوج بكينونة الإنسان مغروس في أصل وجوده ككائن ميّال بطبعه للفضيلة، منجذب إلى نفحات قدس خالقه وبارئه، ملب نداء مشاعر الحب الفطرية الإيجابية تجاه من خصهم الله تعالى بسرّه وقرن معرفتهم بمعرفته.

حب النبي صلى الله عليه وآله

الحب والبغض خلّتان تشتدّان وتضعفان في القلب تجاه الذوات والأشياء، وللقوة والضعف أسباب تحثّ القلب عليها، وتتوغّل أسرار الحب في باطن الإنسان وتعيش في أوردته بشكل باعث إلى العجب والدراسة، فالإنسان يتدرّج في حبّ الأشياء التي حوله تدرّجاً منطقيّاً لا يقبل المزايدة..

الإنسان يحب نفسه قطعاً، بدافع الطبع والجبلّة، ثم يحبّ ما يرتبط به بالصلات المتنوّعة، وبحسب متانة الصلة تشتد قوة هذه المحبّة، سواء كانت خيوط العُلقة جسميّة أو معنوية، أمثّل عن الأوّل بالآباء والأمّهات والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال، وعن الثاني بالعقائد والأفكار والمتبنيات الخاصة والنظريّات المفضّلة، ويفوق حبّ المعنويّات حبّ الماديّات في النفوس الراقية الرفيعة، ويتربّع على عرش المعنويّات حبّ العقيدة..

إنّ حبّ العقيدة يتفوّق بدرجات على أشكال الحب التي يعرفها الإنسان، ويرقى حبّه للدين على حبّه لأبيه وأمّه قطعاً، فهو يفدي دينه المحبوب بنفسه ونفيسه، ويضحّي من أجله بأبيه وأمّه وزوجه وماله وولده، بل يكون الدين أعزّ حتّى من نفسه التي إفتتح حبّ الأشياء من خلالها أصلاً..

هذه منزلة الدين في نفس المتديّن، وللرموز الدينيّة هذه المكانة أيضاً، ويتفوّق مؤسّس مناهج الدّين بالمكانة العظيمة التي لا تعدلها مكانة في النفس،

فلولاه لم يقم عمود الدين ولم تنهض شرائعه، فليس من الغريب أن ترى النفوس تنشدّ إلى حبّ الأنبياء والأئمة عليهم السلام حبّاً يخرجها أحياناً عن الجادة السوية، لوجود داعي الحب الكبير تجاههم، وعلى ذلك فهم يقدّمونهم على كلّ نفيس بما في ذلك أنفسهم الغالية..

ومن هذا المنطلق فإن الحبّ المقدّس لنبيّنا الكريم صلى الله عليه وآله في النفوس الطيّبة قد امتدت جذوره إلى أعماق النّفس وأخذ بشغاف القلب وامتلك خطرات أرواح المحبين المفعمة بالعشق الحقيقي الكبير، ففاق حبّهم له صلى الله عليه وآله حب جميع الأشياء مادية ومعنوية.

وهم على إزدياد في الحبّ له صلى الله عليه وآله لما رأوا من جماله الباهر الخلاّب، وعظمته الربانية الملفتة، فكان له النصيب الأوفى من تعلّقهم وحبّهم، بل هام فيه الخاصة ولم يروا إمكان قياس حبّه صلى الله عليه وآله بسائر الأشياء أصلاً، فهو المحبوب الفرد، المخلوق آية للفضل والسمو، وليس كمثله شيء في كمال، ولا شريك له في فؤاد، وهذا مقام العارفين الكمّل، وقد ندب الله تعالى للتشبّه بهم.

لقد عاب الله سبحانه على البعض تقديمهم أشكال حبّهم المادي والمعنوي على حبّه تعالى وحبّ حبيبه المصطفى صلى الله عليه وآله في النفوس، بل وتهدّدهم لمجانبتهم الهدى والحق وتوعّدهم، وعبّر عن فعلهم بالفسق في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[1].

---

(١) سورة التوبة: الآية ٢٤.

لماذا نحبّ النبي صلى الله عليه وآله ؟

إذا أحببت إنسانا ما.. فلا شكّ في وجود داعي الحب المقنع، فبه يستمر الحب ويبقى في القلب، وإذا دقّقت النظر وأجلت البصر عرفت أنّه لا يملك النفوس شيء فيأسرها بالحب كما يملكها ويأسرها الإحسان، وبه يطوّق المحسنون جيد النفس بالعرفان والإكبار فيترجم بالحب الكبير، وبما أنّ إحسان رسول الله صلى الله عليه وآله فاق كلّ إحسان بكلّ المقاييس، وطوّق أجياد الخلق على كرور الليالي والأيام بالجميل العظيم، وأغرق الدنيا حتّى غمرها بمعروفه الكريم.. فقد تربّع على عروش القلوب، فاحتضنته بالمودّة والحب الكبيرين، فاستحقّ حبيب الله الأول صلى الله عليه وآله بذلك أن يكون حبيباً لعباده المؤمنين.

إن الداعي الأوّل الذي يشدّ النفس إلى حبّه هو الإيمان، وهو العامل السيّال على الإنسان بكل أنواع الخير، وكلّما اقترب إلى الله سبحانه وازداد به معرفة ساقه ذلك إلى حبّ نبيّه صلى الله عليه وآله طبيعيّاً، ومن ثمّ عمل على اتّباعه ومحاكاته، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[١].

ومع اشتداد الصّلة به صلى الله عليه وآله وتغلّب حبّه على حبّ الأشياء مادية ومعنوية قُدّم بلا كلام على الأهل والمال وينتهي علمه إلى مدى الإحسان النبوي، فبهديه صلى الله عليه وآله

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٣١.

سلك جادة الخير والسعادة ففاز واهتدى، وبإنذاره مال عن الغي والهلكة فنجى، وبإحسانه حاز نعيم الجنان وتحاشى عذاب النيران، فطبيعي أن يتفاني في حبّه صلى الله عليه وآله ويتهالك في ودّه..

ولقد أعطى الله المتفضّل نبيّه الكريم صلى الله عليه وآله هذه الجاذبية ومكّنه من النفوس الطيبة، فهي تطوف به طواف الفراش بالسراج المنير، وتلتذ بذكره تلذذ الطفل بمحالب الأم، ولا شكّ أنّ وراء هذه العُلقة الوثيقة سر ظاهر، ألا وهو علقة نبيّنا صلى الله عليه وآله الوثيقة بربّه الكريم وارتباطه بخالقه الملهم، فحبّ المؤمنين له تقدير من المؤمنين لعلاقته الفريدة مع الله تعالى، وتثمين منهم لصلته الوثيقة بواهب العظمة والخير.

وإن من دواعي الحبّ الكبير له صلى الله عليه وآله حيازة الفضائل الكبرى التي جمّت عن أن تُحصى أو تُستقصى، والإنسان مقدّر بطبعه للفضل والفضيلة، خصوصاً إذا حكى قدرة الله تعالى في إبداعه، فهو الشّاهد على بديع خلق الله عز وجل، ومن يستطيع أن يؤدي حقّ الثناء على النبي الكريم صلى الله عليه وآله أو يفي بعض حقّ فضله، فليس يعرف كنه ذلك المجد التليد والشرف الباذخ حتّى يصفه على الحقيقة إلاّ مبدع ذاته وخالقه، الذي راح ينزل في القرآن مدحه له.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾[1].

ومن يجاري القرآن الكريم في أداء حقّه!! أم هل تسعف الكلمات جليلات معانيه لتفيه أو تنقل صورة قدسه كاملة على وجه الحقيقة!! وهل يمتلك الإنسان

---

(١) سورة الأحزاب: الآيتان ٤٥ و ٤٦.

أغلى من قلبه ليملّكه آية المكارم ﷺ فيحكّمه على خلجات النّفس وشوارد الخاطر بأرقّ صور الود العفيف الصادق.

قال البوصيري:

فاق النبيين في خلق وفي خلُق ... ولم يدانوه في علم ولا كرم

أكرم بخلق نبيّ زانه خلقٌ ... بالحسن مشتملٌ بالبشر متّسم

ويزيد في حب المؤمنين له ﷺ تفكّرهم في حالاته وسيرته، فبقدر علوّ كعبه وسامي شرفه ومقامه فإنّه قد عانى وتحمّل الصعاب من أجل دعوته وأمّته، وقابل جفوتهم الجافية بالصلة الرحيمة، فعفى وإستغفر وتحمّل، وصبر على جهالاتهم وجهلهم، وزكّاهم وعلّمهم حتى صنع منهم أمّة حضارة تقتدي بها الأمم بعد الضياع والتيه والظلمة، حتى وصفه رب العالمين في القرآن الكريم بالشاهد والمبشّر والنذير والدّاعية والسراج المنير كما تقدم في الآيتين..

وإذا تسامينا إلى أجواء الآيتين وجدناها تنطوي على سيل عرم منهال من سموّ المعاني الفاضلة التي لم يكن ثمّة طريق لنيلها لولا كتاب الله التدويني الذي يلوّح ويشير إلى معالي كتاب الله التكويني المنبسط شرفاً وفضلاً وأرومة ومحتداً في شخصية النبي الأعظم ﷺ، المبشّر الهادي لأمته والشافع لهم يوم القيامة والمنقذ لهم من لهيب عذاب النار والحريق.

وقد حفّز الله تعالى دواعي حبّه ﷺ بالتصريح بمقامه ومنزلته لديه، فقد قرن ذكره الكريم بذكره السرمدي الباقي، وافترض رفع اسمه الشريف والشهادة له بالرسالة إلى جنب الشهادة له بتوحيد الربوبية، وأمر المؤمنين بتشريفه وتكريمه بالصلاة عليه، منوّهاً بأنه تعالى وملائكته القدوة الأولى في هذا التشريف والتكريم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[١].

فأيّ تشريف أعظم وأيّ تكريم أسمى من ذلك، بل تعدّى حدّ التشريف والتكريم إلى ما يبعث الدّهشة والعجب، فأقسم بحياته الغالية، ولم يُقسم تعالى بحياة غيره أبداً، فقال تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[٢]، وتوالت مِنَنُه السّابغة فقرن طاعة نبيّه ﷺ بطاعته، قال سبحانه: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾[٣].

وقد منّ الله تعالى به ﷺ على النّاس كافة، وجعله سبيل الأمان من العذاب، وعصمهم بنعمة وجوده المبارك من نزول النوازل فهو أمينه في أرضه، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[٤] وقد إرتفع الأمان الأوّل برزيّة فقده ووفاته ﷺ، وبقي الأمان الثاني وهو الإستغفار، وعند التدبّر نلاحظ أن النبي ﷺ محور الأمان الثاني أيضاً، فهو سرّ قبول الإستغفار أصلاً، والسبيل السّريع أمام العصاة في استغفارهم لله تعالى، وبه تُقبل توبتهم وإنابتهم إلى ربّهم..

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٥٦.

(٢) سورة الحجر: الآية ٧٢.

(٣) سورة النساء: الآية ٨٠.

(٤) سورة الأنفال: الآية ٣٥.

رَحِيمًا﴾[١]. وهذا له ﷺ في حياته كما أنّه جار له بعد وفاته.

ولم ينل بشرٌ قبله ولا بعده هذا الحب والتقدير الإلهي الكبير، حتّى بلغ التكريم ذروته حين خاطبه تعالى ملفتاً إلى ناحية من نواحي عظمته وشرفه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٢].

فهذه بعض دواعي الحب الذي لا مثيل له ولا شبيه، وهي حوافز تقود أصحاب القلوب السليمة إلى مودّته، بحبّه وطاعته ونصرته، وحبّ ما يمتّ له بصلة، كالتعاليم والآثار، بأقصى درجات المودّة الوثيقة، وترى المسلمين يتفاوتون في حبّهم له ﷺ كاختلافهم في حبّ ربّهم سبحانه، بحسب تفاوت هِممِهم وعلاقتهم بدينهم.

قال الإمام القرطبي:

كلّ من آمن بالنبي ﷺ إيماناً صحيحاً لا يخلو عن وجدان شيء من تلك المحبة الراجحة، غير أنّهم متفاوتون، فمنهم من أخذ من تلك المرتبة بالحظ الأوفى، ومنهم من أخذ منها بالحظ الأدنى، كم كان مستغرقاً في الشهوات محجوباً في الفضلات في أكثر الأوقات، لكن الكثير منهم إذا ذكر النبي ﷺ إشتاق إلى رؤيته بحيث يؤثرها على أهله وولده وماله ووالده، ويبذل نفسه في الأمور الخطيرة ويجد مخبر ذلك من نفسه وجداناً لا تردّد فيه[٣].

---

(١) سورة النساء: الآية ٦٤.

(٢) سورة القلم: الآية ٤.

(٣) راجع فتح الباري لإبن حجر (١/ ٥٠).

حب أهل البيت عليهم السلام

إن الوازع الدّيني هو ربّان سفينة حبّ النبي صلى الله عليه وآله في النفوس، وقد تكفّل الدين بإرساء قواعد حبّه وأحكم أسّه، ومن حبّه صلى الله عليه وآله حبّ أهل بيته الطاهرين عليهم السلام، وهم أولاده وعترته الطّيبون، الذين أحبهم حبّاً شديداً وجاهر بحبّهم وأعلنه وطالب أمّته به، وبما أنّه صلى الله عليه وآله لا ينطق عن الهوى فقد وجب على المسلمين التديّن بحبّهم وتشييد ودّهم في الأنفس والتحلّي بمظاهر الحب التي افترضها الوحي المبين، عبر المودّة التي تفوق الحب في معناها، فهي الحب مع زيادة إظهار آثاره على الواقع العملي، باتّباعهم ومحاكاتهم والتأسّي بهم، خصوصاً مع وراثتهم علمه صلى الله عليه وآله وخلقه وهديه، وقد اتّفقت كلمة المسلمين على نزاهتهم وفضل مقامهم.

فمودّتهم عليهم السلام تعني الفرح لفرحهم والحزن لحزنهم، وإذا تأمّلنا خلصنا إلى أن الحزن لحزنهم أولى من الفرح لفرحهم، فصديقك الذي يظهر التلاحم لك في محنتك خير عندك وأقرب إلى قلبك من ذاك الذي تراه في مسرتّك قطعاً، وإن كنت تقدّر له وقوفه..

وسيأتي أنّه لم يعكس التاريخ أهل البيت عليهم السلام في ملمّة ومأساة كما عكسهم في قضية كربلاء، بل تستطيع أن تجزم بملىء الفم فتقول أن التاريخ البشري لم ينقل في صفحاته تأثّراً يوازي تأثّر العترة النبويّة في هذا المصاب المفجع.. وقد صوّر

المؤرخون أحزانهم وآهاتهم أبلغ تصوير، بعد أن سفكت دماؤهم النبوية وأريقت على التربة الزاكية، حتى صارت فاجعة محورية تدور عليها جملة قضاياهم الكبرى، وعدّوها شعار أحزانهم الأول ورمز مظلوميّتهم.

ولهذا وذاك، فإنّ الأمر المولوي الربّاني بالودّ لهم هو أوّل باعث إلى البكاء وعقد المآتم على الإمام الحسين عليه السلام، يحثّه الحب الشديد والود الكبير الذي افترضه الجليل جل وعلا أجراً على نبوّة حبيبه المختار صلى الله عليه وآله في قوله سبحانه:

﴿قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[١].

وهو تعالى القائل: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[٢].

فظاهر النص القرآني وصريح منطوقه كما ترى يجهر بطلب النبي صلى الله عليه وآله أجر رسالته بأثقالها وآلامها من أمّته، ومع ذلك فإنّ طلبه صلى الله عليه وآله مودّة أهله من أمته جاء بأمر من الله سبحانه، وكم هي سهلة هذه الأجرة المطلوبة وموافقة للطبع الحسن والجبلة السليمة، فهو لا يطلب مالاً ولا عقاراً، بل يطلب ما فيه صلاحهم وإستقامة أمرهم وضمان سعادتهم، ولو بذلوا نفوسهم ونفيسهم فإنّهم لن يوفّوه حقّه صلى الله عليه وآله الذي هو أهله، ولكنّه طلب منهم اليسير الكبير والسهل العظيم، ويقع طلبه موقع التشريف لأمّته، فمودّة الآل الكرام عليهم السلام منزلة جليلة تستحق الشكر لله تعالى ما تواصل الليل بالنهار.

---

(١) سورة الشورى: الآية ٢٣.

(٢) سورة سبأ: الآية ٤٧.

وقد وردت أخبار كثيرة صحيحة في تشييد هذا الباب، ومنها أحاديث كثيرة في خصوص مولانا أمير المؤمنين وسيّد الوصيين علي عليه السلام، ومنها في عامة أهل بيته الأكرمين عليهم السلام، فأما الأولى فنذكر اليسير منها للتبرّك.

فقد أخرج علماء أهل السنة في صحاحهم أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لعلي عليه السلام: لا يحبّك إلاّ مؤمن ولا يبغضك إلاّ منافق[1].

وروى المسلمون قول رسول الله صلى الله عليه وآله: من زعم أنّه آمن بما جئت به وهو يبغض عليّاً فهو كاذب ليس بمؤمن[2].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: بوّروا أولادكم

---

(١) وهذا حديث يطول الكلام في شرحه وبيان أبعاده، كما يطول المقام في تعديد مصادره، فهو متواتر مشهور متفق عليه، رواه أهل السنة والشيعة بطرق شتّى وأسانيد عدّة، أمّا ما نقله علماء السنّة: فمنه عن أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها كما في مسند أحمد (٢٩٢/٦)، وجامع الترمذي (٢٩٩/٥رقم ٣٨٠١) أو (٣٠١/٢)، وسنن النسائي في كتاب الإيمان (رقم ٢٠).

وأما بالإسناد إلى الأعمش فقد أخرجه أحمد في المسند (٨٤/١) والحافظ النسائي في السنن (١١٧/٨رقم ١٩و١٣١) والحافظ الترمذي في السنن (٣٠٦/٥ باب ٩٤) والقزويني في سنن المصطفى (٥٥/١) والخطيب في التاريخ (٢٥٥/٢) والنسائي في الخصائص ص (٢٧) بطرق ثلاث.

كما ورد في كنز العمال (٥٩٨/١٢ ح ٣٢٨٧٨، و ص ٦٢٢ ح ٣٣٠٢٨)، وذيل تاريخ بغداد لابن النجار (١٠٣/١٧/١٧)، وتاريخ الإسلام للذهبي (عهد الخلفاء ص ٦٣٤)، ومناقب الإمام علي للشافعي ص (١٩٠).

وأمّا علماء الشيعة فقد أورده الشيخ المفيد في الإرشاد والأمالي، و ابن شهراشوب في مناقب آل أبي طالب، والمجلسي في بحار الأنوار، وفرات الكوفي في تفسيره، وفي كثير من المصادر الأخرى.

(٢) راجع ترجمة الإمام عليه السلام من تاريخ دمشق لابن عساكر (٢١٠/٢ح٧١٢)، والمناقب لابن شهراشوب (٢٠٥/٣) عن ابن مسعود، وبحار الأنوار (٢٥٢/٣٩ و٢٦١)، وأمالي الطوسي (٢٥٥/١ ح٣١) وفيه: من زعم أنّه آمن بي وبما.. إلخ.

بحبّ علي بن أبي طالب، فمن أحبّه فاعلموا أنّه لرشده، ومن أبغضه فاعلموا أنّه لغيّه[١].

وأما في محبّة أهل البيت عليهم السلام:

فقد أخرج حفّاظ أهل الحديث في صحاحهم ومجاميعهم عن ابن عباس رضي الله عنه عن النّبي المصطفى صلى الله عليه وآله قوله: أحبّوا الله لما يغذوكم به من نعمة، وأحبوني بحبّ الله، وأحبوا أهل بيتي لحبي[٢].

وروى أبو يعلى عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: خيركم خيركم لأهلي بعدي[٣].

---

(١) بوّروا أولادكم أي إختبروهم وامتحنوهم. وراجع بحار الأنوار (١٨٩/٣٨) وإعلام الورى ص (١٦٣).

وورد في حديث عبادة بن الصامت: كنّا نبوّر أولادنا بحب علي بن أبي طالب، فإذا رأينا أحدهم لا يحبّه علمنا أنّه لغير رشده. (راجع مناقب آل أبي طالب (٢٠٧/٣) وفي شرح النهج لإبن أبي الحديد مثله (٤٨٩/١).

وفي البحار (٢٩٦/٣٩) عن أبي سعيد الخدري، وفي تاريخ دمشق في الترجمة (٢٢٤/٢ح٧٣٥). ورواه إبن الأثير في النهاية في غريب الحديث مادة بور (١٦١/١).

وفي معنى هذه الأحاديث يقول ابن عبّاس رضي الله عنه:

إذا ما التبر حُكّ على محكّ ... تبيّن غشّه من غير شكّ

وفينا التبر والذهب المصفّى ... عليٌّ بيننا شبه المحكّ

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب، باب مناقب أهل البيت، وقال: هذا حديث حسن غريب، إنما نعرفه من هذا الوجه (١٧٣/٩)، والحاكم النيسابوري في المستدرك (١٥٠/٣) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد.

(٣) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٤٠/٦).

وروى الإمام أحمد بن حنبل بإسناده إلى النبي صلى الله عليه وآله: من أحب هذين ـ يعني الحسن والحسين ـ وأباهما وأمهما كان معي في درجتي يوم القيامة[(١)].

وأوردت المصادر الكثيرة أنه قال صلى الله عليه وآله: لا يؤمن عبد لله حتى أكون أحبّ إليه من نفسه، وأهلي أحبّ إليه من أهله، وعترتي أحب إليه من عترته، وذاتي أحبّ إليه من ذاته[(٢)].

وروى المسلمون قوله صلى الله عليه وآله: شفاعتي لأمتي، من أحبّ أهل بيتي، وهم شيعتي[(٣)].

وقال صلى الله عليه وآله: يرد الحوض أهل بيتي، ومن أحبّهم من أمتي، كهاتين السبابتين[(٤)].

وقال صلى الله عليه وآله: لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيمَ أفناه، وعن جسده فيمَ أبلاه، وعن ماله فيمَ أنفقه وممَّ اكتسبه، وعن حبّنا أهل البيت[(٥)].

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (١/ ٧٧) والترمذي في مناقب علي (١٠/ ٢٣٧).

(٢) راجع مجمع الزوائد (١/ ٨٨) باب فيمن حبهم إيمان، ونظم درر السمطين ص (٢٣٣)، وينابيع المودة (٢/ ٣٦٠ و ٤٥٦)، والمعجم الكبير للطبراني (٧/ ٧٥)، والأوسط (٦/ ٥٩)، وإسعاف الراغبين ص (١١٣).

(٣) رواه الخطيب البغدادي في تاريخه (٢/ ١٤٦)، وحسّنه العزيزي في السراج المنير (٢/ ٣٧٠).

(٤) راجع ذخائر العقبى ص (١٨)، ومقاتل الطالبيين لأبي الفرج الإصفهاني ص (٤٤)، وينابيع المودة (٢/ ١١٦)، وإسعاف الراغبين ص (١١٣).

(٥) راجع كنز العمال (٧/ ٢١٢) وقال أخرجه الطبراني عن ابن عباس، وذكره الهيثمي في مجمعه (١٠/ ٣٤٦) وقال: رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وتجده أيضاً في المناقب لابن المغازلي ص (١١٩) ح (١٥٧)، وينابيع المودة للقندوزي ص (١٣٣و ٢٧٠ و ٢٧١)، والفصول المهمة

وقال صلى الله عليه وآله: أدّبوا أولادكم على ثلاث: حبّ نبيكم، وحبّ أهل بيتي، وعلى قراءة القرآن[١].

وقال صلى الله عليه وآله: من أراد التوسل إليّ، وأن يكون له عندي يد أشفع له بها يوم القيامة، فليصل أهل بيتي، ويدخل السرور عليهم[٢].

وقال صلى الله عليه وآله: لا يحبّنا أهل البيت إلا مؤمنٌ تقيّ، ولا يبغضنا إلا منافقٌ شقيّ[٣].

وروي عن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله قالت: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله عشيّة عرفة، فقال: إنّ الله باهى بكم وغفر لكم عامة، ولعليٍّ خاصة، وإنّي رسول الله إليكم، غير محابٍ لقرابتي، هذا جبريل يخبرني: أنّ السعيد حقّ السعيد من أحبَّ عليّاً في حياته وبعد موته، وإنّ الشقيّ كلّ الشقي من أبغض عليّاً في حياته وبعد موته[٤].

→ لابن الصباغ المالكي ص (١٠٩).

(١) راجع كنز العمال (٢٧٨/٨) قال: أخرجه أبو نصر في الفوائد والديلمي في الفردوس وابن النجار عن علي عليه السلام، وذكره المناوي في فيض القدير (٢٢٥/١)، وذكره ابن حجر في صواعقه ص (١٠٣).

(٢) راجع الصواعق المحرقة لابن حجر ص (١٥٠)، وينابيع المودّة (٤٦٤/٢).

(٣) راجع ذخائر العقبى لمحب الدين الطبري ص (١٨)، وينابيع المودة للقندوزي الحنفي ص (١٩٢ و ٣٠٤ و ٣٩٧)، والصواعق المحرقة ص (١٠٣ و ١٣٩).

(٤) رواه احمد بن حنبل في كتاب فضائل الصحابة وفي المسند أيضاً، والطبراني في الكبير (٤١٥/٢٢) واللفظ له، وذكره في شرح النهج (١٦٨/٩) وقال: رواه أحمد في كتاب فضائل علي وفي المسند، وتجده أيضاً في كنز العمال (١٤٥/١٣)، ومجمع الهيثمي (١٣٢/٩).

وقال صلى الله عليه وآله: من أحبّ الحسن والحسين فقد أحبّني، ومن أبغضهما فقد أبغضني[١].

وتواترت أحاديث جمّة متظافرة بهذا الصّدد والمضمون، أضربت عن ذكرها حذراً من الإطناب والإطالة في الواضحات، إذ يضيق هذا المختصر بعرض أقل القليل منها.

وكيف لا تتزاحم النصوص في شحذ النفوس والهمم لحبّهم وأداء حقوقهم وهم أعدال القرآن الذين صرّح بهم رسول الله صلى الله عليه وآله في حديث الثقلين المتواتر حيث قال: إنّي تارك فيكم الثقلين، كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً، وإنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض[٢].

ولدراسة الحديث بأسانيده ومداليله دراسة جامعة راجع كتاب (حديث الثقلين) من تأليف المحقق السيد علي الميلاني.

وإنّ مَثَلَهم عليهم السلام كمَثَل القرآن الكريم في هديه وعصمته ونوره، بل وحتّى في مظلوميته وهجر الأمة له، وهم إمتداد النبي الكريم صلى الله عليه وآله في علمه وهديه

---

(١) راجع سنن ابن ماجة في فضائل الحسن والحسين عليهما السلام، مسند أحمد بن حنبل (٢/٢٨٨)، وجاء هذا الحديث في مصادر كثيرة منها تاريخ بغداد، وكنوز الحقائق، ومسند أبي داود الطيالسي، وكنز العمال، ومجمع الهيثمي، وذخائر العقبى.

(٢) جاء هذا الحديث الشريف بطرق مختلفة وبذيول وألفاظ متنوّعة، وتجد الوصية بالكتاب والعترة (أهل البيت عليهم السلام) في صحيح مسلم (١٥/١٤٩) ح ٦١٨٧ و ص (١٥١) ح (٦١٨١)، وفي مسند أحمد تحت الأرقام التالية (١٠٩٠١ و ١٠٩٨١ و ١٠٨٧٤ و ١٨٩٠٦)، وفي سنن البيهقي (١٥/٩٠) ح (٢٠٧٧٨) و (٢/٥١١) ح (٢٩٠٩) و (١٠/١٣٣) ح (١٣٤٠٠)، وفي سنن النسائي (٥/٤٨) ح (٨٠٥٤) و ص (١٣٤) ح (٨٣٧٠) و ص (٤٥) ح (٨٠٨١)، وفي سنن الدارمي ح (٣٣١٤).

ورشده، وضمان السعادة والفلاح والطريق المعبّد السريع الآمن الواسع المطلوب لبلوغ الخير والصلاح لجميع البشرية.

وقد أكّد رسول الله ﷺ على تمثيلهم بأبلغ تمثيل يدلّ على الريادة والقيادة، ويحصر فيهم سبيل الرشاد وطريق الحق، معرباً عن كلّ معاني الأمن والصيانة بإتباعهم، وقد شبّههم في حديثه بسفينة نوح عليه السلام المنجية من بحار الهلكات، مصرحا ﷺ بمنشأ هذا التمثيل والتشبيه بشكل قاطع لا يدع مجالاً للبس أو خطأ معه.

فقد قال المصطفى ﷺ: مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح، من ركبها نجى، ومن تخلّف عنها غرق وهوى[1].

ميزة الصلاة عليهم عليهم السلام

إذا كان الله عزّ ذكره شرّف نبيّه ﷺ ورفع ذكره، وقرن ذكره الجليل بذكره الشريف في أذان الصلوات وفي الشهادتين وسائر شعائر الإسلام وشعاراته.. فقد شرّف أهل بيته عليهم السلام بذلك، وغمرهم بلطفه الكريم، وأعطاهم ما أعطى جدّهم، ليؤكّد بذلك منزلتهم ويلزم الأمّة بحبّهم وطاعتهم.

حتّى جاء عنه ﷺ النهي عن الصلاة عليه وترك الصلاة على آله الكرام البررة، كما هي السنة المتّبعة اليوم عند الكثيرين من المسلمين هداهم الله تعالى.

---

(١) راجع مستدرك الصحيحين للحاكم النيسابوري (٣ /١٥١).

فقد قال ﷺ: لا تصلّوا عليّ الصلاة البتراء!!

فقالوا: وما الصلاة البتراء؟

قال: اللهم صلّ على محمّد وتسكتون، بل قولوا: اللهم صلّ على محمّد وآل محمّد[1].

ولعلّ الكثير يغفل عن حكم وجوب الصلاة عليه ﷺ، على الرّغم من ورود أحاديث توبّخ المُمسك عن الصلاة عليه عند ذكره الشريف، وفي حكم الإمساك إختصار الصلوات عليه، بمزج ألفاظها مزجاً مخلاً، وينبغي في الصلاة عليه التأنّي والتوجّه كسائر الدّعاء، والأنكى أن هذه سيرة بعض خطباء المسلمين وللأسف الشديد.

وأعظم من هذا أن يُصلى عليه ﷺ ويُترك أهل بيته الطاهرون عليهم السلام فيُحرم المسلمون من التعرّض لهذه الكرامة وجزيل الثواب، بل يكتفي بعض النّاس بالترضّي عنهم إذا ذكرهم، فيساوونهم عليهم السلام بالصحابة والتابعين والعلماء، وكأن أهل البيت المطهّرين تطهيراً من الرّجس بحاجة إلى دعاء أمثالهم أو أمثالنا!! وإنّما فرض سبحانه الصلاة عليهم والدعاء لهم برفعة مقامهم عنده من باب التشريف لهم، وهذا يختلف عن الترضّي كما هو واضح.

وإنّه لا ينقضي تعجّبي من الذين يصلّون عليه ويُثنّون بالصلاة على أصحابه الكرام رضي الله عنهم، وهذه عادة شائعة قد مات عليها الكبير وشبّ عليها الصغير، فيصلّون عليهم في إفتتاحات المحاضرات والخطب، بل ويعطفون عليهم التابعين لهم إلى يوم الدّين!! وهو تبرّع غريب جدّاً، لم يصل إلينا في آية ولا حديث،

---

(١) راجع الصواعق المحرقة لابن حجر ص (٢٣٣).

والواجب هو وقوف المسلمين عند حدّ النص النبوي الصحيح، ولم يُشرّع في الإسلام الصلاة على أحد دونهم مهما علا مقامه.

ففي صحيح البخاري بإسناد يرفعه إلى أبي لَيلى قال: لَقِيني كعبُ بن عُجرةَ فقال: ألا أُهدِي لكَ هَديةً سمعتُها منَ النبيِّ ﷺ؟

فقلت: بَلى، فأهدها لي.

فقال: سألنا رسولَ الله ﷺ فقلنا: يا رسولَ الله، كيفَ الصلاةُ عليكم أهلَ البيت، فإن اللهَ قد علمنا كيفَ نسلّم.

قال: قولوا اللّهمَّ صل على محمدٍ وعَلَى آلِ محمدٍ، كما صليتَ على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيمَ، إنكَ حَميدٌ مجيد، اللّهمَّ بارك على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ، كما باركتَ على إبراهيم وعلى آلِ إبراهيمَ، إنَّكَ حَميدٌ مجيد[1].

وقال الفخر الرازي:

إن الدعاء للآل منصب عظيم، ولذلك جعل هذا الدعاء ـ أي الصلاة على النبي وآله ـ خاتمة التشهّد، وقوله: اللهم صلّ على محمد وعلى آله وارحم محمدا وآله، وهذا التعظيم لم يوجد في غير الآل، فكلّ ذلك يدل على أن حب محمد وآل محمد واجب.

---

(١) تجد هذا الحديث ببسطه وإختصاره في صحيح البخاري تحت الأرقام (٣٣٠٥ و ٤٦٧٩ و ٤٦٨٠ و ٦٢١٢)، وفي صحيح مسلم (١٠٣/٤) ح (٨٥٨) و ص (١٠٤) ح (٨٥٩)، ومسند أحمد تحت الأرقام (٢٦٣٤٠ و ١٤٠٩ و ١٧٢٥ و ١٦٧٤٢ و ١٧٧٦١ و ١٧٧٦٢ و ١٧٧٨٤ و ١٧٧٩٠ و ١٦٧٤٧ و ٢١٩٧٥)، وفي سنن الترمذي (٤١٨/٥٧٩/٢) و (٣٣٤٢/٩٦/٩)، وفي سنن ابن ماجة (٩٦٣/٢٩٢/١ و ٩٣٧)، وفي سنن أبي داوود وسنن النسائي الكبرى، وسنن البيهقي والدارمي ومصادر أخرى كثيرة.

إلى أن قال :

وأهل بيته ساووه في خمسة أشياء : في الصلاة عليه وعليهم في التشهّد، وفي السلام، وفي الطهارة، وفي تحريم الصدقة عليهم، وفي المحبة[١].

وقال ابن تيمية في حقوق أهل البيت عليهم السلام :

وكذلك آل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله، لهم من الحقوق ما يجب رعايتها، فإن الله جعل لهم حقا في الخمس والفيء، وأمر بالصلاة عليهم مع الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله فقال لنا : قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

وآل محمد هم الذين حرمت عليهم الصدقة، هكذا قال الشافعي وأحمد ابن حنبل وغيرهما من العلماء رحمهم الله، فإن النبي صلى الله عليه وآله قال : إن الصدقة لا تحل لمحمّد ولا لآل محمد.

وقد قال تعالى في كتابه : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[٢]، وحرم الله عليهم الصدقة لأنها أوساخ الناس[٣].

وروي عن النبي المصطفى صلى الله عليه وآله : النجوم أمان لأهل السماء، وأهل بيتي أمان لأمتي[٤].

---

(١) راجع تفسير الرازي (٣٩١/٧).

(٢) سورة الأحزاب : الآية ٣٣.

(٣) راجع رسالة الوصية الكبرى من كتابه مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية ص (٣٠٣ - ٣٠٤) طبع دار إحياء التراث العربي.

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط كما في الأربعين للنبهاني ص (٢١٦)، وابن حجر في

وقال الشافعي:

يا أهل بيت رسول الله حبكم	فرض من الله في القرآن أنزله
كفاكم من عظيم الفخر أنكم	من لم يصلّ عليكم لا صلاة له

تأصيل نص الإمامة

إن من يطّلع على سيل الأحاديث العرم في فضل أهل البيت عليهم السلام وعلوّ كعبهم وعالي شرفهم يخلص إلى نتيجة تفرض نفسها كواقع فكري متّفق عليه في أصول الإعتقادات، وهو عنونة حبّهم بالأصل الإسلامي المهم، كما أنّ بغضهم كفر وخروج عن الملّة..

وكان يسعى النبي صلى الله عليه وآله بتأكيد ذلك إلى تأصيل أصل آخر مهم، بعبقرية وذكاء محكم، فبالودّ والحبّ يؤكّد الوحي على قيادتهم وريادتهم وإمامتهم للأمة.

قال الشاعر:

لو كان حبّك صادقاً لأطعته	إنّ المحبّ لمن أحبّ مطيع

فهَدَفُ الشارع من فرض محبّتهم هو تأصيل طاعتهم، وبتشييد حبّهم يرمي الوحي إلى تأصيل إمامتهم وخلافتهم عليهم السلام، بل قد أُخذ معنى طاعتهم وإتّباعهم في نفس مفهوم الأمر بمودّتهم، فالطاعة مأخوذة في معنى حبّهم، إذ أن الحبّ هو

←

الصواعق المحرقة ص (٢٣٥).

سر الطاعة عند التأمل، والمودّة ضمان الإتّباع على الوجه الأتم، وأنت تلاحظ طاعة الطفل الصغير لوالديه، مع أنّه لا يعرف الحسَن فيأتمر للأمر به، كما أنّه لا يعرف القبيح فينتهي بالزجر عنه، لكنّه محبّ لأبويه وهذا كلّ شيء يحرّكه في الإتّجاهين، فإذا كان محبّاً فهو مطيع لهما، وتلك من أسرار المودة المفروضة..

ولسنا بحاجة إلى تجشّم العناء لإثبات إمامتهم باللوازم البعيدة أو القريبة، وليس البرهان مقصوراً على هذا الطريق وإن تأتّى به، فقد نصّ النبي ﷺ على أهل بيته نصّا صحيحاً لا يقبل الخدشة أو الشك، وقد روت الصحاح تلك الأحاديث، ويكفي أن نشير إلى بعضها من باب التنويه..

ففي صحيح البخاري بإسناد إلى جابر بن سمرة أنه سمع من النبي ﷺ يقول: يكون بعدي إثنا عشر أميراً[1].

وقد فاجأني بل أدهشني حذف هذه الأحاديث وأمثالها من بعض النسخ المطبوعة حديثاً على أيدي بعض المحقّقين، وكأنّهم يوارون بالحذف والتغيير الحقيقة الساطعة المؤدية إلى إمامتهم عليهم السلام بنص عن خاتم المرسلين ﷺ، علماً أنّ تحقيق أيّ كتاب يعني توثيق نصّه وضبطه ليصل إلينا سليماً كما خطّه ووضعه صاحبه، بكلّ أمانة ودقّة ونزاهة، إلاّ أنّه قد طالت يد العبث العاتية الكثير من المصادر الحديثية المهمة، كصحيح البخاري الذي يعدّه أهل السنّة والجماعة ثاني الوحيين، وقد قال البعض: أنّه أصح كتاب بعد القرآن!! وقد اقتصر الحذف

---

(١) راجع لهذا الحديث صحيح البخاري ج (٦) كتاب الأحكام ح (٦٧٩٦)، وتاريخ بغداد (١٤/٣٥٣ح ٧٦٧٣)، وكنز العمّال (٦/١٦٠) مع إختلاف أمير وخليفة، الصواعق المحرقة باب (١١١) فصل (٢)، والبداية والنهاية (١/١٥٣) بنص: يكون إثنا عشر أميراً كلهم من قريش، والكامل لابن عدى (٢/٧٩٤).

والتغيير ـ كما رأيت ـ في أبواب الخلاف والمناقب، مثل طبعة دار الأرقم (١٤٠٧ هـ) لصحيح البخاري بتحقيق الشيخ قاسم الشماعي الرفاعي، وهو رئيس دائرة الشؤون الدينية في دار الفتوى اللبنانية!!

وهكذا إمتدت هذه الأيادي ذاتها للعبث ببعض كتب الحديث المهمة، حتّى صارت الطبعات القديمة نادرة جدّاً، وباتت تباع بأغلى الأثمان لسلامتها من عبث العابثين، فحسبنا الله ونعم الوكيل.

وفي مصباح البغوي عن جابر بن سمرة أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا يزال الإسلام عزيزاً إلى إثني عشر خليفة كلّهم من قريش[1].

إنّ هذا ما صحّ عند المسلمين من الحديث النبوي الشريف، وهو كما ترى يصرّح بحدّ لا ينسجم إلاّ مع القول بإمامة أهل البيت عليهم السلام والأئمة الطاهرين الإثني عشر من أولاد الرسول ﷺ، ولا يتحقّق صدق هذه الأحاديث إلاّ بالقول بعقيدة الشيعة الإمامية..

ولهذا.. فإنّك ترى شرّاح هذا الحديث ـ وهم كُثُرٌ ـ قد تخبّطوا يميناً وشمالاً وأخذت بهم المذاهب في تفسير هذا الحديث وأمثاله، حتى ارتطمت مقاصدُهم بوحل الخطل والخطأ، عصمنا الله تعالى من الزّلل برحمته وفضله، ورزقنا العلم النافع، ووقانا الجهل والتعصّب بمنّه وإحسانه..

وإن في كتبنا المعتبرة الكثير من هذه الكنوز المنثورة والأنوار المبثوثة الكفيلة بتأسيس هذا الأصل الأصيل، بما لا يدع مجالاً للشكّ في مداليل هذا الحديث

---

(١) راجع مصباح السنة للبغوي (١٣٧/٤) كتاب المناقب ح (٤٦٨٠)، وهو حديث متفق عليه، أخرجه البخاري أيضاً في الصحيح في كتاب الأحكام ح (٧٢٢٢)، ومسلم في الصحيح (١٤٥٣/٣) في كتاب الإمارة باب الناس تبع لقريش.

وهديه المنير، وإذا ضممنا أحاديثنا إلى مضمون هذه الأحاديث وضعنا يد القارئ الكريم على مِفصَل الحقيقة، وسأكتفي بإيراد ثلاثة أحاديث شريفة في هذا الصدد، إخترتها من بين لآليء كلماته صلى الله عليه وآله الشريفة.

الأوّل

في كفاية الأثر بإسناد يرفعه إلى حذيفة بن اليمان أنه قال: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وآله ثم أقبل بوجهه الكريم علينا فقال: معاشر أصحابي، أوصيكم بتقوى الله والعمل بطاعته، فمن عمل بها فاز وغنم، ومن أنجح وتركها حلت به الندامة، فالتمسوا بالتقوى السلامة من أهوال يوم القيامة..

فكأني أدعى فأجيب، وإني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا، ومن تمسك بعترتي من بعدي كان من الفائزين، ومن تخلف عنهم كان من الهالكين.

فقلت: يا رسول الله، على من تخلفنا؟

قال: على من خلف موسى بن عمران قومه؟

قلت: على وصيه يوشع بن نون.

قال: فإن وصيي وخليفتي من بعدي علي بن أبي طالب عليه السلام قائد البررة وقاتل الكفرة منصور من نصره مخذول من خذله.

قلت: يا رسول الله، فكم يكون الأئمة من بعدك؟

قال: عدد نقباء بني إسرائيل، تسعة من صلب الحسين عليه السلام أعطاهم الله علمي وفهمي، خزان علم الله ومعادن وحيه.

قلت: يا رسول الله فما لأولاد الحسن؟

قال: إن الله تبارك وتعالى جعل الإمامة في عقب الحسين، وذلك قوله

تعالى: ﴿وَجَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾[1].

قلت: أ فلا تسميهم لي يا رسول الله؟

قال: نعم، إنه لما عرج بي إلى السماء ونظرت إلى ساق العرش فرأيت مكتوبا بالنور لا إله إلا الله محمد رسول الله أيدته بعلي ونصرته به، ورأيت أنوار الحسن والحسين وفاطمة، ورأيت في ثلاثة مواضع عليّا عليّا عليّا ومحمّداً ومحمّداً وموسى وجعفراً والحسن والحجة يتلألأ من بينهم كأنه كوكب دري.

فقلت: يا رب من هؤلاء الذين قرنت أسماءهم بإسمك؟

قال: يا محمد إنهم هم الأوصياء والأئمة بعدك، خلقتهم من طينتك، فطوبى لمن أحبهم والويل لمن أبغضهم، فبهم أنزل الغيث، وبهم أثيب وأعاقب.

ثم رفع رسول الله ﷺ يده إلى السماء ودعا بدعوات فسمعته فيما يقول: اللهم اجعل العلم والفقه في عقبي، وعقب عقبي، وفي زرعي وزرع زرعي[2].

والثاني

في الإرشاد وكفاية الأثر بالإسناد إلى حذيفة بن أسيد أنّه سمع النبي ﷺ يقول وهو على منبره: يا أيها الناس، إني فرطكم وأنتم واردون عليّ الحوض، ألا وإني سائلكم عن الثقلين فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فإن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يلقياني، وسألت ربي ذلك فأعطانيه..

ألا وإني قد تركتهما فيكم كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فلا تسبقوهم فتفرقوا، ولا تقصروا عنهم فتهلكوا، ولا تعلّموهم فإنهم أعلم منكم.

---

(١) سورة الزخرف: الآية ٢٨.

(٢) راجع كفاية الأثر ص (١٣٦)، عنه بحار الأنوار (٣٣١/٣٦ ح ١٩١)، وإثبات الهداة (٥٣٥/٢ ح ٥٣٤)، والعوالم ج (٣/١٥) ص (١٨٠) ح (١٥٤).

أيها الناس، لا ألفينكم بعدي ترجعون كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض، فتلقوني في كتيبة كمجر السيل الجرار، ألا وإن علي بن أبي طالب أخي ووصيي، يقاتل بعدي على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله[١].

والثالث

رواه الشيخ الصدوق رحمه الله بإسناد إلى سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: معاشر الناس، إني راحل عن قريب، ومنطلق إلى المغيب، أوصيكم في عترتي خيراً، وإياكم والبدع، فإن كل بدعة ضلالة، والضلالة وأهلها في النار..

معاشر الناس، من افتقد الشمس فليتمسك بالقمر، ومن افتقد القمر فليتمسك بالفرقدين، فإذا فقدتم الفرقدين فتمسكوا بالنجوم الزاهرة بعدي، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

قال: فلما نزل عن المنبر تبعته حتى دخل بيت عائشة، فدخلت إليه وقلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، سمعتك تقول: إذا إفتقدتم الشمس فتمسكوا بالقمر، وإذا افتقدتم القمر فتمسكوا بالفرقدين، وإذا افتقدتم الفرقدين فتمسكوا بالنجوم الزاهرة، فما الشمس وما القمر وما الفرقدان وما النجوم الزاهرة؟

فقال: أنا الشمس، وعلي القمر، والحسن والحسين الفرقدان، فإذا إفتقدتموني فتمسكوا بعلي بعدي، وإذا افتقدتموه فتمسّكوا بالحسن والحسين، وأما النجوم الزاهرة فهم الأئمة التسعة من صلب الحسين تاسعهم مهديهم.

---

(١) راجع كفاية الأثر ص (١٢٧)، عنه بحار الأنوار (٣٢٨/٣٦ ح ١٨٥)، والعوالم ج (٣/١٥) ص (١٧٧) ح (١٤٨)، وروى بعضه أبو نعيم في حلية الأولياء (٣٥٥/١).

ثم قال ﷺ: إنهم هم الأوصياء والخلفاء بعدي، أئمة أبرار، عدد أسباط يعقوب وحواري عيسى.

قلت: فسمّهم لي يا رسول الله.

قال: أوّلهم علي بن أبي طالب، وبعده سبطاي، وبعدهما علي زين العابدين، وبعده محمد بن علي الباقر علم النبيين، والصادق جعفر بن محمد، وإبنه الكاظم سمي موسى بن عمران، والذي يقتل بأرض الغربة إبنه علي، ثم إبنه محمد، والصادقان علي والحسن، والحجة القائم المنتظر في غيبته، فإنهم عترتي، من دمي ولحمي، علمهم علمي وحكمهم حكمي، من آذاني فيهم فلا أناله الله شفاعتي[1].

وللتقيّ المنصف أن يعتقد بما أدّى إليه عقله بعد جولتنا الخاطفة بين هذه الآثار النبوية الساطعة الدلالة المصرّحة بالإمامة الإلهية والخلافة الربّانية لهم عليهم السلام دون غيرهم، والمفسّرة بجلاء أمر الحبّ القرآني والودّ الذي ندب إليه المؤمنين، ليقف المسلم ويتفكّر في عبقرية هذا الدين وإحكام إرتباط فرائضه المنزلة، ويشهد إنسجام أصوله المتقن، فحبّهم عليهم السلام هو قاعدة الطاعة والإمامة، وهذا سرّ إصرار النبي ﷺ على تأصيل مودّتهم في النفوس المؤمنة الطيبة التوّاقة إلى حبّ الدين وحبّه.

---

(١) راجع معاني الأخبار ص (١١٤)، وكفاية الأثر ص (٤٠)، وبحار الأنوار (٢٨٩/٣٦ ح ١١١)، وإثبات الهداة (٥١٤/٢ ح ٤٨٧)، والعوالم ج (٣/١٥) ص (١٤٤) ح (٨٣)، والمنتخب ص (٢٤٤).

سلطان الحب

الحبّ سلطان متربّع على عرش القلوب، له أحكامه وهيمنته بحسب تفاعل وإستجابة المحبّين نحوه، يُستتبع بجملة كبيرة من الحقوق تجاه المحبوب، وحبّ النبي الأكرم ﷺ وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام من هذا القبيل أيضاً، فإنّه يُلزم المؤمنين المحبّين بجملة من الإلتزامات الطبيعيّة..

وهو أمرٌ فطريّ جِبِلّي بيّن بالوجدان، فإذا كان مجنون ليلى العامرية يُبدي تعلّقه بآثارها فإنّ المؤمن يُظهر أضعاف ذلك حيال مقدّساته بحكم حبّه العفيف الكبير، وقد ذكروا أن المجنون كان يمرّ بديار ليلى فلا يجد مناصاً من الجهر بشغفه وولهه تجاهها بتقبيل جدران الأبنية، لأنّه يرى صورة مليكة قلبه في ثنايا كل لبنة فيها، ويقول:

أمرّ على الديار ديار ليلى   أقبّل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حبّ الديار شغفن قلبي   ولكن حبّ من سكن الديارا

وهذه هي سيرة المحبّين المملوءة صحائف الأدب بحالاتهم وقصائدهم، ومن المناسب أن نمرّ على عجالة بتصنيف الحب ومسمّياته عند اللغويين، ومعلوم أن العربية غنيّة بأسماء المعنويّات غناها بأسماء الماديّات، بل هي في المعنويّات أغنى على التحقيق، إذ تترقّى مسمّيات حالات الحبّ بحسب إشتداد قوّته في النفس، فالمرتبة منه تابعة لأثره في الخاطر قوة وضعفاً.

قال الثعالبي في فقه اللغة في ترتيب الحب وتفصيل مراتبه:

أوَّل مَرَاتِبِ الحُبِّ الهَوَى، ثُمَّ العَلاَقَةُ وهي الحُبُّ اللاَّزِمُ للقَلْبِ، ثُمَّ الكلَفُ وهو شِدَّة الحُبِّ، ثُمَّ العشْقُ وهو اسْم لِمَا فَضَلَ عَنِ المِقْدَارِ الذي اسْمُهُ الحُبُّ، ثُمَّ الشَعَفُ وهو إحْرَاقُ الحُبِّ القلْبَ مَعَ لَذَةٍ يَجِدُها، وَكَذلِكَ اللَّوْعَة واللاَّعِجُ، فإنّ تِلْكَ حُرْقَةُ الهَوَى، وهذا هوَ الهَوَى المُحْرِق، ثمَّ الشَّغَفُ وهُوَ أنْ يَبْلُغَ الحُبُّ شَغافَ القَلْبِ، وهي جِلْدَة دُونَهُ، وقد قُرِئَتَا جَمِيعاً ﴿شَغَفَهَا حُبّاً﴾[1] وَشَعَفَهَا..

ثُمّ الجَوَى وَهَو الهَوَى البَاطِنّ، ثُمَّ التَّيْمُ، وهُوَ أنْ يَسْتَعْبِدَهُ الحُبُّ، ومِنْهُ سُمِّي تَيْمُ اللّه أي عَبْدُ الله، ومِنْهُ رَجُلٌ مُتَيم، ثُمَّ التَّبْلُ وهُوَ أنْ يُسْقِمَهُ الهَوَى، وَمِنْهُ رَجُل مَتْبُول، ثُمَ التّدْلِيهُ وهُوَ ذَهَابُ العَقْلِ مِنَ الهَوَى، ومِنْهُ رَجُلٌ مُدَلَّهٌ، ثُمَّ الهُيُومُ، وهُوَ أنْ يَذْهَبَ عَلَى وَجْهِهِ لِغَلَبَةِ الهَوَى عَلَيهِ، ومِنْهُ رَجُل هَائِم.

لقد تدرّج الثعالبي تدرّجاً منطقيّا بحسب شدّة أثر الحب على المحبّ، وبدأ بالهوى وتدرّج حتى بلغ إلى مراتب تأجّج وضراوة الإحساس بالحب، وهكذا خَلُص إلى درجة طغيان الحب التي تُفقد المحب إحساسه بالأشياء، وسماها العرب الهيام..

إن هذه هي حالة الإستغراق التام التي ينعدم معها الإحساس، وهي تمثّل إنصهار المحب في محبوبه إلى درجة الإتّحاد النفسي والإمتزاج العاطفي، فيكون الحس معها معطّلاً..

وتفرض هذه الحالة على المحب الهيام بالمحبوب عبر الإندكاك فيه والإنغماس في محاسنه، وقد يرى بعض النّاس إستبعاد تحقّق هذه الحالة ويحسب أنّها مجرّد

---

(١) سورة يوسف: الآية ٣٠.

أخبار مسطورة في دواوين العشّاق، والحقّ أنّ كلّ إنسان يعيش الإستغراق ولو في بعض معانيه، وكثيراً ما ينتبه إلى جرح يسيل منه الدم في يده مثلاً، إلاّ أنّه لا يعلم متى حدث ذلك الجرح ولا أين!! لإنغماسه وإستغراقه في أمر آخر..

وهكذا تصنع المحبّة إن بلغت بصاحبها مراتب الإستغراق وطغت على الأحاسيس والشعور، فقد حكي أن قيساً العاشق خرج في الليل يطلب ناراً قاصداً مضارب ليلى، فخرجت له حبيبته بقبس من نار فتناوله منها، ثمّ اشتد به أوار الحبّ عند رؤيتها، فأطال المكث عندها، وراح يسترق لحظات الخلوة من سطوة أهلها، إلى أن وصلت النّار وخلصت إلي يده وكوته لواهبها، وهو هائم مشغول بالنظر إليها لا يحسّ بجسمه أصلاً..

فقالت له: النارُ يا قيس!!

فأجابها قائلاً: والله ما شعرت بها!!

فكيف لا يصل حبّ الكمّل إلى هذه المراتب في حبّهم رسول الله ﷺ وأهل بيته عليهم السلام، على أنّ حبّهم يتفوّق عند القياس على كل حب، فهو الحب الكبير العفيف الطاهر، حيال المحبوب ذي الحسن الحقيقي الجذّاب.. ومنتهى آثار الحبّ التي يظهرها المحبّون لهم عليهم السلام هي دون ما يستحقّون قطعاً، وغاية ما يبديه المؤمنون لا يتناسب مع عطائهم وجهادهم وصبرهم وتحمّلاتهم في سبيل الله تعالى لإنقاذ الإنسان، فمهما فعل المحبّون فمنتهاهم إلى التقصير الذي يُحتّمه القصور حتماً.

فرائض الحب

إذا عُلم أنّ حبّهم عليهم السلام هو شرط الإسلام وأساسه، فإنّه يلزمنا الإقرار بلوازم هذا الحب، ولا شكّ أن لهم عليهم السلام فرائض وأحكاماً على محبّيهم، إذ لا تصحّ نسبة أحد إلى الإسلام إلاّ بمودّتهم عليهم السلام المترجمة مبدأً وفكراً وعملاً على صعيد الواقع، هذا.. وإلاّ كان حبّاً أجوفاً فارغاً من المحتوى..

وأما إذا قصدنا الحديث عن فرائض الحب فإنّه يلوح لنا إمتزاجها بحقوقهم عليهم السلام التي إفترضها الله سبحانه إمتزاجا كبيراً، وليس القصد إحصاء كلّ الفرائض والحقوق، وأحمد الله تعالى أن وفقني لتأليف كتاب في حقوق الأئمة عليهم السلام أسميته الميثاق، أتمنّى أن يرى النور قريباً بحوله وقوّته، قد بسطت فيه جملة وافرة من حقوقهم، وسأكتفي هاهنا بمجرّد الإشارة..

إن حبّهم عليهم السلام يفترِضُ علينا بالدرجة الأولى معرفتهم على الوجه الممكن وطلب الزيادة في درك مقامهم عند الله عزّ وجل والإطلاع على خصوصيّاتهم وشؤونهم وسيرتهم.. ومن ثمّ طاعتهم وإتّباعهم ومشايعتهم ونشر علومهم وإحياء أمرهم، ومن ثم نصرتهم ومؤازرتهم والذب عنهم والدفاع عن عقيدتهم وفكرهم.

إن الحبّ يحتّم علينا الإحتفاء بهم والإهتمام بأيّامهم وإحياء أمرهم، والتسمية بأسمائهم والتذكير بهم، وعرض محاسن أفعالهم وأقوالهم على الناس، والتصدّي لتعريفهم بمختلف المظاهر المتاحة والطرق اللائقة بشرفهم ومنزلتهم، كالإبتهاج في أيام أفراحهم والإهتمام في أيّام أتراحهم، والبكاء على مصابهم.

ولا بدّ من إقامة الإحتفالات في مواليدهم وإلقاء الخطب والقصائد في الثناء على ساحتهم، بما يليق بعلوّ شأنهم، ومن هذا المنطلق انطلق كل من أحيى يوم مولد النبي الكريم ﷺ بالإحتفال من المسلمين، كأقلّ ما يجب إظهاره من البهجة في هذا اليوم المبارك الفضيل، وهو الأمر الذي كان عليه سلف المسلمين، وعلى ذلك كانت العادة المطردة عبر الأزمنة، إستدراراً للرحمة والبركة وتعرّضاً للخير الأوفى والكرامة العظمى، حتّى ظهر في المسلمين بعض شذّاذ الفكر ممّن أنكر هذه الطاعة المندوبة وصنّفها في جملة البدع جهلاً وضلالاً..

يقول الديار بكري:

لا يزال أهل الإسلام يحتفلون بشهر مولده ويعملون الولائم ويتصدّقون في لياليه بأنواع الصدقات ويظهرون السرور ويزيدون في المبرّات ويعتنون بقراءة مولده الشريف، ويظهر عليهم من كراماته كلّ فضل عظيم[1].

وإن الحب ليحتّم زيارة قبورهم الشريفة وتشييد مراقدهم المنيفة للدعاء إلى الله تعالى وإقامة الصلاة فيها، وهي محالّ قال في حقّها الله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾[2]. والتبرّك بالكون تحت قبابها المطهّرة، والمحافظة على آثارهم التي تمتّ إليهم عليهم السلام بالصلة، وينبغي تقديم الإحترام والإجلال والإكبار أمام مشاهدهم قربة لله تعالى.

وهكذا تفعل الأمم المتحضّرة في تشييد معالم أصالتها، وتحافظ بإجلال على جذورها، لتصون تراثها وتبني وتحيي أمجادها، وتعكس بذلك تديّنها وتعزّز

---

(١) راجع تاريخ الخميس للديار بكري (١/٣٢٣)، وقال القسطلاني مثل ذلك تماماً وزاد عليه في المواهب اللدنية (١/٢٧).

(٢) سورة النور: الآية ٣٦.

مكانة العلم والدين والفضيلة عندها، لتبقى أعيان أهل العطاء شاخصة بالتكريم أمام أعين النشأ، فتكحل أماقي الأجيال بِمِروَد النّور والعلياء والشمم..

وهكذا يندفع المحبّون والمؤمنون إلى الرّشد والمعرفة، ويتأمّلون ويتفكّرون ويتدبّرون في عاقبة حزب الله وعيبة علمه وأهل بيت نبيه ﷺ، ويحدوهم الحب إلى الإمتزاج بنفوسهم القدسية والإندكاك بقلوبهم النورانية.. وينبغي التوجّع والتألّم لمصائبهم، سواء كان في مشاهدهم الشريفة أو في أيام أحزانهم، علماً بأن أعداءهم قد صبغوا كلّ أيام السنة بسواد رزاياهم..

خصوصاً إذا ما توجّهنا ببصائرنا إلى رزية سيدنا ومولانا الإمام الحسين عليه السلام، قتيل العبرة، وعبرة المؤمنين، فقد طفحت مصائبه على الأيام بالحزن وأغرقتها بالمصاب، ولا شكّ في أن البكاء عليه وعلى أهله وعياله وأصحابه لهو من أعظم القربات إلى الله تعالى، لأنّه قتل من أجل الدين والعقيدة، وفي بكائنا عليه تتجلّى محاكاتنا لتضحيته، بمحاولة التقرّب إلى نفسه الكبيرة ونيل بعض عطائها الوافر الكريم، والتعرّض بذلك إلى بعض ثمار المحبة اليانعة بالمودة الصادقة المفروضة.

جولة نورانية

سأسوق قارئي الكريم إلى جولة نورانية من الحديث الشريف، تحاكي تسلسل العنوان السّابق من حيث المضمون، هي كنوز ترقى على كنوز الأرض المادية، إنتقيتها كما ينتقي الغوّاص عصماوات الدرر من عيون المصادر المعتبرة.

وقد انتهى بنا البحث إلى الالتزام بين حبّهم عليهم السلام وطاعتهم، فانظر إلى كلمات شيخ الأئمة عليهم السلام كيف يعطف الطاعة على الحب وتأمّل مليّاً أمام نور الحديث.

فقد روي في الاختصاص عن الإمام الصادق عليه السلام: إن الله تبارك وتعالى أوجب عليكم حبنا وموالاتنا، وفرض عليكم طاعتنا، ألا فمن كان منا فليقتد بنا، فإن من شأننا الورع والإجتهاد وأداء الأمانة إلى البر والفاجر، وصلة الرحم، وإقراء الضيف، والعفو عن المسيء، ومن لم يقتد بنا فليس منّا[1].

فالطّاعة لهم عليهم السلام تتلو الحبّ والمولاة بحسب تسلسل الفرائض، وحبّهم هو الأساس والأصل الأصيل من الإسلام، وعلى ضوء ذلك تأمّل في كلمات الإمام الصادق عليه السلام في بناء أصول الإسلام وتدبّر في حديثه الشريف.

روي في الكافي الشريف عن الإمام الصّادق عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الإسلام عريان فلباسه الحياء، وزينته الوفاء، ومروءته العمل الصالح، وعماده الورع، ولكل شيء أساس، وأساس الإسلام حبنا أهل البيت[2].

ويرشدنا الأئمة عليهم السلام إلى أنّ التعرّض لذكرهم تعرّض للعافية، وفي أسمائهم سرّ السرور والفرج، كما أنّ رضا الله تعالى هو نفس حبّهم، فتفكّر في كلمات سيّد البلغاء والمتكلّمين.

في المحاسن عن الإمام الصّادق عليه السلام: قال أمير المؤمنين عليه السلام: ذكرنا أهل البيت شفاء من الوعك، والأسقام، ووسواس الريب، وحبّنا رضى الرب

(١) راجع الإختصاص ص (٢٤١)، وبحار الأنوار (١١٥/٧٢).

(٢) راجع الكافي (٤٦/٢)، وبحار الأنوار (٢٨٢/٦٥).

تبارك وتعالى[١].

وهذه هي منافع حبّهم الكبيرة في الحياة الدنيا، على أن التشريعات والفرائض ـ ومنها حبّهم ـ تؤدّي إلى منافع الأخرة، فحبّهم هو الذي ينفع في ثلاثة مواطن يوم القيامة.

ففي بحار الأنوار: عن جابر الجعفي عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام للحارث الأعور: لينفعنك حبنا عند ثلاث، عند نزول ملك الموت، وعند مساءلتك في قبرك، وعند موقفك بين يدي الله[٢].

وفي أمالي الشيخ الطوسي: بإسناده إلى أبي بردة الأسلمي قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: لا يزول قدم عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع، عن جسده فيما أبلاه، وعن عمره فيما أفناه، وعن ماله مما إكتسبه وفيما أنفقه، وعن حبنا أهل البيت[٣].

وقد أسلفنا أنّ حبّهم عليهم السلام لابدّ أن يتجلى في مظاهر، ويتضاعف الثواب والأجر على حبّهم بقدر شدّة إظهاره، وخير الأمور أحمزها، فقد يكابد المحب في سبيل حبّه التعب والنصب، مظهراً ودّه الحقيقي الذي يسمو على الجراح..

وقد يقوم المحب الواد لهم بقصدهم مشياً من طريق بعيد حتى تتأثر ساقاه، ولطالما رأينا هذه الصور المبكية في طريق زيارة سيّد الشهداء عليه السلام، وبين هؤلاء المحبين الشباب والشّيَبة والنساء والعجائز والأطفال، وهم يمشون أيّاماً وليالي قصد المثول بين يدي المزور قربة لله تعالى لإبداء فروض المودّة والمحبّة المفترضة.

---

(١) راجع المحاسن (١/٦٢)، وبحار الأنوار (٢/١٤٥).

(٢) راجع بحار الأنوار (٢٧/١٦٤).

(٣) راجع بحار الأنوار (٧/٢٥٨)، والخصال (١/٢٥٣)، وأعلام الدين ص (٤٦١).

ولقد رأيت بعيني كيف يمشي ذو السّاق الواحدة معتمداً في المشي على عُكّازته سعياً إلى قبّته الشريفة في يوم عرفة من هذه السّنة، وطالما هتفت النّاس وارتفعت أصواتهم في المواكب كما كانت تهتف في ما مضى:

لو قطّعوا أرجلنا واليدين نأتيك زحفاً سيّدي يا حسين

وفي تفسير العياشي: عن بريد بن معاوية العجلي، قال: كنت عند أبي جعفر عليه السلام إذ دخل عليه قادم من خراسان ماشياً، فأخرج رجليه وقد تغلّفتا، وقال: أما والله ما جاء بي من حيث جئت إلاّ حبّكم أهل البيت، فقال أبو جعفر عليه السلام: والله لو أحبّنا حجر حشره الله معنا، وهل الدين إلاّ الحب، إن الله يقول: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾[1]، وقال ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾[2] وهل الدين إلا الحب!![3].

ومن أدنى مظاهر المودّة التسمّي بأسمائهم الشريفة، وهو أمر بديهي، فالنّاس تسمّى بأسماء من تحب من الأعيان والقادة..

وقد جاء في الكافي الشريف عَنْ الصادق عليه السلام: استحسنوا أسماءكم، فإنكم تدعون بها يوم القيامة[4].

وليس في اللغة العربيّة أحلى ولا أجمل من أسمائهم المقدسة الشريفة، التي وُصفت بالزيارة الجامعة: فَمَا أَحْلَى أَسْمَاءَكُمْ وَأَكْرَمَ أَنْفُسَكُمْ وأَعْظَمَ شَأْنَكُمْ.

ففي تفسير العياشي: عن ربعي بن عبد الله، قال: قيل لأبي عبد الله عليه السلام:

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٣١.

(٢) سورة الحشر: الآية ٩.

(٣) راجع بحار الأنوار (٢٧/٩٥).

(٤) راجع بحار الأنوار (١٠١/١٣١).

جعلت فداك، إنا نسمي بأسمائكم وأسماء آبائكم فينفعنا ذلك؟

فقال: إي والله، وهل الدين إلاّ الحب، قال الله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[١][٢].

وقد نصّت الأخبار الواردة على أن مجرّد ذكرهم عبادة، وأكّدت على أنّ مجرّد التفكّر في الإنقطاع إليهم مصداق من مصاديق الحب لهم.

في تفسير العياشي عن أبي عبيدة الحذاء، قال: دخلت على أبي جعفر عليه السلام فقلت: بأبي أنت، ربّما خلا بي الشيطان فخبثت نفسي، ثم ذكرت حبّي إياكم وانقطاعي إليكم فطابت نفسي.

فقال: يا زياد، ويحك، وما الدين إلاّ الحب، أ لا ترى إلى قول الله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾[٣].

وإنّ من أجلى صور مودّتهم المفترضة وأتمّ مصاديق الحبّ لهم الإهتمام لهمّهم والإغتمام لغمّهم، وقد نصّت الأخبار على الحزن القلبي، يتلوه البكاء على أحزانهم، كما في هذا الحديث الذهبي.

في بحار الأنوار: عن أبان بن تغلب، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: نفس المهموم لظلمنا تسبيح، وهمّه لنا عبادة، وكتمان سرنا جهاد في سبيل الله، ثم قال أبو عبد الله عليه السلام: يجب أن يُكتب هذا الحديث بماء الذهب[٤].

وقال العلامة المجلسي رحمه الله في بيان الحديث ما حاصله:

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٣١.

(٢) راجع بحار الأنوار (٢٧/ ٩٥).

(٣) راجع بحار الأنوار (٢٧/ ٩٤).

(٤) راجع بحار الأنوار (٢/ ٦٤)، والكافي (٢/ ٢٢٦).

نفس المهموم لنا : أي المتفكر في أمرنا الطالب لفرجنا ، أو المغتم لعدم وصوله إلينا ، المغتم لمظلوميّتنا ، تسبيح : أي يكتب لكل نفس ثواب تسبيح ، وهمّه لنا : أي اهتمامه بخروج قائمنا وسعيه في أسبابه ودعاؤه لذلك عبادة ، أي ثوابه ثواب المشتغل بالعبادة ، وكتمان سرنا جهاد : لأنه لا يحصل إلا بمجاهدة النفس.

مواساة الرسول صلى الله عليه وآله

إن يوم عاشوراء الأسود هو يوم الحزن العظيم الذي يلفّ روح المصطفى الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل بيته الطّاهرين عليهم السلام ، وإن ذكر فاجعة الإمام الحسين عليه السلام هو تذكير بمأساتهم وآلامهم بالتعرّض إلى رمز ظلاماتهم جميعاً ، والبكاء له عليه السلام بكاء مواساة ومشاركة أحزان لهم ، وصورة نقيّة من صور تكريم وحبّ جدّه صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام ، ولكل إمرء ما نوى..

وهو مقام يُطلب فيه خلوص النيّة ونقاؤها من الكدورات في هذه العبادة العظيمة ، التي تأسّست من الناحية الشرعية وتشيّدت بعنوانين ، الأوّل : استحباب البكاء على سيد الشهداء عليه السلام بالأدلّة الدالة على ندب البكاء عليه خصوصاً ، وبالأدلة الدالة على ندبه على أهل البيت عليهم السلام عموماً..

والثانيّ : هو المواساة للنبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام في أحزانهم وآلامهم ، وإبداء الولاء والحبّ للإمام الحاضر الغائب ، الإمام المهدي المنتظر عليه السلام ، فهو إمام الزّمن الذي ترفع إليه أعمالنا ، ولا بدّ من مواساته عليه السلام بسكب الدموع والتوجّع لآلامه في هذا المصاب الأليم تأسياً به وبآبائه الطّاهرين عليهم السلام .

ويعتبر التعبير بهذه العبادة المهمّة تصريح بليغ من المعبّرين بالإستعداد للعطاء والبذل، لرفعه راية الدين، فالدموع الحسينية تنطوي على تعهّد وإلتزام بمنهج الإسلام الذي قُتل من أجله سيّد الشّهداء عليه السلام، وبه يتعزّز التمسّك بالدين والعض على شرائعه بالنواجذ، ويتأكّد تجديد بيعة الولاء بالحب والطاعة لهم عليهم السلام.

ويغلبني شعور بالأسى والأسف لغفلة المسلمين عن هذه الشعيرة المدعومة بالأحاديث الصحيحة، فهم يمرّون مرور الكرام على أهل البيت عليهم السلام دون معرفتهم أو التعرّض لسيرتهم من قريب أو بعيد، وترى خطباء المسلمين يطوون الكشح عن ذكر سيدنا الإمام الحسين عليه السلام في أيام المحرّم، وكأنّه - أعوذ بالله - من أولاد هرقل أو قيصر!! فلا تعني لهم نسبته للنبي الأعظم صلى الله عليه وآله شيئاً!!

وكأنّ المسلمين اليوم وقبل اليوم يتحاشون وصمة التشيّع بتشييد مودّة أهل البيت عليهم السلام وبمواساة نبيهم صلى الله عليه وآله في يوم مصابه بولده المظلوم، مفوّتين بحذرهم أكبر الفرائض المهمة التي لا تختص بمسلم دون مسلم.

قال الشريف الرضي رحمه الله:

لو رسول الله يحيى بعده جلس اليوم عليه للعزا

وهل هناك أكثر فضلاً من التشرّف بتعزية النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في يوم مصابه وحزنه الكبيرين، ونحن نرى ونشهد إعراض المسلمين عن مواساته بمصابه الأليم إلى درجة أهمل خطباء المسلمين ووعّاظهم هذا الحدث المهم، حتّى جرّ إهمالهم إلى إيقاع الناس في ظلمة الجهل، وبلغ بالبعض أن يقيم أعراسه وأفراحه في ليلة عاشوراء إلتماساً للفضل والبركة!! تبعاً لسنة بني أمية!!

ولا أظنّ أنّ مسلماً يقبل بذلك لنفسه أبداً، ومن يرضى أن يقيم زفافه في يوم روى فيه المسلمون عن أم سلمة رضي الله عنها أنها رأت زوجها النبي الكريم صلى الله عليه وآله وآثار

التراب على عمامته والدموع على خديه، إلاّ أن يكون ذلك من جهله بعظيم ما اقترف في ذلك اليوم.

فالحبّ والود الشديدان يحثّان النفس على مواساة النبي الكريم صلى الله عليه وآله ومحاكاته في أحزانه وآلامه، ومشاركته في البكاء على مصارع أولاده البررة، وبديهي أن الحزن لحزنهم والتألّم لما ارتكب فيهم والتوجّد لعظيم مصابهم صورة ظاهرة من صور الحب والودّ لهم عليهم السلام، كما أن الفرح لفرحهم كذلك..

خصوصا وإن عقد المأتم والبكاء على الإمام الحسين الشّهيد عليه السلام أمر يرتكز على فعل النّبي صلى الله عليه وآله القدوة الأسوة الذي أمرنا الجليل تعالى بالأخذ بما آتانا، والإنتهاء عمّا نهانا عنه، والذي نزل القرآن محقّقا عصمته المطلقة، مضافاً إلى سيرة الأئمة الطاهرين عليهم السلام الذين ثبتت إمامتهم وعصمتهم بالنص والبرهان، وقد أمرونا بالعزاء والبكاء عليه عليه السلام كما ستعلم.

صيام عاشوراء

تبدأ مع غرّة هلال محرّم الحرام من كل عام الدعوات لصيام يوم عاشوراء وتتعالى أصوات التذكير بصيامه في كلّ أقطار الإسلام، ويؤكّد جماعة بإلحاح على هذه السنّة في هذا الوقت بالذّات، وكأنّ الأمّة قد التزمت جميع السنن والمندوبات من غير تفريط في واحدة منها، ولم يُخش إلاّ من فوات هذه المندوبة المزعومة، فتُحيى بالتذكير بها والدعوة إليها بالإفطار الجماعي.

وأساس الصّيام في يوم عاشوراء ـ الموجود في كتب أهل السنّة والجماعة ـ أمويّ محض، إذ صام الأمويون فرحاً لمصرع سيّد شباب أهل الجنة عليه السلام وريحانة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وشكراً لله تعالى على ظفر العصبة الأمويّة بالإمام الخارج على يزيد بن معاوية!! وابتهاجاً بمقتله وأهله!!

وبعض المسلمين يحيون هذه السّنة الحاقدة التي غذّاها الحقد الأموي الدّفين والغلّ المقيت على سيد المرسلين صلى الله عليه وآله وآله الطّاهرين عليهم السلام، وهم يُعرّضون بذلك بالشيعة الحزينين الباكين في هذا اليوم العظيم!!

ولو أنّهم راجعوا أنفسهم وحاسبوها حساب المدقّقين وفكّروا لحظة بصدق لعابوا على أنفسهم هذا الفعل المشين، ولعرفوا غناهم بالمستحبّات الكثيرة الواردة في أيّام السنّة عن الخوض في مسبّبات غضب النبي الكريم صلى الله عليه وآله وأذاه الموجب لسخط الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾[1].

وعند التمحيص تجد أنّ الأحاديث في هذا الموضوع من طرق إخواننا السنّة متهافتة ومتعارضة جدّاً، والرّواة لها من المتّهمين، وفيهم من لم يدخل المدينة إلاّ بعد سنوات من الهجرة كأبي موسى الأشعري، وفيهم من كان عند الهجرة طفلاً صغيراً كعبد الله بن الزبير، وفيهم معاوية الذي لم يسلم إلاّ بعد سنوات من الهجرة النبوية، فالبحث السّندي متبدّدٌ وعقيم جدّاً، وأما البحث الدّلالي فأمره يسيرٌ جدّاً، ومضامين تلك الأحاديث المستدل بها في المقام قابلة للخدشة، بل هي بيّنة التهافت، ويدفع إحتمال صدورها عن رسول الله صلى الله عليه وآله أدنى تأمّل.

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٥٧.

ويمكننا القطع بعد ذلك بأنّه لا منشأ لها أو أصل غير الوضع الكاذب على خير المرسلين ﷺ، نكاية به وبأهل بيته الطاهرين عليهم السلام، ولك أن تتأمّل في جولتنا بين تلك الأحاديث ثم تحكم فيها بحكمك العادل المنصف..

وأبتدأ هنا بإيراد كلام علاّمتهم ابن الجوزي فإنّه حجّة عليهم وفيه الكفاية في المقام، حيث قال: تمذهب قوم من الجهال بمذهب أهل السنة فقصدوا غيظ الرافضة، فوضعوا أحاديث في فضل عاشوراء، ونحن براء من الفريقين، وقد صحّ أن رسول الله أمر بصوم عاشوراء إذ قال: انه كفارة سنة فلم يقنعوا بذلك حتى أطالوا وأعرضوا وترقّوا في الكذب[١].

لتعرف الملاك والأصل والدّافع وراء هذه الجمهرة من الأحاديث التي تُبث في أيّام المحرّم!! وحتّى الحديث الذي أورده عن رسول الله ﷺ والذي قد صحّ عنده فإنّه من وضع الأمويين قطعاً، ولا أساس لهذا في حال من الأحوال..

وليعلم العلاّمة ابن الجوزي وإخواننا أبناء السنة الذين يروون أمثال هذه الأحاديث أن كلمة عاشوراء وإطلاقها على يوم العاشر من المحرّم إنّما حصل بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام وبعد أن أقام أئمة أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم مآتم الحزن بهذا المصاب الأليم، ولم تكن كلمة عاشوراء معروفة قبل ذلك على الإطلاق، وقد نصّ أهل اللغة على ذلك بما لا مزيد على كلامهم فيه..

أمّا ابن الأثير فقد قال في النّهاية: هو إسم إسلامي[٢].

وقال ابن دريد في الجمهرة: هو إسم إسلامي لا يعرف في الجاهلية[٣].

---

(١) راجع الفوائد المجموعة ص (١٠٠).

(٢) راجع النهاية لابن الأثير (٣/ ٢٤٠).

(٣) راجع الجمهرة في لغة العرب (٤/ ٢١٢)، وكشّاف القناع، وراجع الصحيح من سيرة النبي

وقال القاضي عياض في مشارق الأنوار: عاشوراء إسم إسلامي لا يُعرف في الجاهلية، لأنه ليس في كلامهم فاعولاء.

وهذه الشهادات اللغوية تعارض تسمية عاشوراء في الأحاديث النبويّة المزعومة عموماً، كما أنّها تعارض تلك الأحاديث المصرّحة بكونه إسماً معروفاً بالجاهليّة خصوصاً، وستقف عليها تباعاً.. ولكي تقف على الدافع الوحيد وراء وضع هذه الأحاديث العجيبة، والسعي في الحض على صيام يوم عاشوراء إلى هذا اليوم.. فتأمّل في ما نقل هذان المصدران، ففيهما الضّالة والهدى.

الأوّل

قال الفلكي المعروف أبو ريحان البيروني في الآثار الباقية بعد ذكر ما جرى على الإمام الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء:

فأمّا بنو أميّة فإنّهم لبسوا ما تجدّد، وتزيّنوا واكتحلوا، وعيّدوا وأقاموا الولائم والضيافات، وأطعموا الحلاوات والطيبات، وجرى الرسم في العامة على ذلك أيّام ملكهم، وبقي فيهم بعد زواله عنهم.. وأمّا الشيعة فإنّهم ينوحون ويبكون أسفاً لقتل سيّد الشهداء فيه[1].

← عليه الرحمة للبحاثة المحقق العلاّمة السيد جعفر مرتضى العاملي (١٠٤/٣) فقد عالج موضوع صيام عاشوراء ببسط وتحقيق في موسوعته فراجع.. كما قد جاء تفصيل ردّ الشبهة في مقال قيّم للأستاذ حسن السقاف في مجلّة الهادي سنة (٧) عدد (٢) ص (٣٦) وفيه فوائد مهمّة جدّاً.. وجاء في بحث بعنوان صوم يوم عاشوراء للعلاّمة السيد جواد القزويني وقد نشر بقسميه في إحدى أعداد النشرة الصادرة عن مركز الإمام السجّاد عليه السلام للعلماء الكويتيين في محرم عام (١٤٢٤) هـ.

(١) راجع الآثار الباقية للبيروني الفلكي طبعة الهند، وقد نقل عنه الكلام بنصّه العلاّمة الخبير

الثاني

قال المقريزي بعد ذكر حزن العلويين المصريين يوم عاشوراء وتعطيل أسواقهم فيه:

فلمّا زالت الدولة اتخذ الملوك من بني أيّوب يوم عاشوراء يوم سرور، يوسعون فيه على عيالهم، وينبسطون في المطاعم، ويتخذون الأواني الجديدة، ويكتحلون، ويدخلون الحمّام جرياً على عادة أهل الشّام التي سنّها لهم الحجّاج في أيّام عبد الملك بن مروان، ليرغموا آناف شيعة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، الذين يتّخذون يوم عاشوراء يوم عزاء وحزن على الحسين بن علي لأنّه قتل فيه..

قال: وقد ادركنا بقايا ممّا عمله بنو أيوب من اتخاذ عاشوراء يوم سرور وتبسّط!![1].

أحاديث صيام عاشوراء

إنّ عامّة المسلمين لا يعرفون أنّ منشأ صيام عاشوراء اليوم هو الفرح الأموي بمصرع سيّد شباب أهل الجنّة، ومن واجبنا تنبيههم على ذلك، ولابدّ من تحرّي مصادر تلك الأحاديث واستعراضها بدقّة متأنّية، لبيان الوجه في عدم الإعتماد

← الشيخ عبّاس القمّي في الكنى والألقاب (١/ ٤٣١).

(١) راجع خطط المقريزي (١/ ٤٩٠).

عليها، فقد لا يعلم الكثير أنّ تلك الأحاديث المحتج بها في المقام مردود عليها، وسنوجّه النظر إلى حديث حديث منها ليتبيّن إعتلال الإستدلال به على المدّعى وعدم نهوضه به في حال من الأحوال..

(١) فقد استدلّوا بما أخرج في صحيح البخاري

عن عائشة أنّها قالت: كانوا يصومون عاشوراء قبل أن يفرض رمضان، وكان يوماً تستر فيه الكعبة، فلما فرض الله رمضان قال رسول ﷺ: من شاء أن يصومه فليصمه، ومن شاء أن يتركه فليتركه.

وأنت ترى صريح الرواية بأن صيام عاشوراء المزعوم كان قبل فرض الصيام في المدينة، وقد تغيّر الإلتزام به بعد تشريع صيام شهر رمضان، والعجب كلّ العجب من أولئك المصرّين اليوم على صيام يوم عاشوراء مع إعراضهم عن ستر الكعبة المقترن مع الصيام فيه في نفس الحديث!! وهم بذلك يستخفّون بحكم ويلوّحون بحكم بحسب ما تشتهيه نفوسهم!!

والعاقل الحصيف يفهم تمسكّهم بهذا وإعراضهم عن ذاك قطعاً، إذ أنّ ستر الكعبة الشريفة أمر لا يغيض شيعة أهل البيت عليهم السلام الأبرار ولا يمسّهم أو يسوؤهم، بخلاف صيام يوم عاشوراء!! إذ أنّه اليوم الذي تتّخذه الشيعة مأتماً على سيّد الشّهداء عليه السلام!!

علاوة على أن المقطع المنسوب إلى رسول الله ﷺ وهو: (من شاء أن يصومه فليصمه ومن شاء أن يتركه فليتركه) يلغي أيّة خصوصية ليوم عاشوراء أصلاً، ويدلّ على التساوي من حيث الصيام وعدمه، وهذا حكم منبسطٌ سيّال على كلّ الأيام من دون فرق بين أيّام السّنة كما هو واضح..

هذا في خصوص في ما نسب للنبي الكريم ﷺ وهو بعيد وغريب، وأمّا ما

ورد في صدر الحديث من أنّه كان يُصام قبل شهر رمضان فإنّه نقل عن عائشة وليس عن النبي صلى الله عليه وآله.

(٢) واستدلّوا بما أخرج في صحيح البخاري أيضاً

عن عائشة قالت: كان يوم عاشوراء تصومه قريش في الجاهلية وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يصومه، فلما قدم المدينة صامه وأمر بصيامه، فلمّا فرض رمضان ترك يوم عاشوراء، فمن شاء صامه ومن شاء تركه.

والكلام في هذا الحديث عين الكلام في الحديث السّابق، ويزيد الحديث على سابقه بأنّ صيام عاشوراء المزعوم من أفعال الجاهلية، وقد ترك صيام يوم عاشوراء بعد أن افترض الله تعالى صيام شهر رمضان، وقد روى مسلم عن ابن مسعود أنّه لما فُرض رمضان تُرك عاشوراء!! وهو كالحديث الذي بين أيدينا صريح بالإعراض عن صيامه.

ولا يصغى لبعض شرّاح الحديث القائل: أي تُرك وجوبه أما استحبابه فباقٍ!! فهو مبتن على دعوى وجوب صيام يوم عاشوراء قبل صيام شهر رمضان وأنّه كان واجباً مفترضاً مثله، وهو أمرٌ لم يقل به أحدٌ أصلاً، وإذا سلّمنا جدلاً بذلك فمن يقول أن نسخ وجوب عبادة يقلب حكمها إلى الإستحباب!! إنّ هذا غريبٌ جدّاً، وقولٌ ضعيف متروك وبرهانه سقيم كما ترى.

وقد أدرجنا كلام أهل اللغة في خصوص (عاشوراء) وقد أطبقت كلمتهم على أنّها لفظة إسلامية لم تكن في الجاهلية!!

(٣) واستدلّوا بما أخرج في صحيح مسلم

عن عبد الله بن عمر: إن أهل الجاهلية كانوا يصومون يوم عاشوراء وإن رسول الله صلى الله عليه وآله صامه والمسلمون قبل أن يفترض رمضان، فلما افترض رمضان

قال رسول الله صلى الله عليه وآله : إن عاشوراء يوم من أيام الله فمن شاء صامه ومن شاء تركه.

إذا أعرضنا عن كلمات الراوي التي لا تهمّنا وتوجّهنا إلى الكلام المنسوب إلى النبي صلى الله عليه وآله فإنّه ينفي الخصوصية في صيام يوم عاشوراء أصلاً ، فهو يوم من أيام الله تعالى ، كسائر أيام السنة ، فيمكن صيام أيّ يوم منها كما يمكن الإفطار في أيّ منها.

(٤) واستدلّوا بما أخرج في صحيح مسلم أيضاً

عن ابن عمر : أنه ذكر عند رسول الله صلى الله عليه وآله يوم عاشوراء فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : كان يصومه أهل الجاهلية فمن أحب منكم أن يصومه فليصمه ومن كره فليدعه.

والكلام نفس الكلام ، فهو نفي لخصوصية الصيام فيه ، ولهذا فإنّه قد إستفاد الفقهاء الأسوياء الذين لم تحرّكهم الإحن الأموية ولا الأحقاد السفيانية نفي تلك الخصوصية..

وقد نصّ ابن الأثير على ذلك في البداية والنهاية وصرّح به في قوله : لّما فرض رمضان لم يأمرهم بصوم عاشوراء ولم ينههم عنه[١].

(٥) واستدلّوا بما أخرج في سنن الترمذي

عن الحكم بن الأعرج قال : إنتهيت إلى ابن عباس وهو متوسد رداءه في زمزم ، فقلت : أخبرني عن يوم عاشوراء أي يوم أصومه؟ فقال : إذا رأيت هلال المحرم فاعدد ثم أصبح من التاسع صائماً ، قال : قلت : أهكذا كان يصومه محمد صلى الله عليه وآله ؟ قال : نعم.

---

(١) راجع البداية والنهاية لابن الأثير (٣/٣١١).

وإن شئت أن تعجب فاعجب لهذا الحديث!! فصريحه أن المستحب صيامه هو يوم التّاسع من المحرّم، المسمّى بيوم عاشوراء!! حتّى اختلف أهل العلم منهم في تحديد اليوم محلّ الكلام هل هو اليوم التاسع أم العاشر!!

ونصّ المصدر: (وقد اختلف أهل العلم في يوم عاشوراء، فقال بعضهم يوم التاسع، وقال بعضهم يوم العاشر)!!

فإذا كان الأمر كذلك فلماذا لا تنهض الدعايات بصيام يوم التاسع من المحرّم!! أم ليس في أهل العلم من السلفيّة من ينتصر لهذا الحديث فيعمل به!! أمّا إذا قبلوا إحتمال أن يكون (عاشوراء) هو التاسع وليس العاشر فكلّ شيء ممكن بعد ذلك!! وما عشت أراك الدّهر عجباً!! ولست أدري كيف غفل أهل العلم والحديث واللغة عن إمكان تسمية التسعة بالعشرة!!

(٦) واستدلّوا بما أخرج في صحيح مسلم

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: أفضل الصّيام بعد رمضان شهر الله المحرّم.

وبهذا الحديث تنتفي خصوصية الصيام في يوم عاشوراء كما ترى، فالأمر منبسط على كلّ الشهر دون تفريق بين أيّامه أو تفضيل يوم على يوم آخر، وقال القاري في شرحه تأييداً لقولنا: (الظاهر أن المراد جميع شهر المحرّم)، والحديث دالٌّ على خصوصية الصيام في شهر المحرّم بعد شهر رمضان ليس إلاّ.

وقد ذهب الْعِزُّ بْنُ عَبْدِ السَّلامِ بعيداً في قواعد الأحكام بتَفْضِيلِ صَوْمِ يوم عاشوراء عَلَى صَوْمِ سَائِرِ الشُّهُورِ.. إذ هو تبرّع محض وتحميل على النص بما يأباه، فإذا كان نصّ الحديث يذكر المحرّم، فأين خصوصية يوم عاشوراء فيه!!

وذكر النووي في شرحه على صحيح مسلم إحتمال أن النبي ﷺ لم يوحَ

إليه بفضل المحرّم إلاّ في آخر الحياة قبل التمكّن من صومه. وقد قوّى هذا الإحتمال نصّ الحديث الذي بين يديك، وهو مخالفٌ كما ترى مع تلك الأحاديث التي تؤكّد زعم صيام النبي ﷺ فيه، كما في رواية ابن عبّاس المتقدّمة!!

وإستظهار النووي هذا وإن كان يتماشى والأحاديث الصّريحة في ذلك إلاّ أنّه يخالف أحاديث فضل صيام يوم عاشوراء التي تنسب صيامه إلى نفس النبي ﷺ وهو الشيء الذي لم يوفّق له رسول الله ﷺ نفسه، فطوبى للصائمين فيه!!

فقد روى البخاري عن ابن عباس أنّه قال: ما رأيتُ النبي يتحرّى صيام يوم فضّله على غيره إلاّ هذا اليوم، يوم عاشوراء، وهذا الشهر، يعني شهر رمضان.

ومعنى يتحرى أي يقصد صومه لتحصيل ثوابه والرغبة فيه، مع أنه يخالف إستظهار النووي وتلك الأحاديث التي تنفي صيامه فيه أصلاً!! وبالتّالي فإنّه يتّضح بذلك حال الحديث الثاني في فضل صيامه الذي يروي فيه مسلم عن النبي ﷺ قوله في صيام يوم عاشوراء: إني أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله!! ولك أن تتدبّر وتتأمّل في تهافت تلك الأحاديث وتضاربها وإختلافها الكبير بعد أن وقفت على سرّ وضع تلك الأحاديث.

(٧) واستدلّوا بما أخرج في صحيح مسلم

عن عبد الله بن عباس، يقول: حين صام رسول الله ﷺ يوم عاشوراء وأمر بصيامه، قالوا: يا رسول الله، إنه يوم تعظّمه اليهود والنصارى، فقال رسول الله ﷺ: فإذا كان العام المقبل إن شاء الله صمنا اليوم التاسع، قال: فلم يأت العام المقبل حتى توفي رسول الله ﷺ.

وإذا حكّمت البصيرة والوجدان في مطاوي هذا الحديث فاختر لنفسك

الحق، فإنّ صريحه ومؤدّاه أن النبي صلى الله عليه وآله صام يوم عاشوراء وهو لا يعلم عظمة هذا اليوم وفضله عند اليهود، وكأنّ اليهود لا يعيشون بين ظهرانيه في المدينة المنوّرة!! وكأنّهم في أقصى الجزيرة العربية!! أو كأنّه جاهل بشريعة أخيه موسى عليه السلام وبحاجة لمن يخبره ويعلمه ما نزل وشرّع في الشرائع السابقة!!

وعلى تقدير الحديث القادم فإنّه ـ وإنّي أعتذر لحضرته صلى الله عليه وآله عن هذا التّوهين ـ سأل اليهود عن فضل يوم عاشوراء عندهم فأخبر به، والمفترض أنّه يعلم بفضله!! وهو الشيء الذي يخالف ما في أيدينا تماماً، فهل أنّ الصّحابة الكرام هم الذين قد نبّهوه على فضل هذا اليوم عند اليهود وهو لا يعلم به!! أم أنّه سأل اليهود وعلم منهم فضله ثمّ نسي فذكّره أصحابه!! وإنّهما لعمري أمران أحلاهما مرٌّ كما ترى.

وإن تعجب لشيء فاعجب لإقحام النصارى في هذا الحديث العجيب الملفّق، فإذا عرفنا فضل هذا اليوم عند اليهود، وسيأتي أنّه اليوم الذي نجى الله تعالى فيه موسى من فرعون كما يُزعم، فما علاقة النصارى في هذا الأمر!!

فتأمّل يا أخي وتبصّر كيف نسج واضع هذا الحديث الأفّاك نسجه على غير تحسّب، ودلّس على أمّة الإسلام فصارت تستند في أحكامها على أوهن البيوت، ودفعه حقده الأسود وبغضه المقيت لتصوير يوم عاشوراء الحزن والبكاء بصورة العيد السماوي الموحّد!! الذي يجمع النصارى واليهود بالمسلمين!!

وإن عجبي لا ينقضي من هذه الأمّة التي تصوّر نبيّها الكريم صلى الله عليه وآله مستفيداً متعلّماً من اليهود أو آخذاً علمه من أفواه الرجال مع أنّهم يتلون الكتاب ويجوّدونه ويرتّلونه في محاريب المساجد!! وقد شيّد المصحف مقامه وفضله الكبيرين، وفي هذه الصورة المجحفة به صلى الله عليه وآله يُصوّر كأيّ تابع مستفيد

متشبّه باليهود، وكأنّه ـ والعياذ بالله ـ تائه لا يهتدي إلى حكم الله تعالى في صيام هذا اليوم!!

هذا على الرغم من القطع بتحريف شريعتهم وعبث رهبانهم بأحكامها، والكلام يجري كذلك في دين النصارى، في حين أنّ كلّ المسلمين يروون عنه قوله ﷺ دائماً: ولا تشبّهوا باليهود!! وقوله ﷺ: من تشبّه بقوم فهو منهم، وأنت ترى كم هو ـ بزعمهم والعياذ بالله ـ يتشبّه بهم في تشريعاتهم وأحكامهم ومختصّاتهم!! وفي تلك الأحاديث بشارة مزفوفة إلى اليهود بإتّباع نبيّنا ﷺ لعامّة اليهود وأخذه عنهم فضلاً عن أخيه موسى عليه السلام!! فأعوذ بالله تعالى من هذا الإفتراء على سيّد المرسلين ﷺ..

وقد وقع الإختلاف الكبير بين علماء السنّة في تحديد اليوم الذي يستحبّ صيامه في هذه الأحاديث أصلاً، ولا تعجب إذا اختلف العلماء بين ثلاثة أقوال!! بين العاشر، والتّاسع، والتاسع والعاشر معاً، مع أن صريح الحديث يوم واحد!!

وقال ابن قدامة في المغني: عاشوراء، هو اليوم العاشر من المحرّم، وهو قول سعيد بن المسيّب، والحسن، وروي عن ابن عبّاس أنّه قال التّاسع، وروى عنه عطاء أنّه التّاسع والعاشر، ونصّ عليه أحمد، وهو قول إسحاق..

وقال الشافعي وآخرون أنّه يستحب صوم التاسع والعاشر جميعاً؛ لأن النبي ﷺ صام العاشر، ونوى صيام التاسع.

ومستندهم في خلافهم هذا الحديث العليل، فهو مجملٌ من جهة إعراض النبي ﷺ عن صيام يوم عاشوراء ومن عدمه، بل هو في إعراضه أظهر، ففي صدره: (صام رسول الله ﷺ يوم عاشوراء وأمر بصيامه) ولمّا أخبر بتعظيم

اليهود له قال ﷺ: (فإذا كان العام المقبل إن شاء الله صمنا اليوم التاسع) فهل النبي ﷺ عازم على صيام العاشر والتاسع من السنة القادمة كما هو مستفاد من إلتزام علمائهم باليومين التاسع والعاشر!! أم أنّه إختار صيام التاسع وأعرض عن صيام العاشر كما هو صريح الحديث!!

وبهذا لا يثبت إلاّ الأمر بصيام التّاسع من المحرّم على تقدير صحّة الحديث طبعاً، ومن من هؤلاء الدّعاة دعى إلى صيام أو إفطار جماعي في اليوم التاسع من المحرّم!! أو حتّى التاسع والعاشر!! أم كيف يُدعى لصيام التاسع أو الإفطار الجماعي فيه والحال أن الإمام الحسين عليه السلام مقتول في اليوم العاشر!! وأحزان الشيعة متجلّية ظاهرة فيه!! هذا ممّا لا يمكن قطعاً..

مع أنّ علماءهم المتقدّمين ومتأخرّي المتقدّمين وجّهوا تقديم صيام التّاسع على العاشر من المحرّم، واستفادوا من الأدلّة تشريعه دون العاشر، وقد ذكر النووي فِي حكمة إستحباب صوم تاسوعاء أوجهاً، منها مخالفة اليهود في اقتصارهم على صيام العاشر..

وقال ابن تيمية في الفتاوى الكبرى: نهى ﷺ عن التشبّه بأهل الكتاب في أحاديث كثيرة، مثل قوله في عاشوراء: (لئن عشتُ إلى قابل لأصومنّ التّاسع).

وقد إستند كلّ علماء السنّة على هذا الحديث، وهو صريح بالعدول من صيام العاشر إلى التاسع، ولا دليل ينهض ببقاء حكم إستحباب صيام العاشر إلاّ الإحتمال المحض والظنّ الذي لا يغني عن الحقّ شيئاً، وهذا صريح كلام ابن حجر في فتح القدير عند تعليقه على قوله ﷺ: (لئن بقيت إلى قابل لأصومنّ التاسع) إذ يقول: ما همّ به من صوم التاسع (يُحتمل) معناه أن لا يقتصر عليه بل يُضيفه إلى اليوم العاشر، إما احتياطاً له، وإما مخالفة لليهود والنصارى، وهو

الأرجح، وبه يُشعر بعض روايات مسلم.

وليس في كلمات علماء السنة ما يستند عليه في تشريع إفراد اليوم العاشر بالصيام أبداً، بل ذهب ابن يتيمية في الفتاوى الكبرى إلى كراهية إفراده بالصوم، خلافاً لإبن حجر الهيتمي في تحفة المحتاج فإنّه لم ير البأس في إفراده متبرّعاً ذلك.. وكلّ ذلك مبنيٌّ على الإحتمال كما بيّنّا بعد إجمال الحديث.

(٨) واستدلّوا بما رواه البخاري

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قدم النبي صلى الله عليه وآله المدينة، فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجّى الله بني إسرائيل من عدوهم، فصامه موسى، قال: فأنا أحق بموسى منكم، فصامه، وأمر بصيامه.

وهذا الحديث المزعوم يعارض الحديث المتقدّم من جهة واضحة، ففي المتقدّم أنّ النبي صلى الله عليه وآله كان يصوم يوم عاشوراء وكذلك المسلمون قبل أن يقدموا المدينة ويسأل النبي صلى الله عليه وآله اليهود، وفي هذا الحديث يظهر النبي صلى الله عليه وآله كجديد عهد بموضوع صيام يوم عاشوراء تماماً كما ترى!! وهذا تعارض ظاهر..

ولست أدري!! هل يسعى نبيّنا صلى الله عليه وآله إلى مخالفة اليهود أم متابعتهم!! فقد روى الترمذي في سننه عن ابن عباس قوله: (صوموا التاسع والعاشر وخالفوا اليهود)، ومن ذا الذي يحلّ لغز هذا التهافت الغريب!! أم هل هو التاسع!! أم أنّه العاشر!! أم هما معاً!! أم هل أنّه صلى الله عليه وآله مخالف لليهود غير تابع لتشريعاتهم!! أم هو تابعٌ لهم مستفهم منهم!!

وأعجب من كلّ ذلك أن يستظهر ابن حجر في فتح الباري في شرح صحيح البخاري أنّ الباعث على أمر النبي صلى الله عليه وآله بصومه محبّة مخالفة اليهود، حتى

يصام ما يفطرون فيه، لأن يوم العيد لا يصام!! فإن فيه أولاً وثانياً وعاشراً.. فإذا كان العيد لا يُصام فإنّه عيد يهودي، وما علاقة المسلمين فيه حتّى يُخلط بين عيد اليهود الذي يصومون هم فيه بحرمة الصوم عند المسلمين في عيدهم!! وهل تبتني الواجبات والسنن في تشريعها على مخالفة أعمال اليهود أو النّصارى!! إنّ هذا عجيب وغريب فعلاً..

ثم أنّ هذا الإستنتاج العليل يخالف الحديث أصلاً، إذ أنّ فيه التصريح بمتابعة النبي ﷺ لليهود في صيامهم، ونصّه: (فأنا أحق بموسى منكم، فصامه وأمر بصيامه)، فهل بعد هذا مكانٌ للقول بحبّه لمخالفتهم!!

أم كيف نجمع بين كلام ابن عبّاس والحديث ـ مورد الكلام ـ وكيف أضاف ابن عبّاس التاسع إلى العاشر مع أنّ صريح الحديث يؤكّد أنّ النبي ﷺ قد صام يوماً واحداً!!

وقد فات ناسج هذه الأحاديث وحائكها وغاب عنه أنه ينسب إلى اليهود فرضاً وهو الصيام وهم قريبون ومصادرهم في متناول اليد للتحقيق والتحرّي، وما أقصر حبل كاذب هذه الكذبة!!

ولدى مراجعة المصادر تتجلّى نتائج مذهلة، فاليهود تصوم اليوم العاشر فعلاً، لكنّه العاشر من شهرهم الأول المسمّى (تشري) وهو سابع شهور السنة الدينية عندهم، وهو يوم (الكفّارة) المزامن لتلقّي الإسرائيليين اللوح الثاني من ألواح الشريعة العشرة، ولا علاقة للأمر بنجاتهم من فرعون أصلاً، وقد خصّص هذا اليوم في دينهم لتبادل العفو فيما بينهم، وفيه يتهيّأون للصيام والصلاة، وحكى محمود باشا الفلكي في تقويم العرب قبل الإسلام أنّه اتفق وقوعه يوم قدوم النبي ﷺ إلى المدينة.

مضافاً إلى أنّ تقويمهم يختلف عن تقويمنا جملة وتفصيلاً، فهم يعتمدون تقويم السنوات الشمسية والشهور القمرية، هذا أوّلاً.. وأمّا ثانياً فإنّ كيفية صيامهم تختلف عنّا أيضاً، فهم يصومون من غروب شمس اليوم إلى غروبها في اليوم التالي، فلا أساس حينئذ لإتباع النبي الكريم ﷺ لليهود في صيامهم المختلف توقيتاً وكيفيّة عن المسلمين، ونحاشي نبيّنا ﷺ من هذا الإفتراء.

وبعد ذلك يظهر بوضوح حال الحديث الذي يرويه مسلم عن أبي موسى من أنّه كان يوم عاشوراء تعظمه اليهود وتتخذه عيداً، وكذلك حال الحديث الذي روي في البخاري من أنّ أهل خيبر ـ اليهود ـ كانوا يتخذونه عيداً، ويلبسون نساءهم فيه حليّهم وشارتهم، وقد قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: فَصُومُوهُ أَنْتُمْ!!

والحاصل أن اليهود لا يصومون يوم العاشر من المحرّم ولا يعدّونه عيداً، ولا تصومه النّصارى، بل يصومه ورثة الحقد الأموي سواء علموا بمنشأ صيامهم الأموي أم جهلوا به، ومنطلقاتهم طائفية تعصبيّة بحتة، وهذا أمر ثابت بالإنصاف والوجدان..

ولقائل أن يهمس في أذني فيقول: لماذا لا تلتمس العذر لإخوانك المسلمين فتحملهم على محامل الخير بصدر واسع؟ فقد يكون دافعهم طلب الأجر والثواب ليس إلاّ، بعيداً عن تلك الأغراض والأبعاد!!

فأقول: إنّي لست في صدد الحكم على عامة المسلمين من هذه الجهة، ولكنّي أبيّن أساس اختراع فكرة الصيام في يوم عاشوراء ومنشأها الأموي المقيت، ولا بدّ أن يكون المسلمّ كيّساً فطناً، لا يخوض فيما لا يعلم ولا ينسب إلى الله تعالى ما لم يفترض ويشرّع، فليس المسلم معذوراً إذا مشى في جنازة لا يعرف صاحبها ولا المشاة خلفها رجاء الثّواب!! وما يدريه.. إذ قد يكون هذا

المحمول قاتل أبيه مثلاً، أو يهودياً طالما قد كذب ودلّس وافترى، فيكون قد مشي بجهله في ركبه وبين أنصاره!!

وما عذر المسلمين الذين يرجون الثواب إذا صاموا في اليوم الذي فرح به بنو أميّة بقتلهم سبط نبيّهم!! فإذا قصد هؤلاء الثواب.. فإنّ في متّفقات المسلمين أيّاماً يستحبّ فيها الصيام وقد نصّت الأحاديث النبوية على فضل صيامها، فلماذا لا يدعون النّاس إلى صيامها!! وما أكثر المستحبّات والسنن المهجورة أصلاً!! بل قُل ما أكثر الفرائض والواجبات المتهاون في أدائها!!

وتأكيداً على هذا الدافع المقيت جاء في الإستبصار بالإسناد إلى نجية بن الحارث العطار قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن صوم يوم عاشوراء؟

فقال: صوم متروك بنزول شهر رمضان والمتروك بدعة.

قال نجيّة: فسألت أبا عبد الله عليه السلام عن ذلك من بعد أبيه؟

فأجابني بمثل جواب أبيه، ثم قال: أما إنه صيام يوم ما نزل به كتاب ولا جرت به سنة إلا سنة آل زياد بقتل الحسين عليه السلام.

وجاء في وسائل الشيعة، حيث سأل عبيد بن زرارة أبا عبد الله عليه السلام عن صوم يوم عاشوراء؟ فقال: من صامه كان حظه من صيام ذلك اليوم حظ ابن مرجانة وآل زياد، قال: قلت: وما كان حظهم من ذلك اليوم؟

قال: النار، أعاذنا الله من النار ومن عمل يقرب من النار.

ولم تبتنِ أحكامنا يوماً على ردود الأفعال أبداً، ولم يتطرّف أعلام المذهب مقابل هؤلاء المبتهجين في يوم عاشوراء ولم يحرّموا صيامه، فقد ارتأى فقهاء الشيعة الإمامية كراهة صيام يوم عاشوراء، وصرّح الآية السيّد الخوئي رحمه الله بذلك في كتاب الصّوم، ونصّ كلامه: (المكروه منه: بمعنى قلة الثواب ففي مواضع

أيضا منها صوم عاشوراء).

نعم، قد صدر الأمر من الإمام جعفر الصّادق عليه السلام لأصحابه في يوم عاشوراء بالإمساك عن الطعام والشّراب إلى وقت العصر دون تبييت نية الصيام، مواساة لعطش العترة الطاهرة عليهم السلام في يوم أحزانهم وآلامهم.

ففي وسائل الشيعة، عن عبد الله بن سنان قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام يوم عاشوراء ودموعه تنحدر على عينيه كاللؤلؤ المتساقط، فقلت: مم بكاؤك؟

فقال: أ في غفلة أنت؟ أما علمت أن الحسين عليه السلام أصيب في مثل هذا اليوم!!

فقلت: ما قولك في صومه؟

فقال لي: صمه من غير تبييت، وأفطره من غير تشميت، ولا تجعله يوم صوم كاملا، وليكن إفطارك بعد صلاة العصر بساعة على شربة من ماء، فإنه في مثل ذلك الوقت من ذلك اليوم تجلّت الهيجاء عن آل رسول الله صلى الله عليه وآله[1].

ويحتمل أنّ الإمام عليه السلام يعني بكلمة الصيام معناها اللغوي، وهي الإمساك عن الطعام، لا الصيام المصطلح، كما يحتمل أن يعني به صياماً مصطلحاً خاصاً لهذا اليوم بالذّات يختلف عن سائر الصيام، وبالتّالي ففقه أهل البيت عليهم السلام أبعد ما يكون من تشريع صومه بالمعنى المفهوم عند السنة.

---

(١) راجع بحار الأنوار (٤٥/٦٣ و ٩٨/٣٠٣ و ٣٠٩)، ووسائل الشيعة (١٠/٤٥٨)، والمستدرك (٧/٤٢٤ و ٥٢٥)، والإقبال ص (٥٦٨)، ومصباح المتهجّد ص (٧٨٢).

ابن تيمية وعاشوراء

لقد سُئِلَ ابن تيمية عمّا يظهره النّاس من إظهار السّرور في يوم عاشوراء، من الكحل والإغتسال والحنّاء والمصافحة، وهل ورد في ذلك عن النبي ﷺ حديث صحيح أم أنّ فعل ذلك بدعة؟

فأجاب كما في الفتاوى الكبرى: أنّه لم يرد في شيء من ذلك حديث صحيح عن النبي ﷺ ولا عن أصحابه، ولا استحبّ ذلك أحدٌ من أئمة المسلمين، لا الأئمّة الأربعة ولا غيرهم، ولا روى أهل الكتب المعتمدة في ذلك شيئاً، لا عن النبي ﷺ ولا الصّحابة ولا التّابعين، لا صحيحاً ولا ضعيفاً، لا في كتب الصحيح ولا في السنن ولا المسانيد، ولا يعرف شيء من هذه الأحاديث على عهد القرون الفاضلة.

ولكن روى بعض المتأخّرين في ذلك أحاديث مثل ما رووا أنّ: (من اكتحل يوم عاشوراء لم يرمد من ذلك العام، ومن اغتسل يوم عاشوراء لم يمرض ذلك العام) ، وأمثال ذلك، ورووا في حديث موضوع مكذوب على النبي ﷺ: أنّه (من وسّع على أهله يوم عاشوراء وسّع الله عليه سائر السنة)، ورواية هذا كلّه عن النبي ﷺ كذب.

ولقد أنصف ابن تيمية القول إلى حدّ كبير في هذا المقام، لكنّه قد فاته أن يعدّ الصيام في يوم عاشوراء من ضمن المكذوبات الأكيدة على رسول الله ﷺ، ومع ذلك فيشفع له قوله بكراهته كما قدّمنا، وسيأتي في جوابه الآخر تصريحه بأنّهم

إنّما جعلوا يوم عاشوراء يوم أفراحهم مقابلة للشيعة الذي جعلوه يوم أحزانهم، إلاّ أنّه جانب الصواب والحقّ حينما سئل عن الحزن والبكاء في يوم عاشوراء!!

وسئل: عمّا تفعله الطّائفة الأخرى من المأتم والحزن والعطش، وغير ذلك من النّدب والنّياحة، وقراءة المصروع، وشقّ الجيوب، هل لذلك أصلٌ أم لا؟

فأجاب بعد ذكره قصّة مقتل الإمام الحسين عليه السلام بحسب رأيه:

فصارت طائفة جاهلة ظالمة، إمّا ملحدة منافقة، وإمّا ضالة غاوية، تظهر موالاته، وموالاة أهل بيته، تتخذ يوم عاشوراء يوم مأتم وحزن ونياحة، وتظهر فيه شعار الجاهليّة من لطم الخدود، وشقّ الجيوب، والتعزّي بعزاء الجاهلية، فكان ما زيّنه الشيطان لأهل الضلال والغي من إتّخاذ يوم عاشوراء مأتماً، وما يصنعون فيه من النّدب والنياحة، وإنشاد قصائد الحزن، ورواية الأخبار التي فيها كذبٌ كثير..

والصدق فيها ليس فيه إلاّ تجديد الحزن، والتعصّب، وإثارة الشحناء والحرب، وإلقاء الفتن بين أهل الإسلام، والتوسّل بذلك إلى سبّ السّابقين الأوّلين، وشرّ هؤلاء وضررهم على أهل الإسلام لا يحصيه الرجل الفصيح في الكلام.

فعارض هؤلاء قومٌ إمّا من النواصب المتعصبين على الحسين وأهل بيته، وإمّا من الجهّال الذين قابلوا الفاسد بالفاسد، والكذب بالكذب، والشر بالشر، والبدعة بالبدعة، فوضعوا الآثار في شعائر الفرح والسرور يوم عاشوراء، كالإكتحال والإختضاب، وتوسيع النفقات على العيال، وطبخ الأطعمة الخارجة عن العادة، ونحو ذلك ممّا يُفعل في الأعياد والمواسم، فصار هؤلاء يتّخذون يوم عاشوراء موسماً كمواسم الأعياد والأفراح، وأولئك يتخذونه مأتماً

يقيمون فيه الأحزان والأتراح..

وكلا الطّائفتين مخطئة خارجة عن السنّة، وإن كان أولئك أسوأ قصداً وأعظم جهلاً، وأظهر ظلماً..

ولم يسن رسول الله ﷺ ولا خلفاؤه الراشدون في يوم عاشوراء شيئاً من هذه الأمور، لا شعائر الحزن والترح، ولا شعائر السرور والفرح.

ولنا ملاحظات على كلامه هذا:

الأولى

لقد دأب ابن تيمية على هذا الأسلوب وشبّ عليه في أغلب الرّدود على خصومه، فسلاحه الهجوم والتنكيل دائماً، فقد وصف المحزونين في يوم عاشوراء بأوصاف لا تليق إلاّ بأعدائهم النّاصبين، ورماهم بالجهل والظلم والإلحاد والنفاق والضلال والغواية، وزعم أنهم يظهرون موالاة الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته، وأنّهم يتعزّون بعزاء الجاهليّة..

فيا عجباً.. كيف تسلم الشيعة من سهام ابن تيمية ورشقها عليهم.. ولم يسلم منها سيّدهم وإمامهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، أم كيف يرضى عن الشيعة من هو ساخط على إمامهم أصلاً!!

وهو الأمر الذي أثار عليه جملة من علماء أهل السنة، فهذا ابن حجر العسقلاني الحافظ بترجمته من كتاب الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة يقول: (وقال ابن تيمية في حق علي: أخطأ في سبعة عشر شيئاً، ثم خالف فيها نص الكتاب).

ويتابع الحافظ ابن حجر تعليقه قائلاً: وافترق الناس فيه ـ أي في ابن تيمية ـ شيعاً، فمنهم من نسبه إلى التجسيم، لما ذكر في العقيدة الحموية والواسطية

وغيرهما من ذلك كقوله: إن اليد والقدم والساق والوجه صفات حقيقية لله، وأنه مستو على العرش بذاته.

إلى أن يقول: ومنهم من ينسبه إلى الزندقة، لقوله أنّ النبي صلى الله عليه وآله لا يستغاث به، وأن في ذلك تنقيصا ومنعا من تعظيم النبي صلى الله عليه وآله.

إلى أن يقول: ومنهم من ينسبه إلى النفاق، لقوله في علي ما تقدم، ولقوله: إنه ـ أي علي عليه السلام ـ كان مخذولاً حيثما توجّه، وأنه حاول الخلافة مراراً فلم ينلها، وإنما قاتل للرئاسة لا للديانة، ولقوله: إنه كان يحب الرئاسة، ولقوله: أسلم أبو بكر شيخا يدري ما يقول، وعلي أسلم صبيّاً، والصبي لا يصح إسلامه، وبكلامه في قصة خطبة بنت أبي جهل، وأن عليّاً مات وما نسيها، فإنه شنع في ذلك، فألزموه بالنفاق، لقوله صلى الله عليه وآله: ولا يبغضك إلاّ منافق[(١)].

وإذا أردنا إستقصاء عبارات عداوته وبغضه لأمير المؤمنين عليه السلام وأهل بيته الطّاهرين البررة عليهم السلام فإنّها تتجاوز المجلّد الواحد، تصريحاً وتعريضاً، فهو يقتحم النيل منه عليه السلام بالدّاعي القريب أو البعيد، ولو بتداعي المعاني، وذلك لموجدة في نفسه.

ويقول ابن تيمية في منهاج السنّة النبوية: قبل أن يبعث الله محمداً صلى الله عليه وآله لم يكن أحد مؤمنا من قريش، لا رجل، ولا صبي، ولا امرأة، ولا الثلاثة، ولا علي.. وإذا قيل عن الرجال: إنهم كانوا يعبدون الأصنام، فالصبيان كذلك علي وغيره!!

---

(١) راجع عبارة الحافظ ابن حجر بترجمة ابن تيمية في الدرر الكامنة (الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (١/١٥٤ ـ ١٥٥).

وإن قيل: كفر الصبي ليس مثل كفر البالغ.

قيل: ولا إيمان الصبي مثل إيمان البالغ، فأولئك يثبت لهم حكم الإيمان والكفر وهم بالغون، وعلي يثبت له حكم الكفر والإيمان وهو دون البلوغ، والصبي المولود بين أبوين كافرين يجري عليه حكم الكفر في الدنيا باتفاق المسلمين[١].

وأنت ترى وتبصر كيف يحاول النّيل من هذا الإمام العظيم عليه السلام الذي حبّه علامة الإيمان وبغضه علامة النفاق والكفر، ولك بعد ذلك أن تحكم بحكمك فيمن لم ينصف إمام الأمة وأمير المؤمنين، أ فهل ينصف شيعته؟

ويقول في نفس المصدر:

إن الرافضة تعجز عن إثبات إيمان علي وعدالته، فإن احتجوا بما تواتر من إسلامه وهجرته وجهاده، فقد تواتر إسلام معاوية ويزيد وخلفاء بني أمية وبني العباس، وصلاتهم وصيامهم وجهادهم[٢].

ويقول:

لم يعرف أن عليا كان يبغضه الكفار والمنافقون[٣].

ويقول:

كل ما جاء في مواقفه في الغزوات كل ذلك كذب..

إلى أن قال مخاطبا العلامة الحلي رحمه الله: قد ذكر في هذه من الأكاذيب العظام التي لا تنفق إلاّ على من لم يعرف الإسلام، وكأنه يخاطب بهذه الخرافات من لا

---

(١) راجع منهاج السنة (٨/٢٨٥).

(٢) راجع منهاج السنة (٢/٦٢).

(٣) راجع منهاج السنة (٧/٤٦١).

يعرف ما جرى في الغزوات[١].

وهو يتلجلج عند تناول أيّ فضيلة لأمير المؤمنين عليه السلام ولا أدري ما سرّ هذا التعصّب، فيناقش في كلّ صغيرة وكبيرة وردت في حقّه وينفي من مناقبه المسلّمات، ويدّعي عدم الموجودات، ويقطع بنفي الواضحات، ويردّ على ما يتّفق عليه أهل القبلة في حقّه.

ويناقش في نزول قوله تعالى: ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾[٢] في خصوص مولانا أمير المؤمنين عليه السلام ويقول: إنه حديث موضوع باتفاق أهل العلم[٣].

ولست أدري!! ولا أحدٌ يدري!! من هم أهل العلم المتفقون على وضع هذا الحديث عند ابن تيمية!!

وقد أورده علماء الجمهور في كتبهم، فراجع - على سبيل المثال لا الحصر - تفسير الطبري، ومسند البزار، ومسند سعيد بن منصور، وتفسير ابن أبي حاتم، وتفسير ابن المنذر، وتفسير ابن مردويه، وتفسير الفخر الرازي، وتفسير الزمخشري، وتفسير الواحدي، وتفسير السيوطي، ورواه من المحدثين أبو نعيم، والضياء المقدسي، وابن عساكر، والهيثمي.

وأمّا حديث النبي صلى الله عليه وآله: أنا مدينة العلم وعلي بابها، المشهور بين المسلمين، فإنّه يقول فيه: وحديث أنا مدينة العلم وعلي بابها أضعف وأوهى، ولهذا إنما يعد في الموضوعات[٤].

---

(١) راجع منهاج السنة (٨/٩٧).

(٢) سورة الحاقة: الآية ١٢.

(٣) راجع منهاج السنة (٧/٥٢٢).

(٤) راجع منهاج السنة (٧/٥١٥).

وهو حديث متين من جهة السند والرّواة قطعاً، ومن رواته يحيى بن معين، وأحمد بن حنبل، والترمذي، والبزار، وابن جرير الطبري، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن بطة، والحاكم، وابن مردويه، وأبو نعيم، وأبو مظفر السمعاني، والبيهقي، وابن الأثير، والنووي، والعلائي، والمزي، وابن حجر العسقلاني، والسخاوي، والسيوطي، والسمهودي، وابن حجر المكي، والقاري، والمناوي، والزرقاني.. وصحّحه كثير من هؤلاء الأئمة.

ويتابع ابن تيمية في تشكيكاته في فضائل أمير المؤمنين عليه السلام فيقول: إن له - أي لأمير المؤمنين عليه السلام - فتاوى كثيرة تخالف النّصوص من الكتاب والسنّة!![1].

ويقول: وقد جمع الشافعي ومحمد بن نصر المروزي كتاباً كبيراً فيما لم يأخذ به المسلمون من قول علي، لكون قول غيره من الصحابة أتبع للكتاب والسنة[2].

والحقيقة أنّ هذا الكتاب ألّفه المروزي في المسائل التي خالف فيها أبو حنيفة علي بن أبي طالب في فتاواه، وموضوع هذا الكتاب الفتاوى التي خالف فيها أبو حنيفة علي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود، وكم الفرق كبير بين هذه الحقيقة وما يدّعيه ابن تيمية!!

ويقول:

وعثمان جمع القرآن كله بلا ريب، وكان أحياناً يقرؤه في ركعة، وعلي قد اختلف فيه هل حفظ القرآن كله أم لا!![3].

---

(١) راجع منهاج السنة (٧/٥٠٢).

(٢) راجع منهاج السنة (٨/٢٧١).

(٣) راجع منهاج السنة (٨/٢٢٩).

وهو يخطّأ أمير المؤمنين عليه السلام في أفعاله وحربه على البغاة، دونما أيّ نكير من طوائف أهل الإسلام، فهو يقول:

فإن قال الذاب عن علي: هؤلاء الذين قاتلهم علي كانوا بغاة، فقد ثبت في الصحيح: إن النبي صلى الله عليه وآله قال لعمار بن ياسر رضي الله عنه: تقتلك الفئة الباغية، وهم قتلوا عماراً، فهاهنا للناس أقوال: منهم من قدح في حديث عمار، ومنهم من تأوّله على أن الباغي الطالب، وهو تأويل ضعيف، وأما السلف والأئمة فيقول أكثرهم كأبي حنيفة ومالك وأحمد وغيرهم: لم يوجد شرط قتال الطائفة الباغية[١].

بل هو ينفي أيّ دور لأمير المؤمنين عليه السلام في نشر العلوم والإسلام مطلقاً، ويقول: جميع مدائن الإسلام بلغهم العلم عن الرسول من غير علي[٢].

فهل يمكن من يكون هذا حاله أن ينصف شيعته البررة المؤمنين الأخيار ويلتمس لهم الدليل أو العذر في حزنهم وبكائهم على الإمام الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء!! أم هل يرضى المسلمون بقوله في أمير المؤمنين عليه السلام ليقبلوا منه ما كان دون ذلك!!

الثانية

لقد وصف المآتم الحسينية وصفاً مقرعاً، ونسبها إلى تزيين الشيطان، والغواية، وعاب على الشيعة إتّخاذهم المأتم والنوح فيه، وإنشاد قصائد الحزن فيه، ولم يصدق إلاّ في واحدة بين مفترياته، فإنّه قال: (والصدق فيها ليس فيه إلاّ تجديد الحزن).

---

(١) راجع منهاج السنة (٤/ ٣٩٠).

(٢) راجع منهاج السنة (٧/ ٥١٦).

وسيتكفّل الفصل القادم بحول الله تعالى وقوّته ما يُرسي دعائم هذا الشّعار النبوي المقدّس بإثبات كون البكاء والحزن في يوم عاشوراء على الإمام الشهيد الحسين عليه السلام سنّة نبوية مؤكّدة، إزدحمت النقولات في تشييد ذلك، ولم تغب تلك النصوص والبراهين والحجج عن أهل الضلال والغواية ومن زيّن لهم الشيطان، إلاّ أن التعصّب المقيت قد أعماهم وأصمّهم عن الذّكر..

وترى خطباء مساجدهم يتفنّنون في عرض الحديث النبوي الشّريف من كلّ أبوابه إلاّ تلك النّصوص الصريحة الصحيحة الواردة في بكاء النبي الأكرم صلى الله عليه وآله على ولده الإمام الحسين عليه السلام!! فقد أعجبهم هذا الكيل بمكيالين في إنتقاء الحديث الشريف، وهم يكتفون في خطبهم يوم عاشوراء بنقل نصوص الصّوم ويُعرضون عن نصوص الحزن والبكاء!!

ولك أن تتأمّل في حال ابن تيمية لو قال بعض ما قاله في مولانا أمير المؤمنين عليه السلام في حقّ غيره من الخلفاء الرّاشدين، لكان قد خرج عند المسلمين عن جادة الإسلام قطعاً!! فمن يجرُأ أن يرمي سائر الصّحابة أو المبشّرين بالجنّة بمثل ذلك!! إلاّ أنّ الأمر بالنسبة لإمام المظلومين سهلٌ هيّن، والنيل منه عادة قديمة وسنّة جارية!! شبّ عليها الصغير وشاب عليها الكبير!!.. ويعرف المنصفون جميعاً أنّ هذا هو نكران النعمة الإلهية، وهو الإجحاف بسيد المرسلين صلى الله عليه وآله في أهله المظلومين.

وما ذنب الشيعة إذا أحيوا الحزن وبكوا يوم عاشوراء تأسّياً وإقتداءً بسنة رسول الله صلى الله عليه وآله الصّحيحة المؤكّدة!! وما ذنبهم إذا أغاضوا مرضى القلوب وأثاروا شحناء النفوس باستنقاص قتلة الطيبين الطّاهرين عليهم السلام وسافكي دمائهم!!

وما الذي يغيض البعض من صبّ جام الغضب واللعن على قتلة الإمام الحسين عليه السلام !! أم هل يرضى مسلمٌ بفعل بني أميّة وقتلهم له عليه السلام !! وهل يثير الأضغان من يبكي على ظُلامة صارخة!! فما ذنبنا إذا ساقتنا الحقائق إلى تأريخ أسودٍ حالكٍ مليئٍ بالآهات والمآسي!!

الثّالثة

لقد أقرّ ابن تيمية أن هؤلاء الذين أظهروا المسرات في يوم عاشوراء هم من النّواصب، وأنّهم فعلوا كلّ ذلك تعصّباً ومقابلة لما يظهره الشيعة من أحزان وبكاء في يوم العاشر، وأنّهم قابلوا الفاسد بالفاسد، والبدعة بالبدعة، فاتّخذوا اليوم عيداً، ووضعوا الأحاديث زوراً في ذلك، علماً بأنّه لم يسن لا الفرح ولا السرور عن النبي صلى الله عليه وآله في هذا اليوم!!

ولم يعالج ابن تيمية تلك الأحاديث الكثيرة المستفيضة الواردة في كتب الحديث لأهل السنة، ولم يشر إليها من قريب أو بعيد، وهو باب إذا فتحه لم يُغلق إلاّ بفضيحة آل أبي سفيان، وهي أحاديث صحاح وحسان تثبت كون البكاء والحزن على الإمام الحسين عليه السلام سنّة نبوية لا خلاف فيها!!

وإذا كان ابن تيمية يزعم أنّ النواصب قد وضعوا أحاديث فضل يوم عاشوراء مقابلة للشيعة.. فلماذا لم يحتمل هو وغيره أنّ النّواصب قد وضعوا في ما قد وضعوا أحاديث فضل صيامه!!

مع أنّها على درجة من التّهافت والتّضارب تقوّي من احتمال الوضع فيها، فإذا كان داعي الوضع موجوداً عند المتأخّرين فداعي الوضع في زمن التّدوين أقوى وأشد، لقربهم من الأحداث وعهود الأئمة عليهم السلام والتصاقهم بشيعة أهل البيت البررة، وهذا يبرّر ذلك التهافت الكبير فيها.

احتفالات أم مآتم ؟

إذا حمل النّصب جماعة على صيام عاشوراء فإنّ الحبّ المفترض للآل قد حمل جماعة أخرى على الحزن والبكاء على سيّد الشهداء عليه السلام في يوم عاشوراء.

ولابدّ لنا من وقفة قبل الولوج في مواد بحثنا هذا والنظر في فصوله كي نتساءل عن حقيقة هذه المجالس التي يدأب محبّوا آل الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله على إقامتها، فهل هي مآتم أم احتفالات؟!

ومعلوم للجميع أن المسيحيين يحتفلون باستشهاد السيّد المسيح عليه السلام على حدّ زعمهم، ويبتهجون في ذكراه وإن خالط إحتفالاتهم بعض الأسى لصلبه، لكنّ من المفكرين من اعتبر بكاء الشّهيد فشلاً وضعفاً ووهناً، إذ أن الأمّة التي تبكي شهداءها أمّة ضعيفة، والأمّة التي تبكيهم منذ مئات السنين أمّة مهزومة مهزوزة، غاية همّتها الدّموع، وهي تعبّر بها عن مشاعرها وفكرها، وليست بمستوى تغيير الواقع أو مواجهته..

أما الإبتهاج فهو الأسلوب الإيجابي الوحيد لدفع عجلة الحياة والعيش في ظلال اليوم والغد بعيداً عن أسى الماضي ومرارة ذكراه، والفرح هو المطلوب في يوم الشّهيد، والبهجة المدروسة هي الكفيلة بمنح فحوى الإعتزاز وشعور الإفتخار في النفوس، وهي ردّة الفعل المتناسبة مع عطاء الشهيد وتضحيته، مضافاً لما تعكسه البهجة به من القوة والتضحية!!

وهذه نظرة متهافتة عند التدقيق وإن كانت مزخرفة غرّارة، ولا تقف أمام أول مهبّ نقدي، وإن غرّت بألوان حروفها بعض العقول البائسة، وستتبيّن ما فيها عند عرض نظرة أئمتنا عليهم السلام في مسألة البكاء قريباً، وهو أمر يتفهمه الأعم الأغلب من روّاد مجالس الإمام الحسين عليه السلام الواعين جيداً، المنصهرين فيه وفي قضيته بطبيعة الحزن التي تقتضي الذوبان والإتحاد مع المحزون عليه، الأمر الذي لا يمكن أن يتحقق بالفرح مطلقاً، وستقف على بغيتك خلال جولتك في بحوث كتابنا هذا بعد أسطر قليلة.

وكيف كان، فإنّا نقيم العزاء عليه عليه السلام مع قناعتنا التامة بالمأتم والحزن عليه، وأمّا إذا ساقنا عقلنا القاصر العاثر إلى الإبتهاج بيوم الشهيد فإنّها فكرة قويمة مقنعة.. لكنّه يمنعنا عنها رغبتنا بالمواساة لنبيّنا الأكرم وآله الكرام صلى الله عليه وآله، كما أنّ الأمر قد ورد منهم عليهم السلام بإقامة العزاء له عليه السلام، وفي هذا الصدد يقول العالم الجليل السيّد ابن طاووس رحمه الله: لو لم تصل إلينا الأوامر بالتعزية لأقمنا حفلات الإبتهاج في ذكريات استشهاد أئمتنا عليهم السلام.

الضحك والبكاء

الإنسان حيوان ناطق، تحدّه وشائج المشاعر والمؤثرات النفسية والروحية مضافاً إلى التأثيرات البدنيّة، وتحفّه الطبيعة وما وراءها بمختلف الصلات المعقّدة المتداخلة، وهو متفوّقٌ على النباتات والحيوانات بحياته المتميّزة، وكذلك على أدقّ الآلات والأجهزة الجبّارة الدقيقة، ومركز تفوّقه عليها هو القلب، الذي هو

مركز الإدراك والإحساس، وبحسب الإصطلاح القرآني فإنّه مركز الوعي الحقيقي عند الإنسان، وهو المسؤول الأوّل عن ردة أفعاله تجاه المؤثّرات، وهو الذي يترجم إنفعالاته الإعجابية على صفحة الخاطر ضحكاً وبكاءً..

يقول خالق الإنسان: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾[1].

فالضحك والبكاء من خصوصيات الإنسان المائزة له والتابعة لملكات العقل الذاتية التي لا تكاد تنفكّ عنها إطلاقاً، وبها فضّل الإنسان دون غيره من الخلق، وبها يعكس مشاعره وأحاسيسه كإنسان له مُكنة التعبير عمّا بداخله من أنواع إنعكاسات مشاعره، سواءً بالإبتهاج أو الحزن، حسب تفاعله مع الظاهرة المحيطة به.

ولقد ألهم الله تعالى الإنسان وأعطاه البكاء لينفّس عن نفسه إذا احتبس فيها الهم حيال مؤثّر من المؤثرات، فهو نعمة كبيرة للإنسان من سنخ نعمة البقاء والحياة، وكما أنه ليس من الطبيعي أن تجد إنساناً لا يضحك إن أضحكته، فإن من يتماسك عن البكاء ويحجم حيال مؤثراته مريض لا محالة..

وأستند في قولي إلى علماء النفس الذين يعتبرون الدمعة صمّام الأمان لهذا الكائن الغريب، الذي زوّده الله تعالى بكلّ ما يلزمه للحياة السعيدة الرغيدة، فهم ينصحون بالتفريج عن الصّدر ومعاملة الحزن بالدمع والتنفيس عن النفس به، ويوصون بمعالجة الكبت ببثّ اللواعج الكامنة، كما أنّهم ينهون عن الكتم والكبت المفضي إلى عاهات نفسية مذمومة العواقب والنتائج.

فيخلق البكاء حالة من الإرتياح النفسي الرّحب المنبسط على سائر الأعضاء

---

(١) سورة الضحى: الآية ٤٣.

والجوارح، كتأثر طبيعي حيال مؤثر يستحق ردّة الفعل هذه، وتسوق العاطفة الجياشة العقل الحاكم الرصين إلى وعي المؤثّر وباعث الحزن، ويتأتّى للإنسان أن يتّحد بكل وجوده مع المبكي المحزون عليه، فيتأثر بهديه وعلمه وسيرته وشخصه.

ولنا أن نعيد صياغة السؤال!؟.

فهل يتكفّل الإبتهاج والفرح بالشهيد بخلق تلك المشاعر الإيجابيّة الفيّاضة المنعكسة من روح الشّهيد وعطائه على نفس المحتفل المبتهج، أم أن ذلك لا يتأتى إلاّ بالحزن والبكاء؟.

والحق أن الإبتهاج بالشّهيد يحدّد الآفاق ويحدّها ويلجمها ويكبح عوائد الثمار المنشودة، فإذا ما لمحت بهجة النّصارى بيوم الشهيد ألفيتها خاوية خالية من المحتوى، خصوصاً إذا ما صاحبت حفلات السّكر والمجون والعربدة كما هي العادة، وليس ذلك سوى تفريغ لأهواء مجرّدة ساذجة وميول غير مدروسة بتاتاً وعقد نفسية بحتة.

أمّا الحزن المفضي إلى البكاء فإنّه يرافقه هياج ورقّة وشوق وحب بديهيّ شفّاف ناصع، وهذا ممتنع مع البهجة، ولا يتوفّر مع الضحك أبداً، وهو أمر وجداني، فالإنسان قريب جدّاً ممّن يبكي عليه، بل متّحد معه تماماً.

هذا، وللبكاء طابع نكران الذات، والإندكاك بالمحبوب والتوغّل فيه، بعكس الضحك تماماً، فالضحك يحكي شهوة معيّنة مؤقّتة، والبكاء يعكس حبّاً عظيماً راسخاً، ويجمع منافع البهجة قطعاً، والعكس غير صحيح، والبكاء هو الرقّة، والرقة هي الحب، والحب هو دافع الطاعة ومحفّز الإيمان الأوّل، ولا ينافسه قسيم في مضمار العمل.

وحريّ بمن يبكي على سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام من قلبه ووجدانه

أن يتديّن به، ويتّحد بفكره، ويحيى معه، وقد نجح أئمة أهل البيت عليهم السلام في صنع ملايين الحسينيين من خلال عبقريّتهم في إنماء المؤسّسة الحسينية الكبرى وتشييد ها بالحزن والبكاء عليه عليه السلام.

سرور البكاء

لقد كنت أرتاد منزل أستاذي في مدينة قم المقدسة، وهو عالم فاضل، وكان على علاقة خاصة بالمولى الإمام الحسين عليه السلام ومثالاً يُحتذى به في حبّه وعشقه الكبيرين له عليه السلام، وأتذكّر أنّي كنت إذا حضرت بيته للدّرس في الصباح الباكر أدرك قراءته زيارة عاشوراء، وهي الزيارة المعروفة بالخير والبركات، وكان هذا هو سمته وعادته في كلّ يوم.

وكنت إذا زرته في أيّام الأعياد أو المواليد أو الوفيّات طلب من أوّل خطيب أو قارئ وارد عليه أن يقرأ له ولو قصيدة في رثاء الإمام الحسين عليه السلام، وكانت عيونه تهمل الدموع كأنّها الغيث الهاطل، وسألته في إحدى تلك المناسبات عن مخالفته مقتضى الحال والعادة الجارية، وذكّرته قولهم عليهم السلام في وصف شيعتهم: يفرحون لفرحنا ويحزنون لحزننا.

فأجابني بجواب لا يزال يرن صداه في أذني، وأعرب به عن كامن العشق الحسيني الذي لا يعرفه إلاّ من اكتوى بناره، لقد قال لي: ولدي، سروري أن أبكي على الحسين عليه السلام!!

نعم، إنّ سرور الحسينيين هو البكاء على الإمام الحسين عليه السلام في يوم الفرح

ويوم الحزن على حدّ سواء.. وقد لا يفهم الكثير هذا المنطق العميق، وربّما يجهله حتى بعض الباكين في المآتم، لكنّهم يدركونه إذا اجتهدوا وتفكّروا وتأمّلوا، ففي حزنهم عليه عليه السلام سرور خفي ظاهر الآثار، وبكاؤهم يحكي من جهة دموع الفرح.

ولو افترضنا أن بعض هؤلاء المداومين على البكاء عليه عليه السلام قد فاتهم البكاء في مأتمه في يوم عاشوراء مثلاً لاسودّت نفوسهم بالهم الكبير ولتحسّروا على تفريطهم، وإذا درست نفسية الباكي في تلك المجالس ألفيته من أسعد الناس نفساً.

ولو أجريت دراسة ميدانية نفسية على عينات من المحبين الباكين وآخرين لا يعرفون طريق تلك المجالس من حيث السرور والراحة والسلامة النفسية.. لما زادني شيئاً على يقيني، ولخلصت الدراسة إلى سلامة نفس الباكين وراحتهم قطعاً، ولانتهت إلى عكس تلك النتيجة بالنسبة إلى المعرضين عن البكاء عليه عليه السلام.

فإنّنا إن أنكرنا كلّ دليل على فضل البكاء عليه عليه السلام، فلا نستطيع أن ننكر أن الإنسان محتاج نفسياً للبكاء حاجته إلى الطعام والشراب، ولا شكّ أنّه ينتفع به ويستفيد منه، وفيه معاني التسامي والتواضع والصدق والخلوة مع النفس، وبذلك يجني ثمار البكاء مؤكّداً.. فكيف إذا كان البكاء عبادة عظيمة ندب إليها النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام!! أم كيف إذا كان على مصيبة عظيمة تصغر عندها جليلات المصائب!! بل كيف إذا كان البكاء على حبيب القلوب سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام

يقول الشاعر:

إذا ذكر الحسين فأيّ عين ... تصون دموعها صون إحتشام

ولو أنصف الفكر لاهتدى كافة المسلمون إلى سرّ نجاحهم ونصرهم المؤكّد،

ولسادوا به أمم الأرض وخشعت لهم أمم السماء، ومن فحص ومحص أدرك من غير مرية أن سيدنا ومولانا الإمام الحسين عليه السلام هو راية الإسلام العظمى، عزّزها بدمائه في اليوم الذي ركزها بيديه المباركتين في طف كربلاء، وركز معها كلّ معاني العلياء والإباء والشمم، ليعرّف كل الناس دين جدّه الحق، ويدلّهم على مشعل هدايته السديد.

وقدماً كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: لما عرج بي إلى السماء رأيت على ساق العرش مكتوب: إنّ الحسين مصباح الهدى وسفينة النجاة.

فهو اللواء المقدس الذي لا يزال خفاقاً بالنور والرشد والهداية، وبهذه الراية والشعار يمكن للبشريّة أن تسلك طريق الإصلاح الحقيقي للعالم بأسره، وهو السبيل الأوحد للنصر والظفر، وليس أمام البشرية إلاّ أن تتأثر بهديه ونوره، وترقى بالبكاء عليه إلى مستوى آماله عليه السلام وطموحه..

وقد ضرب جذور البكاء عليه عليه السلام أصوله العميقة في أعماق المشاعر والأفئدة، حتى عاد الشعار والدثار، خصوصاً وأنّ قضيّته ليست مجرّد مأساة عاطفيّة فقط، بل هي رسالة النور التي إتّكأت على أبعاد عقلية مبرهنة راسخة، والدمعة هي ضمان صون هذه الجذور العاطفية العقلية عن الضعف أو الزوال، وبهذا أكون قد وضعت يديك على السّر الشّاخص الذي يقف وراء صمود واستمرار القضية الحسينيّة بكل إعجاز وتوجّر.

كذب الموت فالحسين مخلّد ... كلّما أخلق الزّمان تجدّد



الفصل الرابع

السيرة النبوية

السنة المؤكدة

ستتحقّق قارئي الكريم في هذا الفصل بمشيئة الله تعالى من الأدلة البيّنة التي تثبت أن البكاء على سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام سنة نبويّة مؤكّدة، وستضع يدك على المنقولات التي لا تدع مجالاً لتطرّق أدنى شكّ في إثبات ذلك.

وإذا قدّمنا النتيجة في صدر البحث فإنّا نفعل ذلك لوضوحها من غير مرية أو مَين، فالبكاء على الإمام المظلوم عليه السلام باختصار شديد أمر يرتكز على فعل النّبي صلى الله عليه وآله القدوة الأسوة، الذي أمرنا الجليل تعالى بالأخذ بما آتانا ونهانا عن مخالفة نهيه لنا.

وقد نزل الذكر الحكيم مؤيّداً فعل النبي صلى الله عليه وآله محقّقاً حجته وعصمته المطلقة، في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى ❖ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾[1].

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[2].

وقد عرّف المسلمون واتفقت كلمتهم على أن السنة النبوية التي يلزم إتباعها هي ما أضيف إلى النبي صلى الله عليه وآله من قول، أو فعل، أو تقرير، أو صفة خِلقية أو خُلقية، هكذا عرّفت كتب علوم الحديث السنة النبوية.

---

(١) سورة النجم: الآيتان ٣ و ٤.

(٢) سورة الحشر: الآية ٧.

وأضاف أهل السنة حجّية الصحابة والتابعين إلى حجية النبي ﷺ، كما أضاف الإمامية حجية الأئمة الطاهرين من أهل البيت عليهم السلام دون الصحابة والتابعين.

وكيف كان، فالمسلمون متّفقون على حجية فعل النبي ﷺ جملة وتفصيلاً، قائلون بوجوب طاعته في الواجبات، وإستحباب محاكاته في المندوبات والسنن.

ولا أعتقد أنّ هناك مسلماً ينكر عبقرية النّبي ﷺ في أفعاله، أو يحصر قصود تصرّفاته تلك في حدود ذلك العصر الضيّق، أو في محيط عاطفته وحبّه الشّخصي المحدود، فهو الأسوة القدوة ودينه ضمان السعادة والفلاح لكل زمان ومكان، وحلاله حلال إلى يوم القيامة، كما أنّ حرامه ومكروهه ومندوبه وواجبه كذلك، ويجب أن تنعكس مشاعر الرسول الأكرم ﷺ الفيّاضة بالنور والعرفان واليقين على نفوس أمّته، فتترجم بصدق وتتّبع بدراسة ودقّة..

وبقدر محاكاته في ذلك بقدر ما نثبت حبّنا وودّنا له ﷺ، ولقد عرضنا في الفصل المتقدّم مظاهر الحب وفصّلنا القول فيها، ولا شكّ أنّها من أوائل شرائط الإيمان بالله تعالى وبه ﷺ..

والعجيب الغريب في المقام أنّه رغم كل ذلك الحرص الذي أبداه رسول الله ﷺ في إبراز محبّة أهل بيته عليهم السلام والأمر المبالغ لأمّته بحبّهم وبيان فضائلهم ومكانتهم من الله تعالى.. إلاّ أنه لم يكن يخفي حزنه وتألّمه، لما سيحلّ على عترته الطاهرة؛ سواء ما يحل على حبيبته وبضعته سيدة النساء عليها السلام، أو على وصيّه أمير المؤمنين عليه السلام، أو على أفلاذ كبده الطّيبين الطّاهرين عليهم السلام من الحوادث المؤلمة والرزّايا العظيمة.

وترى المستقبل الأليم منبسطاً أمام ناظره الشريف بكلّ آهاته وأحزانه، وطالما قد كان يروي إجماله بالكلمات الساخنة، وطالما كان يروي تفصيله بالدموع السائلة، فيقول بدمعه ما لا يقوله بلسانه الشريف، بل يروي بمقلته ما لا يطيق التلفّظ به حزناً وألماً، بل يهمس بما تقصر الكلمات عن حمله وتنوء عن ضمّه.

وأيّ الكلمات أو العبائر تفي بتلك الحوادث المؤلمة والرزايا الحالكة، ولنعم ما قال دعبل بن علي الخزاعي رحمه الله:

رزايا أرتنا زرقة الأفق حمرة ... وردّت أجاجاً طعم كلّ فراتِ

سيرة الأحزان

لقد تلثّمت السنّة النبويّة الشريفة بلثام الحزن، وتسربلت بثيات الأسى، وكأنّ أساه صلى الله عليه وآله وحزنه نزل مع نزول كلّ فضيلة نادى بها الوحي المبين، ومع كلّ آية دلّت على فضله وفضل أهل بيته عليهم السلام، وأظنّه بكى مع آية التطهير والولاية، ولقد سجل لنا التاريخ كيف تعامل الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله مع هذه المآسي عملياً..

لقد أخرج الحفاظ بأسانيدهم الصحيحة عن ابن عباس أنّه قال: خرجت أنا والنبيّ صلى الله عليه وآله وعليّ عليه السلام في حيطان المدينة، فمررنا بحديقة، فقال عليّ عليه السلام: ما أحسن هذه الحديقة يا رسول الله!! فقال: حديقتك في الجنة أحسن منها.. ثم أومأ بيده إلى رأسه ولحيته، ثم بكى حتى علا بكاؤه.

قيل: ما يبكيك؟!

قال: ضغائنُ في صدور قوم، لا يبدونها لك حتى يفقدوني.

وفي لفظ أنس بن مالك: ثم وضع النبي رأسه على إحدى منكبي علي فبكى، قال له: ما يبكيك يا رسول الله؟!

قال: ضغائنٌ في صدور أقوام، لا يبدونها حتى أفارق الدنيا.

وفي لفظِ أمير المؤمنين: فلمّا خلا له الطريق إعتنقني، ثم أجهش باكياً، قلت: يا رسول الله ما يبكيك؟!

قال: ضغائنُ في صدور أقوام، لا يبدونها لك إلاّ من بعدي.

فقلت: في سلامة من ديني؟

قال: في سلامةٍ من دينك[1].

وجاءت الرّوايات تترى وتؤكّد أنّ الصدّيقة الطاهرة عليها السلام لّما أخبرها أبوها صلى الله عليه وآله بأنها أسرع أهل بيته لحوقاً به سرّها هذا النبأ وأنست به أنساً كبيراً..

ففي صحيحي البخاري ومسلم: روت عائشة أن النبي صلى الله عليه وآله دعا فاطمة في شكواه الذي قبض فيه فسارّها بشيء فبكت، ثم دعاها فسارها فضحكت، فسئلت عن ذلك، فقالت: أخبرني النبي صلى الله عليه وآله أنه مقبوض فبكيت، ثم أخبرني أني أول أهله لحوقاً به فضحكت.

وفي أمالي الشيخ الطوسي رحمه الله بالإسناد إلى عائشة أيضاً أنّها قالت: ما رأيت من الناس أحداً أشبه كلاماً وحديثا برسول الله صلى الله عليه وآله من فاطمة، كانت إذا دخلت

---

(١) أخرجه البزاز في مسنده، والطبراني في المعجم الكبير، وأبو يعلي في المسند، وابن عساكر في تاريخ دمشق، والهيثمي في مجمع الزوائد.

عليه رحّب بها وقبّل يديها وأجلسها في مجلسه، فإذا دخل عليها قامت إليه فرحّبت به وقبلت يديه.

ودخلت عليه في مرضه فسارّها فبكت، ثم سارّها فضحكت، فقلت: كنت أرى لهذه فضلا على النساء، فإذا هي امرأة من النساء، بينما هي تبكي إذ ضحكت، فسألتها، فقالت: إذا إني لبذرة، فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وآله سألتها، فقالت: إنه أخبرني أنه يموت فبكيت، ثم أخبرني أني أول أهله لحوقا به فضحكت[1].

وإذا تأمّلنا في مضامين هذا الحديث غاضّين الطرف عن خلفيّاتنا الخاصة وموراثاتنا المذهبيّة.. تبيّن لنا أنّ الصدّيقة الزهراء عليها السلام وهي أم أبيها صلى الله عليه وآله الحنونة المشفقة عليه كانت محزونة لحال أبيها غاية الحزن، خصوصاً وأنّها تشهد وترى تحمّلاته للأذى، فهي مستاءة من حياتها وترغب في الموت لتلتحق مع أبيها.

كانت هذه أمنيتها رغم أنّ حياتها الأسريّة كانت سعيدة ورغيدة، إذ كان أمير المؤمنين عليه السلام يجلو قلبه ويسرّ خاطره ويكشف همّه مجرّد النظر إلى وجه فاطمة عليها السلام، فزوجها ذاك الذي لم يكن لها كفؤ سواه، آدم فما دون، وأولادها ريحانتا رسول الله صلى الله عليه وآله وسيدا شباب أهل الجنة، وليس لهما نظير في خلق الله

---

(١) وقد أخرج هذا الحديث أكثر أهل الحديث من الحفّاظ، منهم البخاري ومسلم، والإمام أحمد في المسند، وأبو يعلي في المسند، وابن أبي شيبة في المصنف، والنسائي في الخصائص، والترمذي في السنن، والطحاوي في مشكل الآثار، والدار قطني في العلل، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الدلائل، وآخرون كثيرون بأسانيد صحيحة عن عائشة، وقال الجزري: في حديث فاطمة عند وفاة النبي صلى الله عليه وآله قالت لعائشة: إني إذا لبذرة، البذر الذي يفشي السر ويظهر ما يسمعه.

تعالى، وبنتها العقيلة زينب وهي جوهرة القدس والكمال والشرف.

فلماذا تستاء الصدّيقة الزهراء عليها السلام من الحياة!! وهي في عنفوان شبابها، ولم تنل آمالها من الحياة؟ ولماذا تدعو وتسأل ربّها أن يعجّل لها وفاتها، وهي لم تدرك من أولادها ما تتمناه الأمّهات؟ ولماذا ترفع اليد عن حضانة أولادها الذين أحبّتهم!!

وكيف ترضى أن تفرّغ منهم حجرها، أم كيف ترضى بيُتمهم، وهم بعدُ ما شبّوا وما شقّوا طريقهم في الحياة!! وهل هي تأنس بذبول أورادها!! أم هل يهون عليها فراق بعلها الذي لم يخلق سواه كفؤ لها، لتخلّفه أليفَ الأسى والهمّ والجوى!! أم لماذا هذا الأنس الشديد من اقتراب الأجل ودنوّ الموت؟!

وروي أنها: ما زالت بعد أبيها معصّبة الرأس، ناحلة الجسم، منهدة الركن، باكية العين، محترقة القلب، يغشى عليها ساعة بعد ساعة، وتقول لولديها: أين أبوكما الذي كان يكرمكما ويحملكما مرة بعد مرة، أين أبوكما الذي كان أشد الناس شفقة عليكما، فلا يدعكما تمشيان على الأرض، ولا أراه يفتح هذا الباب أبداً، ولا يحملكما على عاتقه كما لم يزل يفعل بكما..

ثم مرضت ومكثت أربعين ليلة ثم دعت أم أيمن وأسماء بنت عميس وعليّاً عليه السلام وأوصت إلى علي بثلاث، أن يتزوج بإبنة أختها أمامة لحبّها أولادها، وأن يتخذ نعشاً لأنها كانت رأت الملائكة صوّروا صورته ووصفته له، وأن لا يشهد أحدٌ جنازتها ممن ظلمها، وأن لا يترك أن يصلي عليها أحد منهم[1].

ولاحظ كم كانت عليها السلام تفكّر في أولادها، إذ أوصته بالزواج من إبنة أختها أُمامة، وجاء في بعض النصوص أنّها قالت عليها السلام: فإنّها تكون لأولادي

---

(١) راجع بحار الأنوار (١٨١/٤٣).

مثلي، وقد فضّلت الزهراء عليها السلام الموت على رغم مرارته تخلّصاً من تلك النوائب المقبلة، والتي علمتها من أبيها الصادق الأمين صلى الله عليه وآله، وكان الموت عندها أولى من أن تشهد وقوع تلك العظائم ببعلها وأولادها، وكانت ترثي أباها بأشجى ندبة قائلة:

نفسي على زفراتها محبوسة	يا ليتها خرجت مع الزفرات
لا خير بعدك في الحياة وإنما	أبكي مخافة أن تطول حياتي

فاختارت جوار ربّها الكريم على البقاء في الحياة، ولكي تشهد هذه الظلامة من العالم الآخر، وتشرف على آهاتها إلى جوار أبيها المصطفى صلى الله عليه وآله، وكيف تحلو الحياة في عينها وقد مضى أبوها والحسرات تأرّق مضجعه، والأحزان تسهّده وتسامره، فالمآسي مطويّة بين جوانحه، والغصص دفينة في صدره.

ولك أن تتأمّل هذا المعنى ولن ترميني بالمبالغة حينئذ إذا تدبّرت في حال النبي صلى الله عليه وآله يوم ميلاد الحسين عليه السلام وتفكّرت في ما ينطوي عليه وفقهت كثيراً من أسرار تلك الدموع الجارية على كريمته الشريفة، ولن تستطيع حينها أن تمسك أماقيك من إسالة الدموع مواساة لأحزان سيّد الخلق صلى الله عليه وآله ومحاكاة لدموعه.

أ يبكي صلى الله عليه وآله حين يولد الحسين بن علي أمير المؤمنين!! إبن فاطمة الزهراء!! وهو ريحانته المنتظرة، وولده وسبطه، وأبو النجوم الزّاهرة من أوصيائه!!

وتتهافت الملائكة قبيلاً بعد قبيل، وفوجاً بعد فوج، وتهبط إليه مهنّأة معزّية، حيناً بعد حينٍ ومرةً بعد أخرى، ينعون إلى حضرته ولده الحسين عليه السلام، ويجلبون له صلى الله عليه وآله التّربة الحمراء التي سوف يُقتل عليها، ويُجمع المسلمون على نقل ذلك الحدث المثير، متمثّلين بذلك مصرعه الأليم، ثم يتسلّم النبي المظلوم صلى الله عليه وآله تربة ولده ليقلّبها ويقبّلها ويمزجها بدموع عينيه

المتهامرة، أ فلا يدعو هذا للعجب!!

والأعجب من ذلك أن يحتفظ صلى الله عليه وآله بهذه التربة في قارورة عند أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها!! ويأمرها بالإحتفاظ بها، فإذا صارت دماً عبيطاً فهي علامة مقتل ولده الحسين عليه السلام..

ولم يقتصر حزن النبي الكريم صلى الله عليه وآله على الإمام الحسين عليه السلام، فقد بكى كلّ أهل بيته الطاهرين عليهم السلام، وروى أهل السنة والجماعة ذلك إلى جانب روايات الشيعة، لكنّ بكاءه على ولده الحسين عليه السلام إتّخذ طابعاً خاصاً وأبعاداً أخرى، وإتّسم بالشّعار، وأخذ حزنه بمجامع قلبه واستولى على مشاعره..

ولقد عقد النّبي صلى الله عليه وآله المأتم مكرّراً وبكى ريحانته، وقد أوفد الجليل تعالى ملائكته مراراً وتكراراً يقدمهم جبرئيل عليه السلام معزّيةً ومسلّيةً رسول الله صلى الله عليه وآله بمصرعه الأليم، حاملة لجدّه تربته التي سوف يقتل عليها..

ولقد رويت هذه الأحاديث بطرق مختلفة وأسانيد عالية ومضامين متعدّدة، كلّها يرمي إلى مرمى واحد، بشكل لا يدع مجالاً للشك في صدور ذلك الفعل منه صلى الله عليه وآله، وعلى ذلك يثبت أن البكاء على سيد الشهداء عليه السلام سنة نبوية بالدرجة الأولى، وأن مواساته ومحاكاته في ذلك من أعظم المستحبات الأكيدة..

وإليك بعض تلك الصّور التي نقلها أهل الحديث وحفّاظ السنّة المطهّرة، من مشيخة أهل السنّة والجماعة، فإنّنا سنقتصر في نقلنا عليهم، مع تأكيدنا على متانة كتب الحديث الإمامية ودقّة النقل فيها، ولكنّي آثرتُ ذلك لتكون الحجّة أبلغ والبرهان أتم، ولننتهي إلى النتيجة الثابتة، وهي كون النّبي صلى الله عليه وآله أول من عقد المأتم وبكى عليه عليه السلام عند مهده، وفي بيته صلى الله عليه وآله، وفي بيوت نسائه أمّهات المؤمنين، وفي مسجده بين أصحابه البررة.

(١) مأتم الميلاد

لم تسمع أذن ـ قبل ذلك اليوم ولا أعتقد أنّه سيكون بعده ـ بانعقاد المأتم والبكاء ساعة الميلاد، إلاّ لمولود واحد، ألا وهو مولانا الإمام الحسين عليه‌السلام، فقد كان المأتم يحلّ محلّ الفرح والسرور، وكانت التعزية محلّ التهنأة!!

وبذلك فتح لنا رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله أفقاً رحباً نعرف من خلاله عظمة النبوّة وصدق الدعوة المطهرة، في رؤيته الثاقبة وإطّلاعه على الغيب، علماً منه صلى‌الله‌عليه‌وآله بما سيؤول إليه الحال من مصرع ريحانته الحسين عليه‌السلام، ولا شك في أن ذلك من دلائل نبوّته وبيّنات صدقه الباهرة لمن تدبّر وتأمّل، وليس من العجيب أن يصنّف الحفّاظ هذه الروايات في دلائل النبوّة إذ أنّها دالة على صدق الدعوة حقّاً!!..

وليعلم الناس كافة وأهل الأديان جميعاً أن نبي الإسلام صلى‌الله‌عليه‌وآله الذي قُبض في مبتدأ العقد الثاني من الهجرة قد أخبر بجزم مكرّراً بمقتل ومصرع ولده الإمام الحسين عليه‌السلام الذي قتل في غرّة العقد السادس من الهجرة، ولم يكن ليتخلّف خبر الصّادق الأمين بمصرع ولده على أيدي طغاة الأمة..

وهو المأتم الأوّل المقام من طرف النّبي صلى‌الله‌عليه‌وآله بحسب الظاهر، وإلاّ فقد دلّت الروايات من طرقنا بإقامة كثير من الأنبياء والمرسلين عليهم‌السلام المآتم له وقد سبق منهم البكاء عليه، لكنّه الأوّل منه صلى‌الله‌عليه‌وآله..

فقد أخرج الحافظ أحمد بن الحسين البيهقي بإسناده قائلا:

أخبرنا أبو القاسم الحسن بن محمد المفسر، أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد

الله الحفيد، حدّثنا أبو القاسم عبد الله بن أحمد بن عامر الطائي بالبصرة، حدثني أبي، حدثني علي بن موسي، حدثني أبي موسى بن جعفر، حدثني أبي جعفر بن محمد، حدثني أبي محمد بن علي، حدثني أبي علي بن الحسين، قال:

حدثتني أسماء بنت عميس، قالت: قبّلتُ جدتك فاطمة بالحسن والحسين..

إلى أن قالت:

فلما ولد الحسين فجاءني النّبي ﷺ فقال: يا أسماء هاتي إبني فدفعته إليه في خرقة بيضاء، فأذن في أذنه اليمنى وأقام في اليسرى، ثم وضعه في حجره وبكى..

قالت أسماء: فقلت: فداك أبي وأمي، ممّ بكاؤك؟

قال: على ابني هذا.

قلت: إنه ولد الساعة!!

قال: يا أسماء.. تقتله الفئة الباغية، لا أنالهم الله شفاعتي..

ثم قال: يا أسماء، لا تخبري فاطمة بهذا، فإنّها قريبة العهد بولادته[1].

رسالة الدّموع

لم يَرقَ إلى ذهن أحد من المسلمين في لحظة من اللحظات أنّ النبي الكريم ﷺ سيستقبل ميلاد سبطه بالحزن والدمع، فهو الوليد المنتظر المترقّب الذي يشكّل أحد أركان مؤسّسة مشروعه الديني الكبير، وثاني أسباطه النجباء، ويعدّ هذا المولود بعد أبيه وأخيه ثالث أعمدة الإمامة وأطواد الولاية الإلهية، وهو أبو

---

(١) وأخرج هذا الحديث الحافظ أبو المؤيد الخوارزمي في مقتل الحسين (١/ ٨٨، ٨٧) بإسناده عن الحافظ البيهقي، والحافظ محبّ الدّين الطبري في ذخائر العقبى، والشيخاني المدني في الصراط السوي، كلّهم بإسناد مرفوع إلى أسماء بنت عميس.

الأئمة الطّاهرين الذين يشكّلون إمتداده الحقيقي والطبيعي.

وأعتقد أنه ﷺ كان يثير الإلتفات والنظر إلى مغزى كبير وراء ذلك الحزن والبكاء، فهو يلفتهم إلى عظيم المصاب الأليم في الساعة التي يترقّبون فيها فرحه وغبطته وسروره كما هي عادة النّاس.

وإذا ما لاحظنا ما نُقله الرواة في ولادة أخيه الإمام الحسن عليه السلام وضعنا أيدينا على قمّة المفارقة، فقد أظهر النّبي ﷺ في مولد سبطه الأوّل غاية الفرح والبهجة، سروراً منه بمولد إمتداده ووارث علمه، مع علمه المسبق المؤكّد بما سيؤول إليه أمره من القتل مسموماً مظلوماً على أيدي بني أمية.

لكنّه على أيّة حال لن ينتهي به الحال إلى الذبح إلى جنب الماء عطشاناً بمرأى ومسمع من أمّة الإسلام، كما يُذبح الكبش، وقد صاحب مقتله من الحوادث العظيمة ما يعجز عن وصفها البيان والجنان والقلم، ويتيه الخطيب الوصّاف المصقِع عن الإلمام ببعض مجرياتها، من ذبح أولاده وأخوته وبني عمومته وأصحابه، وإصابة رضيعه بالسهم وهو على صدره، وذبحه بالسيف ورفع رأسه على الرمح، ورضّ جسده الشريف بالخيل، وسبي بنات رسول الله ﷺ مصفّدين كالعبيد.

ولا أشكّ لحظة في أنّه قد تداعت في خاطر النّبي ﷺ كل هذه الصّور المفجعة فأشرف بروحه العملاقة على آهاتها، وتمثّلت أمامه في السنة الخامسة من الهجرة مأساة سنة إحدى وستّين، وبديهيّ أن يرتبط هذا المصير المؤلم بمصير الحكم والدّولة من بعده.

ولا يفوتنا أن نقف عند تصنيف النبي الكريم ﷺ لقتلة ولده عليه السلام، ففيه معنى كبير، فقد عنونهم بالبغاة، وصغّر شأنهم من ناحية الواقع فسمّاهم فئة،

ليلوّح بهذا التعبير إلى مجموعة كبيرة من أصول الإعتقاد، فكونهم بغاة يعني أنّهم هم الخوارج الذين خرجوا على إمام زمانهم، الإمام الحق المنصوص بالنص الجلي الواضح، كما أنّه يصرّح بأن ولده الإمام الحسين عليه السلام هو إمام الحق الذي خرجوا وبغوا عليه، خلفاً لأبيه وأخيه عليه السلام.

وقد عمد النبي الكريم صلى الله عليه وآله إلى بيان مآل الأمور من بعده بحسب نظره الثّاقب الذي تصغر عنده نظرات كبار السياسيين والمتنبئين، فقد عرف إفضاء الوضع القائم إلى هذا المقتل الأليم، بنظرة الوحي ذاتها التي نصّت على الإمامة والأئمة ونصبت أعلاماً للهداية، ثمّ علم صلى الله عليه وآله بثاقب البصر أن أمّته ستنكث ذلك العهد، وستنحدر الأمور إلى هذا المصير حتماً.

ولقد ألمح النبي صلى الله عليه وآله إلى ذلك، ونبّأ بالأيّام السّود التي تنتظر أمّته، بعد مصرع حبيبه وسبطه، فأيّ باب تِيهٍ ستلجه هذه الأمة وخطوات بؤسٍ سوف تقودها إلى هذه الهوّة، فهو ما عبّر عنه المصحف الشريف بالإنقلاب على الأعقاب، وتنبّأ به عند هزيمة يوم أحُد، في قوله: ﴿وَمَا محمّد إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾[1].

وقال الشاعر:

برقيّ منبره رُقي في كربلا ... صدرٌ وضُرّج بالدّماء وتينُ

لقد مهّدت تلك الجريمة الأرضيّة لكبار الجرائم، فسهّلت على شذّاذ الآفاق والأحزاب أن تطلق تلك الصّرخات الظالمة يوم عاشوراء، وهي ملأى بالحنق

(١) سورة آل عمران: الآية ١٤٤.

والغي والبغض لصاحب الدّعوة، القائلة: لا تبقوا لأهل هذا البيت صغيراً ولا كبيراً.. والقائلة: لو كان وجه الأرض كلّه ماء ما سقيناكم منه قطرة واحدة.

وهكذا تداعت كل هذه الصور ـ التي بلغتنا عبر الرّواة والأخرى التي فاتتنا ـ وتجسّدت أمام نظره الشريف، وشخصت أمام مرآه الثاقب، نفس المواقف التي شهدها سبطه الحبيب، فإهتزّ فؤاده مع حلول السّهم المثلّث المسموم ذي الشعب الثلاثة الواقع في لبّة قلب ولده، وإنهمرت دموعه صلى الله عليه وآله الغالية مع نزيف الدّم الحسيني عند تمثّل صورة إخراج السّهم من وراء ظهره وانفجار الدّم من قفاه كالميزاب، وتخضيب لحيته بيديه من دمه.

وهو يقول عليه السلام: بسم الله وبالله، وفي سبيل الله، وعلى ملّة رسول الله، هكذا ألقى الله، وجدّي رسول الله، وأنا مخضوبٌ بدمي، مغصوبٌ عليّ حقّي، وأنا أقول له: يا جدّاه، قتلني فلان وفلان.

ونقل في بعض الرّوايات الشّريفة ذكر النبي الكريم صلى الله عليه وآله لبعض المشاهد والصور الأليمة التي ستمرّ على أهل بيته عليهم السلام من بعده، وفيها يذكر بعض حوادث الطّف المؤلمة على وجه التفصيل، ممّا يؤكّد ما نرمي إليه، نظير ما رواه الشيخ الصدوق رحمه الله في الأمالي بإسناد يرفعه إلى ابن عباس:

أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان جالسا ذات يوم، إذا أقبل الحسن عليه السلام فلمّا رآه بكى ثم قال: إليّ إليّ يا بُني، فما زال يدنيه حتى أجلسه على فخذه اليمنى، ثم أقبل الحسين عليه السلام فلمّا رآه بكى، ثم قال: إليّ إليّ يا بُني، فما زال يدنيه حتى أجلسه على فخذه اليسرى، ثم أقبلت فاطمة عليها السلام فلمّا رآها بكى، ثم قال: إليّ إليّ يا بنية، فأجلسها بين يديه، ثم أقبل أمير المؤمنين عليه السلام فلمّا رآه بكى، ثم قال: إليّ إليّ يا أخي، فما زال يدنيه حتى أجلسه إلى جنبه الأيمن.

فقال له أصحابه: يا رسول الله ﷺ: ما ترى واحداً من هؤلاء إلاّ بكيت، أوَما فيهم من تُسَرّ برؤيته؟

فقال ﷺ: والذي بعثني بالنبوة، واصطفاني على جميع البرية، إني وإياهم لأكرم الخلق على الله عز وجل، وما على وجه الأرض نسمة أحب إلي منهم، أمّا عليّ بن أبي طالب عليه السلام فإنّه أخي وشقيقي وصاحب الأمر بعدي، وصاحب لوائي في الدنيا والآخرة، وصاحب حوضي وشفاعتي، وهو مولى كلّ مسلم، وإمام كل مؤمن، وقائد كل تقي، وهو وصيّي وخليفتي على أهلي وأمتي في حياتي وبعد موتي، محبّه محبي ومبغضه مبغضي، وبولايته صارت أمتي مرحومة، وبعداوته صارت المخالفة له منها ملعونة، وإني بكيت حين أقبل لأني ذكرت غدر الأمة به بعدي، حتى أنه ليزال عن مقعدي، وقد جعله الله له بعدي، ثم لا يزال الأمر به حتى يُضرب على قرنه ضربة تخضب منها لحيته في أفضل الشهور ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾[١].

وأما ابنتي فاطمة.. فإنها سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين، وهي بضعة منّي، وهي نور عيني، وهي ثمرة فؤادي، وهي روحي التي بين جنبي، وهي الحوراء الإنسية، متى قامت في محرابها بين يدي ربّها جل جلاله زهر نورها لملائكة السماء كما يزهر نور الكواكب لأهل الأرض، ويقول الله عز وجل لملائكته: يا ملائكتي انظروا إلى أمَتي فاطمة سيدة إمائي قائمة بين يدي، ترتعد فرائصها من خيفتي، وقد أقبلت بقلبها على عبادتي، أشهدكم أني قد آمنت شيعتها من النار.

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٨٥.

وأني لما رأيتها ذكرت ما يصنع بها بعدي، كأني بها وقد دخل الذل بيتها، وانتهكت حرمتها، وغصبت حقّها، ومُنعت إرثها، وكسرت جنبتها، وأسقطت جنينها، وهي تنادي: يا محمداه، فلا تجاب، وتستغيث فلا تغاث، فلا تزال بعدي محزونة مكروبة باكية، تتذكر انقطاع الوحي عن بيتها مرة، وتتذكر فراقي أخرى، وتستوحش إذا جنّها الليل لفقد صوتي الذي كانت تستمع إليه إذا تهجّدتُ بالقرآن، ثم ترى نفسها ذليلة بعد أن كانت في أيام أبيها عزيزة، فعند ذلك يؤنسها الله تعالى ذكره بالملائكة فنادتها بما نادت به مريم بنت عمران، فتقول: يا فاطمة ﴿إِنَّ اللّٰهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلى نِساءِ الْعالَمِينَ﴾[1] يا فاطمة ﴿اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾[2].

ثم يبتدئ بها الوجع، فتمرض، فيبعث الله عز وجل إليها مريم بنت عمران تمرّضها وتؤنسها في علّتها، فتقول عند ذلك: يا ربّ، إني سئمت الحياة وتبرّمت بأهل الدنيا، فألحقني بأبي، فيلحقها الله عز وجل بي، فتكون أول من يلحقني من أهل بيتي، فتقدم عليّ محزونة مكروبة مغمومة مغصوبة مقتولة، فأقول عند ذلك: اللهم العن من ظلمها، وعاقب من غصبها، وذلّل من أذلها، وخلّد في نارك من ضرب جنبيها حتى ألقت ولدها، فتقول الملائكة عند ذلك: آمين.

وأما الحسن عليه السلام فإنه ابني وولدي ومنّي، وقرة عيني وضياء قلبي وثمرة فؤادي، وهو سيد شباب أهل الجنة، وحجة الله على الأمة، أمره أمري وقوله قولي، من تبعه فإنه منّي، ومن عصاه فليس مني، وإني لما نظرت إليه تذكرت ما

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٤٢.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٤٣.

يجري عليه من الذّل بعدي، فلا يزال الأمر به حتى يقتل بالسم ظلماً وعدواناً، فعند ذلك تبكي الملائكة والسبع الشداد لموته، ويبكيه كل شيء، حتى الطّير في جو السماء والحيتان في جوف الماء، فمن بكاه لم تَعْمَ عينه يوم تعمى العيون، ومن حزن عليه لم يحزن قلبه يوم تحزن القلوب، ومن زاره في بقيعه ثبتت قدمه على الصراط يوم تزل فيه الأقدام.

وأما الحسين عليه‌السلام فإنّه مني، وهو ابني وولدي، وخير الخلق بعد أخيه، وهو إمام المسلمين، ومولى المؤمنين، وخليفة رب العالمين، وغياث المستغيثين، وكهف المستجيرين، وحجّة الله على خلقه أجمعين، وهو سيد شباب أهل الجنة، وباب نجاة الأمة، أمره أمري، وطاعته طاعتي، من تبعه فإنه منّي، ومن عصاه فليس منّي، وإني لما رأيته تذكّرت ما يصنع به بعدي، كأني به وقد استجار بحرمي وقربي فلا يجار، فأضمه في منامي إلى صدري، وآمره بالرحلة عن دار هجرتي، وأبشره بالشهادة، فيرتحل عنها إلى أرض مقتله وموضع مصرعه، أرض كرب وبلاء وقتل وفناء، تنصره عصابة من المسلمين، أولئك من سادة شهداء أمتي يوم القيامة، كأني أنظر إليه وقد رمي بسهم فخرّ عن فرسه صريعاً، ثم يُذبح كما يذبح الكبش مظلوماً، ثم بكى رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله وبكى من حوله، وارتفعت أصواتُهم بالضّجيج، ثم قام صلى‌الله‌عليه‌وآله وهو يقول: اللهم إني أشكو إليك ما يلقى أهل بيتي بعدي، ثم دخل منزله[1].

---

(١) راجع أمالي الصدوق ص (١١٢)، وبحار الأنوار (٣٧/٢٨)، وبشارة المصطفى ص (١٩٨)، والفضائل ص (٨).

(٢) مأتم أيام الرضاع

لم يكن موضوع مقتل الإمام سيد الشهداء عليه‌السلام بالموضوع العابر الذي أولاه النبي الكريم صلى‌الله‌عليه‌وآله إهتمامه بعض الأيّام ثم إنشغل عنه في أمور المسلمين، بل كان هو الموضوع الذي استوعب شطراً مهمّا في حياته كما سترى..

وتحتاج هذه النّصوص الواردة في هذا الصدد إلى دراسة معمّقة، نعرف من خلالها قصود الدّعوة النبويّة، ونفهم مراد نبيّنا الكريم صلى‌الله‌عليه‌وآله من وقفاته العملاقة، ونفقه شريعته، وندرك مغازي قوله وفعله وتقريره، وندرس متابعته لأدوار طفولة سبطه عليه‌السلام من ولادته وحتّى رضاعه وصباه، في محاولة جادة نصل بها إلى جدوى تجديد الحزن المستمر، فهو صلى‌الله‌عليه‌وآله يبدي حيال كلّ دور دمعة جديدة، ويجدّد معه حزناً كبيراً..

وكان لابدّ له صلى‌الله‌عليه‌وآله من أن يعقد مأتمه عليه‌السلام في رضاعه بعد مولده، وكان لزاماً على رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله بمشاعره الحسينية الفيّاضة أن يواكب نشأة سبطه ومراحل حياته خطوة بخطوة دمعة بدمعة.. حتّى يركّز أمراً وسرّاً عظيماً من وراء تلك العبرات، وهو القائل: حسين منّي وأنا من حسين، أحبّ الله من أحبّ حسيناً..

وفي هذا المضمار أخرج الحافظ الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين بإسناد مرفوع إلى أمّ الفضل بنت الحارث، أنّها دخلت على رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله فقالت: يا رسول الله إنّي رأيت حلماً منكراً الليلة.

قال: وما هو؟

قالت: إنّه شديد!!

قال: وما هو؟

قال: كأنّ قطعة من جسدك قطعت ووضعت في حجري!

فقال رسول الله ﷺ: رأيت خيراً.. تلد فاطمة إن شاء الله غلاماً فيكون في حجرك.

فولدت فاطمة الحسين فكان في حجري كما قال رسول الله ﷺ.. فدخلت يوماً إلى رسول الله ﷺ فوضعته في حجره ثم حانت منّي إلتفاتة فإذا عينا رسول الله ﷺ تهريقان من الدّموع!

قالت: يا نبي الله، بأبي أنت وأمي، ما لك؟

قال: أتاني جبرئيل عليه السلام فأخبرني أنّ أمتي ستقتل إبني هذا!!

فقلت: هذا!!

فقال: نعم، وأتاني بتربة من تربته حمراء[1].

---

(١) أخرجه الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين (١٧٦/٣) وقال: هذا حديث صحيح، على شرط الشيخين ولم يخرجاه، كما أخرجه البيهقي بصوره المختلفة في دلائل النبوّة (٤٦٨/٦)، وابن عساكر في تاريخ دمشق، والخوارزمي في المقتل (١٥٩/١)، وابن الأثير في البداية والنهاية (٢٠٣/٦)، والسيوطي في الخصائص (١٢٦/٢)، وقريب منه ما أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٩/٩)، وابن الصبّاغ في الفصول المهمّة، وابن حجر في الصواعق، والمتقي في كنز العمّال، وهذا المعنى مستفيض في كتب الحديث.

(٣) مآتم في بيته صلى الله عليه وآله

كان من الطبيعي بعد كلّ ذلك أن يهبط الأمين جبرئيل عليه السلام عليه صلى الله عليه وآله مخبراً بمصرع سبطه الإمام الحسين عليه السلام حاملاً تربته المشرّفة التي سوف يقتل عليها، تأكيداً للأمر المهم..

ولست أدري! أ فهل كان المراد تهييج رسول الله صلى الله عليه وآله وإبكاءه عند إرائته تربة ريحانته ومهراق دمه!! أم هو التأكيد على مواساة السماء لصاحب الرسالة والدعوة؟!

وعلى كل حال.. فإنّ البكاء على الإمام المظلوم عليه السلام رتبة عالية من مراتب الأنبياء والصديقين، وقد إفتتح تشريعها الخاتم لما سبق والفاتح لما استُقبل، ليؤسّس المأتم أبدع تأسيس.

وقد أخرج الحافظ محبّ الدّين الطبري في ذخائر العقبى بإسناد يرفعه إلى علي أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: دخلت على النّبي صلى الله عليه وآله وعيناه تفيضان.

قلت: يا نبي الله أغضبك أحد؟

قال: قام من عندي جبريل عليه السلام قبل وحدّثني: أن الحسين يقتل بشط الفرات.

قال: فقال: هل لك إلى أن أشمّك من تربته؟

قلت: نعم.

فمدّ يده فقبض قبضة من تراب فأعطانيها، فلم أملك عيني أن فاضتا.

وقد روي هذا الحديث المهم ضمن حديث آخر يساوغه في الأهمية، فقد روى الحفّاظ في الكتب المعتبرة أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وفي طريق وقعة صفّين، وحين اجتاز على كربلاء ومرّ بشاطئ الفرات وهو الموضع الذي قتل فيه الإمام الحسين عليه السلام، استوقف جيشه وبكى لمصرع ولده، وروى عن أخيه المصطفى صلى الله عليه وآله هذا الحديث الشريف..

ويدلّ ذلك ـ فيما يدلّ ـ على تأكيد هذا النبأ العظيم، كما يدلّ على علوّ شأن سيّدنا أمير المؤمنين عليه السلام وعالي مقامه وصبره وتجلّده في ذات الله عزّ وجل، ويدلّ على عظمة أهل هذا البيت، فقد تآزر الجد والأب والسبط لنصرة هذا الدين وإعلاء كلمته، صابرين على الأذى، صبراً تعجز عنه الجبال الرواسي.

وتدلّنا هذه الأحاديث الشريفة على رجحان البكاء على سيّد الشهداء عليه السلام واستحبابه بعد صدوره من سيد الخلق صلى الله عليه وآله ويتأكّد ذلك ببكاء مولانا أمير المؤمنين عليه السلام.

فقد أخرج الإمام أحمد بن حنبل، قال: حدّثنا محمّد بن عبيد، حدّثنا شرحبيل بن مدرك، عن عبد الله بن نُجَيّ، عن أبيه:

إنه سار مع عليّ عليه السلام، وكان صاحب مطهرته، فلما حاذى نينوى، وهو منطلقّ إلى صفين، فنادى علي عليه السلام: إصبر أبا عبد الله!! إصبر أبا عبد الله!! بشط الفرات..

قلت: وما ذا؟!

قال: دخلت على النبيّ صلى الله عليه وآله ذات يوم وعيناه تفيضان، قلت: يا نبيّ الله، أغضبك أحد؟! ما شأن عينيك تفيضان؟!

قال: بل قام من عندي جبريل قبلُ فحدّثني: أنّ الحسين يقتل بشط الفرات.

قال: فقال: هل لك إلى أن أُشمّك من تربته؟

قال: قلت: نعم.

فمدّ يده فقبض قبضة من تراب، فأعطانيها، فلم أملك عينيَّ أن فاضتا[(١)].

وفي صورةٍ أخرى من مآتم كربلاء نواجه المأتم الذي عقده مولانا أمير المؤمنين عليه السلام على ولده سيّد الشهداء عليه السلام ما أخرجه نصر بن مزاحم عن سعيد بن حكيم العبسي، عن الحسن بن كثير، عن أبيه:

أنّ عليّاً أتى كربلاء، فوقف بها، فقيل: يا أمير المؤمنين، هذه كربلاء.. قال: ذات كرب وبلاء.. ثم أومأ بيده إلى مكان، فقال: ها هنا موضع رحالهم، ومناخ ركابهم.. وأومأ بيده إلى موضعٍ آخر، فقال: ها هنا مهراق دمائهم[(٢)].

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٢/ ٦٠ ـ ٦١)، وأخرجه إبن أبي شيبة في المصنف (٨/ ٦٣٢ ح ٢٥٩) عن محمد بن عبيد بالإسناد واللفظ وفيه: صبراً أبا عبد الله، صبراً أبا عبد الله.
وتجده أيضاً في مسند أبي يعلي (١/ ٢٩٨ ح٣٦٣)، ومعجم الطبراني الكبير (٣/ ١٠٥ ح ١٩٢١٤)، وفي البداية والنهاية لابن كثير (٨/ ١٩٩)، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ١٨٧) مروياً عن نُجَيّ الحضرمي، وقال في آخره: رواه أحمد، وأبو يعلي، والبزاز، والطبراني، ورجاله ثقات، ولم ينفرد نجيّ بهذا.
وتجده في ترجمة الإمام الحسين عليه السلام من تاريخ دمشق لإبن عساكر (٢/ ٢٣٦)، وقد جعل عنوان الباب كالتالي: ما ورد عن النبيّ صلى الله عليه وآله بنحو التواتر، في إخباره عن شهادة ريحانته الحسين بكربلاء أو بأرض الطفّ وبكائه عليه قبل وقوع الحادثة. ثم روى الرواية بأسانيد متعددة، وألفاظ متقاربة، راجع ص (٢٣٦) ح (٢١٣ و ٢١٤ و ٢١٥).

(٢) أخرجه نصر بن مزاحم في في كتاب صفّين ص (١٥٨)، وذكره إبن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة (١/ ٢٧٨)، وأخرجه الحافظ أبو نعيم.
وذكره السيوطي في الخصائص الكبرى (٢/ ١٢٦)، وابن كثير في الوسيلة عن الملا، والقره غولي

وروي عن الحسن بن كثير، وعبد خير، قالا: لمّا وصل علي عليه السلام إلى كربلاء وقف وبكى، وقال: بأبيه أغيلمة يقتلون هاهنا؛ هذا مناخ ركابهم، هذا موضع رحالهم، هذا مصرع الرجل، ثم ازداد بكاؤه[١].

وأخرج البيهقي بالإسناد عن أصبغ بن نباتة، قال: أتينا مع علي موضع قبر الحسين، فقال: ها هنا مناخ ركابهم، وموضع رحالهم، ومهراق دمائهم؛ فتيةٌ من آل محمدٍ يقتلون بهذه العرصة، تبكي عليهم السماء والأرض[٢].

وقد أخرج مأتم أمير المؤمنين عليه السلام بكربلاء المتضمن مأتم النّبي صلى الله عليه وآله بصوره المتقاربة عدة من الحفاظ كأحمد بن حنبل في مسنده وابن أبي شيبة في المصنف والخوارزمي في المقتل والطّبراني في المعجم الكبير.

وسبط ابن الجوزي في تذكرة الخواص ومحب الدين الطبري في ذخائر العقبى وأبو يعلى في مسنده وابن كثير في تاريخ الشام والسّيوطي في جمع الجوامع والخصائص الكبرى والجامع الصغير والهيثمي في مجمع الزوائد.

كما وأخرجها الشيخاني المدني في الصراط السوي والقراغولي الحنفي في جوهرة الكلام وابن حجر في الصواعق المحرقة والمناوي في فيض القدير وابن سعد في الطبقات وفيما رواه: فبكى حتى بلّ الأرض من دموعه، والعزيزي في السراج

في جوهرة الكلام ص (١١٨) عن الملا، وعنه أيضاً ابن حجر في الصواعق ص (١١٥)، وذكره السيد الشيخاني في الصراط السوي ص (٩٤) بلفظ: ها هنا مناخ ركابهم وها هنا موضع رحالهم، وها هنا مهراق دمائهم، وقال: رواه الملا في سيرته وابن الأخضر في معالم العترة الطاهرة.

(١) ذكره أبو المظفر السّبط في تذكرته ص (١٤٢).

(٢) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٣/٢١١).

المنير في شرح الجامع الصغير، وقال: نعم رأسه طيف بها في البلاد، فلعن الله تعالى من استهان ببيت آل النبوّة وفعل بهم ما لا يليق أن يفعل.

التربة الزّاكية

تستوقفنا هذه الإشراقات النبوية العلوية لتثير عندنا حزمة من النّور ونقاط الضوء والتنبّه، لنقف وقفة خشوع وتأمّل، ونشهد تلك المآتم الحسينية الثلاث، فمأتم يقيمه الجليل سبحانه وتعالى، ومأتم يقيمه رسول الله صلى الله عليه وآله، ومأتم يقيمه أمير المؤمنين عليه السلام.

وانظر كيف يشيد الجليل سبحانه مأتم سبط نبيّه في بيت الوحي المطهّر، الذي يعتبر سيّد بيوتات الأرض على الإطلاق، كيف لا وقد وصفها تعالى قائلاً: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾[1]، ليعرّفنا شأن هذه العبادة وقدسيّتها، ليؤكّد على أنّ أقدس عبادة وهي البكاء على الإمام عليه السلام مكانها أطهر بيت على الإطلاق.

والنّقطة المحوريّة في هذا الحديث الشريف تتبلور في تقديس التربة الزّاكية التي سوف يُقتل عليها الإمام الحسين عليه السلام، فالوحي يعرض على النبيّ صلى الله عليه وآله تربته الشّريفة ليشمّها: (هل لك إلى أن أُشمّك من تربته)!! فيتقبل هذا العرض السماوي، وتتأكّد بذلك قدسية التربة الزاكية، التي مزجها صاحبها بدماء الشهادة النبوية.

وقد نصّت المصادر من غير ترديد على ذلك، ولو أنّ ذلك يعزّ على بعض المحقّقين والمصنّفين اليوم وقبل اليوم، كما تلاحظ ذلك في كتاب سير أعلام النبلاء

---

(١) سورة النور: الآية ٣٦.

للذهبي، الذي نقل بأمانة نصّاً مشابهاً بفحواه لهذا النّص، في خصوصيّة التربة الحسينية التي نزل بها جبرئيل، إلاّ أن النص تضمّن لفظ: (ثمّ استيقظ ﷺ وفي يده تربة حمراء، وهو يقبّلها).. لكنّ المحقّق الذي إعتنى بالطبعة الجديدة المتوفّرة في الأسواق قد حرّف ذلك اللفظ بصلافة وتحكّم، وبدّل (يقبّلها) إلى (يقلّبها)، وكتب في حاشية الكتاب: (تحرّفت بالمطبوع إلى يقبّلها) من دون ذكر اللفظ الوارد في أصل المخطوطة!![1].

كما أنّ شمّ التربة الطيّبة يعطي معنى طيبها وشرفها، ولهذه التربة خصوصيّات وأسرار كثيرة مروية عن أئمة أهل البيت عليهم السلام في فضلها، ويضيق هذا المختصر بذكرها.

ففي وسائل الشيعة، روي عن الإمام الصادق عليه السلام: السجود على طين قبر الحسين عليه السلام ينور إلى الأرضين السبعة، ومن كانت معه سبحة من طين قبر الحسين عليه السلام كتب مسبّحاً وإن لم يسبّح بها[2].

وفي مصباح المتهجّد، بالإسناد إلى معاوية بن عمّار، قال: كان لأبي عبد

---

(١) راجع سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٨٩/٣) الطبعة السادسة، بتحقيق محمّد نعيم العرقسوسي ومأمون صاغرجي، وبإشراف شعيب الأرنؤوط، في ضمن ترجمة الإمام الحسين عليه السلام، كما ويمكنك مراجعة الطبعة القديمة (١٩/٣) في نفس الباب، لترى كيف تتبدّل الحقائق الواضحة ويُعبث بكلمات النبيّ الكريم ﷺ تحت لثام التحقيق، ولو تتبّعنا أمثال هذه التّغييرات لأمكننا جمعها في مصنّف مستقل، وقد أشرنا في تعليقة لنا ضمن الفصل المتقدّم إلى بعض موارد عبث هؤلاء بالسنّة المطهّرة، أعاذنا الله تعالى وعصمنا من الزلل، وألهمنا الرّشد.

(٢) راجع وسائل الشيعة (٣٦٦/٥)، ومستدرك الوسائل (٥٥٤).

الله عليه السلام خريطة ديباج صفراء فيها تربة أبي عبد الله عليه السلام ، فكان إذا حضرته الصلاة صبّه على سجّادته وسجد عليه، ثم قال عليه السلام : إنّ السجود على تربة أبي عبد الله عليه السلام يخرق الحجب السبع[١].

وروي في إرشاد الديلمي أنّ الإمام الصادق عليه السلام كان لا يسجد إلاّ على تربة الحسين عليه السلام تذلّلاً لله واستكانة إليه[٢].

وهذه النّصوص النورانيّة المعزّزة لقدس هذه التربة الزاكية وإن كانت غريبة على بعض المدارس المذهبيّة إلاّ أنّها واقعة في سياق هذا الحديث الذي يرويه محدّثوها، وما أبعد المسلمين اليوم وقبل اليوم من دراسة الحديث والتأمّل في مضامينه، والنّاس أعداء ما جهلوا..

ولقد دلّ الحديث على أن جبريل عليه السلام لم يحضر إلى النبي الكريم صلى الله عليه وآله اليسير منها، بل أحضر مقداراً قبض منه قبضة، أو فقل: أنّ جبريل عليه السلام مدّ يده - بقدرة الله تعالى - إلى الطّف، فقبض منها قبضة فأعطاها النبي صلى الله عليه وآله ، وهذا ظاهرٌ في النص: (فمدّ يده فقبض قبضة من تراب فأعطانيها)..

مؤكّداً أهميّة عرض هذه التربة الزاكية على رسول الله صلى الله عليه وآله ، فهو صاحب هذه المصيبة العظمى كما أنّه هو المعزّى بها، وعادة ما كان ينزل الوحي ويسلّيه ويسكّن قلبه ببيان درجات وجزاء الصبر على هذا المصاب، وكأنّ عرضها عليه بطيبها الفوّاح من أرقى أنواع التسلية له بمصابه بولده الإمام الحسين عليه السلام.

---

(١) راجع مصباح المتهجّد ص (٧٣٣)، ووسائل الشيعة (٣٦٦/٥)، وبحار الأنوار (١٥٣/٨٢).

(٢) راجع إرشاد القلوب (١١٥/١)، وسائل الشيعة (٣٦٦/٥)، بحار الأنوار (١٥٨/٨٢).

خصوصيّة الحزن

إن عرض التربة الحسينية الزاكية على صاحب الدعوة النبوية صلى الله عليه وآله من مهيّجات حزنه ودمعه الطويلين قطعاً، ولابدّ حينئذ من أن تشتعل محبّة ولده عليه السلام وتضطرم بفؤاده فتستولي على خاطره الشريف، ولابدّ أن يتغلّب الأسى على عاطفته فتنهال دموع عينيه على وجنتيه، فمصابه مصاب إبنته الصدّيقة فاطمة عليها السلام، ومصاب أبيه المرتضى عليه السلام، وأخيه المجتبى عليه السلام!!

وقد دلّت نصوص على مراعاة النبي الكريم صلى الله عليه وآله هذا الجانب، فكون سيّد الشهداء ولده البنتي يعظّم عليه المصاب والألم قطعاً.

وقد روى السيّد ابن طاووس رحمه الله عن بعض الحنابلة:

عن ابن عباس قال: كنت عند النبي صلى الله عليه وآله وعلى فخذه الأيسر ابنه إبراهيم، وعلى فخذه الأيمن الحسين بن علي، تارة يقبل هذا، وتارة يقبل هذا، إذ هبط عليه جبرئيل عليه السلام بوحي من رب العالمين.

فلما سرى عنه قال: أتاني جبرئيل من ربي عز وجل فقال: يا محمد، إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول: لست أجمعهما لك فافد أحدهما بصاحبه، فنظر النبي إلى إبراهيم فبكى، ونظر إلى الحسين فبكى.

فقال: إن إبراهيم أمه أمة، ومتى مات لم يحزن عليه غيري، وأم الحسين فاطمة، وأبوه علي ابن عمي لحمي ودمي، ومتى مات حزنت ابنتي وحزن ابن عمي، وحزنت أنا عليه، وأنا أؤثر حزني على حزنهما يا جبرئيل، تقبض إبراهيم، فقد فديت الحسين به.

قال: فقبض بعد ثلاثة أيام، فكان النبي صلى الله عليه وآله إذا رأى الحسين عليه السلام مقبلا

قبّله وضمه إلى صدره ورشف ثناياه وقال: فديت من فديته بابني إبراهيم[1].

فقد فداه بإبنه الصلبي المباشر، وضحّى به لأجل ولده الإمام الحسين عليه السلام، ولهذا وذاك فإنّ خبر مقتله يهوي على قلبه هويّ الصاعقة، فطبيعي أن يترجم وجده بالدموع، وهل تفي الدموع بعضاً من آهاته، وترى في متن الحديث تعبيراً يرقى على البكاء بمراتب، فهو صلى الله عليه وآله يقول: فلم أملك عينيَّ أن فاضتا!!

وهذا شأن المحبين المغرمين تجاه من أحبّوا بصدق، فهم لا يحتاجون إلى كثير تأمّل في المصيبة أو تفكّر ولو لحظيّاً بالحبيب، فالمقدّمات محصّلة محرزة، وغدّة الدّمع مستعدّة لفرز الدّمع عند أدنى مناسبة في هذا المصاب، أو حتّى ما يتّصل باللازم القريب والبعيد في هذا المصاب، وهذه سيرة اطّردت واستمرّت عند محبّي النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام بما تحصّلت ضمائرهم من المرتكزات والمقدّمات للبكاء على الإمام المظلوم عليه السلام.

قال الشّاعر:

إذا ذُكر الحسين فأيّ عينٍ تصون دموعها صون احتشام

وقال الآخر:

---

(١) راجع كتاب الطرائف (١/٢٠٢) وفيه: وبلغوا في رواياتهم إلى أن روى بعض الحنابلة في كتاب سماه نهاية الطلب وغاية السؤل وذكر فيه بإسناده إلى سفيان الثوري عن قابوس بن أبي ظبيان عن أبيه عن ابن عباس.. إلى آخر الحديث، وراجع بحار الأنوار (٢٢/١٥٣) و(٤٣/٢٦١)، وعوالي اللآلي (٤/٩٢) والمناقب (٤/٨١)، ويقول المرحوم الشيخ حسن الدمستاني البحراني رحمه الله في ملحمته الحسينية:

كان يؤذيه بكاه وهو في المهد رضيع بابنه قدما فداه وهو ذو الشأن الرفيع

ليته الآن يراهُ وهو في الترب صريع يتلظّى بظماه حافصاً للقدمين

أيّ المحاجر لا تبكي عليكَ دماً ... أبكيت والله حتّى محجر الحجر

ولا يشكّ منصف مطّلعٌ لحظة في أن اقتران الحزن مع ذكره عليه السلام أو البكاء مع ذكر مصابه عند المؤمنين سرٌّ تكويني يفيض تفسيره على البيان، ويأبى هذا السّر الظّاهر أن تُلمّ به أو تفسّره السطور والطّروس، ولقد تابع الشيعة نبيّهم صلى الله عليه وآله وآله عليهم السلام في الحزن والبكاء على ما تُكنّه قلوبُهم من سر الحزن له عليه السلام، لأنّهم فرع تلك الدوحة الكريمة وبقيّة الطينة المحمدية الطيبة..

وقد روى الشيخ الصدوق رحمه الله بإسناد يرفعه إلى أبي بصير ومحمد بن مسلم أنّهما قالا: قال أبو عبد الله عليه السلام: حدثني أبي عن جدي عن آبائه أن أمير المؤمنين عليه السلام قال: إن الله تبارك وتعالى إطلع على الأرض فاختارنا واختار لنا شيعة ينصرونا، ويفرحون لفرحنا ويحزنون لحزننا ويبذلون أموالهم وأنفسهم فينا وإلينا[١].

وفي بصائر الدرجات بالإسناد إلى أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الله عجن طينتنا وطينة شيعتنا فخلطنا بهم وخلطهم بنا، فمن كان في خلقه شيء من طينتنا حنّ إلينا فأنتم والله منّا[٢].

وفي البحار، عنه عليه السلام: إن الله خلق محمداً صلى الله عليه وآله من طينة من جوهرة تحت العرش، وإنه كان لطينته نضج، فجبل طينة أمير المؤمنين عليه السلام من نضج طينة رسول الله صلى الله عليه وآله وكان لطينة أمير المؤمنين عليه السلام نضج، فجبل طينتنا من فضل طينة أمير المؤمنين عليه السلام وكانت لطينتنا نضج فجبل طينة شيعتنا من نضج طينتنا،

---

(١) راجع الخصال (٢/٦٣٤)، وبحار الأنوار (١٠/١١٤).

(٢) راجع بصائر الدرجات ص (١٦)، وبحار الأنوار (٢٥/١١).

فقلوبهم تحن إلينا وقلوبنا تعطف عليهم تعطّف الوالد على الولد، ونحن خير لهم وهم خير لنا ورسول الله لنا خير ونحن له خير[١].

فمن أحب أن يختبر نفسه ليرى هل هو من تلك الطينة الطيّبة، فلينظرها هل تنبعث نفسه للفرح عند الأفراح النبوية، وهل هي تحزن عند الأحزان النبوية، ومن شاء أن يكون منه صلى الله عليه وآله ومن طينته الطيبة فليفرح لفرحه وليحزن لحزنه.

احزان امير المؤمنين

ولك أن توغر خاطرك حزناً وأسفاً.. حينما تتأمّل في وقفة أمير المؤمنين عليه السلام إلى جانب الفرات في فلاة الطّف ليؤبّن ولده الشهيد في مسرح الشّهادة، وفي الموضع الذي سوف تراق وتسفح فيه دماء ولده العزيز!!

فأيّ معانٍ بعد هذه تدلّ على إمامته وتأييد الله تعالى له بإطّلاعه على الغيب، بتعيين البقعة المباركة الشريفة، لتلتفت الأنظار الحاضرة إلى ترجّل الفارس البطل عن صهوة جواده، وتختزن في ذاكرتها نزوله بتلك الأرض المطهّرة، وتشهد إجراء دموعه فيها، وليعلم التأريخ القادم وتتناقل الأجيال هذا الحدث العظيم لتعرف من هو علي بن أبي طالب عليه السلام!!

فلقد ترجّل الفارس الكرّار عن صهوة جواده في الموضع الذي ترجّل ولده الشهيد عن صهوة جواده فيه.. إلاّ أن نزول الأب كان نزول اختيار، وأمّا نزول الولد فكان هويّ شهادة.. فقد غادر الأب جواده عن قوّة، وغادر الولد صهوته عن غاية الضعف.. وتلقّى الأب عفر التراب برجليه، إلاّ أن ولده تلقّاه بخدّه الأيمن.

---

(١) بحار الأنوار (٢٥/٨)، (٦٤/١٢٦).

لقد إستجاب مولانا أمير المؤمنين عليه السلام لنداء الروح الأمين النازل على صدر الحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله، وتأسّى بصاحب الدعوة في بكائه وفيض مدامعه، إذ كان صلى الله عليه وآله مجيباً دعوة ربّه من تشييد نواة الحزن في داره وبيته، وبمسمع ومرأى من عائلته وأهله، حتّى لاحظت الضّيفة دمعته صلى الله عليه وآله على ولده في بيته..

وكان لابدّ له صلى الله عليه وآله من بذر هذه البذرة الأصيلة، وكان من الأهميّة بمكان أن يضع نواة الدّمع على الإمام الحسين عليه السلام في بيوته المرفوعة، وكما أنّ بكاء أخيه أمير المؤمنين عليه السلام كان على أرض الحدث، إستباقاً منه لما سوف يحدث عليها، فكذلك بكاء النبي صلى الله عليه وآله كان على أرض الحدث، إستباقاً لما سوف يحدث فيها من عظيمات الدّواهي، وجداً على تلك البيوت السّامية، التي سوف تفرغ من بعده من أهلها، وتبقى خالية هامدة، تنعب فيها الغربان من بعد أهلها الطيبين..

حتّى إذا مرّ المار عليها أخذته هواجس تلك الذكريات النبويّة وسمرت أقدامه رنّات الثكالى إلى الأرض، وخطفت لُبّه عجّة ربائب الوحي المبين.. فتخنقه العبرة، وتحزنه الزّفرة، وحقيق بمن شهد زهو الدور بأهلها وتبدّل أحوالها أن يهمل الدموع، فقد كانت مقصد الوافد وحصن القاصد فأضحت مأهولة بالأرامل واليتامى، لا يسمع فيها إلاّ رنّة البكاء وأنّة النواح، فإن غادرها إخترق أسماعه صوت النّاعي منها.

قال الأعسم:

ومتى سألت الدار عن أربابها	يعد الصدى منها سؤالي ثانيه
كانت غياثاً للمنوب فأصبحت	لجميع أنواع النوائب حاويه
و معالمٌ أضحت مآتم لا ترى	فيها سوى ناعٍ يجاوب ناعيه

وقد كانت تلك البيوت المدارس.. والمعاهد.. والمحاريب والمساجد.. وكانت

مهابط الوحي والتنزيل، إذ يصوّرها شاعر أهل البيت دعبل بن علي الخزاعي رحمه الله في محضر مولانا الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أبلغ تصوير فيقول:

مدارس آيات خلت من تلاوة ... ومنزل وحي مقفر العرصات

قفا نسأل الدّار التي خف أهلها ... متى عهدها بالصوم والصلوات

لآل رسول الله بالخيف من منى ... وبالبيت و التعريف والجمرات

ديار علي و الحسين وجعفر ... وحمزة و السجاد ذي الثفنات

ديار لعبد الله والفضل صنوه ... نجيّ رسول الله في الخلوات

(٤) المأتم السنوي

لقد استولت قصة مقتل الإمام الحسين عليه السلام على شغاف قلب النبي الكريم صلى الله عليه وآله وأخذت بلبّ مشاعره، فتابع ولده المظلوم في كلّ حالاته، ونصّ المسلمون على عبائر فريدة صدرت عنه صلى الله عليه وآله صاغتها شفتاه المباركتان دلّت على حبّ غير طبيعي لولده القتيل..

أ فهل كان هذا الحبّ حب الجد للسبط!! أم حبّ النبي للوصي والإمتداد الديني!! أم حب الوالد العطوف للولد البار!! أم حبّ المشفق على القتيل المظلوم!! أم كان كل ذلك مجتمعاً..

ولقد روى كلّ المسلمين قوله صلى الله عليه وآله: اللهم إنّي أحبّه فأحبّه، وأحبب من يحبّه.

ومن المهم أن نقف عند هذا الحديث الذي يؤكّد تجديد النّبي صلى الله عليه وآله لمأتم ولده السّنوي، عاماً بعد عام، ويؤكّد نصّه على تجديد الجليل تعالى أحزان نبيّه صلى الله عليه وآله

بإنفاذ الملائكة معزّية بمصرع ولده الإمام الحسين عليه السلام.

فقد ذكر أبو المؤيد الخوارزمي الحنفي في كتابه الشهير مقتل الحسين عليه السلام :

ولما أتى على الحسين من ولادته سنة كاملة هبط على رسول الله صلى الله عليه وآله إثنا عشر ملكا، محمرّة وجوههم، قد نشروا أجنحتهم وهم يقولون: يا محمّد، سينزل بولدك الحسين ما نزل بهابيل من قابيل، وسيعطى مثل أجر هابيل، ويحمل على قاتله مثل وزر قابيل.

قال: ولم يَبْقَ في السّماء ملك إلاّ ونزل على النّبي يعزّيه بالحسين، ويخبره بثواب ما يُعطى، ويعرض عليه تربته، والنّبي يقول: اللهم اخذل من خذله، واقتل من قتله، ولا تمتّعه بما طلبه.

ولما أتت على الحسين من مولده سنتان كاملتان، خرج النّبي في سفر، فلما كان في بعض الطريق، وقف فاسترجع، ودمعت عيناه، فسئل عن ذلك فقال: هذا جبريل يخبرني عن أرض بشاطىء الفرات، يقال لها كربلا، يقتل فيها ولدي الحسين بن فاطمة.

فقيل: من يقتله يا رسول الله؟

فقال: رجل يقال له يزيد، لا بارك الله في نفسه، وكأني أنظر إلى منصرفه ومدفنه بها، وقد أهدي رأسه، والله ما ينظر أحد إلى رأس ولدي الحسين فيفرح إلاّ خالف بين قلبه ولسانه، يعني ليس في قلبه ما يكون من الشهادة.

قال: ثم رجع النّبي من سفره ذلك مغموما، فصعد المنبر فخطب ووعظ، والحسين بين يديه مع الحسن، فلما فرغ من خطبته وضع يده اليمنى على رأس الحسين ورفع رأسه إلى السّماء وقال:

اللهم إني محمّد عبدك ونبيّك، وهذان أطائب عترتي وخيار ذريّتي

وأرومتي، ومن أخلفهما بعدي، اللهم وقد أخبرني جبريل بأن ولدي هذا مقتول مخذول، اللهم فبارك لي في قتله، واجعله من سادات الشّهداء، إنّك على كل شيء قدير، اللهم ولا تبارك في قاتله وخاذله.

قال: فضج الناس بالمسجد بالبكاء..

فقال النّبي ﷺ: أتبكون ولا تنصرونه؟ اللهم فكن له أنت وليّا وناصراً[1].

الحزن المدروس

إنّ رسول الله ﷺ ساير تلك السّيرة البشريّة المطّردة القديمة والحديثة، من تخليد الأحداث العظيمة بتجديدها سنويّا، وقد مثّل فعله أول سعي كريم بالقضيّة إلى الخلود والبقاء، وبهذا السعي كرّس رسول الله ﷺ ووظّف أكثر العوامل فاعلية وهي العاطفة العاقلة، ورمى إلى تخليد الدّين بتخليد شخص الإمام عليه السلام.

ولقد كانت وثبات النبي الكريم ﷺ عملاقة جدّاً، بحيث ملأت أصداؤها البشرية، فهو يماشي سيرة الإنسان بتأصيل المرتكزات الإنسانية الدّاعية لإكرام الشهيد، بكلّ عبقريّة وتقدّم على العصر، ونظر صائب دقيق مُتقن، ولا يملك الإنسان إلاّ أن ينحني إكباراً وإجلالاً لذلك.

ولقد عمل ﷺ ببكائه على تخليد دعوته العظمى، إذ أن المحتفى به شخصيّة تحكي شخصيته، وذات تدلّ على ذاته، ودعوة منبثقة عن دعوته، ونهضة منقذة لنهضته، فهو يبكي على الولاية المذبوحة في طفّ كربلاء، والخلافة التي تضافرت الأمّة على مقابلتها بالجحود، والإمامة الإلهية التي عزّزها يوم الغدير

---

(١) أورد الحديث أبو المؤيّد الموفق الخوارزمي الحنفي المتوفي سنة (٥٦٨) في كتابه مقتل الحسين (١٦٣/١).

وسرعان ما نُحرت بأسياف بني أمية.

إن الهدف الغاية وراء هذه العبرات هو التنبيه على أهمّية البكاء على الإمام الحسين عليه السلام المنقذ من الضلال، وهذا لائح في إهتمام النبي الكريم صلى الله عليه وآله بهذا الأمر بالذات..

فكم مرّت به صلى الله عليه وآله أحداثٌ مُرّة وحوادث مؤلمة، عصرت قلبه ألماً ووجداً، وكم قد جرَحت فؤاده خطوب جمّة، وكم ابتلي بفقد دعامات حياته ودعوته، وكان قد أسمى من أجلهم عامه عام الحزن، كما فعله في العام الذي فُجع فيه بوفاة سيدنا أبي طالب عليه السلام ووفاة سيدتنا خديجة الكبرى عليها السلام، وكم قد آلمه فقد عمّه في أحد!! حتّى ندب نساء المدينة لبكائه.. لكنّه مع حزنه عليهم لم يحيِ عزاءهم ولم يجدّد مأتمهم سنويّاً، وهذه خصوصية مهمّة..

ولم يُؤثر عنه كلّ هذا الحزن العميق بهذه الكيفيّة المحزنة مدّة حياته أبداً، ولم ينقل المؤرّخون شبيهاً بهذا الحزن حتى على ولده إبراهيم، بل اقتصرت أحزانه وآهاته على هذا المورد فقط، وكلّ حزنه في حياته لا يعدل مأتماً واحداً يعقده لرثاء ولده الإمام الحسين عليه السلام..

وإذا عجبت من ذلك ـ أخي القارئ ـ الأمر العجيب، فاعجب لبكائه على ريحانته صلى الله عليه وآله وهو لم يُقتل بعد، فإنّ كلّ هذه الأحاديث الواردة ونبيّ الإسلام لم يشهد مصرع ولده بسيف أمّته عياناً!!

ولله درّ الشريف الرضي رحمه الله حين قال:

ميّت تبكي له فاطمة ... وأبوها وعلي ذو العلى

لو رسول الله يحيى بعده ... جلس اليوم عليه للعزا

الذكرى السنوية

سنويّة الميلاد الحسيني المشوب بالحزن العميق أمر يفرضه نصّ الحديث، ومن الواضح أن الأمر الذي يركّزه الوحي في سنته ثمّ يؤكّد على تأسيسه في السنة القادمة ثم يؤكّده في السنة التي بعدها هو أمر مهم جدّاً، وتجديد ذكره عليه السلام في هذا الميقات بالذّات أمر محبوب عند الله تعالى قطعاً، وقد صدر ذلك الفعل من النبي القدوة الأسوة صلى الله عليه وآله، ولهذا فإنّ محبّي النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ومتّبعيه قد حملوا على عواتقهم إحياء هذا المصاب، في مواقيته، إذ كان الحزنُ مقترناً بيوم مولده فاقترن بيوم شهادته، ودأب شيعتهم على الحزن والبكاء جيلاً بعد جيل..

وروى المرحوم المجلسي رحمه الله أنه لما أخبر النبي صلى الله عليه وآله ابنته فاطمة بقتل ولدها الحسين وما يجري عليه من المحن بكت فاطمة بكاء شديداً وقالت: يا أبة، متى يكون ذلك؟

قال: في زمان خالٍ منّي ومنك ومن علي..

فاشتد بكاؤها وقالت: يا أبة، فمن يبكي عليه؟ ومن يلتزم بإقامة العزاء له؟

فقال النبي: يا فاطمة، إن نساء أمتي يبكون على نساء أهل بيتي ورجالهم يبكون على رجال أهل بيتي، ويجدّدون العزاء جيلا بعد جيل في كل سنة، فإذا كان القيامة تشفعين أنتِ للنّساء، وأنا أشفع للرّجال، وكل من بكى منهم على مصاب الحسين أخذنا بيده وأدخلناه الجنة، يا فاطمة كل عين باكية يوم القيامة إلا عين بكت على مصاب الحسين، فإنها ﴿ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾ بنعيم الجنة[1].

---

(١) سورة عبس: الآية ٣٩؛ راجع بحار الأنوار (٤٤/٢٩٢ـ٢٩٣).

حال الملائكة

ذكر الحديث الشريف حال الملائكة الإثني عشر الهابطين على النبي صلى الله عليه وآله، ووصفهم بحمرة الوجه ونشر الأجنحة.. أمّا نشر الملائكة أجنحتها فإنّه تعبير ملائكي قد نفهم منه من خلال فحواه معنى الهيئة الخاصة المعبّرة عن الحزن أو الإضطراب أو ما شاكل، وفهم الأمر على حقيقته مختصٌّ بالنبي الأعظم صلى الله عليه وآله فهو الذي يتلقّى الرّسالة السّماوية، وهو الأقرب إلى تلك العوالم وفهم ظواهرها الخاصة، وهو الذي يعرف المقصود منها على وجه الدقّة، فهي هيئات لها معان معيّنة من غير شكّ، كما هو الحال في حديث نزول جبرئيل عليه السلام لابساً السواد عليه صلى الله عليه وآله معبّراً عن زيّ بني العباس الذي روي في بعض الكتب المعتبرة..

في الفقيه: روي أنه هبط جبرئيل عليه السلام على رسول الله صلى الله عليه وآله وعليه قباء أسود، ومنطقة فيها خنجر، فقال: يا جبرئيل ما هذا الزي؟ فقال: زيّ ولد عمّك العباس، فخرج النبي صلى الله عليه وآله إلى العباس فقال: يا عم، ويل لولدي من ولدك!!

فقال: يا رسول الله، أ فأجب نفسي!!

قال: جرى القلم بما فيه[1].

وأما حمرة الوجه فهو الأمر الذي يستحق النظر والتأمّل، فحمرة الوجه عند الإنسان محمولة على معانٍ معيّنة، وغالباً هي كاشفة عن إحدى حالات ثلاث، إمّا حزن عظيم مؤثّر طافح على الوجه، أو غضب مؤثّر وانفعال مرتسم على

---

(١) راجع من لا يحضره الفقيه (١/٢٥٢)، وبحار الأنوار (٢٢/٢٩١).

الوجه، أو خجل يستولي على النفس فيحكيه الوجه.

ومن حقّنا أن نتساءل هنا.. فهل للملائكة وجوه أصلاً؟ أم هل هم كالإنسان تظهر مشاعرهم على وجوههم عبر تجمّع الدم المؤدّي إلى إحمرار الوجه مثلاً؟ أم هل يمكن أن تكون الملائكة ـ وهم العقول المجرّدة ـ محلاً للإنفعالات النفسية التي نألفها من الحزن أو الغضب أو الخجل، وهل يصحّ حينئذ وصفها بذلك؟

ويمكن أن نجيب عن ذلك بترجيح احتمال كون هذه تعبيرات تناسب الإنسان بخصوصياته وطبائعه، لنقل الصورة والحالة التي هم عليها، أو ربّما يكون من باب التحميل المسموح بحسب مقتضى حالها، بحيث لو كانت إنساناً لم تكن إلاّ محمرّة الوجه، وهذا أقرب إلى ألسنة الأحوال، وهو ممكن من غير شك.

ومن هذا الباب حمل السيّد الشّريف المرتضى رحمه الله كلام النملة مع سليمان عليه السلام على لسان الحال، أي أنّها لو نطقت لقالت ذلك، وهذا دارج في بعض النصوص الدينيّة الحِكَميّة الواردة، كما أنّه في النصوص الأدبية أكثر، ومنها التي تنطق الدور والجمادات وأمثال ذلك.

فيمكن بعد ذلك حمل الحمرة على إحدى المعاني الثلاثة، الحزن أو الغضب أو الخجل، خصوصاً وأنّ الحمرة قد وردت في بعض الروايات كتعبير عن بكاء الشمس على الإمام الحسين عليه السلام.

بكاء السماء بالحمرة

إنّ بكاء السّماء بالحمرة على الإمام الحسين عليه السلام أمرٌ تجتمع عليه المصادر الشيعيّة والسنيّة على حدّ سواء.

ففي مستدرك الوسائل، بالإسناد إلى زرارة، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام:

يا زراره، إنّ السماء بكت على الحسين عليه السلام أربعين صباحاً بالدّم، وإنّ الأرض بكت أربعين صباحاً بالسواد، وإنّ الشمس بكت أربعين صباحاً بالكسوف والحمرة[١].

وقد نقل الثعالبي في تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ﴾[٢] قول السّدي: لّما قتل الحسين عليه السلام بكت عليه السماء، بكاؤها حمرتها..

وأسند عن ابن سيرين أنّه قال: أنّ الحمرة التي مع الشفق لم تكن حتّى قُتِل الحسين بن علي عليه السلام.

ثمّ أسند كذلك عن سليمان بن القاس أنّه قال: مطرنا دماً أيّام قتل الحسين عليه السلام[٣].

وقال سبط ابن الجوزي: وحكمته أنّ غضباً يؤثّر حمرة الوجه، والحق تنزّه عن الجسميّة، فأظهر تأثير غضبه على من قتل الحسين بحمرة الأفق اظهاراً لعظيم الجناية[٤].

وقد تألّق وأبدع شاعر أهل البيت عليهم السلام دعبل بن علي الخزاعي في تائيّته العصماء حين مرّ بذكر رزاياهم قائلاً:

رزايا أرتنا خضرة الأفق حمرة ... وردّت أجاجا طعم كل فرات

---

(١) راجع مستدرك الوسائل (١٠/٣١٣)، وبحار الأنوار (٤٥/٢٠٦)، في المصدرين عن كامل الزيارات ص (٨١).

(٢) سورة الدخان: الآية ٢٩.

(٣) راجع تفسير الثعالبي ص (١٦٤)، وراجع كتاب ما روته العامة من مناقب أهل البيت للمولى حيدر الشيرواني ص (٢٤٧).

(٤) راجع الصواعق المحرقة ص (١٩٤).

وقال الشيخ الكوّاز:

كيف العزاء لها وكل عشية　　　دمكم بحمرتها السماء تريني

ولم يفت فيلسوف الشعراء أبا العلاء أحمد بن عبد الله المعرّي التنوخي الشاعر المعروف أن يأخذ بعنان الخيال إلى صورة أبدع ومقام أروع، لمّا استثار وجدانه قرص الشمس الدّامي في الشروق والغروب، فقال:

وعلى الدهر من دماء الشهيـ　　　ـدين عليّ و نجله شاهدان

فهما في أواخر الليل فجرا　　　ن و في أولياته شفقان

ثبتا في قميصه ليجيئ الـ　　　حشر مستعديا إلى الرحمن

يابن مستعرض الصفوف ببدر　　　و مبيد الجموع من غطفان

قابيل وهابيل

ليس من قبيل الصدفة أن يذكر الملائكة هابيل وقابيل في هذه التعزية، وليس من الكلمات المرسلة أن تشبّه الملائكة الإمام الحسين عليه السلام بهابيل القتيل وتشبّه قاتله بقابيل القاتل!!

فقد نزلوا وهم يقولون للنبي صلى الله عليه وآله: (سينزل بولدك الحسين ما نزل بهابيل من قابيل، وسيُعطى مثل أجر هابيل، ويحمل على قاتله مثل وزر قابيل).

ومع التأمّل قد نصل إلى نتيجة مهمّة جداً، فالأمثال القرآنية بحوادثها قد نزلت لتسلية النبي صلى الله عليه وآله أصلاً في مصائبه وأحزانه، على ما فيها من سائر الفوائد، ولهذا فإنّنا إذا لاحظنا سياق الآيات المتّحد في هذه القصّة القرآنية فإنّه يفضي إلى حقيقة هي المرمى والهدف قطعاً وهي حرمة قتل الإمام.

لقد افتتح القرآن القصة بخطاب نبيّه صلى الله عليه وآله فقال: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ

بِالْحَقِّ إذ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ﴾[1] فكان المحور الأساسي في الخلاف هو التفوّق واختيار الله تعالى المفضي إلى حسد قابيل، وبعد عرض هذه المنافسة والإختيار إتخذ قابيل قراره المجحف في حقّ أخيه، فـ ﴿قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنْ الْمُتَّقِينَ﴾[2].

فكره هابيل أن يبدأه بقتال أو يردّ عليه، فقال له: ﴿لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾[3].

فكان أن زيّن له الشيطان قتل أخيه، وتمضي الآيات ببسط أجزاء تلك القصة الإنسانية المؤلمة فتقول: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنْ الْخَاسِرِينَ، فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنْ النَّادِمِينَ﴾[4].

ثم يختم الوحي هذه القصة بالنتيجة الحكمية المترتبة عليها، مشعراً بالمغزى والهدف من وراء القصة، وهي حرمة القتل، فيقول تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا

---

(١) سورة المائدة: الآية ٢٧.

(٢) سورة المائدة: الآية ٢٧.

(٣) سورة المائدة: الآية ٢٩.

(٤) سورة المائدة: الآية ٣٠.

بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾[١].

وقد روى القرطبي في تفسير هذه الآية بالذات عن ابن عباس أنه قال: من قتل نبيا أو إمام عدل فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياه بأن شد عضده ونصره فكأنما أحيا الناس جميعا.

ولك بعد كلّ ذلك أن تضع النّقاط على الحروف، وتضمّ هذه لهذه، ليقوى إحتمال تسلية الوحي للنبي صلى الله عليه وآله في هذا المصاب ببيان قصة ولدي آدم عليه السلام، لينتهي بعد ذلك إلى عظم جريمة قتل الإمام الحق عنده تعالى، مشيراً إلى حرمة سبطه عليه السلام وعذاب قاتله.

فقد أزهق ربع سكّان الأرض في يوم هابيل عليه السلام، إذ كان رابع أبيه وأمّه وأخيه، وكانت جريمة فظيعة حقّاً دعت السماء والأرض للبكاء والحزن، بعد أن أقام آدم عليه السلام على قبر ولده أربعين يوماً يبكيه بكاءً مُرّاً، وقد أزهقت في يوم الحسين عليه السلام نفوس وأمم نبوية، كان تاج فخارها ذات الإمام الطّاهرة، ولك أن تقارن ما بين المقامين.

وروى الشيخ الصدوق رحمه الله قول حفيده الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام في حديثه للريان بن شبيب: يا ابن شبيب إن كنت باكيا لشيء فابك للحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام فإنه ذبح كما يذبح الكبش، وقتل معه من أهل بيته ثمانية عشر رجلا ما لهم في الأرض شبيهون، ولقد بكت السماوات السبع والأرضون لقتله، ولقد نزل إلى الأرض من الملائكة أربعة آلاف لنصره فوجدوه قد قتل، فهم عند قبره شعث غبر إلى أن يقوم القائم، فيكونون من أنصاره،

---

(١) سورة المائدة: الآية ٣٢.

وشعارهم يا لثارات الحسين[١].

الخصائص الحسينية

لقد قُتل الإمام الحسين عليه السلام شهيداً في سبيل الحق، وأعطى بسخاء كلّ ما عنده قرباناً لله تعالى، وبذل شبيبة هاشم ونجوم الأرض من آل عبد المطلب في ساحة الفداء والكرامة، ولم يدّخر حتى رضيعه الصغير، حتّى فاز برضوان الله تعالى، وعوّضه عن قتله بهبات اختصّ بها دون العالمين..

ولو لا أنّ هذه الذات المقدّسة الغالية قد قُتلت في سبيل الله تعالى لكان مقتله أعظم إجحاف في حقّ البشريّة، فلقد أعطاه الكريم أضعاف كرمه المبذول منزلة في الدنيا والآخرة، فهو السلطان الحاكم في الدارين، وكيف لا وقد فاز برضوان الله الأكبر، قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾[٢].

وروى ابن فهد رحمه الله في عدة الداعي عنهم عليهم السلام: أن الله سبحانه وتعالى عوّض الحسين عليه السلام من قتله بأربع خصال، جعل الشفاء في تربته، وإجابة الدعاء تحت قبته، والأئمة من ذريته، وأن لا يعد أيام زائريه من أعمارهم الثواب الجزيل في الآخرة[٣].

وتلك خِلال لم يشترك فيها أحد معه عليه السلام مطلقاً، فقد ورد النهي عن

---

(١) راجع أمالي الصدوق ص (١٢٩)، وبحار الأنوار (٤٤/٢٨٥)، ووسائل الشيعة (١٤/٥٠٢).

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٥.

(٣) راجع عدّة الدّاعي ص (٥٧)، ووسائل الشيعة (١٤/٥٣٧).

الأكل من تربة الأئمة الطاهرين عليهم السلام والإستشفاء بها، في حين دلّت نصوص عدّة على الإستشفاء بالتربة الزاكية للمولى أبي عبد الله عليه السلام، ففي كامل الزيارات بالإسناد عنهم عليهم السلام: إن الله تبارك وتعالى خلق آدم من الطين فحرم الطين على ولده، فقيل: ما تقول في طين قبر الحسين عليه السلام؟ فقال عليه السلام: يحرم على الناس أكل لحومهم ويحل لهم أكل لحومنا، ولكن اليسير منه مثل الحمصة[1].

وقد نصّت الأخبار الكثيرة على خصوصية الدعاء تحت قبّته الشريفة، وامتياز هذا المكان المقدّس بإستجابة الدّعاء، ودلّت على ذلك سيرة الأئمة المطهّرين عليهم السلام فقد روى ابن فهد في عدّة الداعي أن الإمام الصادق عليه السلام أصابه وجع، فأمر من عنده أن يستأجروا له أجيراً يدعو له عند قبر الإمام الحسين عليه السلام، فخرج رجل من مواليه فوجد آخر على الباب، فحكى له ما أمر به، فقال الرجل: أنا أمضي، لكن الحسين عليه السلام إمام مفترض الطاعة وهو أيضا إمام مفترض الطاعة، فكيف ذلك!! فرجع إلى مولاه وعرّفه قوله.

فقال: هو كما قال، لكن ما عرف أن لله تعالى بقاعاً يستجاب فيها الدعاء، فتلك البقعة من تلك البقاع[2].

وأعطاه الله تعالى فضيلة كبرى، فجعل الأئمة المطهّرين عليهم السلام من أولاده وصلبه، ولم يعط أحداً سواه، ففي خصال الشيخ الصدوق رحمه الله عن المفضل بن عمر، عن الصادق جعفر بن محمد عليه السلام قال: سألته عن قول الله عز وجل:

---

(١) راجع كامل الزيارات ص (٢٨٥)، وبحار الأنوار (٩٨/١٣٠) ووسائل الشيعة (١٤/٥٢٨)، ومستدرك الوسائل (١٦/٢٠٤).

(٢) عدة الداعي ص (٥٧)، ووسائل الشيعة (١٤/٥٣٧).

﴿وَإِذِ ابْتَلى إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ﴾[١] ما هذه الكلمات؟

قال: هي الكلمات التي تلقاها آدم عليه السلام من ربه فتاب عليه، وهو أنه قال: يا رب أسألك بحق محمد، وعلي، وفاطمة، والحسن، والحسين إلاّ تبت عليّ، فتاب الله عليه: ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[٢].

فقلت له: يا ابن رسول الله، فما يعني عز وجل بقوله: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾؟

قال: يعني فأتمهن إلى القائم إثني عشر إماما، تسعة من ولد الحسين عليه السلام.

قال المفضل: فقلت له: يا ابن رسول الله، فأخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿وَجَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾[٣]؟

قال: يعني بذلك الإمامة، جعلها الله في عقب الحسين عليه السلام إلى يوم القيامة.

قال: فقلت له: يا ابن رسول الله، فكيف صارت الإمامة في ولد الحسين دون ولد الحسن، وهما جميعا ولدا رسول الله وسبطاه وسيدا شباب أهل الجنة؟

فقال عليه السلام: إن موسى وهارون كانا نبيين مرسلين أخوين، فجعل الله النبوة في صلب هارون دون صلب موسى، ولم يكن لأحد أن يقول لم فعل الله ذلك، فإن الإمامة خلافة الله عز وجل، ليس لأحد أن يقول لم جعلها الله في صلب الحسين دون صلب الحسن، لأن الله هو الحكيم في أفعاله ﴿لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾[٤][٥].

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٢٤.

(٢) سورة البقرة: الآية ٣٧.

(٣) سورة الزخرف: الآية ٢٨.

(٤) سورة الأنبياء: الآية ٢٣.

(٥) راجع الخصال (١/٣٠٤)، وبحار الأنوار (١٢/٦٦)، وتأويل الآيات الطّاهرة ص (٥٤١).

وأكرم الله سبحانه زائره حيّاً وميّتاً، فحباه بالأجر الجزيل وخصّه بالثواب الكبير، ففي كامل الزيارات بإسناده إلى محمّد بن مسلم، عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: لو يعلم الناس ما في زيارة الحسين من الفضل لماتوا شوقا وتقطّعت أنفسهم عليه حسرات..

قلت: وما فيه!!

قال: من أتاه تشوّقاً كتب الله له ألف حجة متقبلة، وألف عمرة مبرورة، وأجر ألف شهيد من شهداء بدر، وأجر ألف صائم، وثواب ألف صدقة مقبولة، وثواب ألف نسمة أريد بها وجه الله، ولم يزل محفوظاً سنته من كل آفة أهونها الشيطان، ووكّل به ملك كريم يحفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوق رأسه ومن تحت قدمه..

فإن مات سنته حضرته ملائكة الرحمة يحضرون غسله وأكفانه والإستغفار له، ويشيعونه إلى قبره بالإستغفار له، ويفسح له في قبره مدّ بصره، ويؤمنه الله من ضغطة القبر ومن منكر ونكير أن يروّعانه، ويفتح له باب إلى الجنة، ويُعطى كتابه بيمينه، ويُعطى يوم القيامة نوراً يُضيء لنوره ما بين المشرق والمغرب، وينادي مناد هذا من زوار قبر الحسين بن علي شوقاً إليه، فلا يبقى أحد في القيامة إلاّ تمنّى يومئذ أنه كان من زوار الحسين بن علي عليه السلام[١].

فهذه خلال إنفرد بها مولانا أبو عبد الله عليه السلام كما ترى، وقد تعدّدت الروايات في هذا الصدد، ففي أمالي الشيخ الطوسي رحمه الله بالإسناد إلى محمد بن مسلم عن الصادقَين عليهما السلام أنّهما يقولان: إن الله تعالى عوض الحسين عليه السلام من

---

(١) راجع كامل الزيارات ص (١٤٢)، وبحار الأنوار (٩٨/١٨)، ووسائل الشيعة (٤٥٣/١٤)، ومستدرك الوسائل (٣٠/١٠).

قتله أن جعل الإمامة في ذريته، والشفاء في تربته، وإجابة الدعاء عند قبره، ولا تعد أيام زائريه جائياً وراجعاً من عمره.

قال محمد بن مسلم: فقلت لأبي عبد الله عليه السلام هذه الخلال تنال بالحسين عليه السلام فما له في نفسه؟

قال: إن الله تعالى ألحقه بالنبي، فكان معه في درجته ومنزلته، ثم تلا أبو عبد الله عليه السلام ﴿والَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذرِّيَّتُهُم بِإيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾[1][2].

وما أحلى ما قاله شاعر أهل البيت عليهم السلام إبن العرندس الحلّي رحمه الله في رصف تلك الخلال الخاصة بالمولى أبي عبد الله عليه السلام:

إمام الهدى سبط النبوة والد الأ	ئمة رب النهي مولى له الأمر
أبوه الإمام المرتضى علمُ الهدى	وصي رسول الله والصنو والصهر
إمامٌ بكته الإنس والجن والسما	ووحش الفلا والطير والبر والبحر
له القبَّة البيضاء في الطف لم تزل	يطوف بها حزناً ملائكة غر
له تربةٌ فيها الشفاء وقبةٌ	يجاب بها الداعي إذا مسّه الضرُ
و ذرية دريَّة منه تسعة	أئمة حقٍ لا ثمان ولا عشر

ولقد أعطى الله تعالى وليّه الإمام الحسين عليه السلام بكرم يليق بإحسانه وسعة خزائنه، بقدر فداحة ذلك المصاب الجليل الذي ألمّ برسول الله صلى الله عليه وآله أوّلاً، ولهذا فإنّ الملائكة نزلت عليه مسلية بما يتسلّى به المؤمنون الصالحون والعباد المقرّبون، وهو رضوان الله تعالى، وعطاياه الكريمة، والثواب الجزيل.

---

(١) سورة الطور: الآية ٢١.

(٢) راجع أمالي الشيخ الطوسي رحمه الله ص (٣١٧)، وبحار الأنوار (٤٤/٢٢١)، ووسائل الشيعة (١٤/٤٢٣)، وعدّة الداعي ص (٥٧) وفيه: (ولا تعدّ أيّام زائريه من أعمارهم).

فلاحظ الحديث: (ولم يَبْقَ في السّماء ملك إلاّ ونزل على النّبي يعزّيه بالحسين، ويخبره بثواب ما يُعطى، ويعرض عليه تربته، والنّبي صلى الله عليه وآله يقول: اللهم اخذل من خذله، واقتل من قتله، ولا تمتّعه بما طلبه).

تسمية مكان المقتل

قد عقد الله تعالى مأتم سبط نبيّه صلى الله عليه وآله في سنويّة مولده الأولى، وأكّده في رأس السنوية الثّانية، وسمّى البقعة الطّاهرة التي ستتضمّن جسده الطيّب، فقد تقدّم في الرواية التي هي موضع الكلام: (ولما أتت على الحسين من مولده سنتان كاملتان، خرج النّبي في سفر، فلما كان في بعض الطريق، وقف فاسترجع، ودمعت عيناه، فسئل عن ذلك فقال: هذا جبريل يخبرني عن أرض بشاطىء الفرات، يقال لها كربلا، يقتل فيها ولدي الحسين بن فاطمة).

ولقد أهبط الله تعالى ملائكته على النبي المصطفى صلى الله عليه وآله معزّية في سنويّة مولده الثانية ليؤكّد بوحيه الأمين على أمور عدّة.

منها:

إستثناء هذه القضيّة من بين قضايا البشر، وتخصيص التعزية على مولانا الحسين عليه السلام بالحكم الخاص، فلقد دُوّن في أبواب التعزية أنّها لا تتعدّى الأيّام الثلاثة، وهذا مشهور في شريعة الإسلام، لكنّها تمتدّ إلى السنة والسنتين والدهر كلّه في مورد الإمام الحسين عليه السلام، ولا فرق بين ذكرى مولده أو مقتله في ذلك.

فقد روى الشيخ الصدوق رحمه الله عن الإمام الباقر عليه السلام: يصنع للميت مأتم ثلاثة أيام من يوم مات[1].

---

(١) راجع من لا يحضره الفقيه (١/١٨)، ووسائل الشيعة (٣/٢٣٦)، ومستدرك الوسائل

وعن الإمام الصادق عليه السلام: أن النبي صلى الله عليه وآله أمر فاطمة عليها السلام أن تأتي أسماء بنت عميس ونساءها وأن تصنع لهم طعاما ثلاثة أيام فجرت بذلك السنة[١].

لكنّه إستثني مولانا الإمام الحسين عليه السلام من هذا الحكم، بل يمكننا الترقّي والقول أنّ المقام يفوق آداب وسنن التعزية، ويتعدّى المندوبات، وتأكيد الجليل تعالى له بهذه الكيفيّة مشعرٌ بالوجوب والفرض، فهو مصاب جدّه النبي صلى الله عليه وآله، ومصابه أعظم مصاب، وقد جدّد الجليل التعزية به، وعقد جدّه النبي صلى الله عليه وآله مأتمه وأكّد إستمراره ووثّقه، لأنّ مصابه مصاب الدين والإسلام والقرآن.

في قرب الإسناد عن الإمام الصادق عليه السلام عن أبيه الإمام الباقر عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: من أصيب بمصيبة فليذكر مصيبته بي فإنها أعظم المصائب[٢].

ومنها:

ليركّز في الذهنية المسلمة عند إحياء السنويّة ظرف الحادث الأليم، فهو يذكر أرض كربلاء وشط الفرات في سياق التعزية، ويذكّر بالوقعة بظرفها المكاني في ضمن تعزيته للنبي صلى الله عليه وآله، وكان لهذه التعزية المقرونة بذكر مكانها غور تاريخي قديم، فلقد بكاه الأنبياء والمرسلون عليهم السلام مقروناً بذكر كربلاء في أكثر من حديث

(٣٨١/٢)، وبحار الأنوار (٧٢/٧٩)، وفلاح السائل (٨٦)، والمحاسن (٤١٩/٢) وهذا المعنى متواتر مبثوث في أخبار أهل البيت عليهم السلام.

(١) راجع من لا يحضره الفقيه (١٨٢/١)، ووسائل الشيعة (٢٣٧/٣)، وبحار الأنوار (٧٢/٧٩).

(٢) راجع بحار الأنوار (٥٢٢/٢٢)، مسكّن الفؤاد ص (١١٩)، مناقب ابن شهراشوب (٢٣٨/١).

صحيح صريح، ودّلت أحاديث كثيرة على مرورهم بأرض كربلاء وبكائهم عليه عليه السلام في أرض مصرعه، وقد أعرضت عنها حذر الإطناب.

فقد كان لعيسى النبي عليه السلام قصّة ملفتة للنظر في أرض كربلاء، فقد مرّ بها وأقام فيها مأتم سبط نبيّ آخر الزمان أحمد صلى الله عليه وآله تأسّياً بجدّه المصطفى صلى الله عليه وآله سيد الأنبياء وأبيه المرتضى عليه السلام سيّد الأوصياء، وكيف لا يجتاز عيسى النبي عليه السلام على شاطئ الفرات ويبكي الحسين عليه السلام وهي مسقط رأسه الذي قصدته أمّه مريم عليها السلام بقدرة الله تعالى كما دلّت رواياتنا عليه، وهذا سرٌّ مستتر يؤكّد عظمة هذه البقعة الشريفة..

ففي تهذيب الأحكام بالإسناد إلى الثمالي عن الإمام زين العابدين عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكاناً قَصِيًّا﴾[1] قال: خرجت من دمشق حتى أتت كربلاء، فوضعته في موضع قبر الحسين عليه السلام ثم رجعت من ليلتها[2].

وفي أمالي الشيخ الصدوق رحمه الله بالإسناد إلى ابن عباس قال: كنت مع أمير المؤمنين عليه السلام في خرجته إلى صفين، فلما نزل بنينوى وهو بشط الفرات قال بأعلى صوته: يا ابن عباس، أ تعرف هذا الموضع؟

قلت له: ما أعرفه يا أمير المؤمنين.

فقال عليه السلام: لو عرفته كمعرفتي لم تكن تجوزه حتى تبكي كبكائي.

قال: فبكى طويلا حتى أخضلت لحيته وسالت الدموع على صدره، وبكينا معا وهو يقول: أوه أوه ما لي ولآل أبي سفيان، ما لي ولآل حرب حزب

---

(١) سورة مريم: الآية ٢٢.

(٢) راجع تهذيب الأحكام (٦/٧٣)، ومصادر أخرى كثيرة.

الشيطان وأولياء الكفر، صبراً يا أبا عبد الله، فقد لقي أبوك مثل الذي تلقى منهم، ثم دعا بماء فتوضّأ وضوء الصلاة فصلى ما شاء الله أن يصلي، ثم ذكر نحو كلامه الأول، إلاّ أنه نعس عند انقضاء صلاته وكلامه ساعة..

ثم انتبه فقال: يا ابن عباس!!

فقلت: ها أنا ذا.

فقال: أ لا أحدّثك بما رأيت في منامي آنفا عند رقدتي؟

فقلت: نامت عيناك ورأيت خيراً يا أمير المؤمنين.

قال: رأيت كأني برجال قد نزلوا من السماء معهم أعلام بيض قد تقلدوا سيوفهم وهي بيض تلمع، وقد خطوا حول هذه الأرض خطة، ثم رأيت كأن هذه النخيل قد ضربت بأغصانها الأرض، تضطرب بدم عبيط، وكأني بالحسين سخلي وفرخي ومضغتي ومخي قد غرق فيه، يستغيث فيه فلا يغاث، وكان الرجال البيض قد نزلوا من السماء ينادونه ويقولون: صبرا آل الرسول، فإنكم تقتلون على أيدي شرار الناس، وهذه الجنة يا أبا عبد الله إليك مشتاقة، ثم يعزّونني ويقولون يا أبا الحسن أبشر، فقد أقر الله به عينك يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ، ثم انتبهت هكذا..

والذي نفس علي بيده، لقد حدثني الصادق المصدق أبو القاسم صلى الله عليه وآله أني سأراها في خروجي إلى أهل البغي علينا، وهذه أرض كرب وبلاء يدفن فيها الحسين عليه السلام وسبعة عشر رجلا من ولدي وولد فاطمة، وإنها لفي السماوات معروفة تذكر أرض كرب وبلاء، كما تذكر بقعة الحرمين وبقعة بيت المقدس.

ثم قال لي: يا ابن عباس اطلب في حولها بعر الظباء، فو الله ما كَذبت ولا كُذبت، وهي مصفرة لونها لون الزعفران.

قال ابن عباس: فطلبتها فوجدتها مجتمعة، فناديته يا أمير المؤمنين قد أصبتها على الصفة التي وصفتها لي.

فقال علي عليه السلام: صدق الله ورسوله، ثم قام عليه السلام يهرول إليها فحملها وشمها وقال: هي هي بعينها، أ تعلم يا ابن عباس ما هذه الأبعار؟ هذه قد شمّها عيسى ابن مريم، وذلك أنه مر بها ومعه الحواريون فرأى هاهنا الظباء مجتمعة وهي تبكي، فجلس عيسى وجلس الحواريون معه، فبكى وبكى الحواريون، وهم لا يدرون لم جلس ولم بكى، فقالوا: يا روح الله وكلمته ما يبكيك؟ قال: أ تعلمون أي أرض هذه؟ قالوا: لا!!

قال: هذه أرض يقتل فيها فرخ الرسول أحمد صلى الله عليه وآله وفرخ الحرة الطاهرة البتول شبيهة أمي ويلحد فيها طينة أطيب من المسك، لأنها طينة الفرخ المستشهد وهكذا يكون طينة الأنبياء وأولاد الأنبياء، فهذه الظباء تكلّمني وتقول: إنها ترعى في هذه الأرض شوقا إلى تربة الفرخ المبارك، وزعمت أنها آمنة في هذه الأرض.

ثم ضرب بيده إلى هذه الصّيران فشمّها، وقال: هذه بعر الظباء على هذه الطيب لمكان حشيشها، اللهم فأبقها أبداً حتى يشمّها أبوه فيكون له عزاء وسلوة.

قال: فبقيت إلى يوم الناس هذا، وقد اصفرت لطول زمنها، وهذه أرض كرب وبلاء.

ثم قال عليه السلام بأعلى صوته: يا رب عيسى ابن مريم، لا تبارك في قتلته والمعين عليه والخاذل له، ثم بكى بكاء طويلاً وبكينا معه، حتى سقط لوجهه وغشي عليه طويلاً، ثم أفاق، فأخذ البعر فصرّه في ردائه وأمرني أن أصرها كذلك، ثم قال: يا ابن عباس، إذا رأيتها تنفجر دماً عبيطاً ويسيل منها دم عبيط

فاعلم أن أبا عبد الله قد قتل بها ودفن.

قال ابن عباس: فو الله لقد كنت أحفظها أشد من حفظي لبعض ما افترض الله عز وجل عليّ، وأنا لا أحلها من طرف كمي، فبينما أنا نائم في البيت إذا انتبهت فإذا هي تسيل دما عبيطاً وكان كمّي قد امتلأ دماً عبيطاً، فجلست وأنا باك، وقلت قد قتل والله الحسين، والله ما كذبني علي قط في حديث حدثني، ولا أخبرني بشيء قط أنه يكون إلاّ كان كذلك، لأن رسول الله كان يخبره بأشياء لا يخبر بها غيره، ففزعت وخرجت وذلك عند الفجر، فرأيت والله المدينة كأنها ضباب لا يستبين منها أثر عين، ثم طلعت الشمس ورأيت كأنها منكسفة، ورأيت كأن حيطان المدينة عليها دم عبيط، فجلست وأنا باك فقلت قد قتل والله الحسين، وسمعت صوتا من ناحية البيت وهو يقول:

إصبروا آل الرسول   قتل الفرخ النحول

نزل الروح الأمين   ببكاء و عويل

ثم بكى بأعلى صوته وبكيت، فأثبت عندي تلك الساعة وكان شهر المحرم يوم عاشوراء لعشر مضين منه، فوجدته قتل يوم ورد علينا خبره وتاريخه كذلك، فحدّثت هذا الحديث أولئك الذين كانوا معه، فقالوا: والله لقد سمعنا ما سمعت ونحن في المعركة ولا ندري ما هو، فكنا نرى أنّه الخضر عليه السلام[١].

(١) راجع أمالي الشيخ الصدوق ص (٥٩٧)، والخرايج والجرايح (١١٤٤/٣)، وبحار الأنوار (٢٥٢/٤٤).

تسمية القاتل

لم تقتصر الأحاديث الشريفة ـ ومنها الحديث الذي هو موضع الكلام ـ على ذكر موضع المقتل فقط، بل أكّدت مصرّحة بإسم القاتل الشقي الذي يقترف هذه الفظيعة، فقد مرّت تسميته في الحديث: (رجل يقال له يزيد، لا بارك الله في نفسه).

وهو ثاني خلفاء بني أميّة، يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، أسماء ثلاثة لامعة في ميدان الكفر والشرك والبغي، فأبو سفيان خصم سيّد الأنبياء صلى الله عليه وآله، ومعاوية عدوّ سيد الأوصياء عليه السلام، ويزيد قاتل سيد الشهداء عليه السلام..

وقد أكّدت أحاديثنا المروية عن أهل البيت عليهم السلام عذاب قاتل الإمام الحسين عليه السلام يوم القيامة، وخزيه في الدنيا قبل الآخرة.

ففي عيون أخبار الرضا عليه السلام بالأسانيد الثلاثة عنه عليه السلام عن آبائه عليهم السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: إن قاتل الحسين بن علي عليه السلام في تابوت من نار عليه نصف عذاب أهل الدنيا، وقد شُدّ يداه ورجلاه بسلاسل من نار منكس في النار حتى يقع في قعر جهنم، وله ريح يتعوذ أهل النار إلى ربهم من شدة نتنه، وهو فيها خالد ذائق العذاب الأليم مع جميع من شايع على قتله، كلّما نضجت جلودهم بدل الله عز وجل عليهم الجلود غيرها حتى يذوقوا العذاب الأليم، لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ ساعة ويسقون من حميم جهنم، فالويل لهم من عذاب النار[1].

وفي صحيفة الرضا عليه السلام قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن موسى بن عمران عليه السلام

---

(١) راجع عيون أخبار الرضا (٢/٤٧)، وبحار الأنوار (٤٤/٣٠٠)، تأويل الآيات ص (٧٤٣).

سأل ربه عز وجل فقال: يا رب إن أخي هارون مات فاغفر له، فأوحى الله عز وجل إليه: يا موسى، لو سألتني في الأولين والآخرين لأجبتك، ما خلا قاتل الحسين بن علي، فإني أنتقم له من قاتله[١].

وفي كامل الزيارات بالإسناد إلى خالد الربعي أنّه حدثه من سمع كعباً يقول: أول من لعن قاتل الحسين بن علي عليه السلام إبراهيم خليل الرحمن وأمر ولده بذلك، وأخذ عليهم العهد والميثاق، ثم لعنه موسى بن عمران وأمر أمته بذلك، ثم لعنه داود وأمر بني إسرائيل بذلك، ثم لعنه عيسى وأكثر أن قال: يا بني إسرائيل، إلعنوا قاتله وإن أدركتم أيامه فلا تجلسوا عنه، فإن الشهيد معه كالشهيد مع الأنبياء مقبل غير مدبر، وكأني أنظر إلى بقعته، وما من نبي إلاّ وقد زار كربلاء ووقف عليها وقال: إنك لبقعة كثيرة الخير فيك يدفن القمر الأزهر[٢].

ولم يختلف علماء أهل السنّة والجماعة عن علمائنا في نقل تلك الروايات الدّالة على شقاوة قاتله وعذابه وتسميته، ومع كلّ هذا فإنّه يتصدّى البعض اليوم بدافع النّصب أو الجهل ليدافع عن يزيد بن معاوية، ويحاول أن يبرّأة بعد ثبوت قيامه بهذه الجريمة المفجعة، بمحاولات التلويح بالشُّبَه في مقابل هذه البديهة المسلّمة والحقيقة التاريخية التي لا ينكرها إلاّ مكابر أو جاهل.

وأنا أعني هؤلاء النفر الحاقدين على التشيّع، الذين يحاولون إيهام النّاس بأن أخبار ذمّ يزيد ولعنه وتأكيد قتله للإمام الشهيد عليه السلام دعوى الشيعة الإمامية،

---

(١) راجع صحيفة الرضا عليه السلام ص (٨٦)، وعيون أخبار الرضا عليه السلام (٤٧/٢)، وبحار الأنوار (٣٠٠/٤٤).

(٢) راجع كامل الزيارات ص (٦٧)، وبحار الأنوار (٣٠١/٤٤).

وأنّه ليس لذلك مستند معتبر في كتب أهل السنة والجماعة، فراحوا ينشرون خزعبلاتهم في المناشير والكتب في شهر المحرّم، وقد أخطأ هؤلاء جادّة الصواب وزاغوا عن الحق، وحرموا أنفسهم التأسّي بالنبي ﷺ في مصابه بولده عليه السلام، وعبثوا بسنة نبيّهم الكريم ﷺ، وأعرضوا عن تلك الأحاديث النبوية الناصة على يزيد بالإسم الصريح.

وقد أجاز كبار علماء أهل السنّة لعنه ولم يتردّدوا في ذلك، ومنهم الإمام ابن الجوزي في كتابه الردّ على المتعصّب العنيد المانع من ذمّ يزيد، فقد قال: سألني سائل عن يزيد بن معاوية!!

فقلت له: يكفيه ما به!!

فقال: أ تجوّز لعنه؟

فقلت: قد أجازه العلماء الورعون، منهم أحمد بن حنبل، فإنّه ذكر في حقّ يزيد ما يزيد على اللعنة.

ثمّ روى ابن الجوزي عن القاضي أبي يعلي بن الفرّاء أنّه روى في كتابه المعتمد في الأصول بإسناده إلى صالح بن أحمد بن حنبل قال: قلت لأبي: إنّ قوماً ينسبونا إلى تولّي يزيد.

فقال: يا بني، وهل يتولّى يزيد أحد يؤمن بالله!!

فقلت: فلم لا تلعنه؟

فقال: لم لا تلعن من لعنه الله في كتابه!!

فقلت: وأين لعن الله يزيد في كتابه؟

فقال: في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ

وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ❁ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمْ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾[١]
فهل يكون فساد أعظم من القتل؟

وقال ابن الجوزي: وصنّف القاضي أبو يعلي كتاباً ذكر فيه بيان من يستحقّ اللعن، وذكر منهم يزيد، ثم ذكر حديث: من أخاف أهل المدينة ظلماً أخافه الله وعليه لعنة الله والملائكة والنّاس أجمعين[٢].

وقال العلامة سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني في شرح العقائد النسفيّة:
وبعضهم أطلق اللعن عليه لّما أنّه كفر حين أمر بقتل الحسين رضي الله عنه، واتفقوا على جواز اللعن على من قتله أو أمر به أو أجازه أو رضي به، والحق أن رضا يزيد بقتل الحسين واستبشاره بذلك وإهانة أهل بيت النبي عليه السلام ممّا تواتر معناه وإن كان تفاصيله آحاداً، فنحن لا نتوقّف في شأنه بل في إيمانه (لعنة الله عليه وعلى أنصاره وأعوانه)[٣].

وروي عن نوفل بن أبي الفرات: كنت عند عمر بن عبد العزيز فذكر رجل يزيد فقال أمير المؤمنين يزيد بن معاوية، فقال: تقول أمير المؤمنين!! فأمر به فضُرب عشرين سوطاً[٤].

ولدى إمعان النظر الخاطف في كتب الجرح والتعديل لأبناء السنة والجماعة

---

(١) سورة محمد: الآيتان ٢٢ و ٢٣.

(٢) راجع كتاب الرد على المتعصّب العنيد المانع من ذم يزيد للحافظ أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي الشهير بابن الجوزي، وقد طبع هذا الكتاب مؤخّراً بتحقيق الشيخ محمد كاظم المحمودي في (١٢٠) صفحة، وقد ذكر ذلك عنه سبطه في تذكرة الخواص ص (٢٨٧ ـ ٢٨٨).

(٣) راجع شرح العقائد النسفيّة للعلامة سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني ص (١٦٥) المطبعة الحسنية بمصر ١٢٩٧ هـ.

(٤) رواه أبو الفلاح الحنبلي في شذرات الذهب (١/ ٦٩)، وأخبار الدول ص (١٣٠ ـ ١٣١).

المعتمدة نتحقّق من تهاوي دعوى براءته وتبدّد دعوة حسن الظن فيه، وسنورد بعض كلمات الأعلام للتدليل على المراد.

أما الإمام الذهبي فقد قال في ميزان الإعتدال: مقدوح في عدالته، ليس بأهل أن يُروى عنه، وقال عنه أحمد بن حنبل: لا ينبغي أن يُروى عنه.

وقال في سير أعلام النبلاء: وكان ناصبيّاً فظّاً غليظاً جلفاً، يتناول المسكر ويفعل المنكر، إفتتح دولته بمقتل الشهيد الحسين، واختتمها بواقعة الحرّة، فمقته النّاس، ولم يبارك في عمره، وخرج عليه غير واحد بعد الحسين[1].

وقد يجهل البعض أو يكابر في المقام فينفي نسبة القتل إليه، فإنّه وإن دلّت هذه المصادر على شقاوته لكنّها لا تدلّ على المباشرة في قتله، وأوهن من هذا تمسّك بعضهم بالنقولات الفارغة التي تعزو القتل إلى عبيد الله بن زياد وتسرّعه فيه.. وهذه مكابرة لا تصدر إلاّ عن جاهل غرّ قليل الإطلاع في كتب التاريخ والحديث، ولهذا فإنّنا سنورد ما يروي الغليل في هذا الصدد.

فقد قال السيوطي في تاريخ الخلفاء: فكتب يزيد إلى واليه بالعراق عبيد الله بن زياد بقتاله[2].

وقال ابن كثير في البداية والنهاية: وقد أخطأ يزيد خطأً فاحشاً في قوله لمسلم بن عقبة أن يبيح المدينة ثلاثة أيّام.. وقد تقدّم أنّه قتل الحسين وأصحابه على يدي عبيد الله بن زياد[3].

---

(١) راجع ميزان الإعتدال للإمام الذهبي في نقد الرجال (٤/٤٤٠)، وسير أعلام النبلاء (٤/٣٧ و ٣٨).

(٢) راجع تاريخ الخلفاء للسيوطي ص (١٦٥).

(٣) راجع في البداية والنهاية لابن كثير (٨/١٧٨).

وقد نقل ابن الأثير في الكامل في التاريخ قول عبيد الله بن زياد: وأمّا قتلي الحسين فإنّه أشار عليّ يزيد بقتله أو قتلي، فاخترت قتله[١].

ونقل ابن كثير في البداية والنهاية قول يزيد بن معاوية نفسه: فأبغضني البر والفاجر بما استعظم النّاس عليّ من قتلي حسيناً[٢].

وهذا هو القدر المتسالم المتّفق عليه بين المؤرّخين والمحدّثين، وأمّا ما ينسب إلى ابن تيمية من أنّ يزيداً أظهر التوجّع والندم لقتل الإمام الحسين عليه السلام فهو إدّعاء يفتقر إلى الدليل، وهو مكابرة فارغة من العنصر العلمي أصلاً..

نعم، نقل بعض المؤرخين إظهاره للتأسّف بعد استياء الناس من فعلته الشنيعة، وهذا موقف سياسي ليس إلاّ، لا ينطلي إلاّ على من فرغت قلوبهم من حبّ أهل هذا البيت عليهم السلام وزهدوا في إحقاق حقّهم، وهل يعقل عاقل أن يعفيه هذا من المسؤولية أمام الله والتاريخ والإنسانية!! ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[٣].

وهذا السيوطي يؤكّد قائلاً: ولّما قتل الحسين وبنوا أبيه بعث ابن زياد برؤوسهم إلى يزيد فسُرّ بقتلهم أوّلاً، ثم ندم لّما مقته المسلمون على ذلك وأبغضه النّاس، وحق لهم أن يبغضوه[٤]

وروي في الكامل في التاريخ: لّما وصل رأس الحسين إلى يزيد حسنت حال ابن زياد عنده ووصله، وسرّه ما فعل، ثمّ لم يلبث إلاّ يسيراً حتّى بلغه بغض

---

(١) راجع الكامل في التاريخ لابن الأثير (٣/٤٧٤).

(٢) راجع البداية والنهاية لابن كثير (٨/١٨٦)، وانظر الكامل في التاريخ لابن الأثير (٣/٤٤٠)، وتاريخ الأمم والملوك للطبري (٣/٣٦٥).

(٣) سورة الصافات: الآية ١٥٤ ؛ سورة القلم: الآية ٣٦.

(٤) راجع تاريخ الخلفاء للسيوطي ص (١٦٦).

النّاس له ولعنهم وسبّهم، فندم[1].

وقد روى المسلمون كافّة روايات السبي لنسوة الإمام الحسين عليه السلام وهنّ حرم رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام وبنات الزّهراء عليها السلام ودخولهنّ على عبيد الله ويزيد، وذكروا عظائم الحوادث المتّصلة، غير أنّ بعض أجلّة المؤرّخين قد أعرض عن الكثير من حوادثها لفضاعة ما اقترف فيها، وقد قال السيوطي في التاريخ: لا يحتمل القلب ذكرها[2].

ولقد أخبر النبي صلى الله عليه وآله بمقتل ولده عليه السلام وتوجّع عليه، وسمّى قاتله في أكثر من خبر صحيح، ورَوت ذلك المصادر بما لا يدع مجالاً للشكّ في كونه القاتل له عليه السلام، وقد نصّت الأحاديث حتّى على تفاصيل الشّهادة للتأكيد على ذلك.

ففي الحديث موضع الكلام: (وكأني أنظر إلى منصرفه ومدفنه بها، وقد أهدي رأسه، والله ما ينظر أحد إلى رأس ولدي الحسين فيفرح إلاّ خالف بين قلبه ولسانه، يعني ليس في قلبه ما يكون من الشهادة).

مباركة الشهادة

كانت لكلمات الوحي التي صدرت عن الملائكة أثر بالغ على قلب النبي الكريم صلى الله عليه وآله، وقد إستقرّت في صدره فأوغرته بالحزن والأسى، حتّى إذا رجع من سفره ـ كما في الحديث ـ رجع مغموماً مهموماً، وصعد المنبر فخطب ودعى الله تعالى أن يبارك له في قتل ولده، وأن يجعله من سادات الشّهداء.. وكان أن ضجّ الناس في المسجد بالبكاء.

---

(١) راجع الكامل في التاريخ لإبن الأثير (٣/٤٣٩).

(٢) راجع تاريخ الخلفاء للسيوطي ص (١٦٥).

وهذا من بديع الدعاء وأجلّ الطلبات، ولا يناسب أن يصدر ذلك إلاّ من خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وفي حقّ سيّد الشهداء والصدّيقين عليهما السلام، ولم يُعهد من غيره هذا الدّعاء، لكنّه دعاء الفاتح لما استقبل، وهو يعني بالبركة المنافع والآثار المترتّبة على شهادته، ونتاج عطائه السّخي من الله تعالى، وعوائد المثوبات لتلك الأضاحي الهاشمية.

ولقد حكى الله تعالى في القرآن قول عيسى النبي عليه السلام وهو طفلٌ في المهد لّما صامت أمّه العذراء عن الكلام وأشارت إليه فإنّه: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا، وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ❖ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ❖ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ❖ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾[١].

فبعد أن أعلن ـ في هذه الآية ـ وصرّح بنبوّته وما يستتبعها من العلوم، صرّح بعطاء ربّاني حاكم فوق كلّ هذه العطاءات، وأعلن هبة إلهية تفوق كل هذه الهبات، وهي المباركة منه عز وجل له، ويندرج تحت عنوان المباركة العلم والنبوّة والصلاة والزكاة وبر الوالدين، والسلام عند الميلاد والموت والبعث..

وفي الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير الآية: ﴿وَجَعَلَنِي مُبارَكاً أَيْنَ ما كُنْتُ﴾ قَالَ: نَفّاعاً[٢].

وفى قصص الأنبياء عليهم السلام عن الإمام الصّادق عليه السلام: إن الله تعالى جل جلاله أوحى إلى عمران أني واهب لك ذكرا مباركاً، يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي

---

(١) سورة مريم: الآيات ٣٠ و ٣١ و ٣٢ و ٣٣.

(٢) راجع الكافي (١٦٥/٢).

الموتى بإذن الله، وأني جاعله رسولاً إلى بني إسرائيل[١].

ومن خلال ذلك نفهم معنى البركة، ونعرف فحوى دعاء النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ومقصوده منه، وهو لا يريد هنا البركة المتحقّقة أصلاً بكونه إماماً مفترض الطاعة، ولكنّه يعني مباركة الشّهادة، أي أنّه يدعوا الله تعالى أن تؤتي غراس مولانا الحسين عليه السلام أُكُلَها وتنفع أمّته والبشرية، وتتأتّى ثمار الشهادة على وجهها الأتم الأكمل، ويكون لواؤه خفّاقاً بالجهاد والتضحية ومقارعة الظالمين ما كرّ الجديدان وطلع الليل والنهار.

وقد استجاب الله تعالى بكرم وسخاء دعوة نبيّه الكريم صلى الله عليه وآله الذي لم يردّ له دعوة، وأعطاه ما لم يعط نبيّاً ولا وصي نبي على قتله، وبارك له في شهادته أيّما بركة، وجعله مثابة للنّاس وأمناً وقصداً، ومحلاً لكشف الهموم والغموم بإذنه..

وها هي الملايين تقوم وتقعد عند ضريحه المقدس، عاكفة مع الملائكة في حرمه المطهّر بكربلاء المقدّسة، تظهر المحبة والولاء والطاعة والمواساة والتعزية لرسول الله صلى الله عليه وآله عند مهراق دم سبطه ومصرع ريحانته، وتسعى بين صفاه ومرواه، مبتدأةً به عليه السلام منتهية عند ضريح أخيه قمر بني هاشم العباس بن أمير المؤمنين عليه السلام.

وأيّ بركة أعظم من هذه البركة، فقد نزلها مولانا الحسين عليه السلام وهي فلاةٌ قفرٌ، لا يقطنها إلاّ بعض الأعراب من بني أسد في حيّ الغاضرة، فاشترى منهم أرض مقتله قبل أن يقتل عليها، وأسكنهم فيها، واشترط عليهم أن يضيّفوا زوّاره.

---

(١) راجع قصص الأنبياء للسيّد الجزائري ص (٣٠٤)، وقصص الأنبياء للشيخ الراوندي ص (٦٢).

وما أسرع أن بارك الله تعالى في شهادته، فجاءت الزّوار تباعاً إلى قبره الشريف، تلتمس الخير والثواب وقضاء الحاجات الدنيوية والأخروية، فازدحم على مشهده الألوف، واشتبكت أكفّهم على ضريحه، وناهزت أعدادها الملايين في المواقيت المستحبة المروية عن أهل البيت عليهم السلام كالعيدين والنصف من شعبان وعاشوراء.

وكم قد حاول الجائرون من ذلك اليوم وحتى يومنا هذا ثلم هذه الرغبة في النفوس، وكان محالاً ما طلبوا، فعمدوا إلى محو آثاره الطاهرة، فما أسرع أن اجتذبت النفوس والأفئدة ساحرية الشّهادة بشذاها الفواح، فجاء المحبون يتهافتون كتهافت الفراش على ضوء السراج يلتمسون النور والرشد والهدى..

فقد جاء في أمالي الشيخ الطوسي رحمه الله بالإسناد عن يحيى بن المغيرة الرازي قال: كنت عند جرير بن عبد الحميد إذ جاءه رجل من أهل العراق، فسأله جرير عن خبر الناس فقال: تركت الرشيد وقد كرب قبر الحسين عليه السلام وأمر أن تقطع السّدرة التي فيه فقطعت.

قال: فرفع جرير يديه وقال: الله أكبر، جاءنا فيه حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: لعن الله قاطع السدرة ثلاثاً، فلم نقف على معناه حتى الآن، لأن القصد بقطعه تغيير مصرع الحسين عليه السلام حتى لا يقف النّاس على قبره[1].

لكن آمال الرشيد تبدّدت، وجهوده قد خابت، وهذا ضريح الإمام الشهيد يتألّق كلّما أتت عليه السنون، وما شأني وشأن من هو مثلي حتّى يتكلّم في مجد أبي الشهداء روحي له الفداء، فمجده من مجد جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله، وجدّه

---

(١) راجع أمالي الطوسي ص (٣٢٥)، بحار الأنوار (٤٥/٣٩٨)، مستدرك الوسائل (١٣/٤٦٤).

شاهد الله عزّ وجل وأمينه في أرضه وسمائه، والله تعالى هو واهب المجد والبقاء..

ولقد أنبأت مولاتنا الصدّيقة الكبرى ولبؤة البيت العلوي الطالبي، بنت أمّها، العقيلة زينب بنت أمير المؤمنين عليه السلام بهذا المجد التليد والمنزلة العظيمة، والكرامة الحسينية الكبرى، والبركة العظمى، في مرورها على أشلاء أخوتها وبني أخيها وعمومتها وبنيها، وصرّحت بذلك معزّية حجّة الله زين العابدين عليه السلام في رواية ذهبية منعدمة النظير، وبيّنت فيها ميثاق الله تعالى لصاحب هذا القبر الشريف بالنصر والبركة والتأييد والخلود.

ففي كامل الزيارات بالإسناد إلى قدامة بن زائدة عن أبيه قال قال: علي بن الحسين عليه السلام: بلغني يا زائدة إنك تزور قبر أبي عبد الله أحياناً؟

فقلت: إن ذلك لكما بلغك.

فقال لي: فلماذا تفعل ذلك ولك مكان عند سلطانك الذي لا يحتمل أحداً على محبّتنا وتفضيلنا وذكر فضائلنا والواجب على هذه الأمة من حقنا؟

فقلت: والله ما أريد بذلك إلا الله ورسوله، ولا أحفل بسخط من سخط، ولا يكبر في صدري مكروه ينالني بسببه.

فقال: والله إن ذلك لكذلك.

فقلت: والله إن ذلك لكذلك، يقولها ثلاثاً وأقولها ثلاثاً.

فقال: أبشر ثم أبشر ثم أبشر، فلأخبرنك بخبر كان عندي في النخب المخزون.. إنه لما أصابنا بالطف ما أصابنا وقتل أبي عليه السلام وقتل من كان معه من ولده وإخوته وسائر أهله، وحملت حرمه ونساؤه على الأقتاب يراد بنا الكوفة، فجعلت أنظر إليهم صرعى ولم يواروا فيعظم ذلك في صدري، ويشتد لما أرى منهم قلقي، فكادت نفسي تخرج، وتبينت ذلك مني عمتي

زينب بنت علي الكبرى.

فقالت: ما لي أراك تجود بنفسك يا بقية جدي وأبي وإخوتي؟

فقلت: وكيف لا أجزع وأهلع وقد أرى سيدي وإخوتي وعمومتي وولد عمي وأهلي مضرجين بدمائهم مرملين بالعراء مسلبين لا يكفّنون ولا يوارون، ولا يعرج عليهم أحد، ولا يقربهم بشر، كأنهم أهل بيت من الدّيلم والخزر!!

فقالت: لا يجزعنّك ما ترى، فو الله إن ذلك لعهد من رسول الله إلى جدك وأبيك وعمك، ولقد أخذ الله ميثاق أناس من هذا الأمة لا تعرفهم فراعنة هذه الأرض، وهم معروفون في أهل السماوات، أنهم يجمعون هذه الأعضاء المتفرقة فيوارونها وهذه الجسوم المضرجة، وينصبون لهذا الطف علما لقبر أبيك سيد الشهداء لا يدرس أثره ولا يعفو رسمه على كرور الليالي والأيام، وليجتهدن أئمة الكفر وأشياع الضلالة في محوه وتطميسه، فلا يزداد أثره إلاّ ظهوراً وأمره إلاّ علواً.

فقلت: وما هذا العهد، وما هذا الخبر؟

فقالت: حدّثتني أم أيمن أن رسول الله صلى الله عليه وآله زار منزل فاطمة عليها السلام في يوم من الأيام فعملت له حريرة صلى الله عليها، وأتاه علي عليه السلام بطبق فيه تمر، ثم قالت أم أيمن: فأتيتهم بعس فيه لبن وزبد فأكل رسول الله وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام من تلك الحريرة، وشرب رسول الله صلى الله عليه وآله وشربوا من ذلك اللبن، ثم أكل وأكلوا من ذلك التمر بالزبد، ثم غسل رسول الله يده وعلي يصب عليه الماء، فلما فرغ من غسل يده مسح وجهه..

ثم نظر صلى الله عليه وآله إلى علي وفاطمة والحسن والحسين نظراً عرفنا فيه السرور في وجهه، ثم رمق بطرفه نحو السماء مليّاً، ثم وجه وجهه نحو القبلة وبسط يديه

يدعو، ثم خر ساجداً وهو ينشج، فأطال النشوج وعلا نحيبه، وجرت دموعه، ثم رفع رأسه وأطرق إلى الأرض ودموعه تقطر كأنها صوب المطر، فحزنت فاطمة وعلي والحسن والحسين وحزنت معهم لما رأينا من رسول الله، وهبناه أن نسأله حتى إذا طال ذلك قال له علي، وقالت له فاطمة: ما يبكيك يا رسول الله، لا أبكى الله عينيك، وقد أقرح قلوبنا ما نرى من حالك؟

فقال: يا حبيبي إني سررت بكم سروراً ما سررت مثله قط، وإني لأنظر إليكم وأحمد الله على نعمته عليّ فيكم، إذ هبط علي جبرئيل فقال: يا محمد إن الله تبارك وتعالى اطلع على ما في نفسك وعرف سرورك بأخيك وابنتك وسبطيك، فأكمل لك النعمة وهنأك العطية بأن جعلهم وذريّاتهم ومحبيهم وشيعتهم معك في الجنة لا يفرق بينك وبينهم، يحيون كما تحيا ويعطون كما تعطى حتى ترضى، وفوق الرضا على بلوى كثيرة تنالهم في الدنيا ومكاره تصيبهم بأيدي أناس ينتحلون ملتك ويزعمون أنهم من أمتك، براء من الله ومنك خبطاً خبطاً وقتلاً قتلاً، شتّى مصارعهم، نائية قبورهم، خيرة من الله لهم ولك فيهم، فاحمد الله جل وعز على خيرته، وارض بقضائه، فحمدت الله ورضيت بقضائه بما اختاره لكم.

ثم قال جبرئيل: يا محمد، إن أخاك مضطهد بعدك مغلوب على أمتك، متعوب من أعدائك، ثم مقتول بعدك، يقتله أشر الخلق والخليقة وأشقى البرية، نظير عاقر الناقة ببلد تكون إليه هجرته، وهو مغرس شيعته وشيعة ولده، وفيه على كل حال يكثر بلواهم ويعظم مصابهم، وإن سبطك هذا ـ وأومأ بيده إلى الحسين عليه السلام ـ مقتول في عصابة من ذريتك وأهل بيتك وأخيار من أمتك بضفة الفرات بأرض تدعى كربلاء، من أجلها يكثر الكرب والبلاء على أعدائك

وأعداء ذريتك، في اليوم الذي لا ينقضي كربه، ولا تفنى حسرته، وهي أطهر بقاع الأرض وأعظمها حرمة، وإنها لمن بطحاء الجنة، فإذا كان ذلك اليوم الذي يقتل فيه سبطك وأهله وأحاطت بهم كتائب أهل الكفر واللعنة تزعزعت الأرض من أقطارها، ومادت الجبال وكثر اضطرابها، واصطفقت البحار بأمواجها، وماجت السماوات بأهلها غضبا لك يا محمد ولذريتك، واستعظاما لما ينتهك من حرمتك، ولشر ما يتكافى به في ذريتك وعترتك، و لا يبقى شيء من ذلك إلاّ استأذن الله عزّ وجل في نصرة أهلك المستضعفين المظلومين الذين هم حجة الله على خلقه بعدك.

فيوحي الله إلى السماوات والأرض والجبال والبحار ومن فيهن أني أنا الله الملك القادر، والذي لا يفوته هارب، ولا يعجزه ممتنع، وأنا أقدر على الإنتصار والإنتقام، وعزتي وجلالي لأعذّبن من وتر رسولي وصفيّي وانتهك حرمته وقتل عترته ونبذ عهده وظلم أهله عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين.

فعند ذلك يضج كل شيء في السماوات والأرضين بلعن من ظلم عترتك واستحل حرمتك، فإذا برزت تلك العصابة إلى مضاجعها تولى الله جل وعزّ قبض أرواحها بيده، وهبط إلى الأرض ملائكة من السماء السابعة معهم آنية من الياقوت والزمرد مملوءة من ماء الحياة وحلل من حلل الجنة وطيب من طيب الجنة، فغسلوا جثثهم بذلك الماء وألبسوها الحلل وحنطوها بذلك الطيب وصلى الملائكة صفّاً صفّاً عليهم.

ثم يبعث الله قوماً من أمّتك لا يعرفهم الكفار لم يشركوا في تلك الدماء بقول ولا فعل ولا نيّة فيوارون أجسامهم ويقيمون رسماً لقبر سيد الشهداء بتلك البطحاء، يكون علما لأهل الحق وسبباً للمؤمنين إلى الفوز، وتحفّه ملائكة من

كل سماء، مائة ألف ملك في كل يوم وليلة، ويصلون عليه ويسبحون الله عنده، ويستغفرون الله لزواره، ويكتبون أسماء من يأتيه زائراً من أمتك متقرّباً إلى الله وإليك بذلك وأسماء آبائهم وعشائرهم وبلدانهم، ويوسمون في وجوههم بميسم نور عرش الله: هذا زائر قبر خير الشهداء وابن خير الأنبياء، فإذا كان يوم القيامة سطح في وجوههم من أثر ذلك الميسم نور تغشى منه الأبصار، يدل عليهم ويعرفون به.

وكأني بك يا محمد بيني وبين ميكائيل، وعلي أمامنا ومعنا من ملائكة الله ما لا يحصى عدده، ونحن نلتقط من ذلك الميسم في وجهه من بين الخلائق حتى ينجيهم الله من هول ذلك اليوم وشدائده، وذلك حكم الله وعطاؤه لمن زار قبرك يا محمد أو قبر أخيك أو قبر سبطيك لا يريد به غير الله جل وعز، وسيجد أناس ممن حقت عليهم من الله اللعنة والسخط أن يعفوا رسم ذلك القبر ويمحوا أثره، فلا يجعل الله تبارك وتعالى لهم إلى ذلك سبيلاً.

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله فهذا أبكاني وأحزنني!!

قالت زينب: فلما ضرب ابن ملجم (لعنه الله) أبي عليه السلام ورأيت أثر الموت منه قلت له: يا أبة حدثتني أم أيمن بكذا وكذا، وقد أحببت أن أسمعه منك، فقال: يا بنية الحديث كما حدثتك أم أيمن، وكأني بك وببنات أهلك سبايا بهذا البلد، أذلّاء خاشعين، تَخافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ، فصبراً صبراً، فو الذي فلق الحبة وبرأ النسمة، ما لله على ظهر الأرض يومئذ ولي غيركم وغير محبّيكم وشيعتكم.

ولقد قال لنا رسول الله حين أخبرنا بهذا الخبر: إن إبليس في ذلك اليوم يطير فرحاً فيجول الأرض كلها في شياطينه وعفاريته، فيقول: يا معشر الشياطين قد

أدركنا من ذرية آدم الطلبة، وبلغنا في هلاكهم الغاية، وأورثناهم النار إلاّ من اعتصم بهذه العصابة، فاجعلوا شغلكم بتشكيك الناس فيهم وحملهم على عداوتهم وإغرائهم بهم وأوليائهم حتى تستحكم ضلالة الخلق وكفرهم ولا ينجو منهم ناج، ولقد صدق عليهم إبليس وهو كذوب، أنه لا ينفع مع عداوتكم عمل صالح، ولا يضرّ مع محبّتكم وموالاتكم ذنب غير الكبائر..

قال زائدة: ثم قال علي بن الحسين عليه السلام بعد أن حدثني بهذا الحديث: خذه إليك، أما لو ضربت في طلبه آباط الإبل حولاً لكان قليلاً[1].

(٥) مآتم في بيت أم سلمة

السيّدة أم سلمة، أم المؤمنين التي حظت بحبّ النبي صلى الله عليه وآله وتقدير أهل بيته عليهم السلام إلى آخر لحظات عمرها، ومع التتبّع نجد أنّ نبيّنا الكريم صلى الله عليه وآله قد عقد أكثر مآتمه على ولده الإمام الحسين عليه السلام في دارها، من بين دور نسائه أمّهات المؤمنين، وهي ظاهرة جديرة بالدّراسة وحريّة بالإلماع.

فقد أخرج الحافظ أبو القاسم الطّبراني في المعجم الكبير، قال: حدّثنا على بن سعيد الرازي، حدّثنا إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة المروزي، حدّثنا علي بن الحسين بن واقد، حدثني أبي، حدّثنا أبو غالب، عن أبي أمامة قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله لنسائه: لا تُبكوا هذا الصبي - يعني حسيناً -..

---

(١) راجع كامل الزيارات ص (٢٦٥)، وبحار الأنوار (١٨٣/٤٥).

قال: وكان يوم أم سلمة، فنزل جبرئيل فدخل على رسول الله صلى الله عليه وآله الداخل، وقال لأم سلمة: لا تدعي أحدا أن يدخل عليّ..

فجاء الحسين، فلما نظر إلى النّبي صلى الله عليه وآله في البيت أراد أن يدخل، فأخذته أم سلمة فاحتضنته وجعلت تناغيه وتسكّنه..

فلما اشتد في البكاء خلّت عنه، فدخل حتى جلس في حجر النّبي صلى الله عليه وآله، فقال جبرئيل: إنّ أمّتك ستقتل إبنك هذا..

فقال النّبي: يقتلونه وهم مؤمنون بي؟

قال: نعم يقتلونه..

فتناول جبريل تربة وقال: مكان كذا وكذا، فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله قد احتضن حسيناً كاسف البال مغموماً، فظنّت أم سلمة أنه غضب من دخول الصّبي عليه..

فقالت: يا نبي الله، جعلت لك الفداء إنك قلت لنا لا تُبكوا هذا الصّبي، وأمرتني أن لا أدع أحداً يدخل عليك، فجاء فخلّيت عنه..

فلم يرد عليها.. فخرج إلى أصحابه، وهم جلوس، فقال: إن أمتي يقتلون هذا، وفي القوم أبو بكر وعمر، وكانا أجرأ القوم عليه، فقالا: يا نبيّ الله، يقتلونه وهم مؤمنون؟

قال: نعم، وهذه تربته. فأراهم إيّاها[1].

وقد روى أخبار مآتمه صلى الله عليه وآله في بيت أم سلمة على اختلافها وتعدّدها وإسنادها

---

(١) أخرج هذا الحديث الطبراني في المعجم الكبير، والهيثمي في مجمع الزوائد (١٨٩/٩) وقال: رواه الطبراني.

المختلف الإمام ابن حنبل في مسنده، وابن عساكر في تاريخ دمشق، والحافظ الكنجي في الكفاية.

وأخرجها محبّ الدّين الطبري في ذخائر العقبى، والحافظ العراقي في طرح التثريب، والحافظ السيوطي في الخصائص الكبرى، والشيخاني المدني في الصراط السوي، وأبو يعلى في مسنده، والحافظ أبو نعيم في الدلائل، والزرندي في نظم الدرر.

كما ورواها الفقيه ابن المغازلي الواسطي في المناقب، وابن حجر العسقلاني في الصواعق المحرقة، وعماد الدين العامري في بهجة المحافل، والقرطبي في مختصر التذكرة، وسبط ابن الجوزي في تذكرة الخواص.

ورواها البغوي في المعجم، وابن الصباغ المالكي في الفصول المهمة عن البغوي، والحاكم النيسابوري في المستدرك، وابن أبي شيبة في المصنف، والبيهقي في دلائل النبوة، والقسطلاني في المواهب، وأبو الهدى في ضوء الشمس، والمتقي الهندي في كنز العمال، والقره قولي في جوهرة الكلام، وغيرهم.

ولقد جاء هذا الخبر مستفيضا بنصّه ومؤدّاه بطرق عدة وأسانيد مختلفة، وكيفيّات متعدّدة، بهبوط جبرئيل وغيره وبكائه ﷺ، وقد أعرضت عن إدراجها باختلافاتها روماً للإختصار، مما يؤكد كون النّبي ﷺ كان قد عقد في بيت أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها مآتمَ مكررة لا مأتما واحداً.

خصوصية ام سلمة

لا شكّ أنّ رسول الله ﷺ كان يهدف بعقد مأتمه مكرّراً عند أم سلمة إلى أمور، شأنه شأن الحكيم الحصيف قطعاً، وقد نفهم إنبساطه التّام في دارها،

بتعبيره عن مشاعره من غير عائق خارجي أو ذهني، أو ما أشبه، فهي زوجة صالحة له صلى الله عليه وآله.

وهي المرأة الطيّبة النّجيبة العطوفة على ولده الإمام الحسين عليه السلام إلى آخر حياتها، وقد احتفظت بمواريث الإمامة ومختصّاتها بأمانة عند خروجه عليه السلام من المدينة لتدفعها بدورها للإمام زين العابدين عليه السلام عند عودته إلى المدينة، فهي مؤتمنة عند أهل البيت عليهم السلام ولها مكانة متميّزة عندهم..

وهي التي شهدت مصرع ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله من بين نسائه أمّهات المؤمنين، وقد زارها رسول الله صلى الله عليه وآله في منامها ـ كما سيأتي، في يوم عاشوراء سنة إحدى وستين معزّياً إيّاها ومخبراً لها بمصرع ولده عليه السلام، وهو الأمر الذي كان قد أكّده لها مراراً في حياته..

وقد نصّت الكتب على تسميتها بهند بنت أبي أمية، وروي في الكافي عن الإمام الصّادق عليه السلام أنّ النبي صلى الله عليه وآله زوّجها عمر بن أبي سلمة، وهو صغير لم يبلغ الحلم[1]، ويروى أنّ النبي صلى الله عليه وآله كان لها محبّاً.

وروي في الدعوات للقطب الراوندي عنها قولها رضي الله عنها: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من أصيب بمصيبة فقال كما أمره الله: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ﴾ اللهم أجرني من مصيبتي وأعقبني خيراً منه، فعل الله ذلك به، قالت: فلما توفي أبو سلمة قلته، ثم قلت: ومن مثل أبي سلمة!! فأعقبني الله برسوله صلى الله عليه وآله فتزوّجني[2].

---

(١) راجع الكافي (٥/٣٩١)، وراجع لترجمتها بحار الأنوار (٢٢/٢٢١).

(٢) راجع الدعوات (٢٨٥)، و بحار الأنوار (٢٢/٢٢٧)، ومستدرك الوسائل (٢/٤٠٤).

وفي الكافي ذكر في محاسن أخبارها عن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام قال: مات الوليد بن المغيرة، فقالت أم سلمة للنبي صلى الله عليه وآله: إن آل المغيرة قد أقاموا مناحة، فأذهب إليهم؟ فأذن لها، فلبست ثيابها وتهيأت، وكانت من حسنها كأنها جان، وكانت إذا قامت فأرخت شعرها جلّل جسدها وعقد بطرفيه خلخالها، فندبت ابن عمها بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله فقالت:

أنعى الوليد بن الوليد	أبا الوليد فتى العشيره
حامي الحقيقة ماجد	يسمو إلى طلب الوتيره
قد كان غيثا في السنين	وجعفرا غدقاً وميره

فما عاب النبي صلى الله عليه وآله في ذلك، ولا قال شيئاً[1].

وكانت محبة لمن أحبّهم النبي صلى الله عليه وآله، وأمير المؤمنين عليه السلام وبيته الشريف على رأس هذه القائمة، وقد أثبت التاريخ لها مواقف كثيرة في هذا الصّدد، وكان ذلك يقف ـ بعد أدائها حق النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ـ وراء تكريمها عند أهل البيت عليهم السلام..

وقد روى الشيخ الصدوق في الأمالي بإسناده للمفضل بن عمر عن الإمام الصادق عليه السلام عن أبيه عليه السلام عن جده عليه السلام قال: بلغ أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وآله أن مولى لها يتنقص عليا عليه السلام ويتناوله، فأرسلت إليه، فلما أن صار إليها قالت له: يا بني، بلغني أنك تتنقص عليّاً وتتناوله!!

قال لها: نعم يا أماه!!

قالت: أقعد ثكلتك أمك حتى أحدثك بحديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله ثم اختر لنفسك، إنا كنا عند رسول الله صلى الله عليه وآله تسع نسوة وكانت ليلتي ويومي من

---

(١) راجع الكافي (٥/١١٧)، وبحار الأنوار (٢٢/٢٢٦).

رسول الله صلى الله عليه وآله، فدخل النبي صلى الله عليه وآله وهو متهلل أصابعه في أصابع علي، واضعاً يده عليه، فقال: يا أم سلمة أخرجي من البيت وأخليه لنا، فخرجت وأقبلا يتناجيان أسمع الكلام وما أدري ما يقولان، حتى إذا قمت فأتيت الباب، فقلت: أدخل يا رسول الله؟

قال: لا.

قالت: فكبوت كبوة شديدة، مخافة أن يكون ردني من سخطه أو نزل فيّ شيء من السماء، ثم لم ألبث أن أتيت الباب الثانية، فقلت: أدخل يا رسول الله؟

فقال: لا.

فكبوت كبوة أشد من الأولى، ثم لم ألبث حتى أتيت الباب الثالثة، فقلت: أدخل يا رسول الله؟

فقال: أدخلي يا أم سلمة، فدخلت وعلي جاث بين يديه، وهو يقول فداك أبي وأمي يا رسول الله، إذا كان كذا وكذا فما تأمرني؟ قال: آمرك بالصبر، ثم أعاد عليه القول الثانية، فأمره بالصبر، فأعاد عليه القول الثالثة..

فقال له: يا علي يا أخي، إذا كان ذاك منهم فسل سيفك وضعه على عاتقك، واضرب به قدماً حتى تلقاني وسيفك شاهر يقطر من دمائهم، ثم التفت إلي فقال لي: والله ما هذه الكآبة يا أم سلمة؟

قلت: للّذي كان من ردّك لي يا رسول الله!!

فقال لي: والله ما رددّتك من موجدة، وإنك لعلى خير من الله ورسوله، ولكن أتيتني وجبرئيل عن يميني وعلي عن يساري، وجبرئيل يخبرني بالأحداث التي تكون من بعدي، وأمرني أن أوصي بذلك علياً يا أم سلمة، إسمعي

واشهدي، هذا علي بن أبي طالب أخي في الدنيا وأخي في الآخرة..

يا أم سلمة، إسمعي واشهدي هذا علي بن أبي طالب وزيري في الدنيا ووزيري في الآخرة..

يا أم سلمة، إسمعي واشهدي هذا علي بن أبي طالب حامل لوائي في الدنيا وحامل لوائي غداً في القيامة..

يا أم سلمة، إسمعي واشهدي هذا علي بن أبي طالب وصيي وخليفتي من بعدي وقاضي عداتي والذائد عن حوضي..

يا أم سلمة إسمعي واشهدي، هذا علي بن أبي طالب سيد المسلمين وإمام المتقين وقائد الغر المحجلين وقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين..

قلت: يا رسول الله من الناكثون؟

قال: الذين يبايعونه بالمدينة وينكثون بالبصرة.

قلت: من القاسطون؟

قال: معاوية وأصحابه من أهل الشام.

قلت: من المارقون؟

قال: أصحاب النهروان.

فقال مولى أم سلمة: فرّجت عنّي، فرج الله عنك، والله لا سببت عليّاً أبداً[١].

وهي كما ترى تربّي المتّصلين بها على حبّ هذا البيت الشريف، وفي متن الحديث موضع الكلام ترى إهتمامها بمولانا الحسين عليه السلام ومحاولة إشغاله عن

---

(١) راجع أمالي الصدوق ص (٣٨٠)، وبحار الأنوار (٢٢/٢٢١).

الدخول إلى حجرة النبي صلى الله عليه وآله وإسكاته بالطرق الرفيقة، وطالما كان يخاطبها سيّد الشهداء عليه السلام بعبارات التبجيل ويدعوها أمّاه.

وتلوح في خاطري نقطتان مهمّتان، الأولى حول بكاء الإمام الحسين عليه السلام، فإنّه يلزم الوقوف عند نهي النبي صلى الله عليه وآله عن إبكائه، والثانية في كون قتلته من أهل الإسلام والإيمان في الظّاهر.

بكاء الإمام الحسين عليه السلام

النّهي عن إبكاء الإمام الحسين عليه السلام أو حتّى تركه للبكاء من غير إسكاته محلّ نهي النبي الكريم صلى الله عليه وآله، فقد قال صلى الله عليه وآله لنسائه في الحديث محلّ الكلام: (لا تُبكوا هذا الصبي، يعني حسيناً).

وتأكيد هذا المؤدّى بتكرّره في أكثر من رواية، وروى أبو السّعادات في فضائل العشرة، قال يزيد بن أبي زياد: خرج النبي صلى الله عليه وآله من بيت عائشة، فمر على بيت فاطمة، فسمع الحسين يبكي فقال: أ لم تعلمي أن بكاءه يؤذيني[١].

وقد يتوهّم متوهّم فيستفيد إطلاق النّص فيُعدّي المراد إلى غير المورد المنصوص، فيُفهم أنّه صلى الله عليه وآله إنّما نهى في هذه الأحاديث عن إبكاء الطفل مطلقاً أو تركه للبكاء، من دون خصوصية للإمام الحسين عليه السلام، لكنّ ورود الأحاديث الكثيرة الأخرى تؤكّد الخصوصية من جهات عدّة.

ولا شكّ في خصوصية الإمام عليه السلام عنده صلى الله عليه وآله، فبكاؤه كان يؤثّر عليه تأثيراً كبيراً يستحقّ الوقوف والتأمّل، فهو من فرط محبّته له ينزل من منبره حين يسمع بكاءه من غير شعور ليضمّه إليه.

---

(١) راجع بحار الأنوار (٢٩٥/٤٣)، وقد ورد الحديث في مصادر أخرى كثيرة.

روي عن عبد الله بن عمر: إن النبي ﷺ بينما هو يخطب على المنبر إذ خرج الحسين عليه السلام فوطأ في ثوبه، فسقط فبكى، فنزل النبي ﷺ عن المنبر فضمه إليه، وقال: قاتل الله الشيطان، إن الولد لفتنة، والذي نفسي بيده ما دريت أني نزلت عن منبري(١).

وقد عبّر النبي الكريم ﷺ عن نوع الأثر المترتّب عنده على البكاء بالأذى، ومعلوم أن أذاه عنوان قرآني مطروق في غير موضع من المصحف الشريف، من قبيل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾(٢).

وهو من المحرّمات الأكيدة التي تستحقّ اللعن في الدنيا والآخرة والعذاب المهين، والأذى هو كلّ ما يُكره ويُغمّ به، غير أن الكلام في أنّ أذاه من بكاء ولده مختصّ بصباه وطفولته؟ أم هو عام فيهما وفي كبره أيضاً؟

فظاهر قوله ﷺ: (إن بكاءه يؤذيني) العموم في كلّ أدوار عمره الشريف، خصوصاً مع ضمّ خصوصيته بالنسبة للنبي ﷺ من حيثيات الحب الشديد والشفقة عليه والعلم بمصرعه وورود التعزيات من الجليل بشهادته، مضافاً إلى كونه إمتداده ووصيّه ووالد أوصيائه وذريّته الطيبين عليهم السلام..

فلا شكّ أنّه تلوح بخاطره ﷺ ذكريات مستقبليّة مؤلمة، توغر فؤاده أسىً وحزناً، فيتذكّر عند بكائه ﷺ بكاء ولده العزيز عليه السلام يوم عاشوراء في مواضع عديدة، وقد أوقفنا التأريخ على بعض المواقف الكوالح التي إستعبر فيها سيد

---

(١) راجع مناقب ابن شهراشوب (٤/٧١)، وبحار الأنوار (٤٣/٢٩٥).

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٥٧.

الشهداء عليه السلام باكيا يوم الطّف وكانت من غير شكّ مصدر أذىً لجدّه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وسنورد هاهنا بعضها..

فقد بكى عليه السلام في وداعه لقبر جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله حينما عزم على الخروج مرغماً من المدينة وكان يزيد بن معاوية قد أرسل إلى الوليد بأخذ البيعة منه أو قتله عليه السلام.

وروي أنّه عليه السلام خرج إلى القبر وصلى ركعات، وجعل يقول: اللهم هذا قبر نبيك محمد، وأنا ابن بنت نبيك، وقد حضرني من الأمر ما قد علمت، اللهم إني أحب المعروف وأنكر المنكر، وأنا أسألك يا ذا الجلال والإكرام بحق القبر ومن فيه، إلاّ اخترت لي ما هو لك رضى ولرسولك رضى.

ثم جعل يبكي عند القبر، حتى إذا كان قريبا من الصبح وضع رأسه على القبر فأغفي، فإذا هو برسول الله قد أقبل في كتيبة من الملائكة عن يمينه وعن شماله وبين يديه، حتى ضم الحسين إلى صدره وقبّل بين عينيه وقال: حبيبي يا حسين، كأني أراك عن قريب مرمّلاً بدمائك مذبوحا بأرض كرب وبلاء، من عصابة من أمتي، وأنت مع ذلك عطشان لا تسقى، وظمآن لا تروى، وهم مع ذلك يرجون شفاعتي لا أنالهم الله شفاعتي يوم القيامة، حبيبي يا حسين، إن أباك وأمك وأخاك قدموا علي وهم مشتاقون إليك، وإن لك في الجنان لدرجات لن تنالها إلا بالشهادة.

فجعل الحسين عليه السلام في منامه ينظر إلى جده ويقول: يا جداه لا حاجة لي في الرجوع إلى الدنيا، فخذني إليك وأدخلني معك في قبرك..

فقال له رسول الله: لا بد لك من الرجوع إلى الدنيا، حتى ترزق الشهادة، وما قد كتب الله لك فيها من الثواب العظيم، فإنك وأباك وأخاك وعمك وعم

أبيك تحشرون يوم القيامة في زمرة واحدة حتى تدخلوا الجنة.

فانتبه الحسين عليه السلام من نومه فزعاً مرعوباً، فقصّ رؤياه على أهل بيته وبني عبد المطلب، فلم يكن في ذلك اليوم في مشرق ولا مغرب قوم أشد غمّاً من أهل بيت رسول الله ولا أكثر باك ولا باكية منهم[١].

وبكى عليه السلام في وداعه لأخيه محمّد بن الحنفية رضي الله عنه، فروي أنّه ودّعه وأشار عليه بالإقامة في الحرم أو الإلتحاق بالجبال أو التوجّه إلى اليمن وبعض البلدان.. فقال الحسين عليه السلام: يا أخي والله لو لم يكن ملجأ ولا مأوى لما بايعت يزيد بن معاوية، فقطع محمد بن الحنفية الكلام وبكى، فبكى الحسين عليه السلام معه ساعة[٢].

وبكى عليه السلام لما بلغه مقتل قيس الصيداوي، وكان مقتله أوّل البلاء وفاتحة المصائب، فروي: أنّه لما بلغ الحسين قتل قيس استعبر باكياً، ثم قال: اللهم اجعل لنا ولشيعتنا عندك منزلا كريما، واجمع بيننا وبينهم في مستقر من رحمتك إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[٣].

وبكى عليه السلام لما نظر إلى نجوم الأرض من أهل بيته، وذلك في طريقه إلى الشهادة، فروي: أنّه جمع الحسين عليه السلام ولده وإخوته وأهل بيته ثم نظر إليهم فبكى ساعة، ثم قال: اللهم إنا عترة نبيّك محمد، وقد أُخرجنا وطُردنا وأُزعجنا عن حرم جدنا، وتعدّت بنو أمية علينا، اللهم فخذ لنا بحقنا وانصرنا على القوم الظالمين[٤].

---

(١) راجع بحار الأنوار (٣٢٨/٤٤).

(٢) راجع بحار الأنوار (٣٢٨/٤٤).

(٣) راجع بحار الأنوار (٣٨٢/٤٤).

(٤) راجع بحار الأنوار (٣٨٢/٤٤).

وبكى عليه السلام على مصارع أصحابه الأبرار واحداً بعد واحد، وروي: أنّه خرج غلام تركي كان للحسين عليه السلام وكان قارئا للقرآن فجعل يقاتل ويرتجز ويقول:

البحر من طعني وضربي يصطلي	والجو من سهمي و نبلي يمتلي
إذا حسامي في يميني ينجلي	ينشق قلب الحاسد المبجّل

فقتل جماعة ثم سقط صريعا فجاءه الحسين عليه السلام فبكى، ووضع خدّه على خده، ففتح عينه فرأى الحسين عليه السلام فتبسم، ثم صار إلى ربه رضي الله عنه [(١)].

وبكى عليه السلام في وداع ولده علي الأكبر عليه السلام للموت المحتّم، فروي: أنه عليه السلام رجع إلى أبيه بعد ضجّ الناس من كثرة من قتل منهم، وقد أصابته جراحات كثيرة، فقال: يا أبة العطش قد قتلني وثقل الحديد أجهدني، فهل إلى شربة من ماء سبيل، أتقوّى بها على الأعداء؟

فبكى الحسين عليه السلام وقال: يا بني يعز على محمد وعلى علي بن أبي طالب وعليّ أن تدعوهم فلا يجيبوك، وتستغيث بهم فلا يغيثوك، يا بني هات لسانك فأخذ بلسانه فمصّه، ودفع إليه خاتمه وقال: امسكه في فيك وارجع إلى قتال عدوك، فإني أرجو أنك لا تمسي حتى يسقيك جدك بكأسه الأوفى شربة لا تظمأ بعدها أبداً[(٢)].

وبكى عليه السلام عند نزول ولده علي الأكبر عليه السلام إلى ميدان الحرب، فروي: أنّه عليه السلام أرخى عينيه فبكى لما برز علي بن الحسين إليهم، ثم قال: اللهم فكن

---

(١) راجع بحار الأنوار (٤٥/ ٣٠).

(٢) راجع بحار الأنوار (٤٥/ ٣٠).

أنت الشهيد عليهم فقد برز إليهم غلام أشبه الخلق برسول الله صلى الله عليه وآله[١].

وبكى عليه السلام في وداع قمر العشيرة أخيه العبّاس بن أمير المؤمنين عليه السلام، فروي: أن العباس لما رأى وحدته عليه السلام أتى أخاه وقال: يا أخي هل من رخصة؟ فبكى الحسين عليه السلام بكاءً شديداً، ثم قال: يا أخي أنت صاحب لوائي، وإذا مضيت تفرق عسكري.

فقال العباس: قد ضاق صدري وسئمت من الحياة، وأريد أن أطلب ثأري من هؤلاء المنافقين.

فقال الحسين عليه السلام: فاطلب لهؤلاء الأطفال قليلاً من الماء[٢].

وبكى عليه السلام لّما صُرع أخوه العبّاس عليه السلام بكاءً شديداً، فروي: أنّهم اقتطعوا العباس عنه، وأحاطوا به من كل جانب حتى قتلوه، وكان المتولي لقتله زيد بن ورقاء الحنفي، وحكيم بن الطفيل السنبسي، فبكى الحسين لقتله بكاءً شديداً[٣].

وبكى عليه السلام لّما شهد مصرع أخيه العبّاس عليه السلام ووقف عليه، فروي: أنّه لما قطعت يمين العبّاس عليه السلام وشماله، وضربه ملعون بعمود من حديد فقتله، فمشى الحسين عليه السلام إليه، ولما رآه الحسين عليه السلام صريعاً على شاطئ الفرات بكى، وأنشأ يقول:

تعدّيتم يا شرّ قوم ببغيكم ... وخالفتم دين النبي محمّد
أما كان خير الرسل أوصاكم بنا ... أما نحن من نجل النبي المسدّد

---

(١) راجع بحار الأنوار (٤٥/٤٥).

(٢) راجع بحار الأنوار (٤٥/٤١).

(٣) راجع بحار الأنوار (٤٥/٥٠).

أما كانت الزهراء أمي دونكم	أما كان من خير البرية أحمد
لعنتم و أخزيتم بما قد جنيتم	فسوف تلاقوا حر نار توقّد[1]

وبكى له رسول الله ﷺ لمّا شهد مصرعه عليه السلام كما سيأتي قريباً، وهو الحدث الأعظم على هذا الكوكب منذ أن خُلق، والحادث الأفظع في تاريخ الدّنيا كلّها، فقد انتهى ظهر عاشوراء وانتهى معه كلّ شيء، ووضعت الحرب أوزارها والإمام الشهيد عليه السلام صريعٌ بين أهله وصحبه مضرّج بالدّماء، قد رضّت الخيول عظام صدره وظهره، ورُفع رأسه على الرمح ولاعبت الريح شيبته المقدّسة فراحت تقطر من دمائه الزاكية.

وهو مقام مصيبة وبكاء، تسكب فيه الأماقي الدّموع، وتحزن فيه القلوب الطيّبة، والمعزّى هو رسول الله ﷺ الذي كان يتأذّى لمجرّد بكائه وهو طفل صغير شأنه البكاء، فما حاله وهو يشهد إستغاثاته وآلامه ودموعه ومصرعه المؤلم، ولنعم ما قاله المرحوم الشيخ حسن الدمستاني البحراني رحمه الله في ملحمته اليتيمة:

كان يؤذيه بكاه و هو في المهد رضيع	بابنه قدما فداه وهو ذو الشأن الرفيع
ليته الآن يراه و هو في الترب	يتلظى بظماه حافصاً للقدمين

إسلام القتلة

إسلام قتلة الأمام السبط عليه السلام أمر مستغربٌ حقّاً، يضع أيدينا على قمّة المفارقات الواقعة في هذه الأمّة، ويسوقنا لتشخيص الدّاء العضال الذي ارتمى المسلمون في أحضانه يوم أخّروا أئمّتهم عليهم السلام وقدّموا غيرهم.

---

(١) راجع بحار الأنوار (٤٥/ ٤١).

فقد سأل النبي ﷺ جبرئيل: (يقتلونه وهم مؤمنون بي؟) لكنّ جبرئيل طوى الكشح عن جوابه، واكتفى بالقول: (نعم يقتلونه)، ولم يصرّح له بأنّهم مؤمنون أو مسلمون، لأنّها حقيقة مرّة حقّاً، أن يكون قتل سبطه وخلفه ووصيّه وريحانته على أيدي بني ملّته، وقد أنار الله به ﷺ ظلمها، وكشف عن قلوبهم بهمها وجلا عن أبصارهم عمهها وعن أنفسهم غممها، وقام في النّاس بالهداية فأنقذهم من الغواية وبصّرهم من العماية وهداهم إلى الدين القويم ودعاهم إلى الصراط المستقيم!!

وهذا القرآن الكريم نزل مصرّحاً بالمودّة في القربى كأجرة عن النبوّة في آيةٍ تُتلى آناء الليل وأطراف النّهار: ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾[١].

فيحقّ للوحي الأمين المشفق حينئذ أن يتحاشى الردّ المباشرة، ويحبس التصريح عن هذه الحقيقة المرّة التي لم تغب عن علم سيد الأنبياء والمرسلين قطعاً، ولهذا فإنّه جاء في تتمّة الحديث أنّه لّما أخبر أصحابه بمقتل ولده سألوه: (يقتلونه وهم مؤمنون؟) فصرّح بالإيجاب و (قال: نعم)..

ويتّضح بعد كلّ ذلك الخطأ المنهجي الذي سلكه عامّة النّاس بعد مضيّ الرسول الكريم ﷺ بحيث أفضت الأمور إلى الحال المشين الفظيع هذا، حتّى قال بعض من لا حظّ له من الدين أو الأدب: إنّ الحسين عليه السلام قُتل بسيف جدّه!!

وهي جملة وإن إنطوت على الجهل بمقام أهل البيت عليهم السلام ونصب العداء لهم، وحبّ قاتليهم وظالميهم.. إلاّ أنّها تقوّض بدين قائلها من جهة أخرى وتثبت

---

(١) سورة الشورى: الآية ٢٣.

عكس مطلوبه، فلا شكّ أنّ سيّد الشهداء الحسين عليه السلام المحبوب عند جدّه صلى الله عليه وآله الإمام بالنص الجلي لا يصحّ بحالٍ من الأحوال أن يُقتل بسيف جدّه إلاّ أن يُغصب ذلك السيف منه صلى الله عليه وآله فيتحكّم في مقامه من يبغضه ويبغض أهل بيته الطاهرين، ويذيقهم ألم مسّه، بغلّ الكفر وحسد النصب، وبهذا تصح هذه العبارة المريضة.

وإذا صحّت فإنّها تفضي إلى نفس العلّة المنهجية المتّبعة بعد مضيّه صلى الله عليه وآله إلى الرفيق الأعلى، برقيّ المحدثين والمغيّرين سنام منصبه الشريف، وإذا أجلت النظر في كتب وصحاح أهل السنة شخصت أمامك هذه الحقيقة المسلّمة..

ففي العُمدة وتفسير الثعلبي أخرجا بالإسناد إلى أبي هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: يرد عليّ يوم القيامة رهط من أصحابي فيحلّئون عن الحوض، فأقول: يا رب أصحابي أصحابي، فيقال: إنك لا علم لك بما أحدثوا، ارتدّوا على أدبارهم القهقرى.

وأخرج البخاري من حديث الزهدي عن سعيد بن المسيب أنه كان يحدث عن بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وآله قال: يرد علي الحوض يوم القيامة رهط من أصحابي فيحلّئون عن الحوض، فأقول يا رب أصحابي!! فيقال: إنه لا علم لك بما أحدثوا بعدك، إنهم ارتدّوا على أعقابهم القهقرى[1].

وفي صحيح مسلم عن أم سلمة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: إني لكم فرط

---

(١) والأحاديث الواردة في هذا المعنى كثيرة جداً، وقد نقل المرحوم المجلسي جملة كبيرة منها عن كتب أهل السنة، ومنها ما في صحيحي البخاري ومسلم عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: ليردن عليّ الحوض رجال ممن صاحبني حتى إذا رأيتهم ورفعوا إليّ اختلجوا دوني، فلأقولن أي ربّ أصحابي أصحابي، فليقالن لي إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك.

على الحوض، فإياي لا يأتين أحدكم فيذب عني كما يذب البعير الضال، فأقول: فيم هذا؟ فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول سحقا.

وأورد مسلم في الصحيح، قال أنس: بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاء، ثم رفع رأسه متبسّماً، فقلت: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: أنزلت عليّ آنفا سورة، فقرأ سورة الكوثر، ثم قال: أ تدرون ما الكوثر؟ قلنا: الله ورسوله أعلم.

قال: فإنه نهر وعدنيه ربي عليه خيراً كثيراً، هو حوضي، ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد نجوم السماء، فيختلج القرن منهم، فأقول: يا رب، إنهم من أمتي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك.

وفي بحار الأنوار عن سليم بن قيس: أن أمير المؤمنين عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ ليجيئنّ قوم من أصحابي من أهل العليّة والمكانة منّي ليمرّوا على الصراط، فإذا رأيتهم ورأوني وعرفتهم وعرفوني اختلجوا دوني، فأقول: أي ربّ أصحابي أصحابي، فيقال: ما تدري ما أحدثوا بعدك، إنهم ﴿ارْتَدُّوا عَلى أَدْبارِهِمْ﴾[١] حيث فارقتهم، فأقول: بُعداً وسُحقاً[٢].

وقد أدّت إحداثاتهم بعد النّبي الكريم ﷺ إلى زعزعة الفكر الدّيني والعبث في أصوله الإعتقادية والفقهية والقرآنية، فسهّلوا للحكّام الذين عقبوهم بالإستيلاء على زمام الحكم النسج على منوالهم والسير على خطاهم.

وحتّى يتأصّل الإحداث والتغيير ويبقى كمنهج فإنّهم قنّنوا تصدّيهم للأمر

---

(١) سورة محمد: الآية ٢٥.

(٢) راجع بحار الأنوار (٢٣/٨٢).

وأسّسوه وفق القرآن الكريم بمبانيهم المغلوطة، فاعتبروا أنفسهم ولاة الأمر المقصودين بالنصّ القرآني: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾[١].

فهم بزعمهم ولاة الأمر دون الأئمة الطاهرين عليهم السلام المنصوص عليهم من الله سبحانه والنبي صلى الله عليه وآله بالنّص الجلي، وبالتّالي وجبت الطاعة لهم والتعبّد بكلامهم، والبعض يتشدّق بهذا المنطق الغريب حتى يوم النّاس هذا، فيعتبر طاعة الحاكم المسلم واجبة كطاعة رسول الله صلى الله عليه وآله عيناً، والخروج عن جماعة المسلمين أمر حرام قطعاً، كما ويجب الصبر على ظلمه وجوره ما دام مسلماً!!

ولازم ذلك وجوب طاعة حاكم المسلمين وحرمة الخروج عليه وإن كان يزيد بن معاوية عليه لعائن الله تعالى والعذاب الأليم!! الذي قال فيه أئمة الأمّة وكبار علماء السنة ما قالوا، وقد قدّمنا كلام الذهبي وابن عماد الحنبلي والتفتازاني والسيوطي وغيرهم فيه، وأغلبهم روى عن عمر بن حنظلة في حقّ يزيد: إنّه رجل ينكح أمّهات الأولاد، والبنات، والأخوات، ويشرب الخمر، ويدع الصلاة!![٢].

وقال فيه الإمام الشوكاني: الخمّير السكّير، الهاتك لحرمة الشريعة المطهّرة، يزيد بن معاوية[٣].

---

(١) سورة لنساء: الآية ٥٩.

(٢) رواه السيوطي في تاريخ الخلفاء ص (١٦٧)، وابن الأثير في الكامل في التاريخ (٣/٤٤٩ ـ ٤٥٠)، والذهبي في سير أعلام النبلاء (٣/٣٢٤).

(٣) راجع كتاب نيل الأوطار من أحاديث سيّد الأخيار للإمام الشوكاني (٧/١٧٦).

وقد رأيت في بعض الكتب أن رجلاً دخل مسجداً فرأى شيخاً عابداً فأُعجب بسمته وعبادته، فسأل عنه فقيل له هذا هو الشمر بن ذي الجوشن قاتل الحسين عليه السلام، فاقترب منه وقال له: أ أنت الشمر قاتل الحسين بن علي؟

فقال: نعم..

فقال له: أ تقتل ريحانة رسول الله ومع هذا تصلّي!!

فقال له: ويحك، إنّا لم نقتله لرغبة في نفوسنا، بل قتلناه طاعة لوليّ أمرنا الذي أوجب الله علينا طاعته!!.

ولا تستغرب بعد ذلك إذا سمعت من الرّثاة والذاكرين إذا قالوا أنّ المنادي كان ينادي يوم عاشوراء: عجّلوا بقتل الحسين حتّى نصلّى الجماعة!! أو قول بعضهم: يا خيل الله اركبي وبالجنّة ابشري ودوسي صدر الحسين!! ولا تتعجّب من تكبير الجيش قاطبة حين فصل الشمر بن ذي الجوشن رأس الإمام الحسين عليه السلام وعلاّه على رمح طويل!!

وقد قال الإمام الشّافعي:

يصلى على المبعوث من آل هاشم ويُغزى بنوه إن ذا لعجيب

وهذا حال المسلمين مع ساداتهم وقاداتهم منذ ذلك اليوم وحتى يوم النّاس هذا، وهذه سيرة أهل التوحيد مع آل الله وبني رسول الله صلى الله عليه وآله، وانظر إلى أهل سائر الأديان كيف يقدّسون أنبياءهم ويعاملون آثارهم، فضلاً عن أولادهم وذرّيتهم!!

لقد أكرمنا الله بأولاد نبيّنا صلى الله عليه وآله وحرم بني الأديان من أولاد أنبيائهم عليهم السلام، فقتلت هذه الأمّة أفاليذ كبد نبيّها صلى الله عليه وآله وتقرّبت في قتلهم إلى الله تعالى إستكباراً وعلوّاً وإفكاً وزوراً.

ويروى عن الإمام السجّاد علي بن الحسين عليه السلام ـ مختصراً ـ أنه لما أتي بالرأس الشريف إلى يزيد في مجلس الشراب ووضعه بين يديه وقد حضره رسول ملك الروم وهو من أشراف الروم، فقال: يا ملك العرب هذا رأس من؟

فقال له يزيد: هذا رأس الحسين بن علي بن أبي طالب.

فقال الرومي: ومن أمّه؟

فقال: فاطمة بنت رسول الله.

فقال النصراني: أفّ لك ولدينك!! لي دين أحسن من دينك، إن أبي من حوافد داود عليه السلام وبيني وبينه آباء كثيرة، والنصارى يعظمونني ويأخذون من تراب قدمي تبرّكاً بأبي من حوافد داود، وأنتم تقتلون ابن بنت رسول الله، وما بينه وبين نبيّكم إلاّ أم واحدة، فأي دين دينكم!!

ثم قال ليزيد: هل سمعت حديث كنيسة الحافر؟

فقال له: قل حتى أسمع.

فقال: بين عمان والصين بحر، ليس فيها عمران إلاّ بلدة واحدة في وسط الماء وهي في أيدي النصارى، وفيها كنائس كثيرة أعظمها كنيسة الحافر، في محرابها حقّة ذهب معلقة، فيها حافر يقولون إن هذا حافر حمار كان يركبه عيسى، وقد زيّنوا حول الحقّة بالذهب والدّيباج، يقصدها في كل عام عالم من النصارى، ويطوفون حولها ويقبّلونها، ويرفعون حوائجهم إلى الله تعالى، هذا شأنهم ودأبهم بحافر حمار يزعمون أنه حافر حمار كان يركبه عيسى نبيّهم، وأنتم تقتلون ابن بنت نبيكم، فلا بارك الله تعالى فيكم، ولا في دينكم[1].

---

(١) راجع بحار الأنوار (١٤١/٥٤).

وروى السيّد في اللهوف أن المنهال بن عمرو قال للإمام السجّاد عليه السلام لما استقبله في دمشق: كيف أمسيت يا ابن رسول الله؟

فقال عليه السلام: أمسينا كمثل بني إسرائيل في آل فرعون يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم، يا منهال أمست العرب تفتخر على العجم بأن محمداً عربي، وأمست قريش تفتخر على سائر العرب بأن محمدا منها، وأمسينا معشر أهل بيته ونحن مغصوبون مقتولون مشردون، فإِنَّا لِلَّهِ وإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ مما أمسينا فيه يا منهال[1].

ولله درّ مهيار الديلمي حيث قال:

يعظّمون له أعواد منبره وتحت أرجلهم أولاده وضعوا
بأي حكم بنوه يتبعونكم وفخركم أنكم صحب له تبع

(٦) مآتم في بيت عائشة

قد تظافرت وتواترت روايات المآتم المعقودة من قبل النبي الكريم صلى الله عليه وآله في بيت أم المؤمنين عائشة، وتفاوت النقل لها بسطاً واختصاراً بأنحاء مختلفة وضروب عدّة، متفقة المؤدّى ومتحدة المضمون.

فمنها ما أخرجه الحافظ الطّبراني بإسناد يرفعه إلى عائشة رضي الله عنها أنها قالت:

دخل الحسين بن علي رضي الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يوحى إليه، فنزا على رسول الله صلى الله عليه وآله وهو منكب، ولعب على ظهره.

---

(١) راجع بحار الأنوار (١٤٣/٥٤).

فقال جبريل لرسول الله ﷺ: أ تحبّه يا محمّد؟

قال: يا جبريل، وما لي لا أحب إبني؟

قال: فإن أمّتك ستقتله من بعدك، فمدّ جبرئيل عليه السلام يده فأتاه بتربة بيضاء، قال: في هذه الأرض يقتل إبنك هذا يا محمّد، واسمها الطّف.

فلمّا ذهب جبريل عليه السلام من عند رسول الله ﷺ والتربة في يده يبكي، فقال: يا عائشة إن جبريل عليه السلام أخبرني أنّ الحسين إبني مقتول في أرض الطف، وأنّ أمتي ستفتتن بعدي..

ثم خرج إلى أصحابه، فيهم علي وأبو بكر وعمر وحذيفة وعمار وأبو ذر رضي الله عنه وهو يبكي.

فقالوا: ما يبكيك يا رسول الله؟

فقال: أخبرني جبريل أن إبني الحسين يقتل بعدي بأرض الطّف، وجاءني بهذه التربة وأخبرني أن فيها مضجعه[1].

وأخرج كذلك الحافظ ابن البرقي، قال: حدّثنا سعيد بن أبي مريم، حدّثنا يحيى بن أيّوب، أخبرني ابن غزية، عن محمد بن إبراهيم، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، قال:

---

(١) وردت مآتم النبي ﷺ في بيت عائشة في المصادر المعتبرة، وأخرجها بالضروب المختلفة أكثر العلماء والحفّاظ، كالإمام أحمد بن حنبل في مسنده، وابن سعد في الطبقات، والماوردي في أعلام النبوة، وابن عساكر في تاريخ دمشق، والدّار قطني في علل الحديث، والحافظ الخوارزمي في مقتل الحسين عن البيهقي عن الحاكم النيسابوري، وابن حجر في الصواعق المحرقة، والسّيوطي في الخصائص، والمتقي الهندي في كنز العمال، والسيّد محمود المدني في الصراط السّوي، ومصادر أخرى.

كان لعائشة مشربةٌ، فكان رسول الله ﷺ إذا أراد لقاء جبرئيل لقيه فيها، فرقيها مرةً من ذلك، وأمر عائشة أن لا يطلع إليه أحد.

قال: ودان رأس الدّرجة في حجرة عائشة، فدخل حسين بن علي فرقي، ولم تعلم حتى غشيهما.

فقال جبريل: من هذا؟

قال: ابني.

فأخذه رسول الله ﷺ فجعله على فخذه.

فقال جبريل: سيُقتل، تقتله أمتك.

فقال رسول الله ﷺ: أمتي؟!

قال: نعم، وإن شئت أخبرتك بالأرض التي يُقتل فيها.. فأشار جبريل بيده إلى الطفّ بالعراق، فأخذ منه تربةً حمراء، فأراه إياها[1].

---

(١) ذكره السيد محمد المدنيّ في الصراط السويّ، وقال: أخرجه ابن سعد كذلك، وزاد: وقال هذه من تربة مصرعه. وإسناده صحيح ورجاله كلهم رجال الصحاح، وكلهم ثقات. ورواه أو نحوه ابن سعد في ترجمة الإمام الحسين عليه السلام في الطبقات الكبرى (٨/٧٨)، والبيهقي في دلائل النبوة (٦/٤٦٩)، والسيوطي في الخصائص (٢/١٢٥)، وابن عساكر في ترجمة الحسين عليه السلام من تاريخ دمشق ص (٢٦٢)، والخوارزمي في الفصل الثامن من المقتل (١/١٥٩). والمشربة، بفتح الراء وضمّها: الغرفة فوق البناء العليّة.

(٧) مأتم في بيت زينب بنت جحش

أخرج الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده قال: حدّثنا عبدالرحمن بن صالح، حدّثنا عبد الرحيم بن سليمان، عن ليث بن أبي سليم، عن جرير بن الحسن العبسي، عن مولي لزينب، أو عن بعض أهله، عن زينت، قالت:

بينا رسول الله ﷺ في بيتي، وحسين عندي حين درج فغفلت عنده، فدخل رسول الله ﷺ فقال: دعيه، فتركته حتى فرغ، ثم دعى بماء، فقال: إنّه يصبّ من الغلام، ويغسل من الجارية، فصبّوا صبّا، ثمّ توضّأ، ثمّ قام فصلّى..

فلمّا قام احتضنه إليه، فإذا ركع أو جلس وضعه، ثم جلس فبكى، ثم مدّ يده، فقلت حين قضى الصّلاة: يا رسول الله، إنّي رأيتك اليوم صنعت شيئا، ما رأيتك تصنعه؟

قال: إن جبريل أتاني، فأخبرني أن هذا تقتله أمّتي، فقلت: فأرني تربته، فأتاني بتربة حمراء[1].

---

(١) أخرجه أبو يعلى الموصلي في مسنده، وأخرجه الحافظ ابن عساكر في تاريخ الشام، وقال: أخبرتنا أمّ المجتبى العلويّة قالت: قريء على أبي القاسم السلمي، حدّثنا أبو بكر بن المقرئ، حدّثنا أبو يعلي، حدّثنا عبد الرحمن بن صالح، بالاسناد واللفظ.. وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨٨/٩)، والمتّقي الهندي في كنز العمال (٢٢٣/٦).

(٨) مأتم في دار أمير المؤمنين

وأخرج النسّابة أبو الحسين العبيدلي العقيقي في كتابه تاريخ المدينة عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال:

زارنا رسول الله صلى الله عليه وآله يوماً فعملنا له حريرة.. وأهدت إلينا أمّ أيمن قعباً من لبن، وصحفة من تمر..

فأكل رسول الله صلى الله عليه وآله وأكلنا معه، ثم وضّأت رسول الله صلى الله عليه وآله فمسح رأسه وجبهته ولحيته بيده، ثم استقبل فدعى الله بما شاء، ثم أكبّ على الأرض بدموع غزيرة، يفعل ذلك ثلاث مرّات، فتهيّبنا رسول الله صلى الله عليه وآله أن نسأله..

فوثب الحسين على ظهر رسول الله صلى الله عليه وآله فبكى، فقال له: بأبي وأمي ما يبكيك؟

قال: يا أبتِ، رأيتك تصنع شيئاً، ما رأيتك تصنع مثله.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا بني، سُرِرْتُ بكم اليوم سروراً لم أسر بكم مثله قط، وإن حبيبي جبريل أتاني، وأخبرني أنكم قتلى، وأنّ مصارعكم شتّى.. فأحزنني ذلك، ودعوت الله لكم بالخيرة[1].

---

(١) قد تقدّم هذا الحديث مبسوطاً من مصادرنا في هذا الفصل فراجع.. وقد أخرجه الشيخاني المدني في الصراط السوي والحافظ الخوارزمي في مقتل الحسين عن أبي القاسم الزمخشري.

(٩) مأتم بين الصحابة

قد رويت عن نبينا الكريم ﷺ كيفيّات مختلفة من حزنه وبكائه بين الصحابة، بتعدّد الرواة أيضاً، ممّا يفيد تكرر عقده للمأتم بين أصحابه البررة..

وأخرج الحافظ أبو القاسم الطبراني في المعجم الكبير، قال: حدّثنا الحسن بن العباس الرّازي، حدّثنا سليم بن منصور بن عمار، حدّثنا أبي، وحدّثنا احمد بن يحيى بن خالد بن حبان الرقّي، حدّثنا عمرو بن بكير بن بكار القعنبي، حدّثنا مجاشع بن عمرو، قالا: حدّثنا إبن لهيعة، عن أبي قبيل، حدثني عبد الله بن عمرو بن العاص، أن معاذ بن جبل أخبره، قال:

خرج علينا رسول الله ﷺ متغيّر اللون، فقال:

أنا محمّد، أوتيت فواتح الكلام وخواتمه، فأطيعوني ما دمت بين أظهركم، فإذا ذهب بي فعليكم بكتاب الله عزّ وجل، أحلّوا حلاله، وحرّموا حرامه، أتتكم الموتة، أتتكم بالرّوح والراحة، كتاب الله من الله سبق..

أتتكم فتن كقطع الليل المظلم، كلّما ذهب رسل جاء رسل، تناسخت النبوّة، فصارت ملكاً، رحم الله من أخذها بحقّها، وخرج منها كما دخلها، أمسك يا معاذ و احص..

قال: فلمّا بلغت خمسة، قال: يزيد لا يبارك الله في يزيد، ثم ذرّفت عيناه.

ثم قال: نُعيَ إليّ حسين، وأتيت بتربته، وأخبرت بقاتله، والذي نفسي بيده، لا يقتل بين ظهراني قوم لا يمنعوه إلاّ خالف الله بين صدورهم وقلوبهم، وسلّط عليهم شرارهم، وألبسهم شيَعاً.

ثم قال: واهاً لفراخ آل محمّد، من خليفة مستخلف مترف يقتل خلَفي وخلَف الخلَف[1].

وأخرج نحوه الحافظ أبو بكر بن أبي شيبة في المصنف، وابن ماجة في السنن، والحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين، وروى أبو نعيم الإصفباني في أخبار إصبهان صوراً متعددة عن مآتمه بين الصحابة، وذكرها جمع من الأعلام أخذا من هذه الأصول.

وفي بعض مصادر الحديث تجد هذا المأتم الذي عقده النبي الكريم ﷺ بين أصحابه على عموم أهل بيته الطّاهرين، وينعى فيه جملة أولاده، ويذكر حالهم ومصيرهم من بعده.

فقد أخرج الحافظ أبو بكر بن أبي شيبة قال: حدّثنا معاوية بن هشام، عن علي بن صالح، عن يزيد بن أبي زياد، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله بن مسعود، قال:

بينا نحن عند رسول الله ﷺ إذا أقبل فتيةٌ من بني هاشم، فلما رآهم النبي

---

(١) راجع المعجم الكبير للطبراني (٣٨/٢٠)، ورواه المتقي الهندي في كنز العمال (١٦٦/١١)، وقد أخرج هذا الخبر الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق، والحافظ الخوارزمي في مقتل الحسين، وحكى السّيوطي شطراً منه في الجامع الكبير، وفيه:
لا بارك الله في يزيد الطعّان اللعان، أما أنه نعي إليّ حبيبي وسخيلي حسين، أتيت بتربته، ورأيت قاتله، أما إنّه لا يقتل بين ظهراني قوم فلا ينصروه إلاّ عمّهم الله بعقاب.

ﷺ اغرورقت عيناه، وتغيّر لونه، قال: فقلت له: ما نزال نرى في وجهك شيئاً نكرهه.

قال: إنّا أهل البيت إختار لنا الله الآخرة على الدنيا، وإنّ أهل بيتي سيلقون بعدي بلاءً وتشريداً وتطريداً، حتى يأتي قومٌ من قبل المشرق، معهم رايات سود، يسألون الحق فلا يعطونه، فيقاتلون فيُنصرون، فيعطون ما سألوا فلا يقبلونه، حتى يدفعوا إلى رجل من أهل بيتي، فيملؤها قسطاً كما ملأوها جوراً، فمن أدرك ذلك منكم فليأتهم ولو حبواً على الثّلج[1].

حتى مرّت فتيةٌ من بني هاشم فيهم الحسن والحسين، فلما رآهم إلتزمهم وانهملت عيناه، فقلنا: يا رسول الله ما نزال نرى في وجهك شيئاً نكرهه!!

فقال: إنّا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا، وإنه سيلقى أهل بيتي من بعدي تطريداً وتشريداً في البلاد.

وأخرجه الحافظ أبو نعيم الإصبهاني في أخبار إصبهان (٢/١٢)، والحافظ الطبراني ج (١٠) المعجم الكبير، بالإسناد بلفظ:

كان رسول الله ﷺ يمرّ به الفتية من أهل بيته، فيتغيّر لذلك لونه، فمرّ به

---

(١) أخرجه الحافظ أبو بكر بن أبي شيبة في المصنف (٨/٦٩٧)، والحافظ ابن ماجة في سننه (٢/٥١٨) في باب خروج المهديّ عن معاوية بن هشام، وأخرجه الحافظ أبو جعفر العقيلي في ترجمة يزيد بن أبي زياد، عن محمد بن إسماعيل، عن عمرو بن عون، عن خالد عن يزيد بن أبي زياد، بالإسناد واللفظ غير أن فيه: فقلنا يا رسول الله إنا لا نُسرّ أن نرى في وجهك الشيء نكرهه.

وأخرجه الحاكم في المستدرك (٤/٤٦٤) بالإسناد بلفظ: أتينا رسول الله ﷺ فخرج إلينا مستبشراً يعرف السرور في وجهه، فما سألناه عن شيء إلاّ أخبرنا به، ولا سكتنا إلاّ ابتدأنا.

يوماً فتية من أهل بيته، فتغيّر لذلك لونه، فقلنا: يا رسول الله ما نزال نرى منك ما يشقّ علينا، الفتية من أهل بيتك يمرّون بك، فيتغير لذلك لونك؟ فقال: إنّ أهل بيتي هؤلاء، إختار الله لهم الآخرة، ولم يختر لهم الدنيا.

وذكره جمع من الأعلام في تآليفهم، أخذاً من هذه الأصول، ولا زالت ثمّة صور أخرى متعدّدة لعقده صلى الله عليه وآله المأتم بين أصحابه.

(١٠) مآتم يوم عاشوراء

أخرج الإمام أحمد بن حنبل في مسنده، بإسناد يرفعه إلى ابن عباس رضي الله عنه أنه قال:

رأيت النّبي صلى الله عليه وآله في ما يرى النّائم بنصف النّهار وهو قائم أشعث أغبر، بيده قارورة فيها دم.

فقلت: بأبي أنت وأمّي يا رسول الله، ما هذا؟

قال: هذا دم الحسين وأصحابه، لم أزل ألتقطه منذ اليوم.

فأحصينا ذلك اليوم فوجدوه قتل في ذلك اليوم[١].

---

(١) قد أخرج هذا الحديث عدة من الحفاظ كالطّبراني في المعجم الكبير، والبيهقي في دلائل النبوة، والحاكم النيسابوري في المستدرك، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد، وابن عساكر في تاريخ دمشق، والعراقي في طرح التثريب، وابن الأثير في أسد الغابة، والزرندي في نظم الدّرر.

كما وأخرجه الكنجي في الكفاية، ومحب الدين الطبري في ذخائر العقبى، وسبط ابن الجوزي في تذكرة الخواص، والهيثمي في مجمع الزوائد، وابن حجر في الصواعق المحرقة، والسيوطي في الخصائص الكبرى، والقرماني في تاريخه، والشيخاني في الصراط السوي، والشّعراني في مختصر تذكرة القرطبي وقال:

قال الإمام القرطبي: وهذا سند صحيح لا مطعن فيه، قال ابن عباس: وساق القوم حرم رسول الله ﷺ في ذلك اليوم كما تساق الأسارى، حتى إذا بلغوهم إلى الكوفة خرج الناس وجعلوا ينظرون إليهم، وكان في الأسارى يومئذ علي بن الحسين عليه السلام وكان شديد المرض، قد جمعت يداه إلى عنقه، وزينب بنت علي من فاطمة الزهراء، وأختها أم كلثوم، وفاطمة وسكينة بنتا الحسين، وساق الفسقة معهم رؤوس القتلى.. الخ.

وكذلك أخرج الترمذي في الجامع الصّحيح بإسناد إلى رزين، قال: حدّثتني سلمى قالت:

دخلت عليّ أم سلمة وهي تبكي، فقلت: ما يبكيك؟

قالت: رأيت رسول الله ﷺ - تعني في المنام - وعلى رأسه ولحيته التراب..

فقلت: ما لك يا رسول الله؟

قال: شهدت قتل الحسين آنفا[1].

وأخرجه الحافظ الكنجي في الكفاية، وابن حنبل في المسند، والبيهقي في دلائل النبوة، وابن الأثير في جامع الأصول، ومحبّ الدّين الطّبري في ذخائر

---

(١) رواه الترمذي في كتاب المناقب من صحيحه ح (٥) باب مناقب الحسن والحسين (١٩٣/١٣)، وروى مثله إبن عساكر في تاريخه، في ترجمة الإمام الحسين ص (٣٨٨) ح (٣٢٨)، ورواه الحاكم في آخر ترجمة أمّ سلمة من المستدرك (١٩/٤).

العقبى، والزّرندي في نظم الدّرر، والأرزنجاني في نزهة الأبرار، وابن طلحة الشافعي في مطالب السؤول، والسّيوطي في تاريخ الخلفاء والخصائص الكبرى، وابن حجر في الصواعق المحرقة، والشّيخاني في الصراط السّوي.

وأخرج الإمام أحمد بن حنبل في المسند قال: حدّثنا عفّان، حدّثنا حمّاد هو إبن سلمة، حدّثنا عمّار، عن ابن عباس، قال:

رأيت النبيّ صلى الله عليه وآله فيما يرى النائم بنصف النهار، وهو قائم أشعث أغبر، بيده قارورة فيها دم، فقلت: بأبي أنت وأمي يا رسول اللّه، ما هذا؟!

قال: هذا دم الحسين وأصحابه، لم أزل ألتقطه منذ اليوم، فأحصينا ذلك اليوم فوجدوه قتل في ذلك اليوم[1].

وأخرجه الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق مسنداً إلى علي بن زيد بن جدعان، قال:

إستيقظ ابن عباس من نومه فاسترجع، وقال: قتل الحسين والله، فقال له أصحابه، كلاّ يا ابن عباس كلا!

قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله ومعه زجاجة من دم، فقال: أ لا تعلم ما صنعت أمتي من بعدي؟! قتلوا إبني الحسين، وهذا دمه ودم أصحابه، أرفعهما إلى الله عزّ وجل.

قال: فكتب ذلك اليوم الذي قال فيه، وتلك الساعة.

قال: فما لبثوا إلاّ أربعة وعشرين يوماً، حتى جاءهم الخبر بالمدينة أنه قتل في

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند (١/٢٨٣) وأخرجه أيضاً عن عبد الرحمن، عن حماد بن سلمة بلفظ فيه بعض التغيير.

ذلك اليوم وتلك الساعة[1].

ولقد روى المسلمون عن رسول الله ﷺ أنّه قال: من رآني فقد رآني، فإنّ الشيطان لا يتصوّر بي.

ورووا قوله ﷺ: إذا ذهبت النبوّة إنقطع الوحي إلاّ من رؤيا صادقة، فإنّها جزء من سبعين جزء من النبوّة.

وقد إتّضح فيما بعد صدق رؤيا أم سلمة، ورؤيا ابن عبّاس لتوقيتها الدّقيق في يوم العاشر، ولا شكّ أنّ حالة النبي ﷺ في الرؤيا هي حالته في الواقع، وفي عالمه الذي يسكن فيه..

فكيف يمكن أن تكون حالة النبي ﷺ العطوف الذي أحبّ ولده أكبر حب، ثمّ خلّفه على النّاس حجّة وإماماً قام أو قعد، وقد كان بذل كلّ شيء في سبيل دينه ودولته وأمّته.. ثم أقدمت شرذمة باغية من أمّته بعد رحيله على قتل ريحانته وولده وسبطه وامتداده وبقية نسله الطّاهر؟!

لا شكّ في أن حالته من الحزن والجزع لا توصف، وليس التراب الذي رأته أمّ سلمة على رأسه إلاّ تعبير عن ذلك الألم الشديد الذي عاناه سيّد الورى ﷺ سنة إحدى وستّين، وهو قدوتنا في ذلك الجزع.

ولم أستغرب يوماً وأنا أقرأ في حالات الأكابر والكمّل من علمائنا وفقهائنا

---

(١) أخرجه الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق عند ترجمة الإمام الحسين عليه السلام ص (٣٨٧) ح (٣٢٧)، وقال السيد الشيخاني في الصراط السوي بعد روايته حديث أحمد المذكور: وفي رواية لأحمد: أن ابن عباس كان في قائلة له، فانتبه من قائلته وهو يسترجع، ففزع أهله، فقالوا: ما شأنك، ما لك؟! قال: رأيت النبي ﷺ وهو يتناول من الأرض شيئاً، فقلت: بأبي وأمي يا رسول الله، ما هذا الذي تصنع؟! قال: دم الحسين، أرفعه إلى السماء.

(رحهم الله) لإبدائهم الجزع في أحزان آل الرسول صلى الله عليه وآله، فيحكى أنّهم يضعون التراب على رؤوسهم في يوم عاشوراء، تأسّياً بصاحب الدعوة صلى الله عليه وآله، ويظهرون غاية الحزن إقتداءً وتشبّهاً به، وقد حكى المرحوم الشّيخ عبّاس القمي رحمه الله في الكنى والألقاب ذلك عن بعض فقهاء الطّائفة، ومنهم المولى الفقيه الفاضل الدربندي رحمه الله صاحب كتاب أسرار الشّهادة، فهذا هو ديدن عرفاء الفقهاء، وإن استغربه بعض الجاهلين بمقام الإمام الحسين عليه السلام وبفعل جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله..

قال الفقيه العارف الشّيخ حسن الدّمستاني البحراني رحمه الله:

فمِنَ الواجب عيناً لبس سربال الأسى ... واتخاذ النّوح ورداً كلّ صبح و مسا

واشتعال القلب أحزاناً تُذيب الأنفسا ... وقليلٌ تُتلف الأرواح في رزء الحسين

إليك الثمرة

ينبلج نور الحقيقة السّاطعة حينئذ ليفصح عن ورود البكاء والحزن على الشّهيد المظلوم سيّد الشّهداء الحسين عليه السلام وإقامة مجلس عزائه واستقبال المعزّين به واحترام تربته المشرّفة من غير شكّ كسنة نبويّة مؤكّدة، وهذه المصادر القطعيّة التي تثبت ذلك بين أيدينا.

وقد تظافرت الرّوايات الصريحة وازدحمت الأحاديث الشّريفة من أمّهات المصادر المعتبرة، بالأسانيد المختلفة المتعددة، المعتبرة، بما لا مزيد عليها.. وكلّها تؤكّد صدور تلك المآتم باسم الإمام الحسين عليه السلام عن نبيّ الإسلام الأعظم صلى الله عليه وآله.

وقد دأب أئمة أهل البيت عليهم السلام من بعده صلى الله عليه وآله على عقد المأتم لجدّهم الإمام الحسين عليه السلام إظهاراً منهم للتوجّع والحزن عليه.

وكان الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام إذا هلّ عليه المحرّم يُرى كاسف البال، حزين القلب، لا يُرى متبسّماً ولا ضاحكاً، وكان يجلس للعزاء جلسة الحزين الكئيب، معزّزاً تلك السّنة النّبويّة ومواكباً العادة الإنسانيّة والسّيرة البشريّة المكرّمة للشّهيد.

وقد أخرج الإمام أحمد بن حنبل في المناقب، ومحبّ الدين الطبري الشافعي في ذخائر العقبى، والحافظ القندوزي الحنفي في ينابيع المودّة عن الربيع بن منذر، عن أبيه، قال:

كان الحسين بن علي رضي الله عنه يقول:

من دمعت عيناه فينا دمعةً، أو قطرت عيناه فينا قطرةً، آتاه الله عزّ وجلّ الجنّة[1].



(١) أورده المحبّ الطبري في ذخائره ص (١٩)، والقندوزي في ينابيع المودّة (٢/٣٧٣ و ١١٧) باختلاف يسير؛ وكلاهما قال: أخرجه أحمد في المناقب.

الفصل الخامس

سيرة أهل البيت

إرث الأحزان

شحذ النبيّ الكريم ﷺ سلاح الدّمعة كضمان يتدارك به الشّطر الباقي من هذا الدّين، فهي الخطّة البديلة التي أرسى دعاماتها ووضع أساسيّاتها، بعد أن أنذر وحذّر من العبث بسنّته، وشاء الله سبحانه تعالى أن تتكرّر في هذه الأمّة دواهي الأمم الماضية، ولابدّ حينئذٍ من مسعفٍ يضمن الإبقاء على قانون الشرع الأقدس.

وكرّس ﷺ محرّكات العاطفة وفعّلها لربط عامّة المسلمين بشخصه الكريم ﷺ وبأهله الطيّبين عليهم السلام، إذ أنّ الحزن لحزنه يُشعر المؤمنين بآهاته وآلامه، فهم يقتربون من قلبه الكئيب، وهو الطريق المؤدي إلى الذوبان بأحاسيسه، وهو السبيل للترقّي والكون معه، وهذا واضح وقد تقدّم الكلام فيه..

فأعدّ نبيّ الإسلام ﷺ أجواء الأحزان في محيط أهل بيته الكرام عليهم السلام وربّاهم على مواجهة حزونة المسيرة، ومرّنهم على سلوك طريق ذات الشوكة، فألفوا همّه وذابوا في ذاته، وورثوا أحزانه على سيّد الشّهداء عليه السلام باعتباره الشعار والدّثار، فهو حامل راية قضيّتهم وشاهد إستضعافهم وبرهان مظلوميّتهم.

ولقد خطى أهل البيت عليهم السلام خطوات جبّارة في سبيل رفع هذا الشعار، وتكبّدوا في سبيل تثبيته عناء المواجهات، حتّى حازت مساعيهم النّجاح العظيم،

وتكلّلت جهودهم بالظفر والنّصر المؤزّر، واستطاعوا إرساء معالم قضيّة الإمام الحسين عليه السلام وتأصيل مختلف أبعادها، وتمكّنوا من تجذير مفرداتها بشكل يحافظ على طراوتها وحرارتها على مرور الليالي والأيّام..

إنّهم سعوا عليهم السلام بقضيّتهم إلى الخلود، وضمن الله سبحانه نجاح مسعاهم الكريم ومباركة جهودهم، وها نحن نشهد ثمار غراسهم المبارك بعد كلّ هذه المدّة الطويلة، وها هي ميازيب الدّموع الحسينية لم تجف ولم تنضب في يوم واحد، وستبقى العيون تجري دموعها أنهاراً أسفاً على الإمام الذي قضى إلى جنب الفرات عطشاً، وسيبقى الحزن الكبير متجدّداً بخلفيّاته على مختلف الأصعدة..

وكانت رغبة الأئمة الطّاهرين عليهم السلام ببثّ الأحزان ونشرها نافذة في الضمائر، وحاكمة على القلوب الحرّة، فاستجابت لدعوتهم الأمم الموفّقة جيلاً بعد جيل، مشفوعة بمكانتهم المعنويّة العالية المتمكّنة في النفوس الطّاهرة، إذ أنّهم ورثة جدّهم الكريم صلى الله عليه وآله وخلفاؤه والعلماء من بعده، والمطهّرون من الرّجس والدّنس والعيب تطهيراً، وهم سفن النّجاة ومشاعل الهدى في دنيا الضياع والضلال..

وتضافرت جهود الطّاهرين عليهم السلام في إحياء المؤسّسة الحسينيّة، وتبادلوا في سبيل إبقائها المواقف، بعد أن كان للحادثة الدّامية في نفوسهم عليهم السلام بالغ الأثر، وطفَت أحزانُهم وسائر العلويين على صفحات التأريخ فغطّتها بالحزن والأسى، وراحوا يبدون لوعتهم عليه في سرهم وعلنهم، وفي محافلهم الرسمية ومجالسهم الخاصة على حدّ سواء، وفي دورهم وأنديتهم.

وكان للأئمة الطّاهرين عليهم السلام من ولد الإمام الحسين عليه السلام النصيب الأوفى من الحزن والجزع لمصابه، فقد نقل الرّواة والمؤرّخون عن بكاء وحزن الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام الشّيء الكثير، وكانت قصصه محرّكة للشجون

حقّاً، إذ أنّه بكى على أبيه مدة أربعين سنة، ورُويت صور الحزن الشديد في أحوال الإمام الصادق عليه‌السلام على مصيبة جده عليه‌السلام واستنشاده الشعر في رثائه، وكان الإمام موسى بن جعفر عليه‌السلام لا يُرى ضاحكاً إذا أقبل شهر محرم الحرام، وكان يُرى كئيباً حزيناً فيه، وخصوصاً في الأيام العشرة الأولى من هذا الشهر، وهكذا ورد في أحوال الإمام علي بن موسى الرضا عليه‌السلام، وغيرهم من الأئمة الطّاهرين عليهم‌السلام الذين أثّرت عليهم الحادثة تأثيراً كبيراً وأذكوا جذوة أحزانها لتبقى مشتعلة إلى آخر يوم من أيّام الدنيا.

قال بعض العلماء:

أما إنّهم ـ أي الأئمة عليهم‌السلام ـ بكوا على الحسين وعدّوا مصيبته أعظم المصائب وأمروا شيعتهم ومواليهم وأتباعهم بذلك وحثّوا عليه واستنشدوا الشعر في رثائه وبكوا عند سماعه وجعلوا يوم قتله يوم حزن وبكاء وذمّوا من اتخذه عيداً وأمروا ترك السعي فيه في الحوائج، وعدم ادخار شيء فيه.. فالأخبار مستفيضة عنهم، تكاد تبلغ حد التواتر، رواها عنهم ثقات شيعتهم ومحبّيهم بأسانيدها المتصلة إليهم[1].

---

(١) راجع إقناع اللائم للسيد محسن الأمين العاملي ص (٩٣).

المؤسسة الحسينية الكبرى

لك أن تعرف أهل البيت عليهم السلام كما رتّبهم الله سبحانه في كلّ بناء أشادوا صرحه، فأيمانهم المباركة محلّ التوفيق والتسدسد الربّاني دائماً، وقد سعوا إلى تشييد قضاياهم وإحيائها عبر توظيف المؤثّرات الفاعلة بعد عناية الله تعالى، ملاحظين محيط جزيرة العرب بخصوصيّاته ومميّزاته.

لقد وظّف الأئمة عليهم السلام كلّ الطّاقات المتاحة لتثبيت قضية سيّد الشّهداء عليه السلام وضمان خلودها، وحرّكوا أصحاب النفوذ المؤثّرين على المجتمع، فاستفادوا من الشّعر لإحياء الرّثاء وإستثارة الأماقي للبكاء، ورغّبوا في زيارة قبره المطهّر لتشديد الأواصر به وبمبادئه، ولكي يبقى شيعته على ارتباط بعاصمة الحزن الحسيني.

ولا تستقيم دعوة أو فكرة ولا تدخل في ذمّة الخلود ما لم تُدعم بالطقوس الإجتماعية العامّة، ويكون لشعائرها حضوراً في السّاحة الإنسانيّة، يُتداول فيها شؤون القضيّة، فأسّس الأئمة عليهم السلام مجالس ذكره السّامي، فأقاموها وأمروا شيعتهم بتشييدها، ووظّفوا ملكات الرثاء والإنشاد في هذا السبيل.. وجنّدوا عليهم السلام النفوس والجهود والأموال في سبيل إبقاء هذه المظاهر الولائيّة الحزينة بمنهجيّة مُتقنة، وهذه أخبارهم وأحاديثهم في هذا الصّدد ساخنة بلوعة المصاب مشيّدة لأركان هذه المؤسّسة.

ونسجوا عليهم السلام في ذلك على منوال جدّهم النبي صلى الله عليه وآله، فقفَوا سيرته وجدّدوا رسومها، وعملوا على إحياء الحزن على سيّد الشّهداء عليه السلام بمناهج عدّة، تماشت منسجمة مع هدي النبوّة كما سترى، إذ أنّهم إمتداده الطبيعي الذي

اختاره الله تعالى وارتضاه للأمّة، فاتسمت مظاهر الحزن الحسيني بسمة الشعيرة الدّينيّة، وأخذت طابعاً خاصّاً، حتّى اصطلح عليها في ما بعد الشّعائر الحسينيّة.

وقد عمل أئمة أهل البيت عليهم السلام على ترسيخ أربعة مناهج، يمكن أن نعتبرها أثافي الشعائر الحسينية، وشيّدوها لإذكاء جذوة الأحزان على مصابه الأليم، وضمان استمرار مسيرة إحيائها على مرور الليالي والأيام، غضّة طريّة، ولكلّ منهج منها توابعٌ ولوازمٌ من الممارسات التي يمكن أن تُلحق بالشعائر الحسينية بعد الإستفادة من العمومات الواردة في النصوص المتواترة الصّحيحة في المقام، فالمناهج هي:

الأول: البكاء عليه عليه السلام.

الثاني: الشعر وإنشاده فيه عليه السلام.

الثالث: إقامة مجالس عزائه عليه السلام.

الرابع: زيارته قبره الشّريف عليه السلام.

الأوّل: البكاء

تشريع البكاء

البكاء حالةٌ تبلغها النفس البشريّة حين يبلغ بها التأثّرُ درجةً أعلى من أن يَفِيَ بها القولُ، فيفيض الدّمعُ ليؤدّي ما لا يؤدّيه القول، وليُطلِق الشّحنة الحبيسة من التأثّر العميق العنيف.

ولا يمكن للعاقل أن يذمّ بكاء الحزن أو ينهى عنه، لأنّه أمر غير اختياري أصلاً، وذكر ابن حجر من فوائد الحديث: أنّ البكاء الذي يجلبه الحزن غيرُ مذمومٍ، وأنّ المرء قد لا يملك دمعَه إذا غلب عليه الغيظ، وفيه ما رُكّب في

الإنسان من الأسف ؛ على فَوْت ما فيه نفعُهُ وما يحتاج إليه[١].

ولابدّ من أن نُقدّم إلمامة خاطفة نتعرّف فيها على نظرة الإسلام للبكاء على الميت عموماً، إذ قد يتوقّف البعض في تشريعه وصحّته، وقد يحرّمه البعض الآخر، وللنّاس أن يحلّلوا ويحرّموا على أنفسهم كما يشتهون، غير أنّه ليس لهم أن ينسبوا ذلك إلى الدين وإلى شريعة سيّد المرسلين صلى الله عليه وآله، ولك أن تحكم بحكمك بعد أن مرّت عليك أحاديث بكاء النّبي صلى الله عليه وآله على الإمام الحسين عليه السلام في الفصل المتقدّم وذلك قبل مقتله الأليم لخصوصية القضيّة، وسنورد من مصادر أهل السنّة المعتبرة ما يثبت بكاءه صلى الله عليه وآله على الأموات عموماً.

وقد عرفت أنّ البكاء تعبير إنساني طبيعي للحزن، نابع من ذاته، لا يتحكّم فيه أبداً، وهو انعكاس توجّع داخلي، وغدّة الدّمع موجودة عند الإنسان وبعض الحيوانات الأخرى.. ويعرف الباكي تماماً أنّه لا يعيد ببكائه الميّت الذي فقده، ولا يستردّ بدموعه حتّى بعضه، لكنّه يعكس حزنه لا إراديّاً بالبكاء، يتنفّس من خلاله ويروّح عن روحه الواجدة، ويخفّف عن نفسه ثقل كبت الوجوم والحبس النّفسي.

ولستُ أهتدي ـ بعد كلّ ذلك ـ إلى سّر حساسية بعض النّاس من البكاء بشكل عام، مع ورود فعل النّبي صلى الله عليه وآله والصّحابة الكرام، خصوصاً وأنّا نفترض خلّوه من الجزع المخل بالإيمان، بل مع اشتماله على القصود والأهداف السّامية، من الإعتبار والتفاعل مع المكارم والفضائل، ومع أن الأحاديث الواردة في بكاء النّبي صلى الله عليه وآله على المتوفى وحثّه على ذلك كثيرة جدّاً، وقد ذكرنا طائفة كثيرة في

---

(١) راجع فتح الباري (٦/ ٣٢١).

كتابنا هذا، وسنورد هنا بعضها.

بكاؤه صلى الله عليه وآله عند وفاة إبنه إبراهيم:

في صحيحي البخاري ومسلم وسنن أبي داود وابن ماجه واللفظ للأول، قال أنس: دخلنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وإبراهيم يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله تذرفان، فقال له عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: وأنت يا رسول الله؟!

فقال صلى الله عليه وآله: إن العين تدمع والقلب يحزن، ولا نقول إلاّ ما يُرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون[1].

بكاؤه صلى الله عليه وآله على قبر أمّه:

في صحيح مسلم ومسند أحمد وسنن أبي داود والنسائي وابن ماجة واللفظ للأوّل، عن أبي هريرة، قال: زار النّبي صلى الله عليه وآله قبر أمّه فبكى وأبكى من حوله[2].

بكاؤه صلى الله عليه وآله شهداء مؤتة:

في صحيح البخاري: أن النّبي صلى الله عليه وآله نعى زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم.

---

(١) راجع صحيح مسلم (٤٠٨) كتاب الفضائل، باب رحمته بالصبيان والعيال ح (٢)، وسنن أبي داود (١٩٣/٣) كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت، وسنن ابن ماجة (٥٠٧/١) كتاب الجنائز، باب (٥٣) ح (١٥٨٩)، والبخاري (١٥٨/١) كتاب الجنائز، باب قول النّبي صلى الله عليه وآله: وإنا بك لمحزونون. ورياض الصالحين ص (٣٦٣ - ٣٦٤).

(٢) راجع صحيح مسلم (٦٧١/٢) كتاب الجنائز، باب (٣٦) ح (١٠٨)، ومسند أحمد (٤٤١/٢)، وسنن أبي داوود (٣/ ٢١٨) كتاب الجنائز باب زيارة القبور ح (٣٢٣٤)، وسنن النسائي (٩٠/٤) كتاب الجنائز، باب ما جاء في قبر المشرك، وسنن ابن ماجة (٥٠١/١) كتاب الجنائز، باب ما جاء في زيارة قبور المشركين ح (١٥٧٢).

وقال ﷺ: أخذ الرّاية زيد، فأصيب، ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب، وعيناه تذرفان[١].

بكاؤه ﷺ عمّه الحمزة:

في طبقات ابن سعد ومغازي الواقدي ومسند أحمد وغيرها واللفظ للأول: أنّه لما سمع رسول الله ﷺ بعد غزوة أحد البكاء من دور الأنصار على قتلاهم، ذرّفت عينا رسول الله ﷺ وبكى، وقال: لكن، حمزة لا بواكي له..

فسمع ذلك سعد بن معاذ، فرجع إلى نساء بني عبد الأشهل فساقهن فدعا لهن وردّهن، فلم تبك امرأة من الأنصار بعد ذلك إلى اليوم على ميت إلاّ بدأت بالبكاء على حمزة، ثم بكت على ميّتها[٢].

بكاؤه ﷺ سبطه:

جاء في صحيحي البخاري ومسلم وسنن أبي داود وسنن النسائي واللفظ للأول: أن إبنة النّبي ﷺ أرسلت إليه: أن ابناً لي قبض فأتِنا فقام ومعه سعد بن عبادة ورجال من أصحابه، فرُفع إلى رسول الله ﷺ ونفسه تتقعقع، ففاضت عيناه، فقال سعد: يا رسول الله ما هذا!!

---

(١) راجع صحيح البخاري (٢/٢٠٤) كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب خالد، والبداية والنهاية لابن كثير (٤/٢٥٥)، والسنن الكبرى للبيهقي (٤/٧٠)، وأنساب الأشراف (٢/٤٣)، وشرح ابن أبي الحديد (١٥/٧٣).

(٢) راجع ترجمة حمزة في طبقات ابن سعد (٣/١١) طبعة صادر، وأكثر تفصيلاً منه في مغازي الواقدي (١/٣١٥-٣١٧)، وإمتاع الأسماع (١/١٦٣)، ومسند أحمد (٢/٤٠)، وتاريخ الطبري (٢/٥٣٢) ط مصر، وسيرة ابن هشام (٣/٥٠)، وأورده ابن عبد البر بإيجاز ضمن ترجمة حمزة من الإستيعاب، وأورده ابن الأثير باختصار أيضاً بترجمته من أسد الغابة.

فقال: هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرّحماء[1].

فهذه طائفة من بعض الأحاديث المروية عن سيد البشر ﷺ تؤكّد جواز البكاء، إن لم نقل باستحبابه في بعض المواطن، نصّت على فعله وتقريره وأمره بالبكاء، خلافاً لمن روى أحاديث في تحريمه والنّهي عنه على الميّت، فإنّها أحاديث متهافتة، لا تصمد أمام معول النّقد، مضافاً لتعارضها مع الأدلّة الكثيرة المتواترة، وقد تقدّم جزءٌ منها، وهي تدلّ على رجحان البكاء على الميت.

استحبابه على الحسين عليه السلام

عرفت ممّا تقدّم أنّ البكاء على الميّت أمرٌ راجح قطعاً، وخصوصاً إذا ساقت إليه المقاصد الحسنة، كالإعتبار بالموت، وإظهار الحبّ للميت، ومواساة أهل الميّت في مصابهم به، وهو تعبير إنساني جُبل عليه الإنسان وطُبع عليه.

ومن هذا المنطلق فإنّه يتعيّن حكم البكاء بحسب العناوين والأدلّة المُحكّمة، فقد يترقّى من الرّجحان إلى الإستحباب، ومن الإستحباب إلى الإستحباب المؤكّد، كما هو الحال في محلّ الكلام، إذ أنّ البكاء على سيّد الشّهداء الإمام

---

(١) راجع صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب قول النّبي ﷺ: يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه، واللفظ له، وكتاب المرضى، باب عيادة الصبيان (٣/٤) وفي (١٩١/٤)، وكتاب التوحيد، باب أن رحمة الله قريب من المحسنين، وفي صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت (٦٣٦/٢) ح (١١)، وفي سنن أبي داود، كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت (١٩٣/٣) ح (٣١٢٥)، وفي سنن النسائي (٢٢/٤) كتاب الجنائز، باب الأمر بالاحتساب والصبر، ومسند أحمد (٢٠٤/٥ و ٢٠٦ و ٢٠٧).

الحسين عليه السلام راجحٌ قطعاً، وكذلك هو مستحبٌّ مؤكّدٌ، دلّ على ذلك البرهان القاطع الذي لا يقبل الشّك، وشُفعَ ذلك بالسيرة النبويّة العطرة، وقد تقدّم في الفصل الماضي بيانها، وسيرة الإمامة الهادية، وسيأتي بيانها عن قريب.

مضافاً إلى اشتمال البكاء الحسيني على قصود مهمّة وغايات سامية، وانطوائه على جملة كبيرة من المنافع الدينيّة، ومجموعُها يُحتّم إستحبابه المؤكّد، ويمكننا أن نقول من بعد ذلك أنّ البكاء عليه عليه السلام مندرجٌ تحت عناوين عدّة.

الأول: بكاء الإعتبار بالموت، وما ينطوي عليه ذلك من معاني الزّهد في الدنيا والعمل للآخرة، والتفكّر في أحوال الماضين الذين مضوا عن هذه الحياة وغابت أعيانهم ولم يخلّفوا على مسرح الحياة غير أعمالهم الصالحة.

الثّاني: بكاء تكريم الشهيد في سبيل الله تعالى، الذي كرّمه الله وشرّفه وأعطاه الخلود، بالشّكل الذي يقتضي التفاعل مع فكره وعطائه وهدفه والسعي إلى إحقاق الحقّ الذي من أجله استشهد.

الثالث: بكاء تحقيق الأمر بالمعروف، الذي قُتل من أجله وقصداً لتشييده، خصوصاً بعد أن أضحى البكاء عليه عليه السلام اليوم من أقوى سبل الدّعوة إلى الله تعالى والإسلام، وطريقاً لمعرفة الأصول الإعتقادية وتشييد الإعتقاد بها.

الرّابع: بكاء إنكار المنكر، ورفض الظلم والإستبداد، وتقبيح عمل الضّالين والطغاة، وما ينطوي عليه ذلك من تشييد لروح الشجاعة والصمود والوقوف في وجه المجرمين وقول كلمة الحق أمام السلطان الجائر، والتفاعل ضد ما أنكره الإمام الحسين عليه السلام على بني أميّة.

الخامس: بكاء القربة إلى الله تعالى، عبر التوحّد مع نفوس أوليائه

الطّاهرين عليهم السلام والإنغماس في نورانيّتهم، والتشبّه بأوضاع العارفين، والتألّم على ما هُتك من حزب الله تعالى، والتوجّع لما صدر في حقّ أولياء الله سبحانه وأمنائه على النّاس، وطلباً لنيل قبوله سبحانه وتعالى.

السّادس: بكاء القرب من الإمام الحسين عليه السلام، إذ أنّ بكاءه يقتضي الإنصهار والإندكاك ـ كما قدّمنا ـ في ذاته الشريفة، وهو أمر محبوب، إذ أنّه عليه السلام هو الأقرب من روح رسول الله صلى الله عليه وآله ونفسه، وهو حبيبه الذي قال فيه: حسين منّي وأنا من حسين، أحبّ الله من أحبّ حسيناً.

السابع: بكاء الحب والولاء لأهل البيت عليهم السلام، الذين ندب القرآن الكريم ودعى إلى حبّهم ومودّتهم، ونصّ على عالي مقامهم، إذ اعتبروا أن قضية الإمام الحسين عليه السلام هي قضيّتهم الأولى، وأكّدوا على إحياء أمرهم بالبكاء عليه، واعتبروا ذلك أداءً لحقوقهم، فلا يتقرّب المؤمن بالله تعالى بشيء إليهم كما يتقرّب لهم بالبكاء على الإمام الحسين عليه السلام، ولا شكّ أنّه عليه السلام الطريق الأقصر أمام الخلق للإرتباط بأهل البيت عليهم السلام.

الثامن: بكاء تشييد روح الإيمان والإباء، بدافع الإمتزاج بروحه الطّاهرة والتّأمّل في هدية وسيرته، والتأسّي برفضه إعطاء الذليل لعبيد الله بن زياد ويزيد بن معاوية، واختياره إباء الضيم ومواجهة الموت الكريم على هوان العبوديّة، فإنّ الله تعالى لم يرخّص المؤمن أن يذلّ نفسه على كلّ حال، وحقيق على من يتأثّر به عليه السلام أن يأبى الضيم ويرغب في معالي الأمور.

التاسع: بكاء الإئتمار لأمر النبي الكريم صلى الله عليه وآله والأئمة الطّاهرين عليهم السلام الذين بالغوا بالتأكيد على البكاء عليه، ودلّ على ذلك فعلهم وأمرهم وتقريرهم، وعند التحقيق نجد أنّ أحاديث فضل البكاء والإنشاد والزيارة الواردة عنهم تفوق

أحاديث بعض العبادات المهمّة كما لا يخفى على البصير، بما لا يدع مجالاً للشكّ في صدورها عنهم، وفي تأكّد إستحباب البكاء عليه عليه السلام.

العاشر: بكاء مواساة أهل البيت عليهم السلام في أحزانهم، وهو واجبٌ يفرضه حبّهم ومودّتهم والتوجّع لمصابهم، فإنّهم قد بكوا الإمام الحسين عليه السلام ولفتوا الأنظار ببكائهم عليه، وصدر منهم جميعاً ذلك، من نبيّنا الكريم صلى الله عليه وآله وحتّى الإمام المهدي المنتظر عليه السلام.. وقد مرّت بك أحاديث بكاء النّبي صلى الله عليه وآله بما لا مزيد عليه، إلاّ أنّي سأورد هذا الحديث من باب التبرّك..

فقد أخرج الحافظ الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين بإسناد مرفوع إلى أمّ الفضل بنت الحارث، أنّها دخلت على رسول الله صلى الله عليه وآله فقالت: يا رسول الله إنّي رأيت حلماً منكراً الليلة.

قال: وما هو؟

قالت: إنّه شديد!!

قال: وما هو؟

قال: كأنّ قطعة من جسدك قطعت ووضعت في حجري!

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: رأيت خيراً.. تلد فاطمة إن شاء الله غلاماً فيكون في حجرك.

فولدت فاطمة الحسين فكان في حجري كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله.. فدخلت يوماً إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فوضعته في حجره ثم حانت منّي إلتفاتة فإذا عينا رسول الله صلى الله عليه وآله تهريقان من الدّموع!

قالت: يا نبي الله، بأبي أنت وأمي، ما لك؟

قال: أتاني جبرئيل عليه السلام فأخبرني أنّ أمتي ستقتل إبني هذا!!

فقلت: هذا!!

فقال: نعم، وأتاني بتربة من تربته حمراء[1].

حزن الأسرة النبوية

لقد لفّت الأحزان والمآسي الكربلائية راية البشر في بيت علي وفاطمة عليهما السلام بعد واقعة الطّف، وتسربل بنو هاشم بسربال الحداد والعزاء، وبقيت صور الحادثة الدّامية شاخصة أمام ناظر الكبير والصغير منهم، وأثّرت الواقعة بأحداثها الدّامية على نفوسهم فاشتعلت بنيران الحزن والمصاب..

فقد روي في بحار الأنوار عن المرزباني بإسناده إلى الإمام جعفر بن محمد الصّادق عليه السلام أنه قال: ما اكتحلت هاشميّة، ولا اختضبت، ولا رُئي في دار هاشمي دُخان خمس حجج، حتى قتل عبيد الله بن زياد[2].

وروي فيه بالإسنادِ إلى السيّدة فاطمة بنت علي عليهما السلام أنّها قالت: ما تحنّأت امرأة منّا، ولا أجالت في عينها مروداً، ولا امتشطت، حتّى بعث المختار رأس

---

(١) أخرجه الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين (٣/١٧٦) وقال: هذا حديث صحيح، على شرط الشيخين ولم يخرجاه، كما أخرجه البيهقي بصوره المختلفة في دلائل النبوّة (٦/٤٦٨)، وابن عساكر في تاريخ دمشق، والخوارزمي في المقتل (١/١٥٩)، وابن الأثير في البداية والنهاية (٦/٢٠٣)، والسيوطي في الخصائص (٢/١٢٦)، وقريب منه ما أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/١٧٩)، وابن الصبّاغ المالكي في الفصول المهمّة، وابن حجر في الصواعق المحرقة، والمتقي الهندي في كنز العمّال، وهذا المعنى مستفيض في كتب الحديث.

(٢) راجع بحار الأنوار (٤٥/٣٨٦).

عبيد الله بن زياد[١].

ولقد طفت أحزان العترة النبويّة والأسرة العلويّة على صفحات كتب التأريخ فجلّلتها بالحزن والسّواد، وقد عطفت بعض الأخبار ثواب البكاء على مصاب الإمام الحسين عليه السلام على أحوال العترة وبكائهم وأحزانهم بعد الحادثة الدّامية، ممّا يركّز أنّ سرّ الثّواب الجزيل يكمُن في مواساة العترة الطّاهرة، كما في هذا الخبر ذي المضامين العالية:

فقد روي في كامل الزيارات بالإسناد إلى زرارة، أنّ الإمام الصّادق عليه السلام قال: .. وما اختضبت منّا امرأة، ولا ادّهنت، ولا اكتحلت، ولا رجّلت، حتى أتانا رأس عبيد الله بن زياد، وما زلنا في عبرة بعده، وكان جدّي إذا ذكره بكى حتى تملأ عيناه لحيته، وحتى يبكي لبكائه رحمة له من رآه، وإن الملائكة الذين عند قبره ليبكون فيبكي لبكائهم كل من في الهواء والسماء من الملائكة..

إلى أن قال:

وما من عين أحبّ إلى الله ولا عبرة من عين بكت ودمعت عليه، وما من باك يبكيه إلاّ وقد وصل فاطمة عليها السلام وأسعدها عليه، ووصل رسول الله صلى الله عليه وآله، وأدّى حقّنا، وما من عبد يُحشر إلاّ وعيناه باكية، إلاّ الباكين على جدي الحسين عليه السلام فإنّه يُحشر وعينه قريرة والبشارة تلقّاه، والسرور بيّن على وجهه، والخلق في الفزع وهم آمنون، والخلق يعرضون وهم حداث الحسين عليه السلام تحت العرش وفي ظل العرش، لا يخافون سوء يوم الحساب[٢].

---

(١) راجع بحار الأنوار (٣٨٦/٤٥).

(٢) راجع كامل الزيارات ص (٨١)، وبحار الأنوار (٢٠٧/٤٥)، ومستدرك الوسائل

فلا زالت أحزان أهل البيت عليهم السلام في اضطرام دائم وتجدّد مستمر، وكانت لوعاتهم على الإمام الحسين عليه السلام ولم تزل المظهر الأساس في سيَرهم، ولم يقتصر أئمة أهل البيت عليهم السلام على مناسبة خاصّة لإسبال الدّمع وإبداء الجزع في هذا المصاب، بل كانت دموعهم تنهمر في مواسم الحزن المقترنة بالحادثة كما تنهمر في غيرها، غير أنّ أحزانهم تشتدّ في شهر المحرّم، ولقد بكوا حتّى أبكوا، وأمروا شيعتهم بالبكاء، واءتمر الشّيعة لأمر أئمتهم الأبرار عليهم السلام بدافع الحب الكبير لهم.

فقد كان الحزن بكلّ صوره وأشكاله هو حال الأئمة الطّاهرين عليهم السلام على مرّ العصور، وسيرتهم مليئة بالأحزان والبكاء على سيّد الشهداء عليه السلام، ولكلّ منهم مظهر خاصٌ في هذا الصّدد، من زيّن عبّادهم علي بن الحسين عليه السلام.. وحتّى مهديّهم الحجّة بن الحسن عليه السلام..

إلاّ أنّ المُلفت للأنظار أنّ الأئمة عليهم السلام سلكوا سبلاً غاية في الأهميّة في سبيل إذكاء المصاب، وعملوا على تصوير المأساة بآلامها المحرقة، وبيّنوا إنعكاساتها المؤلمة على نفوس أهل البيت عليهم السلام، وكم خلّفت من الحسرات والأسى في صدورهم، حتى مزجوا ذكر الله تعالى بآهاتهم الحسينية، وقد نقل الرّواة أشجى المشاهد عن حالات الأئمة عليهم السلام في هذا الإتّجاه، وسنمرّ على صور أحزانهم تباعاً.

←

(٣١٣/١٠).

بكاء الإمام السّجاد عليه السلام

إمتاز حزن الإمام علي بن الحسين عليه السلام على أحزان سائر الأئمة الطّاهرين عليهم السلام بالشجاء المرير، لكونه الشّاهد الذي وقف على مصرع أبيه سيّد الشّهداء عليه السلام والشهداء من أهل بيته وأصحابه الميامين رضي الله عنهم وتجرع غصص بلائهم وغموم أرزائهم وآلام مصائبهم المفجعة، وعاين الوقعة بكل تفاصيلها وصورها المفجعة، وقاسى من بعد هول الحادثة مرارة الأسر والذّل، فلم تنقطع عبرته ما دام حياً.

فقد روي في المناقب: أنّه عليه السلام بكى حتى خيف على عينيه، وكان إذا أخذ ماءً بكى حتى يملأها دماً، فقيل له في ذلك، فقال: كيف لا أبكي وقد مُنع أبي من الماء الذي كان مطلقاً للسباع والوحوش، وقيل له: أنك لتبكي دهرك فلو قتلت نفسك لما زدت على هذا، فقال: نفسي قتلتها وعليها أبكي[1].

وفيه أيضاً: أنّه كلّما جاء وقت الطعام وفتحت مصاريع الأبواب للناس ووضع طعامه بين يديه دمعت عيناه، فقال له أحد مواليه ذات مرة: يا ابن رسول الله، أما آن لحزنك أن ينقضي؟ فقال له زين العابدين: ويحك أن يعقوب عليه السلام كان له اثنا عشر ابناً، فغيب الله واحداً منهم، فابيضت عيناه من الحزن وكان ابنه يوسف حياً في الدنيا، وأنا نظرت إلى أبي وأخي وعمي وسبعة عشر من أهل بيتي وقوماً من أنصار أبي مصرّعين حولي، فكيف ينقضي حزني!![2].

---

(١) راجع مناقب ابن شهراشوب (٤/١٦٦)، وبحار الأنوار (٤٦/١٠٨).

(٢) راجع مناقب ابن شهراشوب (٤/١٦٥)، وبحار الأنوار (٤٦/١٠٨)، ووسائل الشيعة

وروي في روضة الواعظين: عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: عاش علي بن الحسين أربعين سنة وما وضع طعام بين يديه إلاّ وبكى، حتى قال له مولى له: جعلت فداك، يا ابن رسول الله، إني أخاف أن تكون من الهالكين، قال عليه السلام: إنّما أشكو بثّي وحزني إلى الله، وأعلم من الله ما لا تعلمون، إني لم أذكر مصرع بني فاطمة إلاّ خنقتني العبرة[1].

وروي في الوسائل عن الإمام الصادق عليه السلام أنه بكى على أبيه الحسين أربعين سنة صائماً نهاره قائماً ليله، فإذا أحضر الإفطار وجاء غلامه بطعامه وشرابه فيضعه بين يديه، فيقول: كُل يا مولاي، فيقول: قتل ابن رسول الله جائعاً، قتل ابن رسول الله عطشاناً، فلا يزال يكرّر ذلك ويبكي حتى يَبل طعامه من دموعه، ثم يمزج شرابه بدموعه، فلم يزل كذلك حتى لحق بالله عز وجل[2].

وروي في بحار الأنوار عند ذكر شعر الإمام زين العابدين عليه السلام هذه الأبيات:

نحن بنوا المصطفى ذووا غصص ... يجرعها في الأنام كاظمُنا

عظيمة في الأنام محنتنا ... أوّلنا مبتلى وآخرنا

يفرح هذا الورى بعيدِهِم ... ونحن أعيادنا مآتمنا

(٢٨٢/٣)، واللهوف ص (٢٠٩)، ومسكن الفؤاد ص (١٠٠).

(١) راجع روضة الواعظين (٤٥٠/٢)، ومناقب ابن شهراشوب (١٦٥/٤)، وبحار الأنوار (١٠٨/٤٦)، وقصص الأنبياء للجزائري ص (١٧٥)، وكامل الزيارات ص (١٠٧)، ومكارم الأخلاق ص (٣١٥).

(٢) راجع وسائل الشيعة (٢٨٢/٣ و ٢٧٨/٢٥)، وبحار الأنوار (١٤٩/٤٥)، واللهوف ص (٢٠٩)، والمجالس السنية للسيّد محسن الأمين ص (١٤٦).

والنـاس في الأمـن والسّرور ومـا يـأمن طـول الـزمان خائفنـا
ومـا خصصـنا بـه مـن الشـرف الطائـل بـين الأنـام آفـتنا
يحـكم فيـنا والحكـم فيـه لنـا جاحـدنا حقّـنا وغاصبنـا(١)

بكاء الإمام الباقر عليه السلام

تنص الرّوايات والأخبار على حضور الإمام محمّد بن علي الباقر عليه السلام في الطّف، فقد شهد الواقعة الدّامية وهو طفل صغير، وكان مع جملة نساء الإمام الحسين عليه السلام وأطفاله في السبي، إلاّ أنّ أخبار أحزانّه مقتضبة جدّاً، ونلاحظ شحّ أخبار بكائه وأحزانه بالنسبة إلى أخبار سائر الأئمة عليهم السلام، فقليلاً ما يذكر المؤرّخون ذكر إقامة المآتم والنياحات العلنية على عهده..

والسرّ في ذلك ضيق الظّرف الذي عاشه الإمام الباقر عليه السلام، وشدّة ضغوط الأمويّين عليه عليه السلام وعلى آله وأصحابه، فلقد عاني المقرّبون من آل علي عليه السلام في زمانه معاناة شديدة، لكنّ صعوبة تلك الظروف لم تعق تأكيد القضيّة الحسينيّة وإظهار أحزانها، فقد عمد أهل البيت عليهم السلام في هذه الحالات إلى إقامة المآتم في بيوتهم الخاصة وراء الأستار الكثيفة، ولم يحضرها سوى خاصّتهم..

ولقد كانت أحزان مولانا الباقر عليه السلام على مصاب جدّه الإمام الحسين عليه السلام كأحزان أبيه عليه السلام وسائر أولاده وعترته، فهم جميعاً يستشعرون الحزن كلّما هل هلال المحرم، وكانت تفد عليهم عليهم السلام وفود من الشّعراء العرب لتجديد تلك الذكرى، وقد ألقوا الرّوائع من شعرهم الخالد وتنافسوا في هذا الصّدد، وازدهر فن رثائه في أحلك الظروف، وظل شعرهم خالداً رغم مرّ العصور.

---

(١) راجع بحار الأنوار (٤٦/٩٢)، عنه المناقب (٤/١٥٦)، وأعيان الشيعة (٤/٢٤٩).

ونقل المؤرّخون أن الشاعر العربي الكميت بن زيد الأسدي ـ وهو من شعراء العصر الأموي، والمتوفّى في سنة (١٢٦) هـ ـ قد جعل معظم قصائده في مدح بني هاشم وذكر مصائب آل الرسول عليه السلام حتى سمّيت قصائده بالهاشميات، وقال أرباب التراجم أنّه كان ينشد معظمها في مجالس الإمام الصادق عليه السلام وأبيه محمد الباقر عليه السلام وجدّه علي بن الحسين عليه السلام[1].

ونقل المؤرّخون أنّ الكميت الأسدي قدم المدينة وأنشد الإمام محمد الباقر عليه السلام الشّعر، فلمّا بلغ قوله:

وقتيل بالطف غودر منهم بين غوغاء أمة وطغام

بكى الإمام ثم قال: يا كميت، لو كان عندنا مال لأعطيناك، ولكن لك ما قال الرسول لحسان بن ثابت: لا زلت مؤيداً بروح القدس ما ذببت عنا أهل البيت[2].

وفي الكافي الشريف: بإسناده إلى الكميت بن زيد الأسدي، قال: دخلت على أبي جعفر عليه السلام فقال: والله يا كميت لو كان عندنا مال لأعطيناك منه، ولكن لك ما قال رسول الله صلى الله عليه وآله لحسّان بن ثابت: لن يزال معك روح القدس ما ذببت عنّا، قال: قلت: خبّرني عن الرجلين؟ قال: فأخذ الوسادة فكسرها في صدره ثم قال: والله يا كميت، ما أهريق محجمة من دم و لا أخذ مال من غير حلّه، ولا قلب حجر عن حجر إلاّ ذاك في أعناقهما.

وروي في كامل الزيارات بالإسناد إلى أبي جعفر الباقر عليه السلام أنّه قال: من

---

(١) راجع كتاب نهضة الحسين ص (١٥٢).

(٢) راجع الكثير من تلك الأخبار بمصادرها في كتاب الشيعة والحاكمون ص (١٢٦).

زار الحسين عليه السلام يوم عاشوراء من المحرم حتى يظل عنده باكياً لقي الله تعالى يوم القيامة بثواب ألفي ألف حجّة، وألفي ألف عمرة، وألفي ألف غزوة، وثواب كل حجة وعمرة وغزوة كثواب من حج واعتمر وغزا مع رسول الله صلى الله عليه وآله ومع الأئمة الراشدين صلوات الله عليهم أجمعين.

فقيل له: جُعلت فداك، فما لمن كان في بعد البلاد وأقاصيها، ولم يمكنه المسير إليه في ذلك اليوم؟

قال: إذا كان ذلك اليوم برز إلى الصحراء أو صعد سطحاً مرتفعاً في داره وأومأ إليه بالسلام واجتهد على قاتله بالدعاء وصلى بعده ركعتين، يفعل ذلك في صدر النهار قبل الزوال، ثم ليندب الحسين عليه السلام ويبكيه ويأمر من في داره بالبكاء عليه ويقيم في داره مصيبته بإظهار الجزع عليه، ويتلاقون بالبكاء بعضهم بعضاً في البيوت وليعزّ بعضهم بعضاً بمصاب الحسين عليه السلام فأنا ضامن لهم إذا فعلوا ذلك على الله عز وجل جميع هذا الثواب.

فقيل له: جُعلت فداك، وأنت الضّامن لهم إذا فعلوا ذلك والزعيم به؟

قال: أنا الضامن لهم ذلك والزعيم لمن فعل ذلك.

فقيل له: فكيف يعزي بعضهم بعضاً؟

قال: يقولون: عظم الله أجورنا بمصابنا بالحسين عليه السلام وجعلنا وإياكم من الطّالبين بثأره مع وليه الإمام المهدي من آل محمد صلى الله عليه وآله، فإن استطعت أن لا تنتشر يومك في حاجة فافعل، فإنه يوم نحس لا تقضي فيه حاجة، وإن قضيت لم يبارك له فيها ولم ير رشداً، ولا تدّخرن لمنزلك شيئاً فإنه من ادخر لمنزله شيئاً في ذلك اليوم لم يبارك له فيما يدّخره، ولا يبارك له في أهله، فمن فعل ذلك كتب له ثواب ألف ألف حجّة وألف ألف عمرة وألف ألف غزوة، كلها مع رسول الله

عليه السلام، وكان له ثواب مصيبة كل نبي ورسول وصدّيق وشهيد، مات أو قتل منذ خلق الله الدنيا إلى أن تقوم الساعة[1].

بكاء الإمام الصادق عليه السلام

لقد كان الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أكثر الأئمة الطّاهرين عليهم السلام حزناً وبكاءً ونياحةً على جده الشهيد عليه السلام بحسب الأخبار الواردة، وكان له الشطر الأكبر من المرويّات في هذا الباب، والسرّ في هذه الظّاهرة راجعٌ إلى انشغال الدّولة الأمويّة عن أهل البيت عليهم السلام بمحنها واضطراباتها السّياسيّة وضعفها وإشرافها على السقوط، إذ تداعت في هذه الفترة بالذات أركان سلطتها وآل أمرها إلى التبدّد والضّعف الشّديد، فقد عاصر عليه السلام عهد التحوّل السّياسي من الدّولة الأمويّة إلى العبّاسية، واستغلّ إنشغال الدّولتين بعبقريّة وذكاء كبيرين، وتوالت الرّوايات والأخبار في وصف بكائه ونحيبه وتواترت، وملأت بطون كتب التاريخ وأسفار الحديث بشكل واضح ومكثّف.

فقد روي في كامل الزيارات بالإسناد إلى أبي أبي بصير، قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام أحدّثه، فدخل عليه إبنه، فقال له: مرحباً، وضمّه وقبّله، وقال: حقّر الله من حقّركم، وانتقم ممّن وتركم، وخذل الله من خذلكم، ولعن الله من قتلكم، وكان الله لكم وليّاً وحافظاً وناصراً، فقد طال بكاء النّساء وبكاء الأنبياء والصدّيقين والشهداء وملائكة السّماء، ثم بكى وقال: يا أبا بصير، إذا نظرت

---

(١) راجع كامل الزيارات ص (١٧٤)، ووسائل الشيعة (١٤/٥٠٩)، ومستدرك الوسائل (١٠/٣١٥)، والبلد الأمين ص (٢٦٩)، ومصباح الكفعمي ص (٤٨٢)، ومصباح المتهجد ص (٧٧).

إلى ولد الحسين أتاني ما لا أملكه بما أتى إلى أبيهم وإليهم.

يا أبا بصير، إن فاطمة عليها السلام لتبكيه وتشهق، فتزفر جهنم زفرة لو لا أن الخزنة يسمعون بكاءها وقد استعدّوا لذلك مخافة أن يخرج منها عنق أو يشرد دخانها فيحرق أهل الأرض فيحفظونها ما دامت باكية، ويزجرونها ويوثقون من أبوابها مخافة على أهل الأرض، فلا تسكن حتى يسكن صوت فاطمة الزهراء، وإن البحار تكاد أن تنفتق، فيدخل بعضها على بعض، وما منها قطرة إلاّ بها ملك موكل، فإذا سمع الملك صوتها أطفأ نارها بأجنحته وحبس بعضها على بعض مخافة على الدنيا وما فيها ومن على الأرض، فلا تزال الملائكة مشفقين يبكونه لبكائها ويدعون الله ويتضرعون إليه ويتضرع أهل العرش ومن حوله وترتفع أصوات من الملائكة بالتقديس لله مخافة على أهل الأرض، ولو أن صوتا من أصواتهم يصل إلى الأرض لصعق أهل الأرض وتقطعت الجبال وزلزلت الأرض بأهلها.

قلت: جُعلت فداك، إن هذا الأمر عظيم!!

قال: غيره أعظم منه ما لم تسمعه.

ثم قال لي: يا أبا بصير، أ ما تحب أن تكون فيمن يسعد فاطمة عليها السلام؟

فبكيت حين قالها، فما قدرت على المنطق، وما قدر على كلامي من البكاء، ثم قام إلى المصلّى يدعو، فخرجت من عنده على تلك الحال، فما انتفعت بطعام وما جاءني النوم وأصبحت صائما وجلاً حتى أتيته، فلما رأيته قد سكن سكنت وحمدت الله حيث لم تنزل بي عقوبة[1].

---

(١) راجع كامل الزيارات ص (٨٢)، وبحار الأنوار (٤٥/٢٠٨)، ومستدرك الوسائل (١٠/٣١).

وروي في كامل الزيارات بالإسناد إلى أبي عمارة المنشد، قال: ما ذكر الحسين عليه السلام عند أبي عبد الله عليه السلام في يوم قط فرُأيَ أبو عبد الله عليه السلام متبسّماً في ذلك اليوم إلى الليل، وكان عليه السلام يقول: الحسين عليه السلام عبرة كل مؤمن[١].

بكاء الإمام الكاظم عليه السلام

ونلاحظ عند البحث والتحرّي شحّ المرويات المنقولة لنا عن حزن وبكاء الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام، والسّر في ذلك راجع إلى اشتداد الوطأة العبّاسيّة وسياستها الشديدة مع كل ما يمتّ للعلويّين بالصّلة، وقد بالغوا في الحرب ضدّ بني فاطمة الزّهراء عليها السلام جاهدين لمحق هذا الشّعار، وكانت مرحلة صعبة ومهمّة في تاريخ أهل البيت عليهم السلام وطقوسهم المحبّبة، فهي معركة وجود!!

لقد عاصر عليه السلام أعتى حكّام بني العبّاس على الإطلاق، وعايش نشاط الدّولة الجديدة الفتيّة، واستواء الرشيد على كرسي الحكم العقيم، وصبر على جفوتهم وكظم على ظلمهم، حتّى بلغ الحال أن قضى - وهو شيخ الطّالبيّين وإمام الأمّة - زهرة عمره الشريف في زنازينهم، ينقل من سجن إلى سجن، وتوالت عليه كروب الغربة والفقد وبعد الأهل ومعاناة السجن، حتّى قُبض في سجن هارون الرشيد مظلوما مسموماً مهتضماً..

ولقد طُمرت - في تلك الفترة العاتية - أصواتُ العترة الطيّبة في غياهب السجون، وزُجّ بالعلويّين في أقسى المحابس وأبعدها عن نور الشّمس، ونُكّل بأهل بيت النبي الكريم صلى الله عليه وآله شرّ تنكيل، وتقرّب القادة والزّعماء والولاة والسّعاة

---

(١) راجع كامل الزيارات ص (١٠١ و ١٠٨)، وبحار الأنوار (٤٤/٢٨٠)، ومستدرك الوسائل (١٠/٣١٢).

إلى الرّشيد ووزرائه بدماء بني علي وفاطمة عليهما السلام، وكم قدّمت رؤوسهم إلى هارون تُحَفاً في أيّام أعياد النّوروز، حتّى ضاقت عليهم الأرض بما رحُبت، وكان بطن الأرض لهم خير من ظهرها.

ومع كلّ هذا الصّلف العاتي والسيرة الظّالمة فقد حافظ الشيعة الأبرار على إرث الحزن النبوي، وضمّوا الشعائر الحسينية في قلوبهم البارّة، وأذكوا شعلة الأحزان على سيّد الشهداء عليه السلام بكلّ أمانة وقوّة، ولم يمنعهم الظرف الذي حجب إمامهم عنهم من رفع هذا الشّعار، فقد أحيوا أحزانهم وجدّدوا مصابهم به في قعر بيوتهم أسوة بإمامهم عليه السلام.

وقد نقل الإمام الرّضا عليه السلام لنا صورة مشجية عن أحوال أبيه الإمام الكاظم عليه السلام في شهر المحرّم، وهي عمدة النّصوص في أحزانه على جدّه المظلوم عليه السلام.

فقد روى الشيخ الصدوق رحمه الله بإسناده إلى إبراهيم بن أبي محمود قال: قال الإمام الرضا عليه السلام: كان أبي عليه السلام إذا دخل شهر المحرم لا يُرى ضاحكاً، وكانت الكآبة تغلب عليه حتى يمضي منه عشرة أيام، فإذا كان يوم العاشر كان ذلك اليوم يوم مصيبته وحزنه وبكائه، ويقول: هو اليوم الذي قتل فيه الحسين عليه السلام[(١)].

بكاء الإمام الرضا عليه السلام

وتعود في عهد الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام الأحزان ظاهرة معلنة كسابق عهدها، وقد امتلأت كتب التاريخ والحديث بأخبار حزنه على جده

---

(١) راجع أمالي الصدوق ص (١٢٨)، وبحار الأنوار (٢٨٤/٤٤)، ووسائل الشيعة (٥٠٥/١٤)، وإقبال الأعمال ص (٥٤٤)، وروضة الواعظين (١٦٩/١).

الإمام الحسين عليه السلام ، ولا يخامرني أدنى شكّ في أنّ الإمام عليه السلام إنّما قَبل ولاية العهد لينهض بعلوم أهل البيت عليهم السلام التي حاول طمسها حكّام الجور وطغاة الأمّة ، ولقد شيّد عليه السلام العلم النبوي في فترة ولايته للعهد بشكل ظاهر ، فالروايات المرويّة عنه عليه السلام كثيرة جدّاً ، وفي مختلف أبواب الدّين والعلوم ، ولا تظهر عليها ملامح التقيّة إلاّ نادراً..

ولقد رفع الإمام الرضا عليه السلام شعار الأحزان وأعلن وجده على جدّه الإمام الحسين عليه السلام وهو متربّع على هرم السّلطة وولاية العهد التي قبل بها مرغماً ، واستقبل الشعراء والرّثاة والمنشدين في بيت الحكم ، وسنواجه في هذا الفصل ـ إن شاء الله تعالى ـ خبر دعبل بن علي الخزاعي رحمه الله الذي أنشد تائيّته العصماء في محضره الشريف.

وتتميّز المرويّات الصّادرة عن مولانا الإمام الرضا عليه السلام في موضوع الإمام الحسين عليه السلام بالحرارة واللوعة والأسى ، وتظهر عليها سِمَة الحزن الكبير، كما أنّها تنطوي على تفاصيل مهمّة جدّاً..

فقد روى الشيخ الصدوق رحمه الله بأسناده إلى إبراهيم بن أبي محمود ، قال : قال الإمام الرّضا عليه السلام : إن المحرّم شهر كان أهل الجاهليّة يحرّمون فيه القتال ، فاستحلّت فيه دماؤنا ، وهُتكت فيه حُرمتُنا ، وسُبيَ فيه ذرارينا ونساؤُنا ، وأُضرمت النّيران في مضاربنا ، وانتُهب ما فيها من ثقلنا ، ولم تُرع لرسول الله حرمة في أمرنا.

إن يوم الحسين أقرح جفوننا ، وأسبل دموعنا ، وأذلّ عزيزنا بأرض كرب وبلاء ، أورثتنا الكرب والبلاء إلى يوم الإنقضاء ، فعلى مثل الحسين فليبك الباكون فإنّ البكاء عليه يحطّ الذّنوب العظام.

ثم قال عليه السلام :

كان أبي إذا دخل شهر المحرّم لا يُرى ضاحكا وكانت الكآبة تغلب عليه حتى يمضي منه عشرة أيّام، فإذا كان يوم العاشر كان ذلك اليوم يوم مصيبته وحزنه وبكائه ويقول: هو اليوم الذي قتل فيه الحسين صلى الله عليه[١].

وفي هذا الخبر يستعرض مولانا الإمام علي بن موسى الرّضا عليه السلام المأساة بعمقها التاريخي والمأساوي، ويُبيّن مدى تأثيرها على أهل البيت عليهم السلام، ويؤكّد عظمة شهر المحرّم وفظيع من انتهك فيه من حريمهم المقدّسة..

وروى الشيخ الصّدوق رحمه الله بإسناد يرفعه إلى الريّان بن شبيب، قال: دخلت على الرّضا عليه السلام في أول يوم من المحرم، فقال لي: يا ابن شبيب أصائمٌ أنت؟

فقلت: لا!!

فقال: إن هذا اليوم هو اليوم الذي دعا فيه زكريّا ربّه عز وجل، فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾[٢]. فاستجاب الله له، وأمر الملائكة فنادت زكريّا وهو قائم يصلي في المحراب: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى﴾[٣] فمن صام هذا اليوم ثم دعا الله عز وجل استجاب الله له كما استجاب لزكريّا عليه السلام.

ثم قال: يا ابن شبيب، إن المحرّم هو الشّهر الذي كان أهل الجاهلية فيما

---

(١) راجع أمالي الصدوق ص (١٢٨)، وبحار الأنوار (٤٤/٢٨٣)، ووسائل الشيعة (١٤/٥٠٥)، وإقبال الأعمال ص (٥٤٤)، وروضة الواعظين (١/١٦٩)، ومناقب ابن شهراشوب (٤/٨٦).

(٢) سورة آل عمران: الآية ٣٨.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٣٩.

مضى يحرّمون فيه الظلم والقتال لحرمته، فما عرفت هذه الأمّة حرمة شهرها ولا حرمة نبيّها، لقد قتلوا في هذا الشّهر ذريّته، وسبوا نساءه، وانتهبوا ثقلة، فلا غفر الله لهم ذلك أبدا.

يا ابن شبيب إن كنت باكياً لشيء فابك للحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام فانه ذبح كما يذبح الكبش، وقتل معه من أهل بيته ثمانية عشر رجلاً، ما لهم في الأرض شبيهون.

ولقد بكت السّماوات السّبع والأرضون لقتله، ولقد نزل إلى الأرض من الملائكة أربعة آلاف لنصره، فوجدوه قد قتل، فهم عند قبره شعث غبر إلى أن يقوم القائم، فيكونون من أنصاره، وشعارهم يا لثارات الحسين.

يا ابن شبيب، لقد حدثني أبي عن أبيه عن جدّه أنّه لما قتل جدي الحسين أمطرت السّماء دماً وتراباً أحمر.

يا ابن شبيب، إن بكيت على الحسين حتى تصير دموعك على خدّيك غفر الله لك كل ذنب أذنبته صغيرا كان أو كبيرا، قليلا كان أو كثيرا..

يا ابن شبيب، إن سرك أن تلقى الله عز وجل ولا ذنب عليك، فزر الحسين عليه السلام.

يا ابن شبيب، إن سرّك أن تسكن الغرف المبنية في الجنّة مع النّبي صلى الله عليه وآله فالعن قتلة الحسين.

يا ابن شبيب، إن سرّك أن يكون لك من الثّواب مثل ما لمن استشهد مع الحسين فقل متى ما ذكرته: يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما.

يا ابن شبيب، إن سرّك أن تكون معنا في الدّرجات العُلى من الجنان، فاحزن لحزننا، وافرح لفرحنا، وعليك بولايتنا، فلو أن رجلاً تولّى حجراً

لحشره الله معه يوم القيامة[١].

بكاء أبناء الرّضا عليه السلام

أكّد لنا التاريخ أنّ الأئمة الطّاهرين عليهم السلام الذين خلفوا الإمام علي الرّضا عليه السلام عُرّفوا به بين النّاس، وكان يُدعى واحدُهم بابن الرضا، نظراً لشهرته عليه السلام وانتشار إسمه كوليّ لعهد المأمون، إذ كان تسنّمه الجبري لهذا المنصب يُعدّ آخر ظهور للإمامة على السّاحة السّياسيّة أو الإجتماعيّة، لينحدر مستوى الظّهور والبروز من بعد ذلك إلى أقصى صور البُعد عن السّاحة.

ولقد توالى الحكّام من بني العبّاس على كرسيّ الخلافة محمّلين بأعباء التجربة التي أودت بشخصيّة المأمون السّياسية، فعمل التّالون له على إقصاء آل علي عليه السلام ومنابذة ساداتهم الأئمة عليهم السلام وعزلهم عن المجتمع، وقد بالغ التّالون في حرب الشعائر المتّصلة بالعلويّين، وتفنّنوا في بناء السّدود بين الأمّة والأئمة عليهم السلام حتّى أقصوهم عن حواضر الدّولة الإسلاميّة ونفوهم إلى أقصى القُرى.

لقد نهض الأئمة الطّاهرون عليهم السلام بأعباء شعائر الحزن على جدّهم الإمام الحسين عليه السلام بعناء كبير، واستغلّوا المتنفّسات البسيطة ليقولوا كلمتهم في أحلك الظروف وأعتاها، فلقد عمل الإمام محمّد بن علي الجواد، وولده الإمام علي بن محمد الهادي، وولده الإمام الحسن بن علي العسكري عليه السلام على تقوية الشعائر تبعاً للسياسة التي كان يمارسها الخلفاء العباسيون وسلطاتهم تجاه شيعتهم الأبرار، فكانوا يقيمونها سرّاً في الأعم الأغلب، وتارة تُمنع حتّى إذا كانت سرّاً!!

---

(١) راجع عيون أخبار الرضا عليه السلام (٢٩٩/١)، أمالي الصدوق ص (١٢٩)، إقبال الأعمال ص (٥٤٤)، بحار الأنوار (٢٨٥/٤٤) و (١٠٢/٩٨) ووسائل الشيعة (٥٠٢/١٤).

فلمّا صاهر المأمون العبّاسي الإمام الجواد عليه السلام وزوّجه ابنته ابنته أم الفضل تساهل في أمر أحزان العلويّين على الإمام الحسين عليه السلام ، فقد كانت المجالس تقام في دور العلويين علناً ودون أي ضغط ، واستمرت هذه الحالة إلى عهد المعتصم الذي كان يسعى لمراعاة شعور العلويين والموالين لآل البيت عليهم السلام ، فكان يسمح لهم بإقامة المناحات الحسينية في دورهم وخارجها ، سراً وعلناً.

ثم تشدّد الحكّام الذين خلفوا المعتصم في أمر الشعائر الحسينية ، وضيّقوا الخناق على الأئمة الطّاهرين عليهم السلام وشيعتهم ومواليهم ، ومنعوهم من إقامتها بكل وسيلة ، غير أنّ الشيعة الذين لم يقيموا العزاء علناً لم يمتنعوا عن إقامتها سراً في دورهم.

وينقل التّاريخ أنهم كانوا يسدلون الأستار على الأماكن التي كانوا يقيمون فيها شعائر الحزن ، سواء كانت في دورهم أو عند قبور الأئمة الطّاهرين عليهم السلام ، إذ أنّهم كانوا يقصدون قبر الإمام الحسين عليه السلام بكربلاء ، وقبر الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في النجف الأشرف ، وقبري الإمامين الجوادين في الكاظميّة وهو المكان المعروف حينئذ بمقابر قريش ، وعند التحرّي نجد أنّ أخبار إقامة الشّعائر الحسينيّة على عهد الإمامين الهادي والعسكري شحيحة جدّاً.

بكاء الإمام المنتظر عليه السلام

الإمام صاحب الدّار عليه السلام هو وريث الحزن الحسيني كلّه على الإطلاق ، وهو تالي الإمام زين العابدين عليه السلام في حزنه وبكائه ، إن لم يكن معه في رتبته ، فهو الولي لثأر جدّه المظلوم عليه السلام ، الذي يملأها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً ، وقد دلّت الأخبار على أنّ منطلق نهضته بعد مكّة والمدينة.. هي كربلاء!!

وقد روى المحدّثون زيارتين جليلتين عن الإمام المنتظر عليه السلام، أمّا الأولى فإنّه يزور الشّهداء شهيداً بعد شهيد، ويذكر أسماء من استشهد بين يدي جدّه عليه السلام، وأمّا الثّانية فإنّه عليه السلام يُبدي فيها أحزانه ولواعجه تجاه مصيبة جدّه التي تصغر عندها مصائب الدّنيا، وفيها يستعرض بعض المشاهد المؤلمة ضمن مسلسل الأحداث المهيّجة الواقعة على مسرح الطّف، وهي كفيلة بإذكاء لوعة الحزن الحسيني وشبّ لوعته على مرور الليالي والأيّام، ويكفينا أن نمر ببعض فقراتها..

فقد قال تالي السلف ومعدن الشرف في زيارة جدّه الإمام الحسين عليه السلام:

السلام على المرمّل بالدماء، السلام على المهتوك الخباء، السلام على خامس أصحاب أهل الكساء، السلام على غريب الغرباء، السلام على شهيد الشهداء، السلام على قتيل الأدعياء، السلام على ساكن كربلاء، السلام على من بكته ملائكة السماء.

ويقول عليه السلام:

السلام على الجيوب المضرّجات، السلام على الشّفاه الذابلات، السلام على النفوس المُصطلمات، السلام على الأرواح المختلسات، السلام على الأجساد العاريات، السلام على الجسوم الشّاحبات، السلام على الدّماء السّائلات، السلام على الأعضاء المقطّعات، السلام على الرؤوس المشالات، السلام على النسوة البارزات.

ويقول عليه السلام:

السلام على القتيل المظلوم، السلام على أخيه المسموم، السلام على علي الكبير، السلام على الرضيع الصغير، السلام على الأبدان السليبة، السلام على العترة القريبة، السلام على المجدّلين في الفلوات، السلام على النازحين

عن الأوطان، السلام على المدفونين بلا أكفان، السلام على الرؤوس المفرقة عن الأبدان.

ويقول عليه السلام:

السلام على من هُتكت حرمتُه، السلام على من أريق بالظلم دمُه، السلام على المغسّل بدم الجراح، السّلام على المجرع بكاسات الرّماح، السلام على المُضام المستباح، السلام على المنحور في الورى، السلام على من دفنه أهل القرى.

ويقول عليه السلام:

السلام على المقطوع الوتين، السلام على المحامي بلا معين، السلام على الشيب الخضيب، السلام على الخد التريب، السلام على البدن السليب، السلام على الثغر المقروع بالقضيب، السلام على الرأس المرفوع، السلام على الأجسام العارية في الفلوات، تنهشها الذئاب العاديات، وتختلف إليها السباع الضّاريات..

ويقول عليه السلام:

السلام عليك، سلام العارف بحرمتك، المخلص في ولايتك، المتقرب إلى الله بمحبتك، البريء من أعدائك، سلام من قلبه بمصابك مقروح، ودمعه عند ذكرك مسفوح، سلام المفجوع الحزين، الواله المستكين..

ويقول عليه السلام:

سلام من لو كان معك بالطفوف، لوقاك بنفسه حد السيوف، وبذل حشاشته دونك للحتوف، وجاهد بين يديك، ونصرك على من بغى عليك، وفداك بروحه وجسده، وماله وولده، وروحه لروحك فداء، وأهله لأهلك وقاء.

فلئن أخّرتني الدّهور، وعاقني عن نصرك المقدور، ولم أكن لمن حاربك محارباً، ولمن نصب لك العداوة مناصباً، فلأندبنّك صباحاً ومساءً، ولأبكينّ لك بدل الدّموع دماً، حسرة عليك وتأسّفاً، على ما دهاك وتلهّفاً، حتّى أموت بلوعة المصاب، وغصّة الإكتئاب.

ويقول عليه السلام:

قد عجبت من صبرك ملائكة السماوات، فأحدقوا بك من كل الجهات، وأثخنوك بالجراح، وحالوا بينك وبين الرواح، ولم يبق لك ناصر، وأنت محتسب صابر، تذب عن نسوتك وأولادك، حتى نكسوك عن جوادك، فهويت إلى الأرض جريحاً، تَطَؤُك الخيول بحوافرها، أوتعلوك الطّغاة ببواترها، قد رشح للموت جبينك، واختلفت بالانقباض والإنبساط شمالك ويمينك، تدير طرفاً خفيّاً إلى رحلك وبيتك، وقد شُغلت بنفسك عن ولدك وأهاليك..

وأسرع فرسُك شارداً، إلى خيامك قاصداً، محمحماً باكياً، فلمّا رأين النّساء جوادك مخزيّاً، ونظرن سرجَك عليه ملويّاً، برزن من الخدور، ناشرات الشعور، على الخدود لاطمات، الوجوه سافرات، وبالعويل داعيات، وبعد العزّ مذللات، وإلى مصرعك مبادرات، والشّمر جالس على صدرك، ومولغ سيفه على نحرك، قابض على شيبتك بيده، ذابح لك بمهنده، قد سكنت حواسك، وخفيت أنفاسك، ورفع على القناة رأسك.

ويقول عليه السلام:

وسبي أهلك كالعبيد، وصفّدوا في الحديد، فوق أقتاب المطيّات، تلفح وجوههم حر الهاجرات، يساقون في البراري والفلوات، أيديهم مغلولة إلى الأعناق، يطاف بهم في الأسواق.

ويقول عليه السلام :

فقام ناعيك عند قبر جدك الرسول صلى الله عليه وآله ، فنعاك إليه بالدمع الهطول ، قائلا : يا رسول الله ، قتل سبطك وفتاك ، واستبيح أهلك وحماك ، وسبيت بعدك ذراريك ، ووقع المحذور بعترتك وذويك ، فانزعج الرسول ، وبكى قلبه المهول ، وعزّاه بك الملائكة والأنبياء ، وفجعت بك أمّك الزهراء ، واختلف جنود الملائكة المقرّبين ، تعزّي أباك أمير المؤمنين ، وأقيمت لك المآتم في أعلى علّيين ، ولطمت عليك الحور العين ، وبكت السّماء وسكانها ، والجنان وخزانها ، والهضاب وأقطارُها ، والبحار وحيتانها ، والجنان ووُلدانها ، والبيت والمقام ، والمشعر الحرام ، والحل والإحرام(١) .

وإذا تأمّلت في هذا النّص الشريف عرفت أنّ أحزان المولى صاحب الأمر تفوق أحزان الجميع على مصاب جدّه عليه السلام ، خصوصاً بعد التأمّل في قوله (فلأندبنّك صباحاً ومساءً ، ولأبكينّ لك بدل الدّموع دماً ، حسرة عليك وتأسّفاً ، على ما دهاك وتلهّفاً ، حتّى أموت بلوعة المصاب ، وغصّة الإكتئاب)..

لقد اختزل الشيعة هذه الصور المؤلمة التي نفثها مصدور الأئمة الطّاهرين عليهم السلام وولي ثأرهم ، وتلقّوا تكليفهم بالبكاء والحزن من إمام زمانهم بتلقائية وذكاء ، وعرفوا على رغم كل الصّعاب ، وتحت وطأة أشدّ الظروف ، في زمني الحضور والغيبة ، أنّ أئمتّهم الأبرار عليهم السلام قد أمروهم بإقامة الشعائر الحسينية عند القدرة بحسب سعة الظرف ، وتناقلوا الأدوار وتبادلوها تبعاً لأئمتّهم.

---

(١) راجع بحار الأنوار (٣١٨/٩٨ - ٣٢٢) ضمن الزّيارة المرويّة عن النّاحية المقدّسة على صاحبها آلاف التحية والصلاة والسّلام.

ولقد فقه شيعة أهل البيت عليهم السلام أكبر الدّروس الحسينية، ولم يمنعهم غيبة وليّهم عليه السلام في عهد الغيبتين الصغرى والكبرى من تشييد هذا الشّعار بكلّ جدّ وحزم، رغم ضيق الظروف وازدحام المخاطر وتضافر الزّمان عليهم، فجزاهم الله تعالى خيراً عن أئمتهم الأبرار عليهم السلام وحشرهم معهم في مستقر رحمته، ورزقنا السير على منهاجهم، ووفّقنا لأداء حقوقهم ونيل مرضاتهم، وأمدّ أجيالنا القادمة بتسديداته وعناياته لرفع هذا الشّعار الأقدس، وزاد في شرفنا بهم إنّه سميع الدّعاء.

ثواب البكاء الحسيني

البكاء على الإمام الحسين عليه السلام إرث نبوي كريم، تلقّاه خلفاؤه الأئمة عليهم السلام كما تلقّوا العلم وسائر الكمالات والفضائل من جدّهم النبي الكريم صلى الله عليه وآله، غير أنّ الأئمة الطّاهرين عليهم السلام قنّنوا لمظاهر الحزن العظيم وحفّزوا النفوس لبقائه وخلوده، وسلكوا سُبلاً غاية في التأثير، أهمّها وصف ثوابه الجزيل وأجره العظيم، إذ أنّهم ورثة العلم والدين، فبيّنوا للنّاس فضل البكاء على الإمام الحسين عليه السلام، الكفيل بتأسيس المأتم بقواعده الرّاسية، فضمنوا بوصف الثواب خلود الحزن وبقائه عليه..

فقد روى الشيخ الصدوق رحمه الله، بإسناده إلى علي بن الحسن بن فضال، عن أبيه قال: قال الإمام علي بن موسى الرّضا عليه السلام: من تذكّر مصابنا وبكى لما ارتكب منّا، كان معنا في درجتنا يوم القيامة، ومن ذُكّر بمصابنا فبكى وأبكى لم تبك عينه يوم تبكي العيون، ومن جلس مجلساً يحيى فيه أمرنا لم يمت قلبه يوم تموت القلوب[1].

---

(١) راجع أمالي الشيخ الصدوق رحمه الله ص (٧٣)، وبحار الأنوار (٢٧٨/٤٤).

ويستعرض الإمام الرضا عليه السلام في هذا الخبر الثواب الجزيل على البكاء من خلال مؤثّر مهم جدّاً، وهو تذكّر المصاب، ومعلوم أن تذكّر مصابهم يتمّ باستحضار صور الأحداث ومشاهد الأحزان في الخاطر، وبالتّالي يكون الحزن والبكاء.

فالإطّلاع على تلك المشاهد التاريخيّة المؤلمة من خلال قراءة الكتب أو إستماع الرّثاة والخطباء مقدّمة مهمّة لحصول التذكّر المفضي إلى البكاء المستحب، ولا بدّ من تحصيل ذلك والإستزادة منه، فبقدر الإطّلاع على أحوالهم ومصائبهم ومعرفة مقاماتهم يكون التأثّر لهم قطعاً، فيستحق المؤمن حينئذٍ أن يكون معهم عليهم السلام في درجتهم يوم القيامة، لتوحّده معهم بتفاعله مع قضاياهم.

وكذا الحال في من عرّض نفسه لتذكّر مصابهم عليهم السلام باختياره الجليس الصالح الذّاكر لهم، أو بحضوره في مجالس ذكرهم عليهم السلام فإنّه يستحق بتذكّره وبكائه السّرور يوم القيامة، اليوم الذي يبكي فيه الضّاحكون في الدّنيا غالباً، ويُنعّم بحياة القلب، ولم يمت قلبه أبداً.

وروى السيّد ابن طاووس رحمه الله، عن أبي عبد الله الصّادق عليه السلام قال: من ذَكَرَنا أو ذُكرنا عنده فخرج من عينه دمع مثل جناح بعوضة غفر الله له ذنوبه، ولو كانت مثل زبد البحر[1].

ويؤكّد مولانا الإمام الصّادق عليه السلام في هذا الخبر الشريف على أنّ من ذكرهم أو تعرّض إلى ظرف يتذكّرهم فيه إستحق غفران الذنوب العظام، فالبكاء بحسب هذه النصوص يساوغ التوبة في إسقاط الذنوب، إذ فتح الدّين باسم الحسين عليه السلام

---

(١) راجع اللهوف ص (١٠)، وبحار الأنوار (٤٤/٢٧٨).

باباً من أبواب الرّحمة الواسعة، بأقلّ الممكن من الدّمع، المعبّر عن مقداره بجناح البعوضة لغفران الذنوب وإن كانت مثل زبد البحر!!

وروى شيخ الطائفة رحمه الله، بالإسناد إلى أبان بن تغلب، عن أبي عبد الله الصّادق عليه السلام قال: نفس المهموم لظلمنا تسبيح، وهمه لنا عبادة، وكتمان سرّنا جهاد في سبيل الله.

ثم قال أبو عبد الله عليه السلام: يجب أن يكتب هذا الحديث بالذّهب[1].

وما يمكن أن يُقال في خبر أوجب الإمام عليه السلام كتابته بماء الذهب!! وفيه يُفصح الإمام عليه السلام عن حقيقة مقام المؤمن المكتئب لمصابهم، فهو في منزلة الملائكة المسبّحين المنزّهين الذين لا يفترون عن تسبيحهم لله تعالى، وهو في ضيافة الله تعالى تماماً كالصّائم الذي استجمع شرائط الصّيام فاستحق بأنفاسه بلوغ درجة التسبيح الملائكي في شهر رمضان، لقول المصطفى صلى الله عليه وآله: أنفاسكم فيه تسبيح.

فآهات المهموم المحزون لما ارتُكب في حقّهم عليهم السلام تسبيحٌ بحمد الله تعالى وقدسه وتنزيه له عمّا لا يليق، وهمّه لهمّهم عليهم السلام عبادة، فالمهموم لهم في مقام العبّاد المتمحّضين للعبادة له عزّ وجل.

وروى ابن قولويه في كامل الزيارات، عن ابن خارجة، عن أبي عبد الله الصّادق عليه السلام قال: قال الحسين بن علي: أنا قتيل العبرة، قتلت مكروباً، وحقيق على الله أن لا يأتيني مكروب قط إلاّ ردّه الله وأقلبه إلى أهله مسروراً[2].

---

(١) راجع أمالي الطوسي ص (١١٥)، وأمالي الشيخ المفيد ص (٣٣٨)، وبشارة المصطفى ص (١٠٥)، وبحار الأنوار (٢٧٨/٤٤).

(٢) راجع كامل الزيارات ص (١٠٩)، وثواب الأعمال ص (٩٨)، وبحار الأنوار (٢٧٩/٤٤)

ويُبيّن الإمام الصادق عليه‌السلام في هذا الخبر الشريف ثمرة مهمّة من ثمار البكاء والحزن له عليه‌السلام وهو إتيانه وقصده، ويعتبر طابع الحزن من أوّل أسرار الجاذبية الكبرى التي وهبها وليّه الإمام الحسين عليه‌السلام، فصار كعبة وموئلاً لوفود الزائرين والمكروبين الذين شاء الله تعالى ألاّ يرجعوا من عنده إلاّ بالسّرور والفرج وقضاء الحاجات الدّنيوية والأخرويّة.

وروى القمي في تفسيره بالإسناد إلى أبي جعفر الباقر عليه‌السلام أنّه قال: كان علي بن الحسين عليه‌السلام يقول: أيّما مؤمن دمعت عيناه لقتل الحسين بن علي دمعة حتى تسيل على خدّه بوأه الله بها في الجنة غرفاً يسكنها أحقاباً، وأيّما مؤمن دمعت عيناه دمعاً حتى يسيل على خدّه لأذىً مسّنا من عدونا في الدّنيا بوأه الله مبوأ صدق في الجنة، وأيّما مؤمن مسّه أذى فينا فدمعت عيناه حتى يسيل دمعه على خدّيه من مضاضة ما أوذي فينا صرف الله عن وجهه الأذى وآمنه يوم القيامة من سخطه والنار[1].

وهنا يؤكّد الإمام زين العابدين عليه‌السلام على أنّ الباكي لما مسّهم من عدوّهم ولو بالدّمعة الواحدة، هو من الخالدين في الجنّة، ثمّ يعطف الإمام عليه‌السلام على هذا الدّاعي داعي البكاء من مضاضة الأذى الذي لحقه بسبب ولائهم ومودّتهم عليهم‌السلام والإرتباط بهم، فإنّ الله تعالى يجازيه عن صبره وتحمّله، ويعصمه من الأذى ويغمره برضوانه ويجنّبه النّار ويعصمه من موارد غضبه.

و (٤٨/٩٨)، ووسائل الشيعة (٤٢٢/١٤).

(١) راجع تفسير القمي (٢٩١/٢)، وثواب الأعمال ص (٨٣)، ووسائل الشيعة (٥٠١/١٤)، وبحار الأنوار (٢٩١/٤٤).

وروى ابن قولويه بإسناده إلى الحسن بن علي بن أبي حمزة عن أبيه عن أبي عبد الله الصّادق عليه السلام أنّه قال: إن البكاء والجزع مكروه للعبد في كل ما جزع، ما خلا البكاء على الحسين بن علي عليه السلام فإنه فيه مأجور[١].

ويعدّ هذا الحديث من الأصول المهمّة المعتبرة في أبواب الشّعائر الحسينية، فهو القاعدة المحكّمة في مظاهر الولاء الصّادرة من محبّي أهل البيت عليهم السلام، فقد ندّد الإمام الصادق عليه السلام بكلّ أنواع الجزع، وتضمّن الخبر مدح الصّبر ورغّب المؤمنين بالتزامه ومنع من مجاوزته إلى ما يخالفه من الأقوال والأفعال، فالصّبر من الإيمان كالرّأس من الجسد، والجزع نقيض الصّبر..

إذ أنّ البكاء المرفوض في الخبر هو المقترن بالجزع كما هو واضح، فهو مكروه في شريعة الإسلام، وتصل بعض مظاهره إلى الحرمة.. لكن الإمام عليه السلام استثنى الجزع بكلّ ضروبه ومظاهره على الإمام الحسين عليه السلام، ولم يكتفِ بالحكم بجوازه، بل أكّد على إستحبابه واستحقاق مرتكبه الأجر والثواب من الله تعالى.. إذ يتبدّل حكم الجزع في هذا المقام من الكراهية إلى الإستحباب مطلقاً، وعلى ذلك معظم فقهاء الطّائفة (أعلى الله كلمتهم) وإن استلزم ضرراً غير معتد به.

وروى ابن قولويه في كامل الزيارات عن أبي عبد الله الصّادق عليه السلام أنّه قال: لكل شيء ثواب، إلاّ الدّمعة فينا[٢].

والمراد من هذا الحديث الشريف أنّ الله تعالى قد عيّن لكلّ عبادة من العبادات ثواباً معيّناً، وجعل إزاء كلّ عمل جزاءً خاصّاً، وهذا دارجٌ معهود في

---

(١) راجع كامل الزيارات ص (١٠٠)، وبحار الأنوار (٤٤/٢٩١)، ووسائل الشيعة (١٤/٥٠٧).

(٢) راجع كامل الزيارات ص (١٠٦)، وبحار الأنوار (٤٤/٢٨٧) وفيه: (لكل سرّ ثواب)، ووسائل الشيعة (١٤/٥٩٧).

أحاديث ثواب الأعمال، من قبيل: من قال لا إله إلاّ الله غرست له شجرة في الجنّة، وأمثال ذلك.

إلاّ أن جزاء الدّمعة الجارية على مصاب أهل البيت عليهم السلام غير محدود أبداً، ولا يعلم ثوابها إلاّ الله سبحانه، فهو القادر على إحصاء أجرها الكبير، وبذلك يتعيّن أنّ البكاء عليهم عليهم السلام من أفضل العبادات قطعاً.

وروى ابن قولويه أيضاً بإسناد يرفعه إلى زرارة أنّ الإمام الصادق عليه السلام قال: يا زرارة، إن السماء بكت على الحسين أربعين صباحاً بالدم، وإن الأرض بكت أربعين صباحاً بالسواد، وإن الشمس بكت أربعين صباحاً بالكسوف والحمرة، وإن الجبال تقطّعت وانتثرت، وإن البحار تفجّرت، وإن الملائكة بكت أربعين صباحاً على الحسين عليه السلام..

وما اختضبت منّا امرأة ولا ادّهنت ولا اكتحلت ولا رجّلت، حتّى أتانا رأس عبيد الله بن زياد، وما زلنا في عبرة بعده، وكان جدّي إذا ذكره بكى حتى تملأ عيناه لحيته، وحتى يبكي لبكائه رحمة له من رآه، وإن الملائكة الذين عند قبره ليبكون فيبكي لبكائهم كل من في الهواء والسماء من الملائكة..

ولقد خرجت نفسه عليه السلام فزفرت جهنم زفرة كادت الأرض تنشق لزفرتها، ولقد خرجت نفس عبيد الله بن زياد ويزيد بن معاوية فشهقت جهنم شهقة لو لا أن الله حبسها بخزانها لأحرقت من على ظهر الأرض من فورها، ولو يؤذن لها ما بقي شيء إلاّ ابتلعته، ولكنها مأمورة مصفودة، ولقد عتت على الخزان غير مرة حتى أتاها جبرئيل فضربها بجناحه فسكنت، وأنها لتبكيه وتندبه وأنها لتتلظى على قاتله، ولولا من على الأرض من حجج الله لنقضت الأرض و أكفأت بما عليها، وما تكثر الزلازل إلا عند اقتراب الساعة.

وما من عين أحب إلى الله ولا عبرة من عين بكت ودمعت عليه، وما من باك يبكيه إلاّ وقد وصل فاطمة عليها السلام وأسعدها عليه، ووصل رسول الله صلى الله عليه وآله وأدّى حقّنا، وما من عبد يحشر إلاّ وعيناه باكية إلاّ الباكين على جدي الحسين عليه السلام فإنه يحشر وعينه قريرة والبشارة تلقاه والسرور بيّن على وجهه، والخلق في الفزع وهم آمنون، والخلق يعرضون وهم حداث الحسين عليه السلام تحت العرش وفي ظل العرش لا يخافون سوء يوم الحساب.

يقال لهم: ادخلوا الجنة، فيأبون ويختارون مجلسه وحديثه، و إن الحور لترسل إليهم: أنا قد اشتقناكم مع الولدان المخلدين، فما يرفعون رؤوسهم إليهم لما يرون في مجلسهم من السرور والكرامة، وإن أعداءهم من بين مسحوب بناصيته إلى النار، ومن قائل ما لنا من شافعين ولا صديق حميم، وإنهم ليرون منزلهم وما يقدرون أن يدنوا إليهم ولا يصلون إليهم، وإن الملائكة لتأتيهم بالرسالة من أزواجهم ومن خدّامهم على ما أعطوا من الكرامة، فيقولون نأتيكم إن شاء الله، فيرجعون إلى أزواجهم بمقالاتهم فيزدادون إليهم شوقاً إذا هم خبّروهم بما هم فيه من الكرامة وقربهم من الحسين عليه السلام فيقولون: الحمد لله الذي كفانا الفزع الأكبر وأهوال القيامة ونجّانا مما كنا نخاف، ويُؤتون بالمراكب والرّحال على النّجائب فيستوون عليها وهم في الثناء على الله والحمد لله والصلاة على محمد وآله حتى ينتهوا إلى منازلهم[1].

ولو صرفنا كلّ العمر في فقه هذا الحديث الشريف لقصرنا عن بلوغ بعض محتواه، وإنّ فيه الكثير من المقاصد الجليلة، لكنّه لا يسقط الميسور بالمعسور.

---

(١) راجع كامل الزيارات ص (٨١)، وبحار الأنوار (٤٥/٢٠٦)، ومستدرك الوسائل (١٠/٣١٣).

فالإنسان المؤمن مأمور بالبكاء والحزن على سيّد الشهداء عليه السلام تماشياً مع كلّ أجزاء الكون الرّحب وذرّاته التي بكت عليه أيضاً، فالسّماء والأرض والشمس والجبال والبحار والملائكة، وحتّى جهنّم، مخلوقات لله تعالى نالت شرف أداء هذا الفرض المحبوب، ألا وهو البكاء عليه.

وينسجم الإنسان المؤمن مع هذه المنظومة الكونيّة ويواكبها بحزنه وبكائه عليه عليه السلام كما ينسجم مع تسبيح الكون بما فيه ممّا يُرى وممّا لا يُرى، قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[1].

ثمّ يُبدي الإمام عليه السلام حافزاً مهمّاً من محفّزات البكاء، ويُبيّن حال بني هاشم بعد الواقعة، وإذا كان حال الأئمة عليهم السلام معلوماً من خلال الأخبار الواردة فإنّه يأخذنا إلى بيان حال نساء بني هاشم، فقد هجرن لذة الحياة وعشن في قمّة حالات الجزع، وحرّمن على أنفسهنّ الحياة الإعتيادية التي تعيشها المرأة، من الخضاب والدّهن والكحل وترجيل الشعر، وبقين على هذه الحالة المفجعة، حتّى جيء لهنّ بخبر المختار الثقفي، ولا زلن في حزن وبكاء على الحسين عليه السلام.

ويصف الإمام الصادق عليه السلام حال جدّه الإمام علي بن الحسين عليه السلام بعد ذلك، فلا يزال حليف الحزن والبكاء، ويظهر قمّة الجزع، إلى درجة أنّ النّاس صاروا يبكون رحمة وشفقة عليه!!

وبعد تلك المقدّمات يصف الإمام عليه السلام ثواب البكاء على المولى عليه السلام، ويؤكّد على أن تلك العيون الباكية محبوبة عند الله تعالى، وأنّ هذا البكاء بكاء

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٤٤.

صلة للنبي الكريم ﷺ وابنته الطّاهرة فاطمة عليها السلام، وإنّ مصير هؤلاء الباكين الأمن يوم الفزع الأكبر، ومحشرهم تحت العرش بجوار الإمام الحسين عليه السلام فطوبى لهم وحسن مآب.

هذا، وتستوقفني جملة مهمّة وردت في عبائر الخبر الشريف، ففيه: (إن أعداءهم من بين مسحوب بناصيته إلى النار) والمقصودون هم أعداء الباكين على الإمام الحسين عليه السلام!!

فإنّ الإمام الصادق عليه السلام لمّا بيّن الفضل الكبير للباكين على جدّه عليه السلام عطف القول إلى بيان مصير أعدائهم المشنّعين عليهم في دار الدنيا، المؤذين لهم، المحاربين لشعائر مولانا الحسين عليه السلام بأيّ نحو من الأنحاء، بالمنع منها أو التشكيك فيها أو إثاره الشّبه في المجتمع لزعزعة المؤمنين تجاهها..

وفي هذا الحديث تحذير جدّي ومخيف، ينبغي أن يقف عليه الكثير من هؤلاء العابثين بالنّار المحرقة، وليحذروا من عاقبة أمرهم قبل أن تكويهم لواهبها، فإنّ مصيرهم إلى جهنّم، وإن أتعبوا أنفسهم واجتهدوا رجاء بلوغ السراب الذي يحسبونه من ظمئهم ماءً، فسبيل الجنّة مشروط بالإمام الحسين عليه السلام.

وروى ابن قولويه أيضاً بإسناده إلى مسمع بن عبد الملك كردين البصري قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: يا مسمع أنت من أهل العراق؟ أ ما تأتي قبر الحسين عليه السلام؟

قلت: لا، أنا رجل مشهور عند أهل البصرة، وعندنا من يتبع هوى هذا الخليفة، وعدوّنا كثير من أهل القبائل من النصّاب وغيرهم، ولست آمنهم أن يرفعوا حالي عند ولد سليمان، فيمثّلون بي.

قال لي: أ فما تذكر ما صنع به؟

قلت: نعم.

قال: فتجزع؟

قلت: إي والله، وأستعبر لذلك، حتى يرى أهلي أثر ذلك عليّ، فأمتنع من الطعام، حتى يستبين ذلك في وجهي.

قال: رحم الله دمعتك، أما إنك من الذين يعدّون من أهل الجزع لنا، والذين يفرحون لفرحنا ويحزنون لحزننا ويخافون لخوفنا ويأمنون إذا أمنّا، أما إنك سترى عند موتك حضور آبائي لك ووصيّتهم ملك الموت بك، وما يلقونك به من البشارة أفضل، ولملك الموت أرق عليك وأشد رحمة لك من الأم الشفيقة على ولدها.

قال: ثم استعبر، واستعبرت معه..

فقال: الحمد لله الذي فضّلنا على خلقه بالرحمة، وخصنا أهل البيت بالرحمة، يا مسمع، إن الأرض والسماء لتبكي منذ قتل أمير المؤمنين عليه السلام رحمة لنا، وما بكى لنا من الملائكة أكثر، وما رقأت دموع الملائكة منذ قتلنا، وما بكى أحد رحمة لنا ولما لقينا إلاّ رحمه الله قبل أن تخرج الدمعة من عينه، فإذا سالت دموعه على خده فلو أن قطرة من دموعه سقطت في جهنم لأطفأت حرّها حتى لا يوجد لها حر..

وإن الموجع لنا قلبه ليفرح يوم يرانا عند موته فرحة لا تزال تلك الفرحة في قلبه حتى يرد علينا الحوض، وإن الكوثر ليفرح بمحبّنا إذا ورد عليه حتى أنه ليذيقه من ضروب الطعام ما لا يشتهي أن يصدر عنه..

يا مسمع، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً، ولم يستق بعدها أبدا،

وهو في برد الكافور وريح المسك وطعم الزنجبيل، أحلى من العسل وألين من الزبد وأصفى من الدمع وأذكى من العنبر، يخرج من تسنيم ويمر بأنهار الجنان، يجري على رضراض الدّر والياقوت، فيه من القدحان أكثر من عدد نجوم السماء، يوجد ريحه من مسيرة ألف عام، قدحانه من الذهب والفضة وألوان الجوهر، يفوح في وجه الشارب منه كل فائحة حتى يقول الشارب منه: يا ليتني تُركت هاهنا لا أبغي بهذا بدلاً ولا عنه تحويلا.

أما إنك يا ابن كردين ممّن تروى منه، وما من عين بكت لنا إلاّ نعمت بالنظر إلى الكوثر، وسقيت منه من أحبّنا، وإن الشّارب منه ليعطى من اللذة والطعم والشهوة له أكثر ممّا يعطاه من هو دونه في حبّنا.

وإن على الكوثر أمير المؤمنين عليه السلام وفي يده عصاً من عوسج، يحطّم بها أعداءنا، فيقول الرجل منهم: إني أشهد الشهادتين!!

فيقول: انطلق إلى إمامك فلان فاسأله أن يشفع لك.

فيقول: تبرّأ مني إمامي الذي تذكره!!

فيقول: ارجع إلى ورائك، فقل للذي كنت تتولاّه وتقدمه على الخلق فاسأله إذا كان خير الخلق عندك أن يشفع لك، فإن خير الخلق من يشفع حقيق أن لا يرد إذا شفع.

فيقول: إني أهلك عطشاً.

فيقول له: زادك الله ظمأ، وزادك الله عطشاً.

قلت: جعلت فداك، وكيف يقدر على الدنو من الحوض، ولم يقدر عليه غيره؟

فقال: ورع عن أشياء قبيحة، وكفّ عن شتمنا أهل البيت عليهم السلام إذا ذكرنا،

وترك أشياء اجترى عليها غيره، وليس ذلك لحبّنا ولا لهوى منه لنا، ولكن ذلك لشدة اجتهاده في عبادته وتديّنه، ولما قد شغل نفسه به عن ذكر الناس، فأما قلبه فمنافق، ودينه النصب، وأتباعه أهل النّصب، وولاية الماضين وتقدمه لهما على كل أحد[١].

ومن أهم المظاهر التي اهتمّ بها الإمام الصّادق عليه السلام في سؤاله من مسمع في هذا الخبر زيارة قبره الشريف بكربلاء، فهو المظهر الأتم للولاء والمصداق الأوفى للمودّة، ولّما تبيّن له عذره سأله عن جزعه له عليه السلام، واهتمّ بالبكاء عليه..

وقد أقرّه الإمام عليه السلام على تركه الزّيارة لعذر الخوف ظاهراً، إذ أنّ أعظم الواجبات في الإسلام محكومة بحفظ النّفس والتقيّة، والأولى أن نحمل سكوت الإمام عليه السلام على غير التقرير بالرّخصة، إذ أنّ الأخبار الكثيرة واردة عنهم عليهم السلام تستحب زيارة خصوص الإمام الحسين عليه السلام على الخوف وسيأتي ذكرها في محلّها إن شاء الله تعالى.

وعلى كلّ حال، فإذا ترك مسمع زيارة الإمام الحسين عليه السلام لخوف أو تقيّة.. فإنّ الإمام الصّادق عليه السلام لم يجد له رخصة في ترك تذكّر مصاب الإمام الحسين عليه السلام وما صُنع به!! وسأله عن الجزع والبكاء، لأنّها أوّل مظاهر التذكّر، فأجابه مسمع بالإيجاب.

ويجب الوقوف هاهنا والتأمّل في سيرة أصحاب الأئمة الأبرار عليهم السلام فإنّها كاشفة عن تربية الأئمة عليهم السلام لهم رضي الله عنهم، فالبكاء بين الأهل سيرة مطّردة لأهل العصمة، وإشراك العائلة بالبكاء على المولى المظلوم عليه السلام عادة مطّردة ومعلومة

---

(١) راجع كامل الزيارات ص (١٠١)، وبحار الأنوار (٢٨٩/٤٤)، ووسائل الشيعة (٥٠/١٤).

عند أهل البيت عليهم السلام ، ولهذا فإنّ مسمعاً كان يبكي حتّى يستبين البكاء والحزن في وجهه ويمتنع عن الطعام!! وفي هذه الأجواء ينشأ الطّفل ويشبّ عن أمثال مسمع الموفّق بخدمة إمام زمانه المحتظي بالسماع منه، وبهذه السيرة يترعرع النّشأ آلفاً مظاهر الولاية، ومن أهمّها حبّ البكاء على الإمام الحسين عليه السلام ، ويُحاكي سيرة أبيه كعادة الأبناء، تماماً كما يعلّم المسلم إبنه حبّ الصلاة قبل سنّ التكليف..

ويبدو من هذا الخبر أنّ الإمام عليه السلام كان مستعدّاً في كلّ حالاته لتذكّر المصاب فاستعبر باكياً لمرور ذكر مصاب جدّه عليه السلام ، ليؤكّد بعد ذلك على فضل البكاء عليه عليه السلام وكرامة الباكين عند الله عزّ وجل.

الثاني: الإنشاد والشعر

الإسلام والشعر

إذا ما تصفّحت تاريخ نّبينا الكريم صلى الله عليه وآله ألفيته يستمع جيّد الشّعر ويستهويه البليغ منه، وهو يمجّد قول الحق منه وإن صدر في زمن الجاهليّة الأسود، ويهتم بشعر الحكماء خاصّة، ويعتبره من أرقى أنواع الشعر، وطالما كان ينتظر الجديد في هذا الباب، ويسأل بني أياد عن شعر الحكيم العربي الجاهلي قس بن ساعدة الأيادي، ويستحسن شعره ويلفت النظر إلى ما فيه من الحق والحكمة والعلم خصوصاً مع صدوره في زمن الجاهلية الجهلاء.

وروي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنّه قال:

بينا رسول الله صلى الله عليه وآله ذات يوم بفناء الكعبة يوم افتتح مكة، إذ أقبل إليه وفد فسلّموا عليه، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: مَن القوم؟

قالوا: وفد بكر بن وائل.

قال: فهل عندكم علم من خبر قس بن ساعدة الأيادي؟

قالوا: نعم يا رسول الله.

قال: فما فعل؟

قالوا: مات.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: الحمد لله رب الموت ورب الحياة، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ﴾[1] كأني أنظر إلى قس بن ساعدة الأيادي وهو بسوق عكاظ على جمل له أحمر، وهو يخطب الناس ويقول:

"اجتمعوا أيها الناس، فإذا اجتمعتم فأنصتوا، فإذا أنصتّم فاسمعوا، فإذا سمعتم فعوا، فإذا وعيتم فاحفظوا، فإذا حفظتم فاصدقوا، ألا أنه من عاش مات، ومن مات فات، ومن فات فليس بآت؛ إن في السماء خبراً، وفي الأرض عبرا، سقف مرفوع، ومهاد موضوع، ونجوم تمور، وليل يدور، وبحار ماء لا تغور.

يحلف قس ما هذا بلعب، وإن من وراء هذا لعجبا، مالي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون؟ أرضوا بالمقام فأقاموا؟ أم تركوا فناموا؟..

يحلف قس يميناً غير كاذبه أن لله ديناً هو خير من الدين الذي أنتم عليه".

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٨٥.

ثمّ قال رسول الله ﷺ: "رحم الله قسّا، يحشر يوم القيامة أمة وحده".

قال ﷺ: هل فيكم أحد يحسن من شعره شيئاً؟

فقال بعضهم: سمعته يقول:

في الأولين الذاهبين ... من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارداً ... للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها ... تمضي الأكابر والأصاغر
لا يرجع الماضي إليّ ... ولا من الباقين غابر
أيقنت أني لا محالة ... حيث صار القوم صائر[1]

وهو قس بن ساعدة بن حذاقة بن زهر بن أياد بن نزار، خطيب جاهلي، يضرب به المثل في البلاغة والحكمة، والموعظة الحسنة، وهو أوّل من آمن بالبعث من أهل الجاهلية، وأوّل من توكّأ على سيف أو عصا في خطابه.. يقال إنه عاش ٦٠٠ سنة، وكان يعرف النبي ﷺ باسمه ونسبه، ويبشر الناس بخروجه، وينتظر ظهوره.

وكان يقول: إن لله ديناً خير من الدين الذي أنتم عليه، وكان النبي ﷺ يترحم عليه ويقول: "يحشر يوم القيامة أمة وحده". وكان يستعمل التقية ويأمر بها في خلال ما يعظ به الناس.

ومن أقواله: " البينة على المدّعي، واليمين على من أنكر ".

---

(١) راجع للخبر ولترجمته وجملة أخباره: كمال الدين (١/١٦٦ -١٦٩)، وكنز الفوائد (٢/١٣٤ -١٣٩)، والبحار (١٨/٢٩٣/٣)، والمنجد: قسم الأعلام ص (٤١٦) ط سنة ١٩٥٦م.

وكان لا يستودع دينه أحداً، وكان يتكلم بما يخفى معناه على العوام، ولا يستدركه إلا للخواص. وبلغ من حكمة قس بن ساعدة ومعرفته، أن النبي ﷺ كان يسأل من يقدم عليه من أياد عن حكمه، ويصغي إليه سمعه.

وجاء في مناقب آل أبي طالب: روى الكلبي عن الشرقي بن القطامي عن تميم بن وعلة المري عن الجارود بن المنذر العبدي وكان نصرانيّاً فأسلم عام الحديبية وأنشد شعراً يقول:

يا نبي الهدى أتتك رجال	قطعت فدفداً وأفرت جبالا
جابت البيد والمهامة حتّى	غالها من طوى السرى ما غالا
أخبر الأولون باسمك فينا	و بأسماء بعده تتتالا

فقال رسول الله ﷺ: أ فيكم من يعرف قس بن ساعدة الأيادي؟

فقال الجارود: كلّنا يا رسول الله نعرفه، غير أني من بينهم عارف بخبره، واقف على أثره.

فقال سلمان: أخبرنا.

فقال: يا رسول الله، لقد شهدت قسّاً وقد خرج من ناد من أندية أياد إلى ضحضح ذي قتاد، وسمر وغياد، وهو مشتمل بنجاد، فوقف في إضحيان ليل كالشمس، رافعاً إلى السماء وجهه وإصبعه، فدنوت منه فسمعته يقول:

"اللهم رب السماوات الأرفعة، والأرضين المرعة بحق محمد والثلاثة المحاميد معه، والعليين الأربعة، وفاطم والحسنين المسمعة، وجعفر وموسى التبعة، سمي الكليم الضرعة، أولئك النقباء الشفعة، والطريق المهيعة، درسة الأناجيل، ومحاة الأضاليل، ونفاة الأباطيل، الصادقي القيل، عدد نقباء بني إسرائيل.

فهم أوّل البداية، وهم نهاية النهاية، وعليهم تقوم الساعة، وبهم تُنال الشفاعة، ولهم من الله فرض الطاعة.

إسقنا غيثا مغيثا".

ثم قال: ليتني مدركهم ولو بعد لاي من عمري ومحياي.

ثم أنشأ يقول:

أقسم قس قسما	ليس له مكتما
لو عاش ألفي سنة	لم يلق منها سأما
حتى يلاقي أحمدا	والنقباء الحكما
هم أصفياء أحمد	أفضل من تحت السما
تعمى العيون عنهم	وهم ضياء للعمى
لست بناس ذكرهم	حتى أحلّ الرجما

قال الجارود: فقلت: يا رسول الله، أنبئني أنبأك الله بخبر هذه الأسماء التي لم نشهدها وأشهدنا قس ذكرها؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا جارود، ليلة أسري بي إلى السماء أوحى الله عز و جل إليّ أن سل من قد أرسلنا قبلك من رسلنا على ما بعثوا..

قلت: على ما بعثوا؟

قال: بعثتهم على نبوتك، وولاية علي بن أبي طالب، والأئمة منكما، ثم عرّفني الله تعالى بهم وبأسمائهم، ثم ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله للجارود أسماءهم واحداً واحداً إلى المهدي عليه السلام.

قال لي الرب تبارك وتعالى: هؤلاء أوليائي، وهذا المنتقم من أعدائي، يعني المهدي. فقال الجارود:

أتيتك يا ابن آمنة رسولا ... لكي بك أهتدي النهج السبيلا
فقلت وكان قولك قول حق ... وصدق ما بدا لك أن تقولا
و بصرت العما من عبد شمس ... و كلا كان من شمس ظليلا
وأنبأناك عن قس الأيادي ... مقالا أنت طلت به جديلا
و أسماء عمت عنا فآلت ... إلى علم وكنت بها جهولا[1]

وهذه الرواية عيّنة راقية تعرض نوع الشعر الذي كان يحييه النبي ﷺ ويخلّده في الذاكرة، وهو المشتمل على الحكمة والنبوءة الحق، وفي نفس الوقت تعرض لنا مجالسه الأدبية الراقية التي كان الشعراء يتغنّون فيها بمجده وشرفه ويظهرون من مدحه والثناء عليه الشيء الكثير.

وطالما كانت تدخل عليه الوفود في مسجده وتنشده من تحف الشّعر ما يستحسن، وقد روت الأخبار كيف قام كعب بن زهير بين يديه يشدو بمديحه والثّناء عليه إلتماساً للأجر والثواب وتعزيزاً لمكانته ومودّته في نفوس أصحابه الطّيّبين، فيطريه في رائعة عصماء مطلعها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ... متيّم إثرها لم يفد مكبول

وإن قام ﷺ بأمرٍ جديد أو حقّق نصراً أو وقف موقفاً مشهوداً قام شاعره حسّان بن ثابت ليؤرّخ ذلك ويخلّده بأبيات من شعره، محصّنا ذلك الحدث من النّسيان أو الإنكار، غير مختلف عن شأن أمّة العرب في ذلك اليوم، في إعمال المؤثّرات وتداول لغة العصر الدارجة، وتسخير أهمّ وسائل الإعلام للدعوة إلى الله تعالى، فالشعر وسيلة إعلامهم الكبرى وقناتهم المثلى.

---

(١) راجع مناقب ابن شهراشوب (١/٢٨٧)، عنه بحار الأنوار (٤٣/٣٨).

ومن هذا المنطلق فقد قام حسّان ليثبت بشعره أهمّ أحداث الإسلام، حتّى إذا نصب النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام إماماً على الأمّة واستخلفه حاكماً من بعده في يوم الغدير الأغر، خلّده بشعره قائلاً:

يناديهم يوم الغدير نبيّهم ... بخمّ فاسمع بالنّبي مناديا

وكما إنّه إذا ما تعرّض النبي صلى الله عليه وآله إلى هجمة أو إعتداء تصدّى للذبّ عنه أصحابه البررة رضي الله عنهم، كذلك فإنّه إذا ما هُجي صلى الله عليه وآله إنتفض حسّانٌ غيرة عليه، واشرأبّ بنفسه رافعاً عقيرته بالذّب عنه، رادّاً هجو المبطلين إلى نحورهم قائلاً:

هجوتَ محمّداً فدفعتُ عنه ... وعند الله في ذاك الجزاء

وراح أئمّة أهل البيت عليهم السلام يؤسّسون الأساليب المبتكرة على هذا المنوال، متمّمين تلك السلسلة الطيّبة، مؤكّدين على أهمّية الشعر وتأثيره في النّفوس، فقد تعاملوا مع الشّعر كظاهرة إنسانية جديرة بالدّفع الإيجابي الخلاّق، وأذكوا جذوته مع أنّ ظروفهم لا تسمح لهم بالكثير من المواقف المعلنة إبّان حكم بني أمية وبني العبّاس، لكنّهم ومع كلّ ذلك إستطاعوا قول كلمتهم رغم كل الظروف..

فإن لكل منهم عليهم السلام شاعراً من أهل الإيمان مؤيّداً بروح القدس، ولكلّ منهم كرمه الخاص تجاه مواقفه المبدأيّة، وطالما أغدق واحدهم عليهم السلام بالعطاء بأياد رحمانية تُعرب عن الجود النبوي، وطالما اشتروا مودة الغريب البعيد من الشّعراء بإغنائه والإحسان إليه، وقد علّموا النّاس أنّ النّفوس مجبولة على حبّ من أحسن إليها.

لقد عزّزوا من إعمال هذه المؤسّسة الكبرى، وتفعيلها بوصف الثّواب والأجر العظيم من الله تعالى على إحياء أمرهم والتذكير بفضلهم ومصابهم، وأكّدوا في نصوص جمّة على عقد مجالس قول الحق فيهم مدحاً ورثاءً،

ووجّهوا الشّعراء إلى قضيّتهم الحسينية الكبرى، فهم يعقدون لها مأتماً خاصّاً، ويخصّصون له منتدى ومجمعاً متميّزاً، ويظهرون حزنهم ويقرّون كلّ أشكال الجزع في هذا السبيل.

الجنة وروح القدس

لقد ترادفت النصوص الذهبيّة عنهم عليهم السلام في باب قول الشعر فيهم، بما يكفي لعدّها عبادة مهمّة، حتى بلغت حد التّواتر المعنوي، وسنورد بعضاً منها ضمن هذا البحث ليتسنّى لنا الوقوف على بعض معطياتها..

فقد روى الشيخ الصّدوق رحمه الله بإسناد يرفعه إلى الإمام الصّادق عليه السلام أنه قال: من قال فينا بيت شعر بنى الله تعالى له بيتاً في الجنّة[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: ما قال فينا قائل بيت شعر حتى يؤيّد بروح القدس[2].

وعن مولانا الإمام الرضا عليه السلام: ما قال فينا مؤمن شعراً يمدحنا به إلاّ بنى الله له مدينة في الجنّة، أوسع من الدّنيا سبع مرات، يزوره فيها كل ملك مقرب، وكل نبي مرسل[3].

---

(١) راجع عيون أخبار الرضا (١/٧)، عنه بحار الأنوار (٢٦/٢٣١/٣)، وراجع أسرار الشهادة بتحقيقنا (١/١٦٣).

(٢) راجع عيون أخبار الرضا (١/٧)، عنه بحار الأنوار (٢٦/٢٣١/٤)، رجال الكشي ص (٢٥٤)، الغدير (٢/٣)، وراجع أسرار الشهادة بتحقيقنا (١/١٦٣).

(٣) راجع عيون أخبار الرضا (١/٧)، عنه بحار الأنوار (٢٦/٢٣١/٥)، وراجع أسرار الشهادة بتحقيقنا (١/١٦٣).

والروايات مستفيضة في هذا الصدد، وهي تعد على الله تعالى بالجنّة، أو بناء بيت في الجنة، أو مدينة في الجنة، أو بالتأييد بروح القدس، فإذا فهمنا وفقهنا هذه المثوبات الموصوفة بالبديهة إلاّ أنّنا نضطر للوقوف عند روح القدس، ولو أنّ الباحث يشعر بالتضائل أمام تلك الحقيقة، إلاّ أنّه لابدّ من البحث في الروايات الشريفة لفهم المراد والمطلوب.

وعند التحرّي ننتهي إلى أنّ الروايات على طوائف ثلاثة، أمّا الأولى فقد دلّت على إختصاص روح القدس بالنبي صلى الله عليه وآله وأنّه جبرئيل عليه السلام، وأمّا الثّانية فقد دلّت على إختصاصه بالنبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام وأنّه ملك أعظم من جبرئيل عليه السلام وهو ملازمٌ للأئمة عليهم السلام، وأمّا الطائفة الثالثة فقد دلّت على إمكان توسيع دائرة فيضه على الشعراء القائلين فيهم عليهم السلام ما داموا يقولون فيهم.

أما الطائفة الأولى:

فقد روي في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾[1] أنّه جبرئيل عليه السلام.

وكان صلى الله عليه وآله في أكثر من حادثة وموطن يشير إلى أخذه عنه مشيراً إليه بهذه التسمية الخاصة، ومن ذلك ما رواه القمّي في تفسيره بإسناد يرفعه إلى أبي عبد الله عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: يا أيها الناس إنه نفث في روعي روح القدس، أنه لم تمت نفس حتى تستوفي أقصى رزقها وإن أبطأ عليها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء شيء مما عند الله أن تصيبوه بمعصية، فإن الله لا ينال ما عنده إلاّ بالطاعة[2].

---

(١) سورة النحل: الآية ١٠٢.

(٢) راجع أصول الكافي (٥/ ٨٠)، وبحار الأنوار (١٠٠/ ٣٠)، ووسائل الشيعة (١٧/ ٤٥)،

ويتأكّد كونه جبرئيل في أكثر من رواية، كالتي رويت بالإسناد لأبي الجارود عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في قوله: ﴿رُوحُ الْقُدُسِ﴾ قال: هو جبرئيل عليه السلام، والقدس: الطاهر ﴿يُثَبِّتَ الله الَّذِينَ آمَنُوا﴾[١] هم آل محمد صلى الله عليه وآله[٢].

وأمّا الطّائفة الثّانية:

فقد روي في تفسير القمّي عند قوله تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ﴾[٣] قوله عليه السلام: روح القدس وهو خاص لرسول الله صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام[٤].

وروي في تفسير قوله تعالى: ﴿ويَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾[٥] فإنّه خلق أعظم من جبرئيل وميكائيل، كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله ومع الأئمة عليهم السلام وهو من الملكوت[٦].

وروي في بصائر الدرجات بالإسناد إلى أبي جعفر الباقر عليه السلام: إن الأوصياء محدّثون، يحدثهم روح القدس ولا يرونه، وكان علي عليه السلام يعرض على روح القدس ما يسأل عنه فيوجس في نفسه أن قد أصبت

وبصائر الدرجات ص (٤٥٣).

(١) سورة إبراهيم: الآية ٢٧.

(٢) راجع تفسير القمي (١/٣٨٩)، وبحار الأنوار (٩/٢٢١و١٧/٢٠٦و٢٥/٤٩).

(٣) سورة غافر: الآية ١٥.

(٤) راجع تفسير القمي (٢/٢٥٦)، وبحار الأنوار (٢٥/٤٧).

(٥) سورة الإسراء: الآية ٨٥.

(٦) راجع أصول الكافي (١/٢٧٣)، وبحار الأنوار (٦/٢٥٠و١٨/٢٦٥)، وروي الخبر في بصائر الدرجات بأشكال مختلفة وألفاظ قريبة من هذا المعنى ومؤدّاها إلى نفس القصد.

بالجواب فيخبر فيكون كما قال[١].

وروي في خبر ولادة مولانا الإمام المهدي عليه السلام أنّه لّما دفعه الإمام العسكري عليه السلام للملك بعد ولادته.. فقال أبو محمّد: أستودعك الذي استودعته أم موسى، فبكت نرجس، فقال لها: اسكتي، فإن الرّضاع محرّم عليه إلاّ من ثديك وسيعاد إليك، كما رد موسى إلى أمه، وذلك قوله عز وجل: ﴿فَرَدَدْناهُ إِلى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها ولا تَحْزَنَ﴾[٢].

قالت حكيمة: فقلت ما هذا الطائر؟

قال: هذا روح القدس الموكل بالأئمة عليهم السلام يوفقهم ويسدّدهم ويربّيهم بالعلم[٣].

وأمّا الطّائفة الثّالثة:

فتدلّ على كرامة عظمى وحظوة كبرى أكرم الله تعالى بها شعراء أهل البيت عليهم السلام خاصة دون غيرهم، كشكل من أشكال التأييد والتسديد لهم، فإذا كان العرب يعتقدون أنّ للشعر شيطاناً يتجلّى على ألسنة الشعراء إذا أبدعوا وأحسنوا.. فإنّ النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام يؤكّدون أن القائل فيهم إنّما ينطق بروح القدس.

فعن الكميت بن زيد الأسدي، قال: دخلت على أبي جعفر عليه السلام فقال: واللّه يا كميت لو كان عندنا مال لأعطيناك منه، ولكن لك ما قال

---

(١) راجع بصائر الدرجات ص (٤٥٣)، وبحار الأنوار (٥٧/٢٥و١٥١/٣٩).

(٢) سورة القصص: الآية ١٣.

(٣) راجع بحار الأنوار (١٤/٥١).

رسول اللّه ﷺ لحسّان بن ثابت: لن يزال معك روح القدس ما ذببت عنّا[١].

وفي إكمال الدين، عن دعبل بن علي الخزاعي يقول أنشدت مولاي علي بن موسى الرضا عليه السلام قصيدتي التي أولها:

مدارس آيات خلت من تلاوة و منزل وحي مقفر العرصات

فلما انتهيت إلى قولي:

خروج إمام لا محالة خارج يقوم على اسم الله والبركات

يميز فينا كل حق و باطل ويجزي على النعماء والنقمات

بكى الرضا عليه السلام بكاء شديداً، ثم رفع رأسه إليّ فقال لي: يا خزاعي، نطق روح القدس على لسانك بهذين البيتين، فهل تدري من هذا الإمام ومتى يقوم؟

فقلت: لا يا مولاي، إلاّ أني سمعت بخروج إمام منكم يطهّر الأرض من الفساد ويملؤها عدلاً كما ملئت جوراً.

فقال: يا دعبل، الإمام بعدي محمّد ابني، وبعد محمد ابنه علي، وبعد علي ابنه الحسن، وبعد الحسن ابنه الحجة القائم، المنتظر في غيبته، المطاع في ظهوره، لو لم يبق من الدنيا إلاّ يوم واحد لطول الله ذلك اليوم حتى يخرج فيملؤها عدلاً كما ملئت جوراً[٢].

---

(١) راجع أصول الكافي (١٠٢/٨)، ورجال الكشي ص (٢٠٧)، وبحار الأنوار (٢٦٦/٣٠ و ٣٤١/٤٦ و ٣٢٤/٤٧) ووسائل الشيعة (٥٩٤/١٤).

(٢) راجع عيون أخبار الرضا (٢٦٥/٢)، وكمال الدين (٣٧٣/٢)، وبحار الأنوار (١٣٧/٤٩ و ١٥٤/٥١)، وإعلام الورى ص (٣٣١)، والصراط المستقيم (٢٣٠/٢)، وكفاية الأثر ص (٢٧٧)، وكشف الغمّة (٣٢٨/٢)، ومستدرك الوسائل (٣٩٤/٦).

ومن التّوفيق أن أختم الحديث في هذا الباب بروايه الشيخ الصدوق رحمه الله في عيون أخبار الرضا عليه السلام بالإسناد إلى الهروي، قال:

دخل دعبل بن علي الخزاعي رحمه الله على أبي الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام بمرو، فقال له: يا ابن رسول الله، إني قد قلت فيك قصيدة، وآليت على نفسي أن لا أنشدها أحداً قبلك.

فقال عليه السلام: هاتها فأنشده.

مدارس آيات خلت عن تلاوة ... ومنزل وحي مقفر العرصات

فلمّا بلغ إلى قوله:

أرى فيئهم في غيرهم متقسّماً ... و أيديهم من فيئهم صفرات

فلمّا بلغ إلى قوله هذا بكى أبو الحسن الرضا عليه السلام وقال له: صدقت يا خزاعي.

فلمّا بلغ إلى قوله:

إذا وتروا مدوا إلى واتريهم ... أكفا عن الأوتار منقبضات

جعل أبو الحسن عليه السلام يقلّب كفيه، ويقول: أجل والله منقبضات.

فلمّا بلغ إلى قوله:

لقد خفت في الدنيا وأيام سعيها ... و إني لأرجو الأمن بعد وفاتي

قال الرضا عليه السلام: آمنك الله يوم الفزع الأكبر.

فلمّا انتهى إلى قوله:

و قبر ببغداد لنفس زكية ... تضمنها الرحمن في الغرفات

قال له الرضا عليه السلام: أ فلا ألحق لك بهذا الموضع بيتين بهما تمام قصيدتك؟

فقال: بلى يا ابن رسول الله!!

فقال عليه السلام :

وقبرٌ بطوس يا لها من مصيبة ... توقّد بالأحشاء في الحرقات

إلى الحشر حتى يبعث الله قائماً ... يفرّج عنا الهم و الكربات

فقال دعبل: يا ابن رسول الله، هذا القبر الذي بطوس قبر من هو؟

فقال الرضا عليه السلام : قبري، ولا تنقضي الأيام والليالي حتى يصير طوس مختلف شيعتي وزواري، ألا فمن زارني في غربتي بطوس كان معي في درجتي يوم القيامة مغفوراً له.

ثم نهض الرضا عليه السلام بعد فراغ دعبل من إنشاد القصيدة، وأمره أن لا يبرح من موضعه ودخل الدار، فلمّا كان بعد ساعة خرج الخادم إليه بماءة دينار رضويّة، فقال له: يقول لك مولاي اجعلها في نفقتك، فقال دعبل: والله ما لهذا جئت، ولا قلت هذه القصيدة طمعاً في شيء يصل إليّ، وردّ الصّرة وسأل ثوبا من ثياب الرضا ليتبرك به ويتشرف به، فأنفذ إليه الرضا عليه السلام جبّة خز مع الصرة، وقال للخادم: قل له خذ هذه الصّرة، فإنك ستحتاج إليها، ولا تراجعني فيها[1].

وإنّها لكرامة عظيمة حبوها لشعرائهم عليهم السلام لا تعادلها كرامة أو حبوة، تفضّل بها الله تعالى على محبّي نبيّه صلى الله عليه وآله وأهل بيته البررة عليهم السلام، وقد تأكّد هذا الوسام عنهم عليهم السلام في أكثر من موطن، وهو محفّز لقول الحق والصدق فيهم،

---

(١) راجع عيون أخبار الرضا (٢/٢٦٤)، وكمال الدين (٢/٢٦٤)، وإعلام الورى ص ص (٣٣٠)، وبحار الأنوار (٤٩/٢٣٩). ثم يواصل راوي الخبر في بيان الأحداث التي مرّ بها شاعرنا رحمه الله في طريق عودته إلى محلّ إقامته، وما واجه من مصاعب كلّها تعبّر عن أصداء تلك القصيدة العصماء.. والخبر طويل، أخذنا منه موضع الحاجة.

على أنّ الشعراء مهما بالغوا فإنّهم لن يبلغوا حقيقة فضلهم أو يدركوا منزلتهم.

وروي في الدلائل للحميري، عن مالك الجهني، قال: كنا بالمدينة حين أجليت الشيعة وصاروا فرقاً، فتنحينا عن المدينة ناحية، ثم خلونا، فجعلنا نذكر فضائلهم وما قالت الشيعة، إلى أن خطر ببالنا الربوبية، فما شعرنا بشيء إذا نحن بأبي عبد الله عليه السلام واقف على حمار لم ندر من أين جاء.

فقال: يا مالك، ويا خالد، متى أحدثتما الكلام في الربوبية؟

فقلنا: ما خطر ببالنا إلاّ السّاعة!!

فقال: إعلما أن لنا ربّاً يكلؤنا بالليل والنهار نعبده، يا مالك ويا خالد، قولوا فينا ما شئتم، واجعلونا مخلوقين، فكرّرها علينا مراراً وهو واقف على حماره[1].

وروي في بصائر الدرجات، عن كامل التمار، قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام ذات يوم فقال لي: يا كامل، إجعل لنا ربّاً نؤوب إليه وقولوا فينا ما شئتم.

قلت: نجعل لكم ربّاً تؤوبون إليه ونقول فيكم ما شئنا!!

قال: فاستوى جالساً، ثم قال: وعسى أن نقول ما خرج إليكم من علمنا إلاّ ألفاً غير معطوفة[2].

وقال الشاعر الملهم في هذا الصّدد:

إليكم وإلاّ لا تشدّ الركائب ... ومنكم وإلاّ لا تنال الرغائب
وفيكم وإلاّ فالحديث مزخرفٌ ... وعنكم وإلاّ فالمحدّث كاذب

---

(١) راجع بحار الأنوار (٢٥/٢٨٩ و ٤٧/١٤٨).

(٢) راجع بصائر الدرجات ص (٥٠٧)، وبحار الأنوار (٢٥/٢٨٣).

وقد تسابق الشعراء والأدباء والرثاة للإلتحاق بركب الفضيلة السائر الممسك بحجزة الدين والنبوّة والإمامة، وقد تقدّم حديث إنشاد أبي هارون المكفوف الشّعر في محضر الإمام الصّادق عليه السلام، وكذلك إنشاد جعفر بن عفان وأبي عمارة المنشد، ولابدّ أن نقف بإنحناء أمام التائية العصماء التي أنشدها في محضر مولانا الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام.

وتتناول التائية العصماء التي نظم درّها شاعر أهل البيت القدير دعبل بن علي الخزاعي رحمه الله مختلف المواضيع العقائدية والإجتماعية والفكرية والسياسية وفضائل أهل البيت عليهم السلام، كما وتضمّ مثالب أعدائهم وغير ذلك، في ديباجة نموذجيّة من حيث الطرح، ولا شكّ في كونها مثالاً يحتذيه الشعراء إن راموا التوفيق.

وقد تجد من عيون الشعر الشيعي ما يقارب هذا المؤدّى، لكنّ السرّ في خلود هذه القصيدة بالذّات هو قبول الإمام الرّضا عليه السلام لها بعد إنشادها في محضره الشّريف، وتجدر الإشارة إلى أنّ الإمام عليه السلام لم يكن ليهتم بها كل هذا الإهتمام ويعقد لها مجلساً لولا أنّها من قصائد الرثاء الحسيني، والقصد من إنشادها هو إستدرار الدّموع على المولى الشهيد عليه السلام.

وهو الأمر الذي لمس محبوبيّته الشعراء والرثاة وأدركوا ثوابه في مجالس أهل البيت عليهم السلام فراحوا يتقرّبون به إليهم، ومن هؤلاء دعبل الذي إستطاع أن يرقى بقصيدته مرتقى الأنموذج الفريد الذي كان قد حضّ عليه الأئمة الطاهرون عليهم السلام في مجالس الإنشاد والذّكر، سيّما بعد انحصار طرق إحياء أمرهم إعلاميّاً بالمنبر الحسيني.

الثالث: المجالس الحسينية

الإسلام والمجالس

لا شكّ في كون المجالس والمنتديات ظاهرة إجتماعية جديرة بالإهتمام، وطبيعتها كاشفة عن فساد أو صحّة الذوق العام، وهي تعكس وعي مرتاديها بشكل دقيق، ولابدّ من أن يُعمل الإسلام هديه وتعاليمه في تهذيبها من براثن الجاهليّة بالسموّ بأغراضها، بصورة تؤدّي إلى الدّين والعلم والهدى.

فقد عمل الإسلام ـ منذ صدره الأوّل ـ على دعم المواد المفيدة في المجالس العامّة والخاصّة، خلافاً لما تعوّده العرب في مجالس الجاهلية، وراح النبي صلى الله عليه وآله يجابه المادّة الخالية عن الفوائد العمليّة، التي لا تعود على النّاس إلاّ بتأجيج العصبيّات والإحن في النفوس، ويُوجه الخرافات والأساطير والموروثات الفاسدة، ويؤسّس لمادة بديلة تنهض بأمّة العرب فتتمكّن من منافسة أعظم الحضارات.

ففي أمالي الصدوق: بإسناده إلى أبي الحسن موسى بن جعفر عن آبائه عليهم السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله دخل المسجد، فإذا جماعة قد أطافوا برجل، فقال: ما هذا؟

فقيل: علامة!!

قال: وما العلامة؟

قالوا: أعلم الناس بأنساب العرب ووقائعها وأيام الجاهلية وبالأشعار والعربية.

فقال النبي ﷺ: ذاك علم لا يضر من جهله، ولا ينفع من علمه[١].

ولقد ارتفعت تعاليم الإسلام السامية لترقى بالأمّة فوق مستويات سائر الأمم في طريق تطوير مجالسهم ومنتدياتهم، واهتم الإسلام بالأخلاق كأساس أوّل في تعاليمه، وعرض القرآن الكريم صوراً من المجالس المنحطّة ليتمّ معاكستها بالسلوك، واصفاً إيّاها بالمنكر، تشنيعاً لها وتأسيساً لخلافها في النفوس، وذم بتعاليمه بعض منتدياتهم وشرح أحوال أقوام ترسيخاً للآداب والأخلاق السامية..

وقال تعالى في وصف مجالس قوم لوط: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾[٢] وقد روي عن الإمام الرضا عليه السلام أنّهم كانوا يتضارطون في مجالسهم من غير حشمة ولا حياء، وقيل: إنهم كانوا يأتون الرجال في مجالسهم يرى بعضهم بعضاً، وقيل: أن مجالسهم كانت تشتمل على أنواع المناكير، مثل الشتم والسخف والصفع والقمار وضرب المخراق وخذف الأحجار على من مر بهم، وضرب المعازف والمزامير وكشف العورات واللواط[٣].

ولقد عني القرآن بأدق التفاصيل في مسألة الآداب والأخلاق في المجالس ليؤكّد قدسيّتها، ووضع اللبنات الأساس في طريق تأسيس المجلس القدوة والمثال الذي يُحتذى، ورسّخ قدسية مجلس النبي ﷺ ونهى عن الإساءة في محضره الكريم، إذ قال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[٤] وبهذا فإنّه يؤدّب المتشرّفين بمجالسته على تأخير أقوالهم وأفعالهم عن قوله وفعله.

---

(١) راجع بحار الأنوار (١/ ٢١١).

(٢) سورة العنكبوت: الآية ٢٩.

(٣) راجع بحار الأنوار (١/ ٢١٩).

(٤) سورة الحجرات: الآية ١.

وقال ابن عباس: نهوا أن يتكلموا قبل كلامه، وكأنّ الآية تقول لهم: إذا كنتم جالسين في مجلس رسول الله ﷺ فسئل عن مسألة فلا تسبقوه بالجواب حتى يجيب ﷺ أولاً.

ونهاهم عن رفع الصوت في محضره الشريف، فقال تعالى: ﴿لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾[1] لأن في ذلك استخفاف به ﷺ وهو عين الكفر وفيه سوء الأدب الذي ينافي التعظيم المأمور به، وقال تعالى: ﴿وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾[2] يأمرهم بغض الأصوات عند مخاطبتهم إياه في مجلسه، إذ يجب تعظيمه وتوقيره من كل وجه.. وتتوالى آيات القرآن الكريم في هذا الصدد[3].

وجاء في تفسير قوله تعالى: ﴿إِذا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا﴾[4] أنّ أصحابه كانوا يتنافسون على حضور مجلسه ﷺ، فإذا رأوا من جاءهم مقبلاً ضنّوا بمجالسهم عنده ﷺ، فأمرهم تعالى أن يفسح بعضهم لبعض..

وقيل: أنّ مجلس رسول الله ﷺ كان في الصّفّة، وفي المكان ضيق وذلك يوم الجمعة، وكان ﷺ يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار، فجاء أناس من أهل بدر، وقد سُبقوا في المجلس، فقاموا حيال النبي ﷺ فقالوا: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، فردّ عليهم ﷺ ثم سلّموا على القوم بعد ذلك فردوا عليهم، فقاموا على أرجلهم ينظرون إلى القوم فلم يفسحوا لهم.

فشق ذلك على النبي ﷺ فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار من غير

---

(١) سورة الحجرات: الآية ٢.

(٢) سورة الحجرات: الآية ٢.

(٣) راجع بحار الأنوار (١٧/ ٢٢).

(٤) سورة المجادلة: الآية ٥٨.

أهل بدر: قم يا فلان، قم يا فلان، بقدر النفر الذين كانوا بين يديه من أهل بدر، فشق ذلك على من أقيم من مجلسه، وعرف الكراهية في وجوههم، وقال المنافقون للمسلمين: أ لستم تزعمون أن صاحبكم يعدل بين الناس، فو الله ما عدل على هؤلاء، إن قوما أخذوا مجالسهم، وأحبوا القرب من نبيهم فأقامهم وأجلس من أبطأ عنه مقامهم، فنزلت الآية[1].

لقد أرست تعاليم الإسلام جانبي الآداب والذوق العالي في المجالس بصورة ظاهرة، كقاعدة أساس لتلقّي المادّتين الدّينيّة والعلمية، والترقّي بجملة مرتادي تلك المجالس النبوية بتوجيه محتوى منتدياتهم..

وقد ورد عنهم عليهم السلام: لا تكونوا كجفاة الجاهلية، لا في الدين تتفقهون، ولا عن الله تعقلون، كقيض بيض في أداح، يكون كسرها وزراً، ويخرج حضانها شرّاً[2].

توجيه المجالس

أشرفت تعاليم الإسلام على أدقّ التفاصيل في تهذيب المجالس ولم تهمل جانباً من جوانبها، إلى درجة أن التعاليم الدينية وجّهت المسلمين حتّى في ضوابط اختيار الجليس!!

فقد روي في غوالي اللئالي أن النبي الكريم صلى الله عليه وآله قال: قال الحواريون لعيسى عليه السلام: يا روح الله من نجالس؟ قال: من يذكركم الله رؤيته، ويزيد في علمكم

---

(١) راجع بحار الأنوار (١٧/٢٥).

(٢) راجع بحار الأنوار (١/٢١١).

منطقه، ويرغبكم في الآخرة عمله[١].

وروى فيه عن بعض الصادقين عليهما السلام: الجلساء ثلاثة، جليس تستفيد منه فالزمه، وجليس تفيده.فأكرمه، وجليس لا تفيد ولا تستفيد منه فاهرب عنه[٢].

ثمّ رغّبت التعاليم إلى مجالسة الفقهاء وأهل الدين، فهم الأقدر على التوجيه والإفادة، وبالتّالي فإنّ التلقّي عنهم من أفضل العبادات..

فقد روي في أمالي الشيخ الطوسي بالإسناد إلى أمير المؤمنين عليه السلام أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: المتقون سادة، والفقهاء قادة، والجلوس إليهم عبادة[٣].

وروي في عدة الداعي عن علي أمير المؤمنين عليه السلام قال: جلوس ساعة عند العلماء أحب إلى الله من عبادة ألف سنة، والنظر إلى العالم أحب إلى الله من اعتكاف سنة في البيت الحرام، وزيارة العلماء أحب إلى الله تعالى من سبعين طوافاً حول البيت، وأفضل من سبعين حجة وعمرة مبرورة مقبولة، ورفع الله له سبعين درجة، وأنزل الله عليه الرحمة، وشهدت له الملائكة أن الجنة وجبت له[٤].

وروي في روضة الواعظين أن لقماناً قال لابنه: يا بنيّ، جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك، فإن الله عز وجل يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض بوابل السماء[٥].

وروي فيه عن بعض الصحابة أنّه جاء رجل من الأنصار إلى النبي صلى الله عليه وآله

---

(١) راجع بحار الأنوار (١/٢٠٣).

(٢) راجع بحار الأنوار (١/٢٠٣).

(٣) راجع بحار الأنوار (١/٢٠١).

(٤) راجع بحار الأنوار (١/٢٠٤).

(٥) راجع بحار الأنوار (١/٢٠٤).

فقال: يا رسول الله إذا حضرت جنازة ومجلس عالم أيهما أحب إليك أن أشهد؟

فقال رسول الله ﷺ: إن كان للجنازة من يتبعها ويدفنها فإن حضور مجلس عالم أفضل من حضور ألف جنازة، ومن عيادة ألف مريض، ومن قيام ألف ليلة، ومن صيام ألف يوم، ومن ألف درهم يتصدّق بها على المساكين، ومن ألف حجة سوى الفريضة، ومن ألف غزوة سوى الواجب تغزوها في سبيل الله بمالك ونفسك، وأين تقع هذه المشاهد من مشهد عالم، أ ما علمت أن الله يطاع بالعلم، ويعبد بالعلم، وخير الدنيا والآخرة مع العلم، وشر الدنيا والآخرة مع الجهل[1].

وروي في ثواب الأعمال بالإسناد إلى الإمام الصادق عليه السلام عن أبيه عن آبائه عليهم السلام أنّ رسول الله ﷺ قال: مجالسة أهل الدين شرف الدنيا والآخرة[2].

كما أنهم عليهم السلام قد نهوا أشدّ النهي عن الحضور في مجالس أعدائهم، التي ينتقصون فيها، وحذّروا من الكون في مواطن النقمة والعذاب الإلهي المعجّل، وتندرجُ هذه المرويّات في باب في الإعلام المضاد للسلطات التي حكمت البلاد ووجّهت الإعلام في الإتجاه المناويء لأهل البيت عليهم السلام..

ففي الكافي، بالإسناد إلى الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: ثلاثة مجالس يمقتها الله ويرسل نقمته على أهلها فلا تقاعدوهم ولا تجالسوهم، مجلساً فيه من يصف لسانه كذباً في فتياه، ومجلساً ذكر أعدائنا فيه جديد وذكرنا فيه رثٌّ، ومجلساً فيه من يصدّ عنّا وأنت تعلم.

---

(١) راجع بحار الأنوار (١/ ٢٠٤).

(٢) راجع بحار الأنوار (١/ ١٩٩).

قال: ثم تلا أبو عبد الله عليه السلام ثلاث آيات من كتاب الله كأنما كن في فيه أو قال كفّه: ﴿وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾(١) ﴿وَإِذا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آياتِنا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾(٢) ﴿وَلا تَقُولُوا لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هذا حَلالٌ وَهذا حَرامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾(٣)(٤).

وفيه، بالإسناد إلى عبد الأعلى قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقعدنّ في مجلس يُعاب فيه إمام أو يُنتقص فيه مؤمن(٥).

مجالس الذّكر

يحتاج الإنسان المؤمن إلى بناء ذاته دينيّاً وعلميّاً وفكريّاً، إذ لا خير يُرتجى من الجاهل بالدين والحلال والحرام، ومن هذا المنطلق فإنّ الأخبار الواردة عن النبي الكريم صلى الله عليه وآله وأهل بيته الطيبين عليهم السلام حثّت على البناء الذّاتي بما لا مزيد عليه، وتوالت تعاليم النبي الكريم صلى الله عليه وآله والأئمة البررة عليهم السلام في هذا الصدد حتّى كانت قمّة العصور الذهبية للعلم والتفقّه في زمن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام.

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٠٨.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٦٨.

(٣) سورة النحل: الآية ١١٦.

(٤) راجع بحار الأنوار (٢١٥/٧١).

(٥) راجع بحار الأنوار (٢١٤/٧١).

فقد روي عنه عليه السلام في المحاسن عن إسحاق بن عمار أنّه سمعه يقول: ليت السياط على رؤوس أصحابي حتى يتفقهوا في الحلال والحرام[١].

وكما أن الإنسان المؤمن يحتاج إلى التفقّه والتعلّم فإنّه يحتاج في نفس الوقت إلى تذاكر الفقه والعلم، وتداوله وتحريك موادّه ليحصّنه من النسيان، ويحيي قلبه بالتذكير، ومن هذا المنطلق فقد حثّ النبي الكريم صلى الله عليه وآله وأهل بيته الطيبين عليهم السلام على إقامة مجالس الذكر، فإنّ في تكرار المادة المعلومة ترسيخ لها في النفس والذاكرة، وهي مجالس تؤكّد أهمية الفقه والعلم، ويرتادها العلماء والمتعلّمون على حدّ سواء، ومن هنا فإنّها تكتسب أهميّة قصوى، وقد توالت الأخبار في الحثّ على إحيائها.

فقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: إن الله عز وجل يقول: تذاكر العلم بين عبادي مما تحيا عليه القلوب الميتة إذا انتهوا فيه إلى أمري[٢].

وقد وجّهت التعاليم الدّينية بعبقرية ظاهرة إلى تحويل كلّ الملتقيات الإجتماعية إلى مجالس ذكر للعلم، بل وحتّى الزيارات الإعتيادية التي لا يستغني عنها النّاس بطبعهم، ليترقّوا بعلومهم ونفوسهم..

فقد روي في كنز الكراجكي أن أمير المؤمنين عليه السلام قال: تزاوروا وتذاكروا الحديث، إن لا تفعلوا يدرس[٣].

وروي في جامع الأخبار عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: يا أبا ذر، الجلوس ساعة عند مذاكرة العلم أحب إلى الله من قيام ألف ليلة يصلى

---

(١) راجع المحاسن (١/٢٢٩)، وعنه بحار الأنوار (١/٢١٤).

(٢) راجع بحار الأنوار (١/٢٠٣).

(٣) راجع بحار الأنوار (٢/١٥١).

في كل ليلة ألف ركعة، والجلوس ساعة عند مذاكرة العلم أحب إلى الله من ألف غزوة وقراءة القرآن كله..

قال: يا رسول الله، مذاكرة العلم خير من قراءة القرآن كله!!

فقال رسول الله ﷺ: يا أبا ذر.. الجلوس ساعة عند مذاكرة العلم أحب إلى الله من قراءة القرآن كله إثنا عشر ألف مرة.. عليكم بمذاكرة العلم، فإن بالعلم تعرفون الحلال من الحرام.. يا أبا ذر، الجلوس ساعة عند مذاكرة العلم خير لك من عبادة سنة صيام نهارها وقيام ليلها.. والنظر إلى وجه العالم خير لك من عتق ألف رقبة[١].

وروي في غوالي اللئالي بطريق صحيح عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: إن الله عز وجل يقول لملائكته عند انصراف أهل مجالس الذكر والعلم إلى منازلهم: أكتبوا ثواب ما شاهدتموه من أعمالهم، فيكتبون لكل واحد ثواب عمله ويتركون بعض من حضر معهم فلا يكتبونه، فيقول الله عز وجل: ما لكم لم تكتبوا فلاناً؟ أ ليس كان معهم وقد شهدهم!! فيقولون: يا ربّ، إنه لم يشرك معهم بحرف، ولا تكلّم معهم بكلمة، فيقول الجليل جل جلاله: أ ليس كان جليسهم؟ فيقولون: بلى يا رب، فيقول: أكتبوه معهم، إنهم قوم لا يشقى بهم جليسهم، فيكتبونه معهم، فيقول تعالى: أكتبوا له ثواباً مثل ثواب أحدهم[٢].

وروي في علل الشرائع عن يونس رفعه، أنّ لقماناً قال لابنه: يا بني اختر المجالس على عينك، فإن رأيت قوما يذكرون الله عز وجل فاجلس معهم، فإنك

---

(١) راجع بحار الأنوار (١/٢٠٤).

(٢) راجع بحار الأنوار (١/٢٠٣).

إن تكُ عالماً ينفعك علمك ويزيدوك علماً ، وإن كنت جاهلا علّموك ، ولعل الله أن يظلهم برحمة فتعمك معهم ، وإذا رأيت قوما لا يذكرون الله فلا تجلس معهم ، فإنك إن تك عالما لا ينفعك علمك ، وإن تك جاهلاً يزيدوك جهلا ، ولعل الله أن يظلهم بعقوبة فتعمك معهم(١).

ويعني الحكيم بقوله : على عينك.. أي على بصيرة منك وفحص ، فإن على قد تجيء بمعنى الباء ، واحتمل المرحوم المجلسي رحمه الله أنّ المقصود : رجّحها على عينك ، ثم يشرع في بيان المجلس الذي ينبغي أن يختار على العين ، وفي هذا الخبر تتجلّى أهميّة مجالس الذكر عموماً ، للعالم والجاهل كما ترى ، وفيه بيان وجه الفائدة لهما.

وتنعطف الروايات والأخبار عنهم عليهم السلام لتعبّر عن مجالس الذكر بالحلَق ، ممّا يعكس الإستعداد والتهيئة لها والإهتمام بها ، كأشبه ما تكون بالمدارس الخاصّة ، وينطوي هذا التعبير على بيان جملة من الآداب الخاصة بتلك المجالس فتأمّل.

فقد روي في منية المريد أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال : إذا مررتم في رياض الجنة فارتعوا ، قالوا : يا رسول الله ، وما رياض الجنة ؟

قال : حلَق الذكر ، فإن لله سيارات من الملائكة يطلبون حلَق الذكر ، فإذا أتوا عليهم حفّوا بهم(٢).

وقريب من ذلك ما روي في معاني الأخبار بإسناده إلى محمد بن الحسن بن

---

(١) راجع بحار الأنوار (١/٢٠١).

(٢) راجع بحار الأنوار (١/٢٠٤).

علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام عن أبيه عن أبيه عن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: بادروا إلى رياض الجنة.

فقالوا: وما رياض الجنة؟

قال: حلق الذكر[1].

وحلَق الذكر هي المجالس التي يتذاكر فيها المؤمنون ما يقرّبهم إلى الله تعالى، سواء كان تعلّم الحلال والحرام، وفيها يتعلّمون كيف يشتري المسلم وكيف يبيع وكيف يصلي ويصوم وينكح ويطلق ويحج وأشباه ذلك على قانون الشّرع..

أو تلك التي يتذاكرون فيها علوم أهل البيت عليهم السلام وفضائلهم ومناقبهم، ويؤكّدون على تولّيهم، ويتذاكون كذلك مثالب أعدائهم، ويتبرّأون منهم، وبهذا يحيون أمرهم عليهم السلام ويتعرّضون إلى ذكر مصائبهم كما سيأتي قريباً.

أو مجالس الوعظ التي يتذاكرون فيها وعده الله سبحانه ووعيده، ويتشوّقون إلى الجنّة ويخشون من عذاب النّار.. أو مجالس العلم التي لا يمكن أن تكون إلاّ مقرّبة من الحقّ تبارك وتعالى بدراسة نعمه وآلائه ومظاهر عظمته.

أهل البيت والمجالس

يتبادل أهل البيت عليهم السلام الأدوار في تبليغ دين الله عزّ وجل، وتتوّزع مهام التوجيه فيما بينهم كما يتبادلون المكارم والفضائل، ويقتسمون مهام البناء الإنساني اقتساماً مُلفتاً، فقد هيّأ أبوهم صلى الله عليه وآله أرضيّة المجالس الإسلاميّة من جانب، وأشعل فتيل الحزن على أرزاء عترته البررة عليهم السلام من جانب آخر، ثم

---

(١) راجع بحار الأنوار (١/ ٢٠٤).

أسّست العترة الطّاهرة على منواله في كلا الجانبين، وتصدّى أئمة أهل البيت عليهم السلام تباعاً لإذكاء لوعة المصاب، عبر صقل مجالس الذكر وتوظيفها لصالح قضيّتهم الكبرى، وقد أضافوا مادّة الأحزان إلى سائر القصود المهمّة في تلك المجالس.

وروي في غوالي اللئالي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: تلاقوا وتحادثوا العلم، فإن بالحديث تُجلى القلوب الرائنة، وبالحديث إحياء أمرنا، فرحم الله من أحيا أمرنا[١].

وفيه أن النبي صلى الله عليه وآله قال: تذاكروا وتلاقوا وتحدّثوا، فإن الحديث جلاء، إن القلوب لترين كما يرين السيف، وجلاؤها الحديث[٢].

وروي في أمالي الشيخ الطوسي بالإسناد إلى أبي عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام أنّه قال لخيثمة: يا خيثمة أقرأ موالينا السلام، وأوصهم بتقوى الله العظيم عز وجل، وأن يشهد أحياؤهم جنائز موتاهم، وأن يتلاقوا في بيوتهم، فإن لقياهم حياة أمرنا، ثم رفع يده عليه السلام فقال: رحم الله امرأً أحيا أمرنا[٣].

وروي في أمالي الصدوق بالإسناد إلى الإمام الرضا عليه السلام أنّه قال: من جلس مجلسا يحيا فيه أمرنا لم يمت قلبه يوم تموت القلوب[٤].

وروي في عيون أخبار الرضا بالإسناد إلى الإمام الرضا عليه السلام أنّه قال: من تذكر مصابنا فبكى وأبكى لم تبك عينه يوم تبكي العيون، ومن جلس مجلسا

---

(١) راجع بحار الأنوار (١/ ٢٠٢).

(٢) راجع بحار الأنوار (١/ ٢٠٣).

(٣) راجع بحار الأنوار (١/ ٢٠٠).

(٤) راجع بحار الأنوار (١/ ١٩٩).

يحيا فيه أمرنا لم يمت قلبه يوم تموت القلوب[١].

وروي في أمالي الشيخ الطوسي بالإسناد إلى معتب مولى أبي عبد الله عليه السلام قال سمعته يقول لداود بن سرحان: يا داود أبلغ موالي عني السلام، وأني أقول رحم الله عبداً اجتمع مع آخر فتذاكر أمرنا، فإن ثالثهما ملك يستغفر لهما، وما اجتمع اثنان على ذكرنا إلاّ باهى الله تعالى بهما الملائكة، فإذا اجتمعتم فاشتغلوا بالذكر، فإن في اجتماعكم ومذاكرتكم إحياءنا، وخير الناس من بعدنا من ذاكر بأمرنا ودعا إلى ذكرنا[٢].

وروي في بشارة المصطفى بالإسناد إلى الإمام موسى بن جعفر عن آبائه عليهم السلام عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: زيّنوا مجالسكم بذكر علي بن أبي طالب[٣].

وروي في المحاسن بالإسناد إلى أبي عبد الله عليه السلام أن أمير المؤمنين عليه السلام قال: ذكرنا أهل البيت شفاء من الوعك والأسقام ووسواس الريب، وحبّنا رضى الرب تبارك وتعالى[٤].

وكانت هذه الرّوايات والأخبار ـ التي سرعان ما حملها الرّواة إلى أقصى النقاط التي يقطنها الشّيعة ـ الضوء الأخضر لعموم الشيعة في رفع شعارهم وتجديد ذكرهم، عبر إحياء المحافل والمجالس، حتّى صارت سمة تميّزهم عن غيرهم من المسلمين، وفيها يحيون فيها أمر أئمتهم الطّاهرين عليهم السلام.

---

(١) راجع بحار الأنوار (١/ ٢٠٠).

(٢) راجع بحار الأنوار (١/ ٢٠٠).

(٣) راجع بحار الأنوار (٣٨/ ١٩٩).

(٤) بحار الأنوار (٢/ ١٤٥).

ولقد رحّب أئمة أهل البيت عليهم السلام بحركة الشيعة في هذا الإتّجاه، وأبدوا ارتياحهم الكبير تجاه هذه المجالس التي طالما أدخلت السرور على قلوبهم في عصور العسرة والشدّة، وهم يتحدّون الصعاب بحبّهم لهم عليهم السلام فيزيّنون مجالسهم بذكرهم الشريف، ولقد توّجوا صنائع شيعتهم بالقبول، وعدّوا عليهم السلام مجالس الشيعة سيّدة المجالس كلّها، تشريفاً لها وإجلالاً لمقامها عند الله تعالى وعندهم، ولا زالت الرّوايات تتوالى في عدّ هذه الفضيلة ضمن فضائل الشيعة الكبرى.

ففي تفسير فرات بن إبراهيم معنعناً عن أبي عبد الله عليه السلام قال: خرجت أنا وأبي ذات يوم فإذا هو بأناس من أصحابنا بين المنبر والقبر فسلّم عليهم، ثم قال: أما والله إني لأحب ريحكم وأرواحكم، فأعينوني على ذلك بورع واجتهاد، من ائتمّ بعبد فليعمل بعمله، وأنتم شيعة آل محمد صلى الله عليه وآله، وأنتم شرط الله، وأنتم أنصار الله، وأنتم السَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ، والسابقون الآخرون في الدنيا، والسابقون في الآخرة إلى الجنة، قد ضمنّا لكم الجنة بضمان الله وضمان رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته.

أنتم الطيبون، ونساؤكم الطيّبات، كل مؤمنة حوراء، وكل مؤمن صدّيق، كم مرة قد قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام لقنبر: يا قنبر، أبشر وبشّر واستبشر، والله لقد قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وهو ساخط على جميع أمّته إلاّ الشّيعة، وإن لكل شيء شرفاً وإن شرف الدّين الشّيعة، ألا وإن لكل شيء عروة وإن عروة الدّين الشيعة، ألا وإن لكل شيء إماماً وإمام الأرض أرض يسكن فيها الشّيعة، ألا وإن لكل شيء سيّداً وسيد المجالس مجالس الشيعة، ألا وإن لكل شيء شهوة وإن شهوة الدّنيا سكنى شيعتنا فيها.

والله لو لا ما في الأرض منكم ما استكمل أهل خلافكم طيبات رزقهم وما لهم فِي الآخرة مِنْ نَصِيب، كلّ ناصب وإن تعبد واجتهد منسوب إلى هذه الآية: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشِعَةٌ ❖ عامِلَةٌ ناصِبَةٌ ❖ تَصْلى ناراً حامِيَةً ❖ تُسْقى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾[1]، ومن دعي من مخالف لكم فإجابة دعائه لكم، ومن طلب منكم إلى الله حاجة فله ماءة، ومن سأل مسألة فله ماءة، ومن دعا بدعوة فله ماءة، ومن عمل منكم حسنة فلا يحصى تضاعفها، ومن أساء منكم سيّئة فمحمد صلى الله عليه وآله حجيجه، يعني يحاج عنه، والله إن صائمكم ليرعى في رياض الجنّة، تدعو له الملائكة بالعون حتى يفطر، وإن حاجكم ومعتمركم لخاص الله، وإنكم جميعاً لأهل دعوة الله، وأهل إجابته، وأهل ولايته، لا خوف عليكم ولا حزن، كلّكم في الجنة، فتنافسوا في فضائل الدرجات.

والله ما من أحد أقرب من عرش الله تعالى بعدنا يوم القيامة من شيعتنا، ما أحسن صنع الله إليكم، والله لو لا أن تفتنوا فيشمت بكم عدوّكم ويعلم الناس ذلك لسلمت عليكم الملائكة قبلاً، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: يخرجون ـ يعني أهل ولايتنا ـ من قبورهم يوم القيامة مشرقة وجوههم، قرّت أعينهم، قد أعطوا الأمان، يخاف الناس ولا يخافون، ويحزن الناس ولا يحزنون.

والله، ما من عبد منكم يقوم إلى صلاته إلاّ وقد اكتنفته ملائكة من خلفه يصلّون عليه ويدعون له حتى يفرغ من صلاته، ألا وإن لكل شيء جوهراً وجوهر ولد آدم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ نحن وشيعتنا[2].

---

(١) سورة الغاشية: الآية الآيات ٢ إلى ٥.

(٢) راجع بحار الأنوار (٧/٢٠٣).

ولقد أعدّ الله تعالى لشيعة أمير المؤمنين عليه السلام من الثواب على مجالسهم التي يحيون فيها أمر أهل البيت عليهم السلام ويتذاكرون فضائلهم ومناقبهم ومثالب أعدائهم، ويبكون فيها على مصائبهم الجليلة ما يفوق أمانيّهم، ولقد جعل الله سبحانه مجلس ذاكري علي بن أبي طالب عليه السلام في ظلّ شجرة طوبى، وفضّلهم على جميع النّاس بذلك.

وفيه، عن عيسى بن مهران، معنعناً عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قال: لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله: ﴿طُوبى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾[1] قام مقداد بن الأسود الكندي إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله، وما طوبى؟

قال: يا مقداد، شجرة في الجنّة، لو يسير الراكب الجواد لسار في ظلّها ماءة عام قبل أن يقطعها، ورقها وقشورها برود خضر، وزهرها رياض، وأفنانها سندس وإستبرق، وثمرها حلل خضر، وطعمها زنجبيل وعسل، وبطحاؤها ياقوت أحمر وزمرد أخضر، وترابها مسك وعنبر، وحشيشها منيع والنجوج يتأجج من غير وقود، يتفجّر من أصلها السلسبيل والرحيق والمعين.

وظلّها مجلس من مجالس شيعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يألفونه ويتّحدثون بجمعهم، وبينا هم في ظلّها يتحدثون إذ جاءتهم الملائكة يقودون نجباء جبلت من الياقوت، ثم نفخ الرّوح فيها مزمومة بسلاسل من ذهب، كأنّ وجوهها المصابيح نضارة وحُسنا، ووبَرُها خزّ أحمر ومرعزى أبيض مختلطان، لم ينظر الناظرون إلى مثله حُسنا وبهاءً، وذلل من غير مهلة، نجباء من غير رياضة، عليها رحال ألواحها من الدّر والياقوت المفضضة باللؤلؤ

---

(١) سورة الرعد: الآية ٢٩.

والمرجان، صفائحها من الذّهب الأحمر، ملبّسة بالعبقري والأرجوان، فأناخوا تلك النجائب إليهم، ثم قالوا لهم: ربّكم يقرؤكم السّلام ويراكم وينظر إليكم ويحبّكم وتحبّونه، ويزيدكم من فضله وسعته، فإنه ذو رحمة واسعة وفضل عظيم.

قال: فيُحمل كل رجل منهم على راحلته فينطلقون صفّاً واحداً معتدلاً، ولا يمرّون بشجرة من أشجار الجنة إلاّ أتحفتهم بثمارها ورحّلت لهم عن طريقهم كراهية أن يثلم طريقتهم وأن يفرق بين الرجل ورفيقه، فلمّا دفعوا إلى الجبار جل جلاله قالوا: ربّنا أنت السلام ولك يحق الجلال والإكرام، فيقول الله تعالى: مرحبا بعبادي الذين حفظوا وصيّتي في أهل بيت نبيي ورعوا حقّي وخافوني بالغيب وكانوا مني على كل حال مشفقين.

قالوا: أما وعزّتك وجلالك ما قدرناك حقّ قدرك، وما أدّينا إليك كل حقّك، فأذن لنا في السجود.

قال لهم ربّهم: إني وضعت عنكم مؤنة العبادة، وأرحت عليكم أبدانكم، وطال ما أنصبتم لي الأبدان وعنتم الوجوه، فالآن أفضيتم إلى رَوحي ورحمتي، فاسألوني ما شئتم، وتمنّوا عليّ أُعطِكم أمانيكم، فإني لن أجزيَكم اليوم بأعمالكم، ولكن برحمتي وكرامتي وطَولي، وارتفاع مكاني، وعظم شأني، ولحبّكم أهل بيت نبيي..

فلا يزال يرفع أقدار محبي علي بن أبي طالب عليه السلام في العطايا والمواهب، حتى أن المقصّر من شيعته ليتمنّى في أمنيته مثل جميع الدّنيا منذ يوم خلقها الله إلى يوم أفناها.

فيقول لهم ربّهم: لقد قصّرتم في أمانيّكم، ورضيتم بدون ما يحقّ لكم،

فانظروا إلى مواهب ربّكم.

فإذا بقباب وقصور في أعلى علّيين، من الياقوت الأحمر والأخضر والأصفر والأبيض، فلو لا أنها مسخّرة إذاً للَمعت الأبصار منها، فما كان من تلك القصور من الياقوت الأحمر فهو مفروش بالعبقري الأحمر يزهر نورها، وما كان منها من الياقوت الأخضر فهو مفروش بالسندس الأخضر، وما كان منها من الياقوت الأبيض فهو مفروش بالحرير الأبيض، وما كان منها من الياقوت الأصفر فهو مفروش بالرياش الأصفر، مثبوتة بالزمرد الأخضر والفضة البيضاء والذهب الأحمر، قواعدها وأركانها من الجوهر، يثور من أبوابها وأعراصها نور مثل شعاع الشمس، عنده مثل الكواكب الدريّ في النّهار المضيء، وإذا على باب كل قصر من تلك القصور جنتان ﴿مُدْهامَّتانِ ❖ فِيهِما عَيْنانِ نَضّاخَتانِ ❖ وفِيهِما مِنْ كُلِّ فاكِهَةٍ زَوْجانِ﴾[1].

فلمّا أن أرادوا أن ينصرفوا إلى منازلهم ركبوا على براذين من نور بأيدي ولدان مخلدين، بيد كل واحد منهم حكمة برذون من تلك البراذين، لُجُمُها وأعنّتُها من الفضة البيضاء، وأثفارها من الجوهر، فلمّا دخلوا منازلهم وجدوا الملائكة يهنئونهم بكرامة ربّهم، حتى إذا استقرّوا قرارهم قيل لهم: ﴿فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾[2] ربّنا رضينا، فارض عنّا.

قال: برضاي عنكم وبحبّكم أهل بيت نبيي أحللتم داري، وصافحتكم الملائكة، فهنيئاً هنيئاً غير محذور، وليس فيه تنغيص، فعندها قالوا: ﴿الْحَمْدُ

---

(١) سورة الرحمن: الآيات ٥٢ و ٦٤ و ٦٦.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٤٤.

لِلَّهِ الَّذِي أَذهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾[١].

قال أبو موسى: فحدّثت به أصحاب الحديث عن هؤلاء الثّمانية، فقلت لهم: أنا أبرأ إليكم من عهدة هذا الحديث لأن فيه قوماً مجهولين، ولعلّهم لم يكونوا صادقين، فرأيت من ليلتي أو بعد كأنه أتاني آت ومعه كتاب فيه من مخول بن إبراهيم والحسن بن الحسين ويحيى بن الحسن بن فرات وعلي بن القاسم الكندي ولم ألق علي بن القاسم وعدة بعد لم أحفظ أساميهم كتبنا إليك من تحت شجرة طوبى، وقد أنجز ربّنا لنا ما وعدنا، فاستمسك بما عندك من الكتب، فإنّك لن تقرأ منها كتاباً إلاّ أشرقت له الجنة[٢].

وتتركّز الإهتمامات والتوجيهات بشكل كامل ودقيق على رزيّة سيّد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام باعتبارها القضية الرّمز، والمأساة الأم، فهي تعبّر عن المصائب التي قبلها بشكل واضح، كما أنّها بنفس الوضوح تعبّر عن المصائب التي بعدها.

فحادثة كربلاء ومأساتها تمثّل مِفصل قضاياهم عليهم السلام الحسّاسة والمصيريّة، واهتمامات العترة النبويّة منصبّة على التركيز عليها بكلّ أبعادها، وتعدّ المجالس الحسينيّة من أهم تلك المظاهر الولائيّة التي حازت تأييداتهم، إذ بها حياة أمرهم، فلا بدع حينئذ أن يتصدّى نفس الإمام المعصوم عليه السلام لوضع الحجر الأساس في منهجيّة المجلس الحُسيني، وأن يرسّخ معالم المنبر بكلّ دقّة وجلاء، لما سبق من علمه بنماء هذه المؤسّسة الدينيّة الكبرى واتّساع رقعتها ونجاح مرماها، كما ويعّد هذا منه عليه السلام تشريفاً لمقام الرّثاة والذّاكرين إلى آخر أيّام الدّنيا.

---

(١) سورة فاطر: الآية ٣٤.

(٢) راجع بحار الأنوار (١٥١/٨).

مجالس خالدة

لقد واجه أهل البيت عليهم السلام حرباً شعواءً طاحنة، أخفاها أعداؤهم وأعلنوها تارة أخرى، وجهدهم الجهيد قتل هذه المجالس الشّامخة وإطفاء جذوتها النيّرة، وقصدوا بذلك قتل حياة أمرهم عليهم السلام ووأد قضيّتهم وإخماد صوت ظلامتهم، وكبح جماح تطوّرها وتضخّمها وانتشارها.

لكنّهم محالاً طلبوا، إذ أن أهل البيت عليهم السلام واجهوا أعتى الحروب وتحمّلوا أصعب المواجهات في سبيل إحياء شعائر الحزن المتمثّلة في مجالس الإمام الحسين عليه السلام حتّى وصلت إلينا على هذا الشكل المتميّز، كأغلى أمانة تكتنفها صدور المؤمنين لكي يسلّمونها بدورهم لمن يأتي بعدهم..

ومع أنّ التاريخ نقل ـ كما في فرحة الغري ـ أن الإمام زين العابدين عليه السلام ضرب فسطاطاً خارج المدينة المنوّرة مدّة طويلة، والظّاهر أنّه اضطر لذلك لسوء الظروف الأمنيّة فيها.. لكنّ كتب التاريخ نقلت أن السيّدة زينب بنت أمير المؤمنين عليه السلام قد أذكت أوار المجالس الحسينية وأشعلت القلوب حزناً وتأسّفاً على سيد الشهداء عليه السلام ممّا ألّب النّاس على بني أميّة، فخاف عمرو بن سعد الأشدق ـ والي يزيد على المدينة ـ انتقاض الأمر، فكتب إلى الأخير كتاباً يشكوا إليه الحال فيه، فكتب له يأمره بالتفريق بينها وبين النّاس، فأمر الوالي بإخراجها من المدينة[1].

---

(١) راجع أخبار الزينبات للنسابة العبيدلي ص (٢١).

ولقد أدرك الظالمون تأثير بكاء المظلوم على الأمّة وخطره على عروشهم الهشّة، وهذا هو السرّ الذي وقف وراء منع الصدّيقة الزّهراء عليها السلام من البكاء على أبيها النبي صلى الله عليه وآله بعد وفاته بشتّى السّبل، حتّى طلبوا من أمير المؤمنين عليه السلام أن يخيّرها إما تبكي ليلاً أو نهاراً، فبكاؤها يشعرهم بأذى التقريع ويذكّرهم ببقاء عار هضمها وظلمها، الأمر الذي يؤرّقهم ويؤذيهم.

وسرعان ما اغتنم أهل البيت عليهم السلام ظروف ضعف الدّولة الأمويّة وانتقال الخلافة إلى العباسيين فأذكوا جذوة تعزية الإمام الحسين عليه السلام وأشعلوا فتيل حزنها من جديد، وبكيفيّات متواضعة، فإذا ما أجلت الطّرف متأنّياً في سيَرهم وجدت نماذجَ لمجالس الإنشاد والذكر المحبّذة عندهم المملوءة بالمقاصد الغنيّة، وفيها تتجلّى مراميهم حيّة ومُعلنة، وقد وضعوا عليهم السلام نواتها لنا بشكل مختصر حسب ما يحتمله ظرفهم في أيّامهم، وتنامى ذلك شيئاً فشيئاً، حتّى وصل لما عليه الآن.

فقد أورد المرحوم المجلسي رحمه الله في بحار الأنوار عن صالح بن عقبة، عن أبي هارون المكفوف، قال:

دخلت على أبي عبد الله الصّادق عليه السلام فقال لي: أنشدني.. فأنشدته.

فقال: لا، كما تنشدون وكما ترثيه عند قبره.

فأنشدته:

أمرر على جدث الحسين ... وقل لأعظمه الزكيّه

قال: فلمّا بكى أمسكت.

فقال: مر.. فمررت.

ثم قال: زدني.

قال: فأنشدته:

يـا مـريم قـومي واندبـي مـولاك   وعلـى الحسـين فاسـعدي بـبكاك

قال: فبكى وتهايج النّساء.

فلمّا سكتن، قال لي: من أنشد في الحسين فأبكى عشرة فله الجنّة، ثم جعل ينتقص واحداً واحداً حتى بلغ الواحد، فقال: من أنشد في الحسين، فأبكى واحداً فله الجنّة، ثم قال: من ذكره فبكى فله الجنّة[1].

وتوالت النقولات للمجالس والمآتم التي عقدها مولانا الإمام الصّادق عليه السلام، فقد وروى المرحوم المجلسي رحمه الله.

أنه دخل جعفر بن عفان على أبي عبد الله الصّادق عليه السلام فقرّبه وأدناه، ثمّ قال له: يا جعفر.

قال: لبيك جعلني الله فداك.

قال: بلغني أنك تقول الشّعر في الحسين وتجيد.

فقال له: نعم جعلني الله فداك.

فقال له: قُل.

فأنشدته، فبكى ومَن حوله حتى صارت الدّموع على وجهه ولحيته..

ثمّ قال: يا جعفر، والله لقد شهدت ملائكة الله المقرّبون هاهنا يسمعون قولك في الحسين عليه السلام، ولقد بكوا كما بكينا وأكثر، ولقد أوجب الله تعالى لك يا جعفر في ساعته الجنّة بأسرها وغفر الله لك.

---

(١) راجع بحار الأنوار (٤٤/٢٨٧/٢٥) عن كامل الزيارة، والوسائل (١٠/٤٦٥) ما يقرب منه، ونحوه في ثواب الأعمال.

ثمّ قال: يا جعفر ألا أزيدك؟

قال: نعم يا سيّدي.

قال: ما من أحد قال في الحسين شعراً، فبكى وأبكى به إلاّ أوجب الله له الجنّة وغفر له[1].

وتعتبر هذه المجالس الحسينية المأثورة التي عقدها أئمة أهل البيت عليهم السلام الأصل والنموذج للمجالس المستقبلية، وتعدّ بمثابة رأس المال الثريّ الذي سوف تعتمد عليه المؤسّسة الحسينية الكبرى، وعمدتها هو الذكر وهدفها هو الإنشاد والرّثاء، وليست المقاصد الأخرى ـ كالوعظ والإرشاد والعلم وغيرها ـ إلاّ ضمائم راجحة لا ضير أو شكّ في أهمّيتها.

وقد بدت في أفق القضيّة الحسينية ظاهرة المنشدين في عصر الأئمة الأبرار عليهم السلام وازدهرت تفاعلاتهم خصوصاً بعد تلقّي الأئمة الطّاهرين عليهم السلام مشاركاتهم بالرّضا والقبول، وإستند المنشدون إلى أمرهم عليهم السلام وتشجيعهم، وهي وظيفة مهمّة ومقدّسة، يقوم بدورها اليوم الخطيب الحسيني، الذي هو محلّ تقدير الأئمة الأبرار عليهم السلام.

لقد إفتتح الإمام المعصوم عليه السلام باب الرّثاء الحسيني عن طريق مجلس العزاء، ووظّف الأئمة الأبرار عليهم السلام بعد ذلك ـ بحسب الظروف ـ عباقرة المحبّين والمتميّزين لرثائهم، عاملين على نشر القضيّة بأصدائها المحزنة، حتّى أسندوا طريقة أدائها إلى الفنون المتعارفة والمتداولة عبر وسائل الإعلام المتاحة في ذلك الزّمن، لتكون بالتدريج وظيفة مستقلّة قائمة بذاتها، وشاء الله تعالى لهذه

---

(١) راجع بحار الأنوار (٤٤/٢٨٢).

البذرة الطيّبة الحياة والنّماء، واخضرّ عودها ورست جذورها وتطاولت أغصانها وأظهرت ثمارها، وتطوّر أداء المجلس الحسيني من بعد الرّثاء المحض إلى ضم الدروس والمحاضرات.. ومسك ختامه رثاء الإمام الحسين عليه‌السلام على السبك المأثور.

ولقد امتاز الرّثاة باحترام وتجليل خاص، وكانت هذه الفئة العزيزة محلّ عناياتهم وعطفهم عليهم‌السلام، ولم تُعدم إرشاداتهم وتأييداتهم، فهم ناشروا صوت الظلامة النبوية الصّارخة في أرجاء عواصم الإسلام، وهم الأقرب إلى المجتمع والأقدر على التأثير عليه في عصور انعدام وسائل الإعلام المتاحة اليوم، وهم ذاتهم الذين يجابهون اليوم وسائل الإعلام بتطوّرها وتقدّمها، ولا أشكّ لحظة في قدرتهم على محق أعداء القضيّة الحسينية وسحقهم رغم قِدم أساليبهم الكلاسيكية ـ كما يحلو للبعض أن يعبّر عنها ـ وتطوّر وسائل الإعلام المضاد..

فقد روي في كامل الزيارات بالإسناد إلى أبي عمارة المنشد:

عن أبي عبد الله عليه‌السلام قال: قال لي: يا أبا عمارة، أنشدني في الحسين عليه‌السلام، قال: فأنشدته فبكى، ثم أنشدته فبكى، ثم أنشدته فبكى، قال: فو الله ما زلت أنشده ويبكي، حتى سمعت البكاء من الدّار.

فقال لي: يا أبا عمارة، من أنشد في الحسين عليه‌السلام شعراً فأبكى خمسين فله الجنة، ومن أنشد في الحسين شعراً فأبكى أربعين فله الجنة، ومن أنشد في الحسين شعراً فأبكى ثلاثين فله الجنة، ومن أنشد في الحسين شعراً فأبكى عشرين فله الجنة، ومن أنشد في الحسين شعراً فأبكى عشرة فله الجنة، ومن أنشد في الحسين عليه‌السلام شعراً فأبكى واحداً فله الجنة، ومن أنشد في الحسين عليه‌السلام شعراً فبكى فله الجنة،

ومن أنشد في الحسين شعراً فتباكى فله الجنة[١].

وهو عليه السلام بأبي وأمي ونفسي القائل للفضيل بن يسار:

إن تلك المجالس أحبها فأحيوا أمرنا يا فضيل، فرحم الله من أحيى أمرنا، يا فضيل مَن ذَكرنا أو ذُكرنا عنده فخرج من عينيه مثل جناح الذباب غفر الله له ذنوبه ولو كانت أكثر من زبد البحر[٢].

وقد نقل المحدّث الخبير ابن شهراشوب في مناقب آل أبي طالب هذا المجلس الذي عقده الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام المعروف بالعطاء والكرم، وفيه صورة من صور الكرم العلوي الذي سارت بآياته الرّكبان، وسترى كيف جاد عليه السلام بعطائه على راوية شعرٍ لأنّه روى الشعر في جدّه الإمام الحسين عليه السلام..

فيروى: أنّ المنصور تقدّم إلى موسى بن جعفر عليه السلام بالجلوس للتهنئة في يوم النيروز، وقبض ما يحمل إليه، فقال عليه السلام إنّي قد فتّشت الأخبار عن جدّي رسول الله صلى الله عليه وآله فلم أجد لهذا العيد خبراً، وإنّه سنّة للفرس، ومحاه الإسلام، ومعاذ اللهِ أن نحيي ما محاه الإسلام.

فقال المنصور: إنّما نفعل هذا سياسةً للجند، فسألتك بالله العظيم إلاّ جلست.

فجلس، ودخلت عليه الملوك، والأمراء، والأجناد يهنّئونه، ويحملون إليه

---

(١) راجع كامل الزيارات ص (١٠٥)، وبحار الأنوار (٢٨٢/٤٤)، وثواب الأعمال ص (٨٤)، ووسائل الشيعة (٥٩/١٤).

(٢) راجع بحار الأنوار (٢٨٢/٤٤ و ٣٥١/٧١)، وثواب الأعمال ص (١٧٨)، ووسائل الشيعة (٢٠/١٢ و ٥٠١/١٤)، وبشارة المصطفى ص (٢٧٥)، وقرب الإسناد ص (٨)، والمستطرفات ص (٦٢٦).

الهدايا والتحف، وعلى رأسه خادم المنصور يحصي ما يحمل.

فدخل في آخر الناس رجل شيخ كبير السنّ، فقال له: يابن بنت رسول الله، إنّني رجل صُعْلُوك، لا مال لي، أتحفك بثلاث أبيات قالها جدّي في جدّك الحسين بن علي عليه السلام.

عجبت لمصقولٍ علاك فِرِندُه ... يوم الهياج و قد علاك غبارُ

ولأسهُمٍ نفذتك دون حرائرٍ ... يدعون جدّكَ و الدموعُ غزارُ

ألا تقضقضت السهامُ وعاقها ... عن جسمك الإجلال والإكبار

قال عليه السلام: قبلت حديثك، إجلس بارك الله فيك.

ورفع رأسه إلى الخادم وقال: إمض إلى أمير المؤمنين، وعرّفه بهذا المال، وما يصنع به.

فمضى الخادم وعاد وهو يقول: كلّها هبةٌ منّي له يفعل به ما أراد.

فقال موسى عليه السلام للشيخ: إقبض جميع هذا المال فهو هبة منّي لك[1].

تطوّر المجالس

روى الشيخ الطوسي رحمه الله بالإسناد إلى معتب مولى الإمام الصّادق عليه السلام قال: سمعته عليه السلام يقول لداود بن سرحان: يا داود، أبلغ مواليّ عني السلام، وأني أقول رحم الله عبداً اجتمع مع آخر فتذاكرا أمرنا، فإن ثالثهما ملك يستغفر لهما، وما اجتمع اثنان على ذكرنا إلاّ باهى الله تعالى بهما الملائكة، فإذا اجتمعتم فاشتغلوا بالذكر، فإن في اجتماعكم ومذاكرتكم إحياءنا، وخير الناس من بعدنا

---

(١) راجع المناقب لابن شهراشوب (٤/ ٣١٨ ـ ٣١٩).

من ذاكر بأمرنا ودعا إلى ذكرنا[١].

ومن هذا المنطلق العقائدي الذي أسسه أهل البيت عليهم السلام بإتقان انطلق شيعتهم بالحب والوداد والرّغبة بالمواساة لهم عليهم السلام فحملوا على عواتقهم إكمال مسيرة المجالس الحسينية وتأسيس المنبر الحسيني، بمراحل متتابعة وحلقات متتالية بحسب ما يقتضيه العصر ويفرضه الزّمن..

وتربّع المنشدون والنّائحون في الصدارة منذ بداية تأسيس المجالس، فهم أوائل القرّاء الحسينيين، وكذا الحال في المجالس النّسائيّة، وقد لمعت أسماء عدّة من النّائحات في العصر القديم في سياق تأريخ المأتم الحسيني، وتميّز النّائحون والنّائحات بحسن الأداء والخبرة والإجادة لألحان الحزن، والإطّلاع والحفظ على جيّد الشعر الحسيني، إذ أنّ الشّعر هو المادّة الأولى والأساسيّة التي تدور عليها تلك المجالس، وتنامت هذه المادّة بكثرة الشّعراء وتنوّع الأذواق، وتأصّل ترابط الشعر بالمجلس الحسيني ترابطاً وثيقاً، وامتزج به امتزاج وعُدّ إحدى مكوّناته وعناصره.

حتّى أضيف على مادة الشّعر مادة أخرى، ألا وهي القصص والأخبار المتّصلة بنفس الغرض، ولا يزال يُصطلح عليها (السيرة الحسينية)، ولمع في هذا المضمار قصّاصون ومحدّثون يقومون بوصف الأحداث المؤلمة وسردها بطرق الحزن مع الإنشاد والإبكاء، وبهذه الطريقة يحيي هؤلاء أمر أهل البيت عليهم السلام ويبينون قصّة مقتل الإمام الحسين عليه السلام وتعمّر تلك المجالس.

ونستطيع الجزم بأنّ هذا التطّور في مادّة المنبر الحسيني ظهر في عصر الأئمة

---

(١) راجع أمالي الطوسي ص (٢٢٤)، ووسائل الشيعة (١٦/ ٣٤٨)، ومستدرك الوسائل (٨/ ٣٢).

الأبرار عليهم السلام وتحت نظرهم، وبالتّحديد في زمن الإمام الصّادق عليه السلام، فإنّ الشّيعة رغم بعدهم المكاني عنهم عليهم السلام إلاّ أنّهم تلقّوا الإشارة الخضراء بإكمال مسيرة البكاء والحزن والسّعي فيها إلى كمالها المنشود، مستخدمين كل وسائل الإعلام المتاحة في ذلك الزّمن لإذكاء الدّمعة، ونقل المأساة بحرارتها إلى الأجيال بكلّ أمانة وصدق.

فقد روي في كامل الزّيارات بالإسناد إلى عبد الله بن حماد البصري أنّ الإمام الصّادق عليه السلام قال له: إن عندكم ـ أو قال في قربكم ـ لفضيلة ما أوتي أحد مثلها، وما أحسبكم تعرفونها كنه معرفتها، ولا تحافظون عليها، ولا على القيام بها، وإن لها لأهلاً خاصّة قد سُمّوا لها، وأعطوه بلا حول منهم ولا قوة، إلاّ ما كان من صنع الله لهم، وسعادة حباهم الله بها، ورحمة ورأفة وتقدم.

قلت: جعلت فداك، وما هذا الذي وصفت لنا، ولم تُسَمّه؟

قال: زيارة جدي الحسين بن علي عليه السلام فإنّه غريب بأرض غربة، يبكيه من زاره، ويحزن له من لم يزره، ويحترق له من لم يشهده، ويرحمه من نظر إلى قبر ابنه عند رجله في أرض فلاة، لا حميم قربه ولا قريب، ثم مُنع الحق وتآزر عليه أهل الردة حتى قتلوه وضيّعوه، وعرضوه للسّباع، ومنعوه شرب ماء الفرات الذي يشربه الكلاب، و ضيّعوا حق رسول الله صلى الله عليه وآله ووصيّته به وبأهل بيته، فأمسى مجفوّا في حفرته، صريعاً بين قرابته وشيعته بين أطباق التراب، قد أوحش قربه في الوحدة والبعد عن جدّه، والمنزل الذي لا يأتيه إلا من امتحن الله قلبه للإيمان وعرّفه حقنا.

فقلت له: جعلت فداك، قد كنت آتيه حتى بليت بالسلطان وفي حفظ أموالهم، وأنا عندهم مشهور، فتركت للتقيّة إتيانه، وأنا أعرف ما في إتيانه من الخير.

فقال: هل تدري ما فضل من أتاه؟ وما له عندنا من جزيل الخير؟

فقلت: لا.

فقال: أمّا الفضل فيباهيه ملائكة السماء، وأما ما له عندنا فالترحّم عليه كل صباح ومساء، ولقد حدّثني أبي أنه لم يخل مكانه منذ قتل من مصلّ يصلي عليه من الملائكة، أو من الجن، أو من الإنس، أو من الوحش، وما من شيء إلاّ وهو يغبط زائره ويتمسّح به ويرجو في النظر إليه الخير لنظره إلى قبره عليه السلام.

ثم قال: بلغني أن قوماً يأتونه من نواحي الكوفة، وناساً من غيرهم، ونساء يَندبْنَه، وذلك في النصف من شعبان، فمن بين قاريء يقرأ، وقاص يقص، ونادب يندب، وقائل يقول المراثي.

فقلت: نعم، جعلت فداك، قد شهدت بعض ما تصف.

فقال: الحمد لله الذي جعل في الناس من يفد إلينا، ويمدحنا، ويرثي لنا، وجعل عدوّنا من يطعن عليهم من قرابتنا، وغيرهم يهدّدونهم ويقبّحون ما يصنعون[١].

فقد كان مولانا الصّادق عليه السلام يُتابع بعناياته تلك المظاهر التي يُظهرها شيعتهم ومحبّوهم في كربلاء المقدّسة، على بعد المسافة بينه وبينهم، ويتحرّى أخبار العزاء والبكاء والحزن في بقعة المأساة، كما أنّني أعتقد اليوم أنّ مولانا صاحب الدّار عليه السلام يتابع ويتحرّى أخبار زوّار جدّه عليه السلام ويشاركهم الحضور تحت قبّته السّامية، شأنه في ذلك شأن آبائه عليهم السلام في رعاية الشّعائر الحسينية - زاد الله في شرفها - ويدير رحى تطوّرها ونموّها ويرعاها بدعائه وكرمه.

---

(١) راجع كامل الزيارات ص (٣٢٥)، عن بحار الأنوار (٧٣/٩٨)، ووسائل الشيعة (٥٩/١٤).

هذا، وفي تطوّر ملحوظ لمجالس الإمام الحسين عليه السلام.. فقد دُوّنت فيما بعد الأخبارُ المتلوّة في المجالس في كتب خاصّة، عُرفت بالمقاتل، وكان كتاب مقتل الحسين عليه السلام هو مادة المجالس في فترة طويلة، ولا نزال ندرك بقايا هذه المرحلة في مجالس الخليج بشاطئيه وبعض نواحي العراق، فإنّ المقتل يُقرأ في يوم عاشوراء على وجه الخصوص، وأضاف قرّاء التعزية له الشعر الرثائي وجوّدوا ألحان الحزن، لتتصدّر المادة القصصيّة الرّوائية، وتختتم برثاء الإمام الحسين عليه السلام شعراً.

وفي مرحلة قريبة أضيفت أشعار المناقب والفضائل إلى مادّة المجالس الأساسيّة، مع بعض المراثي النثريّة المصاغة بقلم ولسان مهرة الأدب العربي من عُشّاق المولى أبي عبد الله عليه السلام.

لقد تطوّرت القراءة الحسينيّة وشهدت في هذه النقلة إنعطافة كبيرة بانفتاحها على المواد الإضافيّة، ممّا يطوّر في تأثيرها ويؤسّس لنموّها، وقد أُلّفت عبر الأزمان المتتالية بعض الكتب أو النّسَخ نتيجة لهذا التطّور الذي آل إليه المنبر الحسيني، كمثير الأحزان لابن نما الحلّي، ومثير الأحزان للشيخ الجواهري، والمنتخب في المراثي والخطب للشيخ فخر الدّين الطريحي، والفوادح الحسينيّة للشيخ حسين العصفور.

والمكتبات والحسينيّات الشيعية زاخرة بهذه النّسخ القديمة، وقلّ ما يخلو مأتم قديم من نسخة عتيقة متهرّأة من هذه النّسخ، يظهرها أصحاب المآتم في المناسبات لتلاوتها بحسب السّبك القديم قبل المجلس الحسيني.

ثم تطوّرت مادّة المجالس بشكل ملحوظ وسريع من بعد هذه الحقبة، فأضاف الرّثاة على مادّتهم المتداولة نصوص نهج البلاغة، فصاروا يبدأون خطبهم بحكمة أو كتاب أو رسالة ممّا روي من كلمات أمير المؤمنين عليه السلام، ثم

يخوضون في شرحها ويبيّنون ما يتعلّق بها من أحداث تاريخيّة وما يناسبها من القصص والشّعر، ويستغلّون ذلك في الوعظ وبيان بعض المسائل الدينيّة العقائديّة والفقهيّة.

ومع هذه القفزة الكبيرة في تأريخ المجالس الحسينية نستطيع أن نسمّي الرّائي (الخطيب)، ويمكننا أن نتوّج مرتقاه فنسمّيه المنبر الحسيني.

فبعد الإنفتاح على هذا المنطلق الواسع تتجدّد المطالب والمواد المتداولة على المنبر الحسيني بشكل سريع ومتطوّر، وتواكب مستوى العصر، وتلبي حاجة الزّمن، ولهذا فإنّا نلاحظ اليوم كيف يواكب المنبر الحسيني نهضة العصر الحديثة، وكيف ترقّى أداء المجلس بالشّكل الواضح، بعد الإنفتاح على العلوم العصريّة، فدوره دور المصلح والنّاقد والمقارن والمقتبس من جميع العلوم الإنسانيّة..

ويتعرّض الخطيب اليوم إلى مختلف حقول الفكر المتداولة في ميادين العلم على اختلاف المشارب، ويمكننا أن نقول أنّ مادة المجلس الحسيني اليوم هي العلم، ويُعالج الخطيب على منبر الإمام الحسين عليه السلام مختلف القضايا العلمية والفكرية والإجتماعيّة والسياسيّة والتربويّة والأخلاقية، إلى جانب الدّينيّة والعقائدية، بكلّ حريّة وانفتاح، فغالباً ما يكون ذلك على ضوء آية قرآنيّة، أو حديث نبوي، أو كلمة من كلمات العترة الطّاهرة، أو حتّى بيتٍ من أبيات الشّعر.

المجالس اليوم

تعتبر المجالس الحسينية ـ اليوم وقبل اليوم ـ القناة الأهم للشيعة الإماميّة بالدّرجة الأولى وعامّة المسلمين.. وتُعدّ الوسيلة المُثلى لفقه الدّعوة الحسينيّة وإيضاح أبعادها وشرح جذورها، وينطوي في ذلك التّعريف بالإسلام وتعاليمه وكلّ خصوصيّاته وأبعاده، كما وأنّها سبيل المحافظة على الرّابطة القويّة بين المؤمنين وأهل البيت عليهم السلام، مضافاً لما ينطبع من ذلك على نفوس المقيمين لتلك المجالس والحاضرين فيها من الإنطباعات الدّينيّة والتربويّة الخاصّة.

حتّى أصبحت مجالس الإمام الحسين عليه السلام شيئاً فشيئاً منتديات للعلم والفكر الأصيل، وجامعات للفقه الإسلامي، ومعاهد للفكر الدّيني، ومنبراً للرأي الحر، ومراكز للتأهيل التربوي والمتابعة الرّوحية، وضمان الأمان والإستقرار، وحياة المؤمنين وسلامتهم المعنويّة..

ويتداول فيها الخطباء الأكفّاء القرآن والتّاريخ والشّعر والأدب، ومختلف العلوم الإنسانيّة، ويُعالج فيها مختلف القضايا الدّينية والفكرية والعقائدية والإجتماعية والسّياسية والأخلاقية والتربويّة وغيرها، وهي التي تبعث النّفوس إلى التمسك بالعزّة والإباء، وتضمن الأمن والأمان في محيطها المبارك، وتعزّز الضّمير الخيّر المتديّن المحبّ للمعروف المبغض للمنكر..

ولا بدّ أن ينتهي مطاف كلّ مجلس بالرّثاء، ومسك ختامه ذكر سيّدنا ومولانا أبي الأحراء الإمام الحسين عليه السلام، الأمر الذي يضمن روحها وعنفوانها ويمدّها بأسرار الحياة والبقاء.

ويضمّ المجلس الحسيني اليوم مختلف الفوائد والعلوم الإنسانيّة، ويجمع من حيث المادّة تفسير القرآن الكريم، إلى جنب الفقه والشريعة وعلوم الكلام

والفلسفة، والتاريخ والأدب والشّعر وغير ذلك، ولا أبالغ حينئذ إذا قلّت أنّ المجالس الحسينيّة اليوم تعدّ موسوعة الإسلام الخالص، السّهلة المنال، والمتاحة في كلّ أقطار الإسلام وعلى مدار أيّام السّنة..

ويُنصب هذا الشّعار المقدّس لإحياء أحزان العترة النبويّة وأفراحهم على حدّ سواء، فتقام المجالس والمحافل في مواليد الأئمة الطّاهرين ووفيّاتهم عليهم السلام، وتتكرّر إقامة المجالس الحسينيّة ـ كذلك ـ في مناسبات تأبين الشّخصيات وفي مجالس الفاتحة.

وتُحيى فيها المناسبات التاريخيّة على مدى أيّام السّنة، كالغزوات النبويّة والأحداث المهمّة التي تصدّرت تأريخنا، ولقد لبّى الشيعة رغبة أئمتهم الأبرار عليهم السلام فأقاموا المجالس في بيوتهم على مدى أيّام السّنة، فأغلب البيوت والعوائل الكبيرة والصغيرة لها يوم في الأسبوع تقيم فيه ذكرى الإمام الحسين عليه السلام وتحيي فيه أقرب المناسبات بحسب التاريخ، وهي من الدّوافع المهمّة لنشر الإسلام والفكر النبوي وتثبيت خط أهل البيت عليهم السلام وترسيخه في النفوس.

هذا، ويتألّق أداء المجالس الحسينية ويتجلّى في أيام عاشوراء من شهر المحرّم، وأعني بها العشرة الأولى منه، ويقيمون المجالس المنظّمة والمعد لها سلفاً، حيث جوهر المصيبة والحزن والرّثاء، وفيها يتنافس المحبّون والموالون نشر ظلامة أهل البيت عليهم السلام والدّعوة لهم، ويشترك في هذه المجالس ـ كما هو الحال في بلدنا ـ عامّة المسلمين من غير فرق بين مذاهبهم.

الرابع: زيارة قبره الشريف

زيارة القبور

حثّ أئمة أهل البيت عليهم السلام على المجالس والبكاء حتى صارت شعائر عند الشّيعة الإمامية، وأسّس الأئمة الأبرار كذلك باباً خصّوا به محبّيهم ومواليهم بقصد عتباتهم المقدّسة والتبرّك بآثارهم الطّاهرة، وبالخصوص ما ورد منهم في فضل زيارة سيّد الشّهداء عليه السلام.

وينبغي الكلام مروراً في أصل زيارة القبور من باب التّقديم، خصوصاً وإنّ في المسلمين من يخالف الوقوف على القبور ويعتبر ذلك بدعة محدثة، وزيارة القبور لم ترد صريحة في آية، لكنّها وردت بمضمونها في أكثر من آية.. منها ما في قصّة الكهف التي قدّمنا الحديث عنها في الفصل الأوّل، حيث يقول تعالى: ﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِداً﴾[١].

والمستفاد من الآية وأجواء القصّة أن الغالبين على الأمر وهم أصحاب فكرة التوحيد والمعاد والنشور، هم أصحاب فكرة البنيان والمسجد على تلك القبور، وتُشعر الآية بإقرار ذلك لهم كما هو واضح، من غير نكير على فعلهم[٢].

---

(١) سورة الكهف: الآية ٢١.

(٢) ولا يمكن أن يكون صاحب فكرة المسجد هذه من غير الموحّدين قطعا كما هو بيّن، ولترجيح أن الذين غلبوا هم أهل التوحيد راجع: مجمع البيان للطبرسي (٥/ ٧١٠)،

وبهذا أصبحت قبور أصحاب الكهف مزاراً يرتاده النّاس بارتيادهم المسجد، ومحلاً لزيارتهم، وتُعدّ قبور أصحاب الكهف من أسبق الأمثلة تاريخيّاً بحسب القرآن الكريم والتّاريخ الذي بين أيدينا، ولم يُنكر القرآن عليهم ذلك.

وجاء مضمون زيارة القبور كذلك في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُم مَاتَ أَبَداً وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾[١] وهي الآية التي تنهى رسول الله ﷺ عن القيام على قبور المنافقين.

والمراد من الصّلاة هنا خصوص صلاة الميت، دلّ على ذلك السّياق وسبب النزول، ومحل الكلام في الآية هو قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾، فقد ذهب كثير من المفسرين إلى أنّ هذا الوقوف المنهي يتعدّى وقوف النبي ﷺ عند قبورهم وقت الدفن، بل يقصد به كلّ وقت، سواءً للدفن أو الزيارة[٢].

وتقريب الإستدلال بهذه الآية، هو أنّ هذا النهي إذا ورد في شأن المنافقين أو من مات على الكفر ـ كما هو صريح الآية وذيلها ـ فهو في غيره غير منهي، فالوقوف على قبر المؤمنين جائز بمفهوم الآية قطعاً كما ترى..

وما يضير المسلم أو يضرّ بدينه إذا وقف على قبر أخيه المسلم بقصد الزيارة والدعاء والإستغفار له، وهذا هو قصد عمل النبي ﷺ من غير شكّ في وقوفه على القبور التي يقف عليها.

←

التفسير الكبير للفخر الرازي (١١/١٠٦)، فتح القدير للشوكاني (٣ /٢٧٧)، تفسير الميزان للطباطبائي (١٣/٢٦٧).

(١) سورة التوبة: الآية ٨٤.

(٢) راجع أنوار التنزيل للبيضاوي (١/٤١٦)، وروح المعاني للآلوسي (١٠/١٥٥)، وروح البيان للبروسوي (٣/٣٧٨).

وورد مضمون زيارة القبور في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾[1].

وذكر المفسرون في أنّ الآية في صدد الحديث عن المنافقين بحسب السّياق، الذين ارتضوا التحاكم إلى الطاغوت فراراً من التّحاكم إلى النبي الكريم صلى الله عليه وآله، فلو أنّهم جاؤوه صلى الله عليه وآله وأظهروا الندم على ما فعلهم وتابوا عنه واستغفروا منه، واستغفر لهم صلى الله عليه وآله لتاب الله عليهم.

وقيل إنّها نزلت في قوم من المنافقين عدّتهم إثنا عشر رجلاً، اجتمعوا على الكيد بالنبي صلى الله عليه وآله، ثمَّ دخلوا عليه لذلك الغرض، فأتاه جبريل عليه السلام فأخبره به..

فقال صلى الله عليه وآله: إنّ قوماً دخلوا يريدون أمراً لا ينالونه، فليقوموا وليستغرفوا الله حتى استغفر لهم، فلم يقوموا..

فقال: أ لا تقومون!! فلم يفعلوا..

فقال صلى الله عليه وآله: قم يا فلان، قم يا فلان، حتى عدّ اثني عشر رجلاً، فقاموا، وقالوا: كنّا عزمنا على ما قلت، ونحن نتوب إلى الله من ظلمنا أنفسنا، فاستغفر لنا.

فقال: الآن أخرجوا عنّي، أنا كنت في أول أمركم أطيب نفساً بالشفاعة، وكان الله أسرع إلى الإجابة[2].

فكان المذنبون يأتونه صلى الله عليه وآله في حياته ويطلبون منه الإستغفار والشّفاعة، وكان يستغفر لهم، والآية ظاهرة في تكريمه صلى الله عليه وآله من هذه الجهة، ولا يمنع شيء من سريان هذه الخصوصية فيه صلى الله عليه وآله بعد وفاته، فهو إمامٌ حيّاً وميّتاً كما ورد عن أمير

---

(١) سورة النساء: الآية ٦٤.

(٢) راجع مجمع البيان (١٠٥/٣)، وتفسير الرازي (١٦٧/٥ ـ ١٦٨).

المؤمنين عليه السلام، ولهذا فقد قامت سيرة المسلمين على إتيان قبره الشّريف وزيارته والإستغفار عنده، وطلب الشّفاعة بين يديه.

وتكريمه واجبٌ في وفاته كما هو الحال في حياته قطعاً، كما أنّ الآية الشريفة: ﴿لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾[١] تسري عند قبره كما هي هي في حال حياته، ويستشهد بها اليوم لخفض الصوت عند مرقده المقدّس.

فقد روي أنّه اجتمع مالك بن أنس مع أبي جعفر المنصور في الرّوضة الشريفة عند قبر النبي صلى الله عليه وآله وكان أبو جعفر قد رفع صوته هناك فاستنكر عليه مالك قائلاً: يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك في هذا المسجد، فإنّ الله تعالى أدّب قوماً فقال: ﴿لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ ومدح قوماً فقال: ﴿إنّ الذين يغضّون أصواتهم عند رسول الله﴾[٢] وذمّ قوماً فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾[٣] وإنّ حرمته ميتاً كحرمته حياً..

فسأله أبو جعفر المنصور: أستقبل القبلة وأدعوا، أم استقبل رسول الله صلى الله عليه وآله!! فقال مالك: ولِمَ تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله تعالى يوم القيامة؟! بل استقبله واستشفع به فيشفّعه الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾[٤].

---

(١) سورة الحجرات: الآية ٢.

(٢) سورة الحجرات: الآية ٣.

(٣) سورة الحجرات: الآية ٤.

(٤) سورة النساء: الآية ٦٤؛ راجع شفاء السقام للسبكي ص (٦٩ ـ ٧٠).

وقال السّبكي: دلّت الآية على الحث على المجيء إلى الرسول ﷺ والإستغفار عنده واستغفاره لهم، وذلك وإن كان ورد في حال الحياة، فهي رتبة له لا تنقطع بموته، تعظيماً له.

وقال: والآية وردت في أقوام معينين في حالة الحياة، فتعمّ بعموم العلّة كل من وجد فيه ذلك الوصف في الحياة وبعد الموت، ولذلك فهم العلماء من الآية العموم في الحالتين، واستحبّوا لمن أتى قبره ﷺ أن يتلو هذه الآية ويستغفر الله تعالى[1].

هذا محصّل الكلام في ورود زيارة القبور في القرآن الكريم، وقد وردت في السنّة النبوية المطهّرة مستفيضة جدّاً، مشروعة تارة ومستحبّة تارةً أخرى، مدعومة بفعل النبي ﷺ وقوله، مضافاً إلى ما جاء في خصوص زيارة قبره الشريف.

ومعلوم أنّ الأصل في الأشياء الإباحة وليس الحضر، وقد أبيحت زيارة القبور إستمراراً لما كان عليه أهل الشرائع السابقة ـ كما بيّنا في آية سورة الكهف ـ، ويبدوا من بعض الأحاديث ورود المنع من الزيارة المعلّلً بعد فترة الإباحة، ومن ثمّ الإباحة وتجديد زيارة القبور وفق آداب الإسلام الخاصّة.

فقد أخرج مسلم قوله ﷺ: كنت نهيتكم عن زيارة القبور، ألا فزوروها[2].

وهو ظاهر في الإباحة ثم الحضر ثمّ الإباحة، وفي هذه الرّواية عن ابن عباس

---

(١) راجع شفاء السقام للسبكي ص (٨١ ـ ٨٢).

(٢) راجع: صحيح مسلم، كتاب الجنائز (٢/٣٦٦/١٠٧)، وسنن الترمذي (٣/٣٧٠/١٥٠٤)، والسنن الكبرى للنسائي (١/٦٥٣/٢١٥٩)، والمستدرك للحاكم (١/٥٣٠/١٣٨٥)، ومصابيح السنّة (١/٥٦٨/١٢٣٩).

يذكر النبي صلى الله عليه وآله علّة الحضر المؤقّت، فيروى أنّه صلى الله عليه وآله قال: نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها، ولا تقولوا هُجْراً[١].

إلى أحاديث عدّة رواها أهل الحديث وفيها إشارة واضحة إلى الآثار التربوية لزيارة القبور، ومنها يظهر أساس التشريع لها، فلاحظ قول النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: كنت نهيتكم عن زيارة القبور، ألا فزوروها فإنها ترق القلوب وتدمع العين وتذكر الآخرة، ولا تقولوا هجراً[٢].

وفي لفظ آخر: كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروا القبور فإنها تزهد في الدنيا[٣].

وفي لفظ آخر: وتذكّر الآخرة[٤].

وعن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وآله زار قبر أمّه ولم يستغفر لها، قال أمرت بالزيارة ونهيت عن الإستغفار، فزورا القبور، فإنها تذكر الموت[٥].

وإنّا وإن كنّا نتحفّظ بالنسبة لعدم استغفار النبي صلى الله عليه وآله لأمّه، ونجزم بإيمان آباء النبي صلى الله عليه وآله وأمّه عليها السلام ونقطع به، لقول الله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾[٦].

---

(١) راجع المعجم الكبير للطبراني (١١/٢٠٢/١١٦٥٣)، والمعجم الأوسط (٣/٣٤٣/٢٧٣٠)، ومجمع الزوائد للهيثمي (٣/٥٨).

(٢) رواه المتقي الهندي في كنز العمال ج (١٥) ح (٤٢٥٥٥ و ٤٢٩٩٨).

(٣) راجع كنز العمال ج (١٥) ح (٤٢٥٥٢).

(٤) رواه ابن ماجة في السنن (١/٥٠١) ح (١٥٧١).

(٥) رواه مسلم في الصحيح (٢/٦٧١) ح (١٠٨)، وأحمد بن حنبل في المسند (١/٤٤٤)، وابن ماجة في السنن (١/٦٧٦)، وأبو داود في السنن (٢/٧٢)، والبيهقي في السنن (٤/٧٦)، والنسائي في السنن (٤/٩٠)، والحاكم في المستدرك (١/٣٧٦).

(٦) سورة الشعراء: الآية ٢١٩

لكنّنا أوردنا الرواية من باب الإحتجاج في مقام تشريع الزّيارة ليس إلاّ ، وبما أنّها مسّت ساحة النبي الكريم صلى الله عليه وآله فاقتضى التنويه.

وكانت تتوق نفسه الكبيرة لزيارة قبر أمّه عليها السلام فاستأذن الله تعالى في زيارة قبرها عليها السلام فإذن الله تعالى له ، وهكذا فإنّ نفوس الأحياء السّليمة تشتاق لصلة الأحبة أحياءً كانوا أم أمواتاً ، والنفوس بطبعها تشتاق إلى آثار الحبيب ورسوم داره وقلمه وخطوطه ، وتتعهّد القلوب المرتبطة بالحب والودّ لزيارة قبور أحبّائها بباعث ذاتي من صميم الخلق..

ولا يخالف ذلك دين أساسه الفطرة أبداً ، لكنّما له ـ كما هو حال الإسلام ـ أن يحدّدها ويذكر آدابها ويمنع من محذوراتها الدّخيلة فيها وليس من سيرة الأديان الإلهية أن تمنع من ذلك ، ولو منعت الشّريعة زيارة القبور فإنما هو لمانع ومحذور يقتضي الحضر فيه.

وقد وردت زيارة القبور في سيرته صلى الله عليه وآله العطرة ، والوقوف عليها ، فضلاً عن مجرّد تشريعها ، وسأورد مثالاً من تلك الأحاديث..

فعن عائشة أن النبي صلى الله عليه وآله قال لها : أتاني جبرائيل فقال : إن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم ، قالت : قلت : كيف أقول لهم يا رسول الله؟ قال : قولي : السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، ورحم الله المستقدمين منّا والمستأخرين وإنّا إن شاء الله بكم لاحقون[1].

وروى ابن بريدة عن أبيه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر فكان قائلهم يقول : السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا

---

(١) راجع صحيح مسلم (٧/٤٤) ، وسنن النسائي (٤/٩١).

إن شاء الله للاحقون، أسأل الله لنا ولكم العاقبة[١].

وما تصنع في أقوام عميت بصائرهم فحرّموا حتّى زيارة قبر النبي المصطفى ﷺ والوقوف عليه، وحرموا النّاس من التشرّف بهذه النعمة الوافرة، وتراهم في هذه السنوات ومع شديد الأسف يزهدون في قصد المدينة بعد أداء مناسك الحج، وأعوذ بالله تعالى من هذا الجفاء بصاحب الدعوة ومنقذنا من الضلال والردى!!

وقديماً قد شيّد علماء أهل السنّة وأعلامهم زيارة قبره الشريف ونصّوا على فضلها بضرس قاطع، ومنهم الإمام الغزالي في كتاب الحج من إحياء العلوم..

قال: الجملة العاشرة في زيارة المدينة وآدابها، قال ﷺ: من زارني بعد وفاتي فكأنما زارني في حياتي، وقال ﷺ: من وجد سعة ولم يفد إليّ فقد جفاني.

إلى أن قال: فمن قصد زيارة المدينة فليصل على رسول الله ﷺ في طريقه كثيراً، فإذا وقع بصره على حيطان المدينة وأشجارها قال: اللهم هذا حرم رسولك فاجعله لي وقاية من النار، وأماناً من العذاب وسوء الحساب.. ثم ذكر آداب الزيارة وصيغتها، كما ذكر زيارة الشيخين وزيارة البقيع بمن فيها، كزيارة قبر عثمان وقبر الحسن بن علي..

ثم قال: ويصلي في مسجد فاطمة عليها السلام ويزور قبر إبراهيم ابن رسول الله ﷺ وقبر صفية عمة رسول الله ﷺ، فذلك كلّه بالبقيع[٢].

وقال القاضي عياض المالكي:

---

(١) راجع صحيح مسلم (٧/٤٥).

(٢) راجع إحياء الدين للغزالي (١/٣٠٥ـ٣٠٦).

وزيارة قبره ﷺ سنّة مجمع عليها، وفضيلة مرغب فيها.. ثم ذكر عدة من أحاديث الباب، فقال: قال إسحاق بن إبراهيم الفقيه: وممّا لم يزل من شأن من حج المزور بالمدينة والقصد إلى الصلاة في مسجد رسول الله ﷺ والتبرك برؤية روضه ومنبره وقبره ومجلسه وملامس يديه ومواطن قدميه، والعمود الذي استند إليه ومنزل جبرئيل بالوحي فيه عليه[١].

وقال الإمام القدوة ابن الحاج محمد بن محمد العبدري القيرواني المالكي بعد أن ذكر لزوم وكيفية زيارة الأنبياء والرسل عليهم السلام والتوسل بهم إلى الله تعالى وطلب الحوائج منهم.. قال: وأما في زيارة سيد الأولين والآخرين ﷺ فكل ما ذكر يزيد عليه أضعافه، أعني في الإنكسار والذل والمسكنة، لأنه الشافع المشفع الذي لا ترد شفاعته ولا يخيب من قصده، ولا من نزل بساحته، ولا من استعان أو استغاث به، إذ أنه ﷺ قطب دائرة الكمال وعروس المملكة..

إلى أن قال: فمن توسل به أو استغث به أو طلب حوائجه منه، فلا يرد ولا يخيب لما شهدت به المعاينة والآثار، ويحتاج إلى الأدب الكلّي في زيارته ﷺ، وقد قال علماؤنا رحمهم الله: إن الزائر يشعر بنفسه بأنه واقف بين يديه ﷺ كما هو في حياته[٢].

وقال أبو عبد الله محمد بن أحمد الحنبلي المقدسي:

إن ابن تيمية ذكر في مناسكه: باب زيارة قبر النبي ﷺ: إذا أشرف على مدينة النبي ﷺ قبل الحج أو بعده، فليقل ما تقدم.. إذا دخل استحب له أن يغتسل، نص عليه الإمام أحمد، فإذا دخل المسجد بدأ برجله اليمنى، وقال:

---

(١) راجع الشفاء (٢/١٩٤ ـ ١٩٧).

(٢) راجع المدخل لابن الحاج (١/٢٥٧).

بسم الله والصلاة على رسول الله، اللهم اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب رحمتك، ثم يأتي الروضة بين القبر والمنبر فيصلي بها ويدعو بما شاء..

ثم يأتي قبر النبي فيستقبل جدار القبر ولا يمسّه ولا يقبله، ويجعل القنديل الذي في القبلة عند القبر على رأسه ليكون قائماً وجاه النبي، ويقف متباعداً كما يقف لو ظهر في حباته بخشوع وسكون منتكس الرأس، غامض الطرف، متحضراً بقلبه جلالة موقفه ثم يقول:

السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، السلام عليك يا نبي الله وخيرته من خلقه، السلام عليك يا سيد المرسلين، وخاتم النبيين، وقائد غرّ المحجلين، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله، وأشهد أنك قد بلغت رسالات ربك، ونصحت لأمتك، ودعوت إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وعبدت الله حتى أتاك اليقين فجزاك الله أفضل ما جزى نبياً ورسولاً عن أمته اللهم آته الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً[1].

وقد صنّف الشيخ تقي الدين السبكي الشافعي كتاباً حافلاً في زيارة النبي الأعظم ﷺ وأسماه شفاء السقام في زيارة خير الأنام ردّاً على ابن تيمية، ومما قال فيه: لا حاجة إلى تتبع كلام الأصحاب في ذلك مع العلم بإجماعهم وإجماع سائر العلماء عليه، والحنفية قالوا إن زيارة قبر النبي ﷺ من أفضل المندوبات والمستحبات، بل تقرب من درجة الواجبات، وممن صرح بذلك منهم أبو منصور

---

(١) راجع الصارم المنكي في الرد على السبكي للحنبلي ص (٧)، الطبعة الأولى، القاهرة المطبعة الخيرية، ويظهر من هذه العبائر وكلمات ابن تيمية أنّ المحضور عنده قصد زيارة النبي ﷺ والسفر له، وليس أصل الزيارة، أو أنّه كان يقول باستحباب كلّ ذلك ثمّ عدل عنه مخالفة للرافضة!! كما هي السيرة المتّبعة عند بعض علماء القوم.

محمد بن مكرم الكرماني في مناسكه، وعبد الله بن محمود.

ثم قال: وكيف يتخيل في أحد من السلف نهيهم من زيارة المصطفى صلى الله عليه وآله وهم مجمعون على زيارة سائر الموتى، فالنبي صلى الله عليه وآله وسائر الأنبياء الذين ورد فيهم أنهم أحياء، كيف يقال فيهم هذه المقالة!! وحكى عن القاضي عياض وأبي زكريا النووي إجماع العلماء والمسلمين على استحباب الزيارة.

وقال أيضاً: وإذا استحب زيارة قبر غيره صلى الله عليه وآله فقبره أولى لما له من الحق ووجوب التعظيم، ثم إنه استدل على أن السفر إلى الزيارة قربة بالكتاب والسنة والإجماع.

وقال: الإجماع، إطباق السلف والخلف، فإن الناس لم يزالوا في كل عام إذا قضوا الحج يتوجهون إلى زيارته صلى الله عليه وآله، فمنهم من يفعل ذلك قبل الحج، هكذا شاهدناه وشاهده من قبلنا وحكاه العلماء عن الأعصار القديمة، ومن ادعى أن هذا الجمع العظيم مجمعون على الخطأ فهو المخطيء[1].

ولا زال قبره الشريف محلاً للقصد وشدّ الرّحال والوقوف والزيارة والإستغفار والدّعاء ونزول الرحمات الإلهية ومهبطاً للفيض الرحماني، ولا زالت سيرة المسلمين خلفاً عن سلف، وطالما قد أتت الوقائع المرويّة طبيعية على سجية النّاس المحبّة له صلى الله عليه وآله.

فقد روى سفيان بن عنبر عن العتبي - وكلاهما من مشايخ الشافعي وأساتذته - أنه قال: كنت جالساً عند قبر رسول الله صلى الله عليه وآله فجاء أعرابي فقال:

---

(١) راجع شفاء السقام في زيارة خير الأنام للسبكي ص (٦٦ و ٧٩ و ٨٣ و ٨٤ و ١٠٠) طبع دار الجيل.

السلام عليك يا رسول الله، سمعت الله يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾[١] وقد جئتك مستغفراً من ذنبي، مستشفعاً بك إلى ربي.. ثم بكى وأنشأ يقول:

يا خير من دفنت في القاع أعظمه	فطاب من طيبهن القاع والأكم
نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه	فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم استغفر وانصرف[٢].

ويروي أبو سعيد السمعاني عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أن أعرابياً جاء بعد ثلاثة أيام من دفن رسول الله صلى الله عليه وآله فرمى بنفسه على القبر الشريف وحثا من ترابه على رأسه وقال: يا رسول الله قلت فسمعنا قولك، ووعيت عن الله ما وعينا عنك، وكان فيما أنزله عليك: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾[٣] وقد ظلمت نفسي وجئتك تستغفر لي إلى ربي[٤].

وكلّ ذلك يدل على خصوصية منحها الله تعالى لحبيبه المصطفى صلى الله عليه وآله بعد أن توجّه بتاج النبوّة، وجعله باب أحكامه ورضوانه ورحمته، وعلينا أن نترقى من مشروعية زيارته ـ التي شكك فيها البعض ـ إلى تشييد فضلها، والمسلمون متفقون على ذلك قديماً وحديثاً ولا يضر بذلك الشّاذ.

---

(١) سورة النساء: الآية ٦٤.

(٢) راجع وفاء الوفا (١٣٦١/٤)، والدرر السنية لزيني دحلان ص (٢١).

(٣) سورة النساء: الآية ٦٤.

(٤) راجع الجوهر المنظم لابن حجر، وذكره السمهودي في وفاء الوفا (٦١٢/٢)، وزيني دحلان في الدرر السنية ص (٢١).

إذا كان هذا هو فضل زيارته صلى الله عليه وآله فأهل بيته الطّاهرين عليهم السلام إمتداده وبضعته وخلفاؤه على أمته، وحجج الله تعالى ـ بالنص الصّريح ـ على النّاس أجمعين، لهم ذلك الفضل من غير شكّ.

وفي قصد قبورهم المشرّفة والوقوف عليها والإستغفار والدّعاء عندها تشييد لمقام جدّهم النبي صلى الله عليه وآله لأنّهم عليهم السلام منه، وقد تواترت نصوص كثيرة عن طريق أهل البيت عليهم السلام بوصف الثواب الجزيل على زيارتهم والوقوف على عتباتهم المقدّسة، لما في ذلك من التعرّض لرحمة الله بقصد أوليائه وما فيه من صلة للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

وبما أنّ قضية الإمام الحسين عليه السلام هي قضيّتهم الأولى ومصرعه الأليم هو رمز ظلامتهم جميعاً فإنّهم حثّوا على زيارته بما لا مزيد عليه، وبيّنوا الآداب والمواقيت الخاصّة للتشرّف بعتبته المقدّسة، وسنعرض في هذه العُجالة نُتَفاً من تلك الأخبار الكثيرة.

كربلاء المقدسة

إنّ لعبير الشّهادة الفوّاح أريجٌ متألّق على مسرح الحدث الدّامي، ولدماء العترة الطّاهرة هيمنة على الأحاسيس والمشاعر، خصوصاً إذا كان في محيط ذلك المصرع الأبيّ الشّامخ، والبقعة التي شرّفها مولانا سيّد الشّهداء عليه السلام بمهجته المراقة، والتي راح يلتقطها جدّه الكريم صلى الله عليه وآله من طفّ كربلاء صاعداً بها إلى السّماء، والتي قد خشعت لها أظلّة العرش.

فمن كربلاء المقدّسة وشاطئ الطّف الإنطلاقة، ومنها سرّ البقاء والخلود،

وفيها حرارة الدّمعة، وفيها يكمن سرّ الحزن والأسى، وفي ذلك قال رسول الله ﷺ: إنّ لقتل الحسين حرارة في قلوب المؤمنين لا تبردُ أبداً[1].

ويُدرك المحبّون الزّائرون أنّ الوقوف على ذلك الصّرح المهيب له جذبة قدسيّة مخصوصة، وخطفة بهيّة كريمة، وانعكاسات حزينة على لُب القلب.. فهذا قبر سيّد الشّهداء عليه السلام الدّامي، مقطوع الوريد، محزوز الرّأس، مرضوض الصّدر، وهذا خنصره المقطوع.. وهذا رضيعه الصّغير الملطّخ بالدّماء على صدره، وهذا إبنه علي الأكبر عليه السلام المقطّع بضربات السيوف وطعنات الرّماح عند رجله.

فإذا وقفت على الرّخامة الحمراء فأنتَ ممّا يلي رأسه الشريف، أو لِنَقُل منحره الشّريف.. وإذا واجهت شبّاكه الفضّي رأيت الجلال والعظمة والكبرياء والشّمم بأجلى صورها وأروعها.. فإذا طفت ضريحه الأطهر قرأت عليه نقش الخلود مخطوطاً برائعة الجواهري:

فداءً لمثواك من مضجع	تنوّر بالأبلج الأروع
بأعبق من نفحات الجنا	نِ روحاً ومن مسكها أضوع
ورعياً ليومك يوم الطفوف	وسقياً لأرضك من مصرع
وحزناً عليك بحبس النّفوس	على نهجك النيّر المهيع
وصوناً لمجدك من أن يُذال	بما أنت تأباه من مُبدع
فيا أيّها الوتر في الخالدين	فذّاً إلى الآن لم يُشفع
ويا عضة الطّامحين العظام	للاهين عن غدهم قُنّع

---

(١) راجع مستدرك الوسائل (١٠/٣١٨).

تعاليتَ من مفزعٍ للحتوف — فبوركَ قبرك من مفزع
تلوذ الدّهور فمن سُجّدٍ — على جانبيهِ ومن رُكّع
شممت ثراك فهبّ النسيم — نسيمُ الكرامة من بلقع
وعفّرتُ خدّي بحيث استراح — خدٌّ تفرّى ولم يضرع
وحيثُ سنابك خيل الطّغاة — جالت عليه ولم يخشع
وخلتُ وقد طارت الذكريات — بروحي إلى عالمٍ أرفع
وطفتُ بقبرك طوف الخيال — بصومعة الملهم المُبدع
كأنّ يداً من وراء الضريح — حمراء مقطوعة الإصبع
تمدّ إلى عالم بالخنوع — والضيم ذي شرَق مُترع
لتبدل منه جديبَ الضمير — بآخرَ مُعشوشبٍ ممرع

وإذا ملتَ إلى جهة رجليه الشّريفتين فإنّك ماثلٌ مقابل أبطال تلك المعركة الكريمة، ومواجهٌ الضّريح الموحّد الأشرف الذي يضمّ عموم أهل بيته وأنصاره عليه‌السلام المستشهدين بين يديه. وفيه أخوته الأوفياء، وأولاده الغرّ، وبنو أخيه النّجباء، وبنو عمّه الأبرار، وأصحابه جميعاً.. فهم على مقربة منه.

قد جاوروه هاهنا بقبورهم — وقصورهم يوم الجزا متحاذيه

فإذا زُرتهم وانصرفت من جهة القبلة واجهت على ميمنتك قبر حبيب بن مظاهر الأسدي، فإنّه بوّابه المدفون إلى جواره منفرداً.. فإذا حاذيته فأنك بإزاء المنحر الدّامي، والبقعة التي قد باشر الشّمر بن ذي الجوشن ذبحه فيها!!

فإذا ما التفتّ عن ميمنتك وليس بالبعيد عن الحرم الشّريف فإنّك مواجهٌ قبلة الأحزان ومركز الأنين والحنين، حيث يقع التلّ الزّينبي، الذي وقفت عليه ربيبة الخدر زينب بنت أمير المؤمنين عليه‌السلام في ذلك اليوم الأسود، واستغاثت

بأخيها الصّريع عليه السلام ووجّهت له النّداء الأخير، فأجابها فؤاده المصاب بالسّهم المثلّث: أخيّ زينب!! كسرتي قلبي!! وزدتيني كرباً فوق كربي!! أخيّ عودي لإلى الخيمة واحفظي لي عيالي وأطفالي!!

فإذا تمثّلت ذلك في خاطرك واستحضرت أصوات النساء والأطفال وهو يستغيثون في يوم كثُر واترُه وقلّ ناصرُه، كان لابدّ لك من الوقوف على بيوت أهل البيت عليهم السلام الحزينة ومعسكرهم الخالي الكئيب.

فإذا مشيتَ قبلة التلّ قابلتَ مخيّم سيّد الشّهداء عليه السلام وبيوت الأرامل والثّكالى، التي أحرقتها عساكر بني أميّة واستباحتها ظهر العاشر من المحرّم..

وإذا ما لمحتَ بطرفك الحرم الحسيني الشّامخ لَمَعَت أمامك قبّة ذهبيّة شمّاء، تحاكي قبّة المولى عليه السلام، ولاح بين يديك حرمٌ مهيب يحاكي حرم المولى عليه السلام هيبةً ونوراً وجلالاً.. إلاّ أن منارتي حرم المولى عليه السلام من الذّهب، فإذا مشيتَ إلى ذلك الحرم المطهّر فقد وُفّقت للوقوف على قبر عميد عسكر المولى عليه السلام ومجمع عدده وقمر عشيرته وأخيه أبي الفضل العبّاس بن أمير المؤمنين عليه السلام.. فهو من اختار البقاء على نهر العلقمي، ليكون الأقرب إلى مشرعة الفرات، فهو ساقي عطاشى كربلاء إلى الأبد.

فإذا دخلتَ حرمه الأمنع وواجهت ضريحه اجتذبتك روحٌ عملاقة إلى صميم الجود والفضيلة، فأنت أمام باب الحوائج، وإذا طفتَ شبّاكه الفضّي البهي قرأت عليه نقش الشّموخ والفضيلة، وقد كُتب عليه:

ضريحك مفزعنا الأمنعُ	به كلّ نازلة تدفع
وبابك للخلق باب النجاة	تلوذ بعزّته الروّع
أبا الفضل والفضل ينمى إليك	فأنت لألطافه منبع

ويـا بطـل الطـفّ هـذا لـواك | علـى كـلّ شـاهقة يرفـع
وهـذا حسـامك أنشـودة | بهـا ينتشـي البطـل الأروع
وجـودك والسـهم قـدْ شـكّ فيـه | شـعارٌ لعليائـه يخشـع
وكفّـاك مقطوعتـا نعمـة | بهـا كـلّ مكرمـة تسـجع
ورأسـك يرفـع فـوق القنـا | هـو الشّـمس في أفقهـا تسـطع
تعاليـت مـن مـجمع للجـلال | غـوالي الجمـال بـه تجمـع
وقدّسـت مـن شـاهد للإخـاء | بـذكراه أدمعنـا تهمـع
ضـريحك كعبـة وفـد الـولاء | إليـه قوافلـه تسـرع
لشـيعتكم فيـه يعلـو الأنـين | لكـم وتسـيل بـه الأدمـع

فإذا انصرفت من زيارته فاخرج من حرمه ممّا يلي رجليه الشّريفتين لتقف على مقامي كفيّه الشريفتين، وإذا وقفت عليهما.. فإنّك لستَ بالبعيد عن نهر الفرات الذي قُتل كلّ هؤلاء السّادة المظلومون عليهم السلام بجواره، ولم يذوقوا منه قطرة، وهو مع هذا لا يزال يجري كما تجري الدّموع بجوار تلك القبور ليلاً ونهاراً.

فأيّ مأساة أكبر من هذه المأساة!! وأي رزيّة أعظم من هذه الرزيّة!! وأيّ مصيبة أعظم من هذه المصيبة!!

وعند وقوف الإنسان المؤمن على تلك المشاهد الشريفة يترقّى إلى أعظم التجلّيات، ويُؤهّل للكون في المحلّ الكريم القريب من الله تعالى، بالإعتبار والتفاعل والتناغم مع أوليائه الشّهداء، والتمازج بالعواطف العاقلة مع النبي الكريم صلى الله عليه وآله بمشاركته أحزانه وآهاته في أهل بيته عليهم السلام، وتكثير سواد الآل الكرام عليهم السلام الذي حاول الطّغاة تبديده وقمعه ومحوه، قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا

نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[1].

وبالوقوف على تلك الصّروح يوطّن الإنسان نفسه على العطاء والبذل والمواساة والإلتزام الدّيني، وبه يعرف قيمة الدّين والكتاب التي قيّمها مولانا سيّد الشّهداء عليه السلام بنفسه الطّاهرة ونفوس أهل بيته وأصحابه البررة، فيحافظ على أحكامه ويذبّ عن حياضه ويبذل الغالي والرّخيص في حمايته، ويجدّد عهده مع الله تعالى وأهل الله عليهم السلام بذلك..

فتتأتّى بالسّعي بينها مغانم كبرى لا تتأتى في غيرها، ولهذا فإنّ الأئمة من أهل البيت عليهم السلام لم يعذروا أحداً في ترك زيارته، وجاءت ألفاظهم توحي بالوجوب، بل تقطع به، وترجّحه على العبادات العظيمة الواجبة، وقد أفتى بعض الأعلام من المحدّثين بوجوب زيارته عليه السلام في العُمر مرّة، وحمل بقيّة الفقهاء تلك الأخبار على الإستحباب المؤكّد.

ثواب الزيارة

سنقف على نخبة من تلك الرّوايات التي نقلها المحدّثون والعلماء في مصنّفاتهم، كالشيخ المفيد رحمه الله في المزار وابن قولويه رحمه الله في كامل الزيارات والمرحوم المجلسي رحمه الله في بحار الأنوار، وقد روعي في إنتقائها الجامعيّة والشّموليّة، وإلاّ فهي بالغة حدّاً يصعب استقصاؤها أو استيفاؤها..

عن محمّد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: مُروا شيعتنا بزيارة الحسين بن علي عليه السلام، فإنّ زيارته تدفع الهدم والغرق والحرق وأكل السبع، وزيارته

---

(١) سورة التوبة: الآية ٣٢.

مفترضة على من أقر للحسين بالإمامة من الله عز وجل[1].

وعن محمّد بن مروان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: زوروا الحسين ولو كل سنة، فإن كل من أتاه عارفاً بحقه غير جاحد لم يكن له عوض غير الجنّة، ورزق رزقاً واسعاً، وأتاه الله بفرج عاجل، إن الله وكلّ بقبر الحسين أربعة آلاف ملك كلهم يبكونه ويشيّعون من زاره إلى أهله، فإن مرض عادوه، وإن مات حضروا جنازته بالإستغفار له والترحّم عليه[2].

وعن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث طويل، قلت: جعلت فداك ما تقول فيمن ترك زيارته وهو يقدر على ذلك؟

قال: أقول إنه قد عق رسول الله صلى الله عليه وآله وعقنا واستخف بأمر هوله، ومن زاره كان الله من وراء حوائجه، وكفى ما أهمه من أمر دنياه، وإنه ليجلب الرزق على العبد، ويخلف عليه ما أنفق، ويغفر له ذنوب خمسين سنة، ويرجع إلى أهله وما عليه وزر ولا خطيئة إلاّ وقد محيت من صحيفته..

فإن هلك في سفره نزلت الملائكة فغسلته، وفتح له باب إلى الجنّة يدخل عليها روحها حتى ينشر، وإن سلّم فتح له الباب الذي ينزل منه الرّزق، ويجعل له بكل درهم أنفقه عشرة آلاف درهم وذخر ذلك له، فإذا حشر قيل له: لك بكل درهم عشرة آلاف درهم، وإن الله نظر لك وذخرها لك عنده[3].

---

(١) راجع كامل الزيارات ص (١٥١)، وبحار الأنوار (١/٩٨)، ومن لا يحضره الفقيه (٥٨/٢)، وتهذيب الأحكام (٤٢/٦)، ووسائل الشيعة (٤١٣/١٤)، و الأمالي للصدوق ص (١٤٣)، وروضة الواعظين (١٩٤/١).

(٢) راجع كامل الزيارات ص (٨٦)، وبحار الأنوار (٢/٩٨).

(٣) راجع كامل الزيارات ص (١٢٨) ووسائل الشيعة (٤٨١/١٤) وبحار الأنوار (١٧٢/٤٥).

وعن عبد الرحمن بن كثير مولى أبي جعفر قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: لو أن أحدكم حج دهره ثم لم يزر الحسين بن علي عليه السلام لكان تاركاً حقاً من حقوق رسول الله صلى الله عليه وآله، لأنّ حقّ الحسين عليه السلام فريضة من الله، واجبة على كل مسلم(١).

وعن أبي بكر الحضرمي، عن أبي جعفر عليه السلام قال: سمعته يقول: من أراد أن يعلم أنه من أهل الجنّة فليعرض حبّنا على قلبه، فإن قبله فهو مؤمن، ومن كان لنا محبّاً فليرغب في زيارة قبر الحسين عليه السلام، فمن كان للحسين عليه السلام زوّاراً عرفناه بالحب لنا أهل البيت، وكان من أهل الجنّة، ومن لم يكن للحسين عليه السلام زوّاراً كان ناقص الإيمان(٢).

وعن أبان بن تغلب قال: قال لي جعفر بن محمّد عليه السلام: يا أبان متى عهدك بقبر الحسين عليه السلام؟

قلت: لا والله يا ابن رسول الله، ما لي به عهد منذ حين.

قال عليه السلام: سبحان ربّي العظيم وبحمده، وأنت من رؤساء الشّيعة، تترك الحسين لا تزوره، من زار الحسين كتب الله له بكل خطوة حسنة، ومحي عنه بكل خطوة سيئة، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر..

يا أبان بن تغلب لقد قتل الحسين صلوات الله عليه فهبط على قبره سبعون ألف ملك شعث غبر يبكون عليه وينوحون عليه إلى يوم القيامة(٣).

---

(١) راجع كامل الزيارات ص (١٢٢)، وبحار الأنوار (٩٨/٣)، وكتاب المزار ص (٢٧)، وتهذيب الأحكام (٦/٤٢)، ووسائل الشيعة (١٤/٤٢٨).

(٢) راجع كامل الزيارات ص (١٩٣)، وبحار الأنوار (٩٨/٤)، ووسائل الشيعة (١٤/٤٣٢).

(٣) راجع كامل الزيارات ص (٣٣١)، وبحار الأنوار (٩٨/٧)، ومستدرك الوسائل (١٠/٢٥٧).

وعن علي بن ميمون الصايغ، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: يا علي بلغني أن قوماً من شيعتنا يمرّ بأحدهم السّنة والسّنتان لا يزورون الحسين عليه السلام!!

قلت: جعلت فداك، إني أعرف أناساً كثيراً في هذه الصّفة.

قال: أما والله لحظّهم أخطأوا، وعن ثواب الله زاغوا، وعن جوار محمّد صلى الله عليه وآله تباعدوا.

قلت: جعلت فداك في كم الزيارة؟

قال: يا علي، إن قدرت أن تزوره في كل شهر فافعل.

قلت: لا أصل إلى ذلك لأنّي أعمل بيدي، وأمور النّاس بيدي ولا أقدر أن أغيب وجهي عن مكاني يوماً واحداً.

قال: أنت في عذر، ومن كان يعمل بيده، وإنّما عنيت من لا يعمل بيده ممّن إن خرج في كل جمعة هان ذلك عليه، أما إنّه ما له عند الله من عذر، ولا عند رسوله من عذر يوم القيامة.

قلت: فإن أخرج عنه رجلاً فيجوز ذلك؟

قال: نعم، وخروجه بنفسه أعظم أجراً وخيراً له عند ربّه، يراه ربّه ساهر الليل له تعب النّهار، ينظر الله إليه نظرة توجب له الفردوس الأعلى مع محمّد وأهل بيته، فتنافسوا في ذلك وكونوا من أهله[١].

وعن محمّد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام قال: لو يعلم الناس ما في زيارة الحسين من الفضل لماتوا شوقاً وتقطّعت أنفسهم عليه حسرات..

قلت: وما فيه؟

---

(١) راجع كامل الزيارات ص (٢٩٥)، وبحار الأنوار (١٢/٩٨).

قال: من أتاه تشوّقاً كتب الله له ألف حجّة متقبلة، وألف عمرة مبرورة، وأجر ألف شهيد، من شهداء بدر، وأجر ألف صائم، وثواب ألف صدقة مقبولة، وثواب ألف نسمة أريد بها وجه الله..

ولم يزل محفوظا سنته من كل آفة أهونها الشيطان، ووكل به ملك كريم يحفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوق رأسه ومن تحت قدمه.

فإن مات سنته حضرته ملائكة الرّحمة يحضرون غسله وأكفانه والإستغفار له ويشيعونه إلى قبره بالإستغفار له، ويفسح له في قبره مد بصره، ويؤمنه الله من ضغطة القبر، ومن منكر ونكير أن يروّعانه، ويفتح له باب إلى الجنّة، ويعطى كتابه بيمينه، ويعطى يوم القيامة نورا يضئ لنوره ما بين المشرق والمغرب.

وينادي مناد: هذا من زوّار قبر الحسين بن علي شوقاً إليه، فلا يبقى أحد في القيامة إلاّ تمنّى يومئذ أنّه كان من زوّار الحسين بن علي عليه السلام.

وعن موسى بن القاسم الحضرمي قال: قدم أبو عبد الله عليه السلام في أوّل ولاية أبي جعفر فنزل النّجف، فقال: يا موسى اذهب إلى الطّريق الأعظم، فقف على الطريق فانظر فإنّه سيجيئك رجل من ناحية القادسية، فإذا دنا منك فقل له: هاهنا رجل من ولد رسول الله صلى الله عليه وآله يدعوك فسيجيء معك.

قال: فذهبت حتّى قمت على الطّريق والحر شديد، فلم أزل قائماً حتى كدت أعصي وأنصرف وأدعه، إذ نظرت إلى شيء مقبل شبه رجل على بعير..

قال: فلم أزل أنظر إليه حتى دنا مني.

فقلت له: يا هذا هاهنا رجل من ولد رسول الله صلى الله عليه وآله يدعوك وقد وصفك لي.

قال: إذهب بنا إليه.

قال: فجئته حتى أناخ بعيره ناحية قريباً من الخيمة.

قال: فدعا به، فدخل الأعرابي إليه، فدنوت أنا فصرت على باب الخيمة أسمع الكلام ولا أراهما.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: من أين قدمت؟

قال: من أقصى اليمن.

قال: فأنت من موضع كذا وكذا؟

قال: نعم أنا من موضع كذا وكذا..

قال: فيما جئت هاهنا قال: جئت زائراً للحسين عليه السلام.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: فجئت من غير حاجة، ليس إلا الزّيارة؟

قال: جئت من غير حاجة، ليس إلاّ أن أصلّي عنده، وأزوره وأسلّم عليه، وأرجع إلى أهلي.

قال له أبو عبد الله عليه السلام: وما تروون في زيارته؟

قال: نروي في زيارته إنا نرى البركة في أنفسنا وأهالينا وأولادنا وأموالنا ومعايشنا وقضاء حوائجنا.

قال: فقال له أبو عبد الله عليه السلام: أفلا أزيدك من فضله فضلاً يا أخا اليمن؟

قال: زدني يا بن رسول الله..

قال: إن زيارة أبي عبد الله عليه السلام تعدل حجّة مقبولة متقبّلة زاكية مع رسول الله صلى الله عليه وآله.

فتعجّب من ذلك، فقال: إي والله، وحجّتين مبرورتين متقبّلتين زاكيتين مع رسول الله صلى الله عليه وآله فتعجب من ذلك..

فلم يزل أبو عبد الله عليه السلام يزيد حتى قال: ثلاثين حجّة مبرورة متقبّلة زاكية مع رسول الله صلى الله عليه وآله[١].

وقال العلامة المجلسي رحمه الله: وجدت بخط الشيخ محمّد بن على الجبعي نقلا من خط الشّهيد رحمه الله، نقلا من مصباح الشيخ أبي منصور، قال:

روي أنه دخل النّبي صلى الله عليه وآله يوماً إلى فاطمة عليها السلام فهيّأت له طعاماً من تمر وقرص وسمن، فاجتمعوا على الأكل هو وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام فلما أكلوا سجد رسول الله صلى الله عليه وآله وأطال سجوده ثم بكى ثم ضحك ثم جلس، وكان أجرأهم في الكلام علي عليه السلام..

فقال: يا رسول الله، رأينا منك اليوم ما لم نره قبل ذلك؟!

فقال صلى الله عليه وآله: إني لما أكلت معكم فرحت وسُررت بسلامتكم واجتماعكم فسجدت لله تعالى شكراً.

فهبط جبرئيل عليه السلام يقول: سجدت شكراً لفرحك بأهلك؟
فقلت: نعم.

فقال: ألا أخبرك بما يجري عليهم بعدك؟

فقلت: بلى يا أخي يا جبرئيل.

فقال: أما ابنتك فهي أول أهلك لحاقا بك، بعد أن تظلم ويؤخذ حقّها، وتمنع إرثها، ويظلم بعلها، ويكسر ضلعها..

وأما ابن عمك فيظلم ويمنع حقه ويقتل، وأما الحسن فانه يظلم ويمنع حقّه ويقتل بالسّم.

---

(١) راجع كامل الزّيارات ص (١٦٢)، وبحار الأنوار (٣٧/٩٨)، ومستدرك الوسائل (٢٦٩/١٠)، وثواب الأعمال ص (٩٣).

وأما الحسين فإنّه يُظلم، ويمنع حقه، وتقتل عترته وتطؤه الخيول، وينهب رحله وتسبى نساؤه وذراريه، ويدفن مرمّلاً بدمه ويدفنه الغرباء.

فبكيت وقلت: وهل يزوره أحد؟

قال: يزوره الغرباء..

قلت: فما لمن زاره من الثّواب؟

قال: يكتب له ثواب ألف حجة وألف عمرة كلها معك، فضحك[1].

وعن أبي الصباح الكناني قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن إلى جانبكم قبراً ما أتاه مكروب إلاّ نفس الله كربته وقضى حاجته، وإن عنده لأربعة آلاف ملك منذ قبض شعثاً غبراً يبكونه إلى يوم القيامة، فمن زاره شيّعوه، ومن مرض عادوه، ومن مات اتبعوا جنازته[2].

دعاء الصادق عليه السلام للزائرين

إنّ من أعظم الحوافز التي تدفع الشيعة والمحبّين لتجشّم العناء وتحمّل المصاعب بطيّ المسافات والصّبر على البلايا والمصاعب في طريق زيارة سيّد الشّهداء عليه السلام هي أدعية الأئمة الطّاهرين عليهم السلام لزوّار مرقده الشّريف، وابتهالاتهم إلى الله تعالى بطلب الرّحمة والمغفرة والرّضوان والتسديد لشيعتهم الذين زهدوا في أبواب الدّنيا وأعرضوا عن أهلها، وطرقوا أبواب الآخرة وهاجروا إلى الله تعالى، ووقفوا على باب الرّحمة وميزاب الخير مولانا أبي عبد الله الحسين عليه السلام.

---

(١) راجع بحار الأنوار (٩٨/٤٤).

(٢) راجع كامل الزيارات ص (١٦٧)، وبحار الأنوار (٩٨/٥٦).

ومن بين تلك المرويّات التي لها بالغ الأثر في البعث والدّفع لزيارة المولى عليه السلام هذه الرّواية الذّهبيّة الفريدة، وهي كفيلة بتعبأة القلوب وندبها إلى قصد زيارته عليه السلام وإن كانت لا تُنال إلاّ بشقّ الأنفس.

فعن معاوية بن وهب قال: دخلت علي أبي عبد الله عليه السلام وهو في مصلاّه، فجلست حتى قضى صلاته، فسمعته وهو يناجي ربه ويقول:

يا من خصّنا بالكرامة، ووعدنا الشّفاعة، وحملنا الرّسالة، وجعلنا ورثة الأنبياء، وختم بنا الأمم السّالفة، وخصّنا بالوصيّة وأعطانا علم ما مضى وعلم ما بقي، وجعل أفئدة من النّاس تهوي إلينا، إغفر لي ولإخواني وزوار قبر أبي الحسين بن علي (صلوات الله عليهما).

الذين أنفقوا أموالهم، وأشخصوا أبدانهم رغبة في برّنا، ورجاءً لما عندك في صلتنا، وسروراً أدخلوه على نبيّك محمّد صلى الله عليه وآله وإجابة منهم لأمرنا، وغيظاً أدخلوه على عدوّنا، أرادوا بذلك رضوانك.

فكافهم عنّا بالرّضوان، واكلأهم بالليل والنّهار، واخلف على أهاليهم وأولادهم، الذين خلفوا بأحسن الخلف، واصحبهم واكفهم شرّ كل جبّار عنيد، وكلّ ضعيف من خلقك أو شديد، وشرّ شياطين الإنس والجن، وأعطهم أفضل ما أملوا منك في غربتهم عن أوطانهم، وما آثرونا على أبنائهم وأهاليهم وقراباتهم.

اللهم إن أعداءنا عابوا عليهم خروجهم فلم ينههم ذلك عن النّهوض والشّخوص إلينا خلافاً عليهم، فارحم تلك الوجوه التي غيّرتها الشّمس، وارحم تلك الخدود التي تقلّب على قبر أبي عبد الله عليه السلام..

وارحم تلك الأعين التي جرت دموعها رحمةً لنا، وارحم تلك القلوب

التي جزعت واحترقت لنا، وارحم تلك الصرخة التي كانت لنا، اللهم إني أستودعك تلك الأنفس، وتلك الأبدان، حتى ترويهم من الحوض يوم العطش.

فما زال صلوات الله عليه يدعو بهذا الدّعاء وهو ساجد، فلما انصرف قلت له: جعلت فداك، لو أن هذا الذي سمعته منك كان لمن لا يعرف الله، لظننت أن النار لا تطعم منه شيئاً أبداً، والله لقد تمنيت أني كنت زرته ولم أحج.

فقال لي: ما أقربك منه فما الذي يمنعك من زيارته؟ يا معاوية لا تدع ذلك.

قلت: جعلت فداك، فلم أدر أن الأمر يبلغ هذا كله.

فقال: يا معاوية، ومن يدعو لزواره في السّماء أكثر ممّن يدعو لهم في الأرض، لا تدعه لخوف من أحد، فمن تركه لخوف، رأى من الحسرة ما يتمنى أن قبره كان بيده، أما تحب أن يرى الله شخصك وسوادك فيمن يدعو له رسول الله صلى الله عليه وآله؟..

أما تحب أن تكون غداً ممن تصافحه الملائكة، أما تحب أن تكون غداً فيمن يأتي وليس عليه ذنب فيتبع به؟

أما تحب أن تكون غداً فيمن يصافح رسول الله صلى الله عليه وآله[1].

كلّ هذا الثواب !!

يتشابه الأمر على البعض فيخلط بين الأمور المتباينة، ويشتبه البعض الآخر في درك موازين الثواب والعقاب عند الله تعالى، ولا تنكشف أسراره بالقياس العقلي المحض، فالطّريق لثبوت الثّواب أو العقاب على أيّ عمل هو النّقل

---

(١) راجع بحار الأنوار (٨/٩٨)، ووسائل الشيعة (٤١١/١٤)، ومستدرك الوسائل (٢٣١/١٠).

الصحيح، ويتعبّد المؤمن بما دلّت النّصوص الصحيحة على محبوبيّته عند المولى عزّ وجل، وما ثبت بنصّ الكتاب أو قول النّبي الكريم صلى الله عليه وآله أو أهل بيته الحجج المعصومين عليهم السلام.

والأمر المثير للسؤال هو: كيف تكون عبادة البكاء على سيّد الشّهداء عليه السلام بهذا الفضل الكبير والثواب الجزيل!! أم كيف يكون أمرٌ مستحب ـ كالزّيارة مثلاً ـ أفضل من واجب ركن وهو الحج!! فإنّه أمرٌ يحتاج إلى شرح وتقريب..

والتّفاضل بين العبادات يأبى القياس أصلاً، ولا يُبلغ إلاّ بالدّليل الواضح من الشّرع، أ لستَ ترى أنّ السّلام مستحبّ والردّ عليه واجب!! وقد يفهم الإنسان بعقله القاصر العاثر أنّ الإبتداء بالسّلام أهم من الردّ عليه، وبهذا يستحق الإبتداء الوجوب!! وكذا الحال في كثير من الأحكام، ففي أحكام الوضوء أمر الله تعالى بمسح ظاهر القدم، وقد يتصوّر الإنسان أنّ الأولى مسح الباطن منها، لأنّه الجزء الذي يواجه الأرض وهو الذي يحتاج إلى التنظيف عادة، ولا شكّ أنّه مطلوبٌ لكمال الصّلاة!! لكنّ التشريع أتى بخلاف ذلك كلّه.

على الإنسان أن يعرف أنّ هناك فرقاً بين موازيه الخاصة التي يستنتجها، وبين موازين الشّرع الأقدس، فموازينه قاصرة عاثرة، وموازين الدّين ناظرة إلى المنافع والمفاسد بحسب واقعها الثّبوتي في علم الله تعالى، وسواء إهتدينا إلى غاياتها وأبعادها أم لم نهتدِ، فإنّ ذلك لا يضرّ بمحبوبيّتها أو مبغوضيّتها عنده، وكما أنّ هناك فرقاً بين كثرة الثواب وبين الأفضلية وغيرها من الموازين، وفي مقامنا فإنّ التفضيل ليس من حيثيّة الوجوب والندب، بل هو من حيثيّة مقدار الثواب عند الله سبحانه، وهنا يتجلّى كرمه وجوده سبحانه وتعالى على عباده المتطوّعين بالعبادات.

ولا ينكر العقلاء إذا جاد الكريم على تطوّع أكثر من جوده على فرض، فقد يُسدي غريب خدمة تطوّعيّة إليك، فيكون أثرها أضعاف ما يسديه إليك ولدك الذي يجب عليه خدمتك وإمتثال أمرك، فيستحق الغريب أن تغدق عليه من وابل كرمك ما أمكنك حتّى ترضيه!!

ولقد وعد الله تعالى على بعض العبادات التطوّعية أضعاف ما وعد على بعض الواجبات، وأمثلة ذلك غير عزيزة في الحديث الشريف بطرق الشّيعة أو السنّة على حدّ سواء، كما في باب قضاء حوائج الإخوان التي يفوق ثوابُها ثوابَ أهم الواجبات، وهي مواردٌ تخالف القياس العقلي المحض..

فقد روي في البحار عنهم عليهم السلام: من قضى لمؤمن حاجة كان أفضل من صيامه و اعتكافه في المسجد الحرام[1].

وفي أمالي الشيخ عن الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: من قضى لأخيه المؤمن حاجة كان كمن عبد الله دهراً[2].

وفي ثواب الأعمال، عن إسحاق بن عمار، قال أبو عبد الله عليه السلام: يا إسحاق من طاف بهذا البيت طوافاً واحداً كتب الله له ألف حسنة، ومحا عنه ألف سيئة، ورفع له ألف درجة، وغرس له ألف شجرة في الجنة، وكتب له ثواب عتق ألف نسمة، حتى إذا صار إلى الملتزم فتح الله له ثمانية أبواب الجنة، يقال له ادخل من أيّها شئت!!

فقلت: جعلت فداك، هذا كله لمن طاف!!

قال: نعم، أ فلا أخبرك بما هو أفضل من هذا!!

---

(١) راجع بحار الأنوار (٧١/٢٣٢).

(٢) راجع بحار الأنوار (٧١/٣٠٢).

قلت: بلى.

قال: من قضى لأخيه المؤمن حاجة كتب الله له طوافاً وطوافاً حتى بلغ عشراً[١].

وقد يحسب الإنسان بقصوره أنّ الحجّ والصّلاة أفضل وأكثر ثواباً من كلّ عمل مهما بلغ، وقد يظنّ أنّها هي التي تثقّل موازينه يوم القيامة بحيث لا تضاهيها عبادة، كما اشتهر عن رسول الله ﷺ قوله: لا يثقّل الميزان شيء كالصّلاة عليّ وعلى أهل بيتي، ومسلّم ـ عندنا ـ عدم قبول الأعمال إلاّ بولاية أهل البيت عليهم السلام..

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ❖ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾[٢].

والكلام في العقوبات مثل الكلام في المثوبات تماماً، إذ قد لا يُعقل أن تكون الغيبة أشدّ من الزّنا، والحال أن النص الشرعي ورد به!! وقد لا يعقل أن عقوق الوالدين مساوغ للشرك بالله العظيم، والحال أن النص الشرعي ورد به!!

ولقد دلّت مضامين الأخبار الكثيرة الصّادقة على ترتّب المثوبات الجليلة على البكاء، والإبكاء، والتباكي، وإنشاد الشعر والمراثي، واستماعها، وإقامة مجالس العزاء، والحضور فيها، والزيارة.. وهذه الأخبار بينها الصّحاح والموثّقات والمتواترة إجمالاً، ولا يتطرّق لها الإنكار بحال من الأحوال، ولا يمكن

---

(١) راجع بحار الأنوار (٩٦/٣٠٢).

(٢) سورة الأعراف: الآيتان ٨ و ٩.

التردّد في صدورها عن النبي الكريم صلى الله عليه وآله وأهل بيته الطّاهرين عليهم السلام.

وهي عبادات مستحبّة في نفسها من جهة، ومن جهة أخرى هي داخلة تحت بعض العناوين الواجبة المهمّة، فلا شكّ أن العبادات المذكورة داخلة تحت عنوان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الواجبين، والقيام بها على وجهها الأكمل من أجلى صور إقامة المعروف وإنكار المنكر، وفيها تشييد الجهاد في سبيل الله تعالى والحرب على أعدائه والتقبيح لسيرتهم.

وكان أمر الأئمة الطاهرين عليهم السلام بهذه العبادات بغرض الذّوبان بالقضيّة الحسينيّة وحمل أهدافها بالتفاعل معها والتناغم مع مبادئها، وإحياء أمرهم برفع هذا الشعار المقدّس في وجوه الظّالمين، الذين أعدّوا عدّتهم في كلّ جيل لقمع آثاره وإماتة سننه، وقد أبى الله تعالى ذلك.

وقد روي في أكثر من مصدر أنّ المتوكّل أمر بتحرير قبر الحسين عليه السلام وأصحابه، وكَرْبِ موضعه، وإجراء الماء عليه، وقتل زوّاره، وسلّط قوماً من اليهود حتى تولّوا ذلك، إلى أن قُتل المتوكّل، فأحسن المنتصر سيرته، وأعاد التربة في أيّامه.

ولقد كان الإمام أبو الأحرار عليه السلام سوطاً يؤرّق قرارَ الظالمين، وشوكة في عيون الطغاة والجبارين، وسيبقى كذلك، وفي تعرّض الشيعة لذكراه محقٌّ للظلم وإقامة للدين والعدل والحق والصّدق.

ولابدّ لنا من الإشارة أخيراً إلى أنّ ترتّب هذه المثوبات والآثار في كلّ ابواب الشّعائر والعبادات الحسينية مشروطٌ بمعرفتهم عليهم السلام واتّباعهم في أعمالهم، والتزام هديهم، وهذه شرائط منصوصة في روايات أخرى لقبول الأعمال، فلا يلزم من ذلك محذور إبطال التكاليف حينئذٍ.

هذا، ونسأل الله العليّ القدير أن يمنّ علينا بدوام النّعمة الحسينية الكبرى وأن يرفع من علوّ هذا الشّعار المقدّس في بلادنا وفي سائر بلاد الإسلام، وفي غيرها أيضاً، فإنّها سبيل الدّعوة إلى الله عزّ وجل والتعريف بدين الإسلام لشعوب الإنسانية، وأن ينعم علينا بالأمن والخير ببركة هذه المجالس، وأن يوفّقنا لخدمة أهل البيت عليهم السلام ورفع راية الدّين في سماء المعمورة، بمحمّد نبيّنا وآله الطيبين الطاهرين، صلوات الله عليهم أجمعين.

والحمد لله ربّ العالمين

محمّد جُمعة بادي

الكويت

almofeed@hotmail.com



كلمة أخيرة

من واجبي أخيراً أن أتقدّم بالشّكر الوافر الجزيل إلى أخَوَي العزيزَين.. سماحة الحجّة العلاّمة **الشّيخ أسامة المزيدي** على حبس وقته الثّمين في مراجعة وتصحيح كتابي هذا.. وكذلك إلى الفاضل **الحاج حازم المطوّع** على تفرّغه لمراجعة الكتاب وتدوين ملاحظاته عليه، وأسأل الله تعالى أن يدخلهما في كلّ خير أدخل فيه محمّداً وآل محمّد صلى الله عليه وآله، وأن يخرجهما من كلّ شرّ أخرج منه محمّداً وآل محمّد صلى الله عليه وآله، وأن يجعلني وإيّاهم وجهاء بالحسين عليه السلام في الدّنيا والآخرة.



الفهرس

الفصل الثاني : سيد الشهداء

الفصل الثالث : مأتم الحب والوداد

الفصل الرابع : السنة النبوية

الفصل الخامس : سيرة أهل البيت




الدمعة الساكبة
بحث في المأساة والبكاء الحسيني